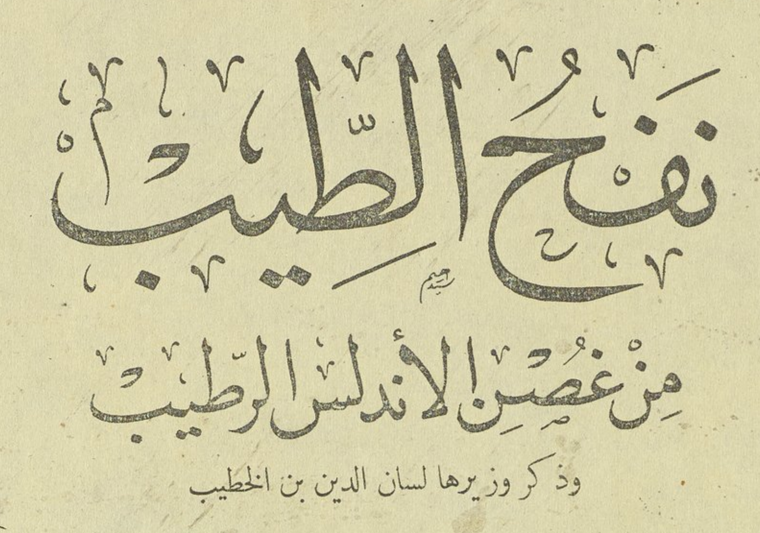








وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقّرِىّ التِّلِمْسَانِىّ

المتوفى فى عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محيى الدين عبد الحميد

الجزء الثالث

الطبعة الأولى

فى عام ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى

لصاحبها : الحاج مصطفى محمد

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسل الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

أبو عبد الله محمد بن طاهر التدميرى القيسى (الشهيد)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر القَيْسى التُّدْمِيرِى ، ويعرف بالشهيد .

كان عظيم القدر جداً بالأندلس ، بعيد الأثر فى الخير والصلاح والعلم والنسك والانقطاع إلى الله تعالى ، وكان من وجوه أهل كورة تُدْمِيرَ ذوى البيوت الرفيعة ، وبَرَعَ بخصاله المحمودة ، فكان فى نفسه فقيهاً ، عالماً ، زاهداً ، خيرا ، ناسكا ، متبتلا ، نشأ على الاستقامة والصلاح والاهتداء والدَّعَة ، وطلب العلم فى حِدْثان سنه ، ورحل إلى قُرْطُبة فروَى الحديث وتفقه وناظر ، وأخذ بحظٍّ وافر من علم المسألة والجواب ، وكان أكثر علمه وعمله الورع ، والتشدد فيه ، والتحفظ بدينه ومكسبه ، ورسخ فى علم السنة ، ثم ارتحل إلى المشرق ، فمر بمصر حاجا ، فأقام بالحرمين ثمانية أعوام يتعيش فيها من عمل يده بالنسخ ، ثم سار إلى العراق ، فلقى أبا بكر الأبهرى وأخذ عنه ، وأكثر من لقاء الصالحين وأهل العلم ، ولبس الصوف ، وقنع ، وتورع جداً ، وأعرض عن الشهوات ، وكان إذا سئم من النسخ الذى جَعَل قوتَه منه آجر نفسه فى الخدمة رياضَةً لها ، فأصبح عابداً متقشفاً مُنِيباً مُخْبتاً عالماً عاملا منقطع القرين[١] ، قد جرت منه دعوات مُجابة ، وحفظت له كرامات ظاهرة ، ثم عاد إلى بلده تُدْمِيرَ سنة ست أو سبع وسبعين وثلثمائة ، وبها أبوه أبو الحسام طاهر حياً ، فنزل خارج مدينة مُرْسِيَة تورُّعاً عن سُكناها وعن الصلاة فى جامعها ، فاتخذ له بيتاً[٢] سقفُه من حطب السِّدر يأوى إليه ، واعتمر جُنَينة بيده يقتات منها ، وصار يغزو مع المنصور محمد بن أبى عامر ، ثم تحول من قريته بعد عامين إلى الثغر ، وواصل الرِّباط ، ونزل مدينة طَلَبيرَة ، وكان يدخل منها فى السرايا إلى بلد العَدُو فيغزو ويتقوت من سُهْمَانه ، ويُعَوِّل على فرس له ارتبطه لذلك ، وكان له بأس وشدة وشجاعة وثقافة ، يحدث عنه فيها بحكايات عجيبة ، إلى أن استشهد مقبلا

(١) المخبت ـ بزنة المكرم ـ المطمئن المتواضع ، والقرين : النظير والمثيل .

(٢) فى ا « واتخذ له بيتاً سقفه من حطب الشعراء » والسدر ـ بالكسر ـ شجر النبق ، والشعراء : شجرة ليس لها ورق ، ولها هدب ، والإبل تحرص عليها أشد الحرص

غير مدبر ، سنة ٣٧٩ ، أوفى التى قبلها ، عن اثنين وأربعين سنة ، وأبوه حى ، رحم الله تعالى الجميع !

أبو عبد الله محمد ابن عبد الجليل القيجاطى

ومنهم أبو عبد الله القَيْجَاطى محمد بن عبد الجليل بن عبد الله بن جَهْوَر .

مولده سنة ٥٩٠ بقَيْجَاطة[1] ، وكتب عنه الحافظ المنذرى ، ومن شعره قوله :

إذا كنتَ تَهْوَى من نَأَتْ عنك دارُهُ ... فحسبُكَ ما تَلْقَى من الشوق والبُعْدِ

فياوَيْحَ صَبٍّ قد تَضَرَّم نارُهُ ... ووَاحَرَّ قلبٍ ذابَ من شدة الوَجْدِ

أبو عبد الله محمد ابن عبد الرحيم الغرناطى القيسى

ومنهم أبو عبد الله ـ ويقال : أبو حامد ـ محمد بن عبد الرحيم ، المـازِنىُّ ، القَيْسى ، الغَرْناطى .

ولد سنة ٤٧٣ ، ودخل الإسكندرية[2] سنة ٥٠٨ ، وسمع بها من أبى عبد الله الرازى ، وبمصر من أبى صادق مرشد بن يحيي المدينى وأبى الحسن الفراء الموصلى وأبى عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوى وغيرهم ، وحدث بدمشق ، وسمع أيضاً بها و ببغداد ، وقدمها سنة ٥٥٦ ، ودخل خراسان ، وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى الشام ، وأقام بحلب سنين ، وسكن دمشق ، وكان يذكر أنه رأى عجائب فى بلاد شتى ، ونسبه بعض الناس بسبب ذلك إلى مالا يليق ، وصنف فى ذلك كتاباً سماه « تحفة الألباب » وكان حافظاً عالماً أديبا ، وتكلم فيه الحافظ ابن عساكر ، وزَنَّه[3] بالكذب ، وقال ابن النجار : ما علمته إلا أميناً .

ومن شعره قوله :

تكتب العلم وتلقى فى سَفَطْ ... ثم لاتحفظ؟ لاتُفْلِحُ قَطّْ

إنما يُفْلح مَنْ يحفظه ... بعد فهم وتوقٍّ من غلط

---

(١) قيجاطة ـ ويقال قيشاطة ـ مدينة بالأندلس من عمل جيان ، ولها ذكر فى حروب عبد الله المعروف بالبياسى أحد بنى عبد المؤمن ، ذكر بعض خبرها فى الروض

(٢) فى ا « وحل الإسكندرية »

(٣) زنه : اتهمه

وقوله :

العلم فى القلب ليس العلم فى الكتب   فلا تكن مُغْــرَمًا باللهو واللعب
فاحفظه وافهمه واعمــل كى تفوز به   فالعلم لا يجتـــنى إلا مع التعب

توفى بدمشق فى صفر سنة ٥٦٥ .

أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشنى القرطبى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ، القرطبى ، من ذرية أبى ثعلبة الُخْشَنى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رحل قبل الأربعين ومائتين ، فحج ، وسمع بالبصرة من محمد بن بشار وأبى موسى الزَّمِن ونَصْر بن على الْجَهْضَمى ، ولقى أبا حاتم السجستانى والعباس ابن الفرج الرياشى ، وسمع ببغداد من أبى عُبَيد القاسم بن سلام ، و بمكة من محمد بن يحيى العدنى ، و بمصر من سلمة بن شَبيب صاحب عبد الرزّاق والبَرْق وغيرهما ، وأدخَلَ الأندلس علما كثيراً من الحديث واللغة والشعر ، وكان فصيحاً جزْل المنطق ، صارما ، ألوفاً[1] ، منقبضاً عن السلطان ، أراده على القضاء فأبى ، وقال : إباية إشفاق لا إباية عصيان ، فأعفاه ، وكان ثقة مأموناً ، وتوفى فى رمضان سنة ٢٨٦ عن ثمان وستين سنة ، رحمه الله تعالى ! .

أبو عبد الله محمد بن عبد الملك القرطبى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج ، القرطبى .

سمع من محمد بن وضاح وأكثر عنه ، وأخذ عن محمد الُخشَنى وقاسم بن أصبغ و إبراهيم بن قاسم بن هلال ، ورحل سنة ٢٧٤[2] ، فسمع بمصر من المطلب بن شعيب والمقدام بن داود الرعَيْنى ، وأدرك بالعراق إسماعيل القاضى وعبد الله بن أحمد بن حنبل .

قال الحميدى : حدث بالمغرب و بالمشرق[3] ، وصنف السنن ، وممن روى عنه

---

(١) فى ا « أنوفا »
(٢) فى نسخة عند ا « سنة ٢٦٤ »
(٣) فى ا « حدث بالمشرق والمغرب »

خالد بن سعيد(١) ، وقال لنا أبو محمد بن حزم : مُصَنَّف ابن أيمن مصنف رفيع احتوى من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس فى كثير من المصنفات ، وتوفى فى ذى القعدة سنة ٣٣٠ ، بقرطبة ، رحمه الله تعالى !.

أبو عبد الله محمد ابن عبد الملك ابن ضيفون

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون [بن مروان] ، اللخمى ، الرصافى ، القرطبى ، الحداد .

سمع بقرطبة من عبد الله بن يونس وقاسم بن أصبغ ، وحج سنة ٣٣٩ سنة ردِّ القرامطة الحجرَ الأسود إلى مكانه ، وسمع بمكة من ابن الأعرابى ، و بمصر من ابن الورد(٢) وأبى على بن السكن وعبد الكريم النسائى [وغيرهم] وسمع بأطرابلس والقيروان من جماعة ، وكان رجلا صالحا ، عدلا ، حدث وكتب عنه الناس ، وعَلَتْ سنه ، وتوفى بشوال سنة ٣٩٤ ، وولد فيما أظن سنة ٣٠٢ ، وكانت وفاته بقُرْطُبة ، وقد اضطرب فى أشياء قرئت عليه ، وممن أخذ عنه الحافظ أبو عمر بن عبد البر ، رحم الله تعالى الجميع !.

أبو عبد الله محمد ابن عبد الملك الخزرجى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك ، الخزرجى ، السعدى ، القُرْطُبى . روى عن أبى الحسن على بن هشام ، وروى عنه أبو القاسم بن بَشْكُوَال وقدم مصر وحدث بها ، وممن سمع منه بهاء بن وردان وأبو الرضا القَيْسَرَانى فى آخرين ، واستوطن مصر ، وتوفى سنة ٥٨٨ .

أبو بكر محمد ابن عبد الملك (ابن السراج) النحوى

ومنهم أبو بكر بن السراج ، النحوى ، بتشديد الراء .

وهو محمد بن عبد الملك بن محمد بن السَّرَّاج الشَّنْتَمَرِى ، أحد أئمة العربية المبرزين فيها ، ويكفيه فخرا أنه أستاذ أبى محمد عبد الله بن برى المصرى اللغوى النحوى ، وحدث عن أبى القاسم عبد الرحمن(٣) بن محمد النفطى ، وقرأ

---

(١) فى ا ، ب « خالد بن سعد » (٢) فى ا « من أبى الورد »

(٣) فى طبقات النحاة للسيوطى « عبد الرحيم بن محمد »

العربية بالأندلس على ابن أبى العافية[١] وابن الأخضر ، وقدم مصر سنة ٥١٥ ، وأقام بها ، وأقرأ الناسَ العربية ، ثم انتقل إلى اليمن ، وروى عنه أبو حفص عمر ابن إسماعيل وأبو الحسن على والد الرشيد العطار ، وله تواليف منها « تنبيه الألباب ، فى فضل الإعراب »[٢] وكتاب فى العروض ، وكتاب « مختصر العمدة » لابن رشيق وتنبيه أغلاطه .

قال السِّلفى : كان من أهل الفضل الوافر ، والصلاح الظاهر ، وكانت له حلقة فى جامع مصر لإقراء النحو ، وكثيرا ما كان يحضر عندى ـ رحمه الله تعالى ! ـ مدة مقامى بالفسطاط ، توفى بمصر سنة ٥٤٩ ، وقيل : سنة خمس وأربعين ، وقيل: خمسين وخمسمائة ، برمضان ، والأول أثبت .

أبو عبد الله محمد ابن عبد الله العنسى الغرناطى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن على بن سعيد [العَنْسى]، ويكنى أيضا أبا القاسم ، الغَرْناطى .

سمع من الجِلَّة بمصر والإسكندرية ودمشق و بغداد : منهم الحرانى أبو عبد الله وأبو محمد عبد الصمد بن داود بدمشق ، وكتب الحديث [وعنى] بالرواية أتم عناية ، وفقد بأصبهان حين استولى عليها التتار قبل الثلاثين وستمائة .

أبو عبد الله محمد ابن عبد الله ابن الدفاع

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الدفاع ، بالدال المهملة ، وقيل : بالراء. قرطبى ، سمع عبد الملك بن حبيب ، ورحل فسمع بمصر من الحارث بن مسكين وغيره ، وكان زاهدا فاضلا ، وتوفى سنة ٢٨١ ، رحمه الله تعالى ! .

أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعافرى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عابد ، المَعافرى ، القرطبى. ولد بقرطبة سنة ٣٥٨ ، ودخل مصر فسمع من أبى بكر بن المهندس وأبى بكر البصرى ، وروَى عن أبى عبد الله بن مفرج[٣] وأبى محمد الأصيلى وجماعة ،

---

(١) كذا فى ب وهو موافق لما فى بغية الوعاة للسيوطى، وفى ا «ابن أبى العاقبة»

(٢) فى ا « فى فضائل الأعراب »

(٣) فى البغية « بن مفرح » بالحاء مهملة

ولقى الشيخ أبا محمد بن أبى زيد فى رحلته سنة ٣٨١ فسمع منه رسالته فى الفقه وغيرها ، وحج من عامه ، ثم عاد من مصر إلى المغرب سنة ٣٨٢ ، وكان معتنيا بالأخبار والآثار ، ثقة فيما رواه ، وعنى به ، خيرا ، فاضلا ، دينا ، متواضعا ، متصاونا ، مقبلا على ما يعنيه ، صاحب حظ من الفقه ، وبَصَرٍ بالمسائل ، ودعى إلى الشورى بقرطبة فأبى ، ومات سنة ٤٣٩ .

وعابد جده بالباء الموحدة ، رحم الله تعالى الجميع !.

أبو عبد الله محمد ابن عبد الله البلنسى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجد[١]، الأنصارى البَلَنسى .

أخذ القراءات عن جماعة من أهل بلده ، وخرج حاجا سنة ٥٧١[٢] ، فجاور بمكة ، وسمع بها وبالإسكندرية من السِّلَفى ، وعاد إلى بلده سنة ٥٩٦[٣] ، وحدث وكان من أهل الصلاح والفضل والورع ، كثير البر ، ومفاداة الأسرى ، ويحترف بالتجارة ، ومولده بعد سنة ٥٢٠[٤] ، ومات سنة ٥٩٨ بمرسية ، رحمه الله تعالى !.

أبو الوليد محمد ابن عبد الله (ابن خيرة) القرطبى

ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خِيَرَةَ ، القرطبى ، المالكى ، الحافظ .

ولد سنة ٤٧٩[٥] ، وأخذ الفقه عن القاضى أبى الوليد بن رشد ، والحديث عن ابن عتاب ، وروى الموطأ عن أبى بحر سفيان بن العاص بن سفيان ، وأخذ الأدب عن [مولانا] أبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج الأموى ، وعن مالك ابن عبد الله العُتْبى ، وخرج من قرْطُبَة فى الفتنة بعد ما درس بها وانتفع الناس به فى فروع الفقه وأصوله ، وأقام بالإسكندرية خوفا من بنى عبد المؤمن بن على ، ثم قال : كأنى والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية ، ثم سافر إلى مصر بعد

(١) فى ا « بن هاجر » (٢) كذا فى ا ، وفى ب « سنة ٥٥٦ »
(٣) فى ب « سنة ٥٧١ » (٤) فى ب وبغية الوعاة « سنة ٥٣٠ »
(٥) فى ا « سنة ٤٢٩ » وفى البغية « سنة ٤٨٩ » وفى نسخة « ٤٣٩ »

ما ووى عنه السِّلفى ، وأقام بها مدة ، ثم قال : والله ما مصر والإسكندرية بمتباعدين ، ثم سافر إلى الصعيد ، وحدث فى قُوصَ بالموطأ ، ثم قال : والله ما يصلون إلى مصر و يتأخرون عن هذه البلاد ، فمضى إلى مكة ، وأقام بها ، ثم قال : وتصل إلى هذه البلاد ولا تحج ؟ ما أنا إلا هربت منه إليه ! ثم دخل اليمن ، فلما رآها قال : هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن ، فتوجه إلى الهند ، فأدركته وفاته بها سنة ٥٥١ ، وقيل : بل مات بزَبِيد من مدن اليمن ، وكان من جِلة العلماء ، الحفاظ [مُتْقنا] متفننا فى المعارف كلها جامعا لها ، كثير الرواية ، واسع المعرفة ، حافل الأدب ، من كبار فقهاء المالكية ، يتصرف فى علوم شتى حافظا للآداب ، عارفا بشعراء الأندلس ، وكان علمه أوفر من منطقه ، ولم يرزق فصاحة ولا حس إيراد .

قال ابن نقطة : خِيَرَة بكسر الخاء المعجمة وفتح الياء المنقوطة من تحتها باثنتين .

أبو عبدالله محمد ابن عبد الله السلمى المرسى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى الفضل ، السلمى ، المُرْسِى .

قال ابن النجار : ولد بمُرْسِية سنة ٥٧٠ ، وقال غيره : فى التى قبلها ، وخرج من بلاد المغرب سنة ٦٠٧ ، ودخل مصر ، وسار إلى الحجاز ، ودخل مع قافلة الحجاج إلى بغداد ، وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والأصلين بالنِّظامية ، ثم سافر إلى خراسان ، وسمع بنيسابور وهَرَاة ومَرْوَ ، وعاد إلى بلاد بغداد ، وحدث بكتاب السنن الكبرى[1] للبيهقى عن منصور بن عبد المنعم الفراوى ، وبكتاب غريب الحديث للخطابى ، وقدم إلى مصر فحدث بالكثير عن جماعة

---

(١) فى ا « بكتاب السنن الكبير للبيهقى »

منهم أم المؤيد زينب وأبوالحسن[(١)] المؤيد الطوسى ، وخرج من مصر يريد الشام فمات بين الزَّعْقَة والعريش من منازل الرمل فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ ، ودفن بتل الزعقة ، وكان من الأئمة الفضلاء فى جميع فنون العلم من علوم القرآن[(٢)] والحديث والفقه والخلاف والأصلين والنحو واللغة ، وله فهم ثاقب ، وتدقيق فى المعانى ، مع النظم والنثر المليح ، وكان زاهدا ، متورعاً ، حسن الطريقة ، متديناً ، كثير العبادة ، فقيها ، مجرداً ، متعففاً ، نَزِهَ النفس ، قليل المخالطة لأوقاته ، طيب الأخلاق ، متودداً ، كريم النفس ، قال ابن النجار : ما رأيت فى فنه مثله ، وكان شافعى المذهب ، وله كتاب تفسير القرآن سماه « رى الظمآن » كبير جداً ، وكتاب « الضوابط الكلية » فى النحو ، وتعليق على الموطأ ، وكان مكثرا شيوخا وسماعا ، وحدث بالكثير بمصر والشام والعراق والحجاز ، وكانت له كتب فى البلاد التى ينتقل إليها بحيث [إنه] لايستصحب[(٣)] كتبا فى سفره اكتفاء بماله من الكتب فى البلد الذى يسافر إليه ، وكان كريما ، قال أبو حيان : أخبرنى الشرف الجزائرى بتونس أنه كان على رحلة ، وكان ضعيفا ، فقال له : خذ ما تحت هذه السجادة أو البساط ، فرفعت ذلك ، فوجدت تحته أكثر من أربعين[(٤)] دينارا ذهبا ، فأخذتها .

وقال الجمال اليَغْمُورى[(٥)] : أنشدنى لنفسه بالقاهرة :

قالوا فلان قد أزَالَ بَهاءَهُ ... ذاكَ العذارُ وكان بَدْرَ تمَامِ
فأجَبْتُهُمْ بل زاد نورُ بهائِهِ ... ولذا تَضَاعَفَ فيه فرطُ غرامى
استقصرت ألحاظُهُ فتكاتِهَا ... فأتى العِـذار يمدها بسهام

---

(١) فى نسخة عند ا « وأبو الحسين المؤيد الطوسى »
(٢) فى ب « من علوم القراءات » (٣) فى ا « لايستصحب كتابا »
(٤) فى ا « فوجدت نحواً من أربعين ديناراً »
(٥) كذا فى ا على الصواب ، وفى ب « الجمال اليعمرى » محرفا

ومن شعره قوله :

مَنْ كان يَرْغَبُ فى النَّجاة فماله ... غَـيْرُ اتباعِ المصطفَى فيما أتَى
ذاك السبيلُ المستقيمُ ، وغـيرُهُ ... سُبُل الغواية والضلالة والرَّدَى
فاتبع كتاب الله والسنن التى ... صحت، فذاك إذا اتبعت هو الهدى
ودع السؤال بكم وكيف فإنه ... بابٌ يجرُّ ذوى البصيرة للعمى
الدين ماقال النبى وصحبـــه ... والتابعون ومَنْ مناهِجَهُمْ قَفَا

أبو بكر محمد ابن عبد الله البنتى

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله ، البُنْتى ، الأندلسى ، الأنصارى .

قدم مصر ، وأقام بالقرافة مدة ، وكان شيخاً صالحاً زاهدا فاضلا ، وتوجه إلى الشام فهلك .

قال الرشيد العطار : كان من فضلاء الأندلسيين(١) ونبهائهم ، ساح فى الأرض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة ، وكان يتكلم بألسنة شتى .

ومن شعره قوله :

إذا قلَّ منك السَّعْىُ فالعزْمُ ناشِدُ ... وكلٌّ مكانٍ فى مَرَائك واحـد(٢)
توجَّهْ بصدق واتَّقِ المَيْنَ واقْتَصِدْ ... تجئك رهيناتِ النجاحِ المقاصـدُ

والبُنْتى - بضم الباء ، وسكون النون - نسبة إلى بُنْت حصن بالأندلس ، ويقال « بونت » بزيادة واو .

أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ابن القوق)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبـد الله ، الخولانى ، الباجى ، ثم الإشبيلى ، المعروف بابن القوق(٣) .

سمع بقرطبة من جماعة ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٦٦ ، فسمع بمكة من على ابن عبد العزيز وغيره ، وبمصر من محمد بن عبد الحكم ومن أخيـه سعد ، وكان

(١) فى ا « من الفضلاء الأندلسيين »
(٢) فى ا « فالغرم ناشد »
(٣) فى البغية ونسخة « الفوق » ، وفى ابن الفرضى « القون »

فقيهاً فى الرأى ، حافظاً له ، عاقدا للشروط ، قال ابن الفرضى : كان رجلا صالحاً ، ورعا ثقة ، وكان خالد بن سعيد قد رحل إليه وسمع منه ، وكان يقول إذا حدث عنه : كان من معادن الصدق ، توفى سنة ٣٠٨ .

أبو عبد الله محمد ابن عبد الله اللوشى الطبيب

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، اللوشى ، الطبيب .

اشتغل بالطب ، وبرع فيه ، وأقام بمصر مدة ، وبها مات فى عَشْرِ الستين وستمائة .

أبو عبد الله محمد ابن عبدون العذرى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبدون ، العذرى ، القرطبى .

رحل سنة ٣٣٧ ، فدخل مصر والبصرة ، وعنى بعلم الطب ، ودبر مارستان مصر ، ثم رَجَعَ إلى الأندلس سنة ٣٦٠ ، واتصل بالحكم المستنصر وابنه المؤيد ، وله فى التكسير كتاب حسن .

قال صاعد : تمهر فى الطب[١] ، ونبل فيه[٢] ، وأحكم كثيرا من أصوله ، وعانى صنعة المنطق مُعَاناة صحيحة[٣] ، وكان شيخه فيه أبو سليمان محمد بن محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى البغدادى ، وكان قبل أن يتطبب مؤدباً للحساب والهندسة ، وأخبرنى أبو عثمان سعيد الطليطلى ، أنه لم يلق فى قرطبة مَنْ يلحق محمد بن عبدون فى صناعة الطب ، ولا يجاريه فى ضبطها وحسن دُرْبَته فيها و إحكامه لغوامضها رحمه الله تعالى ! .

أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر (ابن زهر)

ومن الراحلين إلى المشرق من أهل الأندلس أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر[٤] محمد بن مروان بن زُهْر[٥] ، الإيادى ، الأندلسى .

صاحب البيت الشهير بالأندلس ، رحل المذكور إلى المشرق ، وتطبب به زماناً ، وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ، ثم القيروان ، ثم استوطن مدينة دَانِيَة ،

---

(١) فى ا « تمهر بالطب » (٢) فى نسخة عند ا « وبرع فيه »

(٣) فى نسخة عند ا « صناعة صحيحة »

(٤) في ا ، ب « بن أبى بكر بن محمد » وأبو بكر هو محمد وسيذكره بعد أسطر

(٥) فى السيوطى « بن زهير » محرفا

وطار ذكره فيها إلى أقطار الأندلس والمغرب ، واشتهر بالتقدم فى علم الطب حتى فاق[١] أهل زمانه ، ومات فى مدينة دانية ، رحمه الله تعالى ! .

محمد بن مروان

ووالده محمد بن مروان كان عالما بالرأى ، حافظاً للأدب ، فقيهاً ، حاذقاً بالفتوى ، متقدما فيها ، متقناً للعلوم ، فاضلا ، جامعاً للدراية والرواية ، وتوفى بطَلَبِيرَة سنة ٤٢٢ ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، حدث عنه جماعة من علماء الأندلس ، ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل ، رحمه الله تعالى ! .

أبو العلاء زهر ابن عبد الملك

وأما أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور فقال ابن دِحْيَة فيه : إنه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه ، وتوفى ممتحناً من نُغْلة[٢] بين كتفيه سنة ٥٢٥ بمدينة قرطبة ، انتهى .

وكانت بينه و بين الفتح صاحب القلائد عداوة ، ولذلك كتب فى شأنه إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ماصورته : أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل سامعاً للنداء ، دافعاً للتطاول[٣] والاعتداء ، لم ينظم الله تعالى بلَبّتك الملك عقدا ، وجعل لك حلا للأمور وعقدا ، وأوطأ لك عقباً ، وأصار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا ، إلا أن تكون للبرية حائطاً ، وللعدل فيهم باسطاً ، حتى لا يكون فيهم[٤] من يُضَام ، ولا ينال أَحَدَهم اهتضام ، ولتقصر يد كل معتد فى الظلام ، وهذا ابن زُهْر الذى أجرته رَسَنا ، وأوضحت له إلى الاستطالة سَنَنا ، لم يتعد من الإضرار إلا حيث انتهيته[٥] ، ولا تمادى على غيه إلا حين[٦] لم تنهه أو نهيته ، ولما علم أنك لا تنكر عليه نُكْرا ، ولا تغير له متى مامكر فى عباد الله مَكْرا ، جرى فى ميدان الأذية ملء عنانه ، وسرى إلى ماشاء بعُدْوانه ، ولم يراقب الذى خلقه ، وأمد فى الحُظْوة عندك طَلَقَه ، وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى لأنه مكنك لئلا يتمكن

(١) فى ا « حتى بز أهل زمانه »
(٢) نغلة — بضم فسكون — الاسم من « نغل الجرح » إذا فسد ، وأراد التسمم
(٣) فى ا « رافعاً للتطاول » (٤) فى ا « لا يكون منهم من يضام »
(٥) فى ا « أنهيته » وفى نسخة « ألهيته » (٦) فى ا « إلا حيث »

الجور، ولتسكن بك الفلاة والغور[١]، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل فى كل طريق ، وأخفق[٢] به كلُّ فريق ، وقد علمت أن خالقك الباطش الغيور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما تخفى عليه نَجْواك ، ولا يستتر عنه تقلبك ومَثْواك[٣] ، وستقف بين يدى عدل حاكم ، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم ، قد علم كل قضية قضاها ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فبم تحتج معى لديه ، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه ؟ أترى ابن زُهْر ينجيك فى ذلك المقام ، أو يحميك من الانتقام ، وقد أوضحت لك الحجة ، لتقوم عليك الحجة ، والله سبحانه النصير ، وهو بكل خلق بصير ، لارب غيره ، والسلام .

وقد تذكرت هنا بذكر الفتح ما كتبه وقد مات بعض إخوانه غريقاً :

أتانى وَرَحْلى بالعراق عشيةً ... ورَحْلُ المطايا قد قَطَعْنَ بنا نجدا
نَعِيٌّ أطار القلبَ عن مُسْتَقرِّهِ ... وكنت على قَصْدٍ فأغلطنى القَصْدَا

نَعَوْا والله باسق الأخلاق لا يخلف ، ورموا قلبى بسهم أصاب صميمه فما أخْلَفَ ، لقد سام الردى منه حسناً وجمالا ووَسَامة ، وطوى بطيه نَجْده وتِهامه ، فعطل منه النَّدِىَّ والنَّدَى ، وأثكل فيه الهدِىَّ والهُدَى ، كم فَلَّ السيوف طولُ قراعه ، ودل عليه الضيوف موقدناره ببقاعه ، وكم تشوف إليه السرير والمنبر، وتصرف فيه الثناء المُحبَّر ، وكَمْ راع البدر ليلة إبداره ، ورَوَّع العدو فى عُقْرداره ، وأى فتى غداله البحر ضريحا ، وأعدى عليه الحَيْنُ ماء وريحا ، فبدل من ظُلَلٍ عُلًى ومفاخر ، بقعر بحر طامى اللجج زاخر ، وبدل من صَهَوَات الخيل ، بلهوات اللجج والسَّيْل[٤] ، غريق حكى مقلتى فى دمعها ، وأصاب[٥] نفسى فى سمعها ، ومن حزنٍ لاأستسقى له الغمامَ فما له قبر تجوده ، ولا ثرى تروى به تهائمه ونجوده ، وقد آليت أن لا أودع الريح تحية ، ولا

---

(١) الفلاة : الصحراء ، والغور ــ بالفتح ــ المطمئن المنخفض من الأرض

(٢) أخفق : اضطرب ، أو هو من قولهم « أخفق النجم » إذا مال للغروب

(٣) المثوى : الإقامة ، يريد أنه يعلم كل أحوالك

(٤) فى ب « بلهوات اللجج والليل » (٥) فى ب « وأساء نفسى »

يورثني هبوبها أريحية ، فهي التي أثارت في الموج حَنَقا[١]، ومشت عليه خَبَبًا وعَنَقا[٢]، حتى أعادته كالكُثْبان[٣] ، وأودعته قضيب بان ، فيا أسفاً لزلال غاض في أجاج ، ولسلسال فاض عليه بحر عَجّاج ، وما كان إلا جوهرا ذهب[٤] إلى عنصره ، وصدفا بان عن عين مبصره ، لقد آن للحُسَام أن يُغمد فلا يُشَام ، وللحَمَام أن تبكيه بكل أراكة و بَشَام ، وللعذارى أن لا يحجبهن الخَفَر والاحتشام ، ينُحْن فتى ما ذرّت الشمس إلا ضر أو نفع ، ويبكين مَنْ لم يدع فقده في العيش من مُنْتَفَع ، فكم نعمنا بدنوه ، ونسمنا نسيم الأنس في رَوَاحه وغدوّه ، وأقمنا بروضة مَوْشِيَّة ، ووقفنا بالمسرات عَشِيَّة ، وأدرناها ذهبا سائلة ، ونظرناها وهي شائلة ، لم نرم السهر ، ولم نَشِمْ برقاً إلا الكأس والزهر ، ولو غير الحِمام زَحَف إليه جيشه ، أو غير البحر رجف به ارتجاجه وطيشه ، لفَدَاه من أُسْرَته كل أروع إن عاجله المكروه تثبطه ، أوجاءه الشر تأبطه ، ولكنها المنايا لا تردُّها الصَّوارم والأَسَل ، ولا تفوتها ذئاب الْغَضَا[٥] العُسَّل ، قد فرقت بين مالك وعَقِيل ، وأشرقت بعدهما جَذِيمة بالحسام الصَّقيل ، انتهى .

وقد عرّفنا بالفتح في غير هذا الموضع فليراجع .

أبو بكر محمد ابن عبد الملك ابن أبي العلاء زهر

رجع إلى بيت بني زُهْرٍ رحمهم الله تعالى - وأما أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر المذكور ، فهو عين ذلك البيت ، و إن كانوا كلهم أعياناً علماء رؤساء حكماء وزراء ، وقد نالوا المراتب العلية ، وتقدّموا عند الملوك ، ونفذت أوامرهم ، قال الحافظ أبو الخطاب بن دِحْية في « المطرب ، من أشعار أهل المغرب » : كان شيخنا الوزير أبو بكر بن زُهْر بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطِّلَب عَذْب[٦] مَعِين ، وكان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب ، مع

---

(١) الحنق - بفتح الحاء والنون - الغيظ والوجد

(٢) الخبب والعنق : ضربان من السير السريع

(٣) الكثبان ، جمع كثيب ، وهو ماتراكم من الرمل ، ويريد أن موجه عال والعمدة في هذا قول الله تعالى (موج كالجبال)

(٤) في ب « جوهر دأب »

(٥) في ب « ذئاب الفضاء »

(٦) في بعض الأصول « مورد من الطب معين »

الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العلياء عند أصحاب المغرب ، مع سموّ النسب ، وكثره الأموال والنَّشَب ، صحبته زماناً طويلا ، واستفدْتُ منه أدباً جليلا ، وأنشد من شعره المشهور قوله :

ومُوَسَّدين على الأكفِّ خدودهم ... قد غالهم نومُ الصَّبـاح وغالَنِي[1]

ما زِلْتُ أسقيهم وأشْرَبُ فَضْلَهم ... حتى سكرت ونالهم ما نالنى

والخمرُ تَعْلَم كيف تأخـذ ثارَهَا ... إنى أمَلْتُ إناءَهَا فأمالـنى

ثم قال ابن دحية : وسألته عن مولده[2] ، فقال : ولدت سنة سبع وخمسمائة ، قال : و بلغتنى وفاته آخر سنة ٥٩٥ ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

وزعم ابن خلكان أن ابن زهر ألم فى الأبيات المذكورة بقول الرئيس أبى غالب عبيد الله بن هبة الله[3] :

عَاقَرْتُهُمْ مَشْمُولة لو سالمت ... شُرَّابهَا ما سُمِّيَتْ بعُقَارِ

ذكَرَتْ حقَائدَهَا القديمة إذغدَتْ ... صَرْعَى تُدَاس بأرجُلِ العَصَّار

لاَنتْ لهم حتى انتشَوْا وتمكَّنتْ ... منهم وصاحَتْ فيهم بالثـار

ومن المنسوب إلى أبى بكر بن زُهْر قولُه فى كتاب جالينوس المسمى بحيلة البرء ، [وهو من أجل كتبهم وأكبرها] :

حيلةُ البرء صَنْعَة لعليـل ... يترجَّى الحيـاة أو لعليله[4]

فإذا جاءتِ المنيةُ قالت : ... حيلة البرء لَيْسَ فى البرءِ حيلَهْ

ومن شعره رحمه الله تعالى يتشوّق ولداله صغيراً بإشبيلية وهو بمراكش :

ولى واحدٌ مثل فَرْخ القَطَاة ... صغـير تخلَّفت قلبى لديه

وأفردت عنـه فيا وَحْشَتَا ... لذاك الشخيص وذاك الوجيه[5]

(١) فى بعض الأصول « قد غالهم يوم الصباح وعالنى » (٢) فى أصل ا « وسألت عن مولده » . (٣) فى بعض الأصول « عبيد الله بن هبة الله الأصباعى »

(٤) فى ابن خلكان « حيلة البرء صنفت لعليل » .

(٥) فى أصل ا « وأفردت عنه فياوحشتى »

تَشَوّقــــنى وتشوّقته فيَبْكى عَلَىَّ وأبكى عليه
وقد تَعِبَ الشوقُ ما بيننا فمنه إلىَّ ومــــنى إليه

وأخبرنى الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدى أبو القاسم بن محمد الوزير الغسانى الأندلسى الأصل الفاسى المولد والنشأة حكيم حضرة السلطان المنصور بالله الحسنى صاحب المغرب رضى الله تعالى عنه أن ابن زُهْر لما قال هذه الأبيات وسمعها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والأندلس أواخر المائة السادسة أرسل المهندسين إلى إشبيلية ، وأمرهم أن يحتاطوا علماً ببيوت ابن زُهْر وحارته ، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ، ففعلوا ما أمرهم فى أقرب مدّة ، وفرشها بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال ابن زُهْر وأولاده وحَشَمه وأسبابه إلى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء [إلى][1] ذلك الموضع ، فرآه أشبه شىء ببيته وحارته ، فاحتار لذلك[2] ، وظنّ أنه نائم ، وأن ذلك أحلام ، فقيل له : أُدخل البيت الذى يشبه بيتك ، فدخله ، فإذا ولده الذى تشوّق إليه يلعب فى البيت ، فحصل له من السرور مالا [مزيد عليه ، ولا][1] يعبر عنه ، هكذا هكذا وإلا فلالا .

ومن نظم ابن زهر المذكور حيث شاخ[3] وغلب عليه الشيب :

إنى نَظَرْت إلى المرآة قد جليت فأنْــكَرَتْ مقلتاىَ كلَّ ما رأتا
رأيتُ فيها شُوَيْخاً لستُ أعرفه وكُنْتُ أعهده من قبل ذاك فتى
فقلتُ: أين الذى بالأمس كان هُنَا؟ متى ترحَّلَ عن هذا المكان ؟ متى؟
فاستضحكت ثم قالت وهى مُعْجَبة: إن الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانَتْ سُلَيمى تنادى ياأخَىَّ وقد صارت سليمى تنادى اليوم يا أبتا

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ا .
(٢) فى أصل ا « فخار لذلك » .
(٣) فى ا « حين شاخ » .

والبيت الأخير ينظر إلى قول الأخطل :

وإذا دَعَوْنَكَ عمهنّ فإنه نسبٌ يزيدُكَ عندهنّ خبالاَ[(١)]

وإذا دعونك يا أُخَىّ فإنه أدْنَى وأقربُ خلة ووصالا

وقال ابن دِحْية فى حقه أيضاً : والذى انفرد به شيخنا وانقاد لطباعه[(٢)] ، وصارت النبهاء فيه من خَوَله وأتباعه ، الموشحات ، وهى زُبْدة الشعر ونخبته[(٣)] ، وخلاصة جوهره وصَفْوَته ، وهى من الفنون التى أغرب[(٤)] بها أهل المغرب على أهل الْمَشْرِق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء الْمُشْرِق ، انتهى .

ومن مشهور موشحات ابن زُهْر قوله :

* ما للموله من سكره لا يفيق *

وهذا مطلع موشح يستعمله أهل المغرب إلى الآن ، ويرون أنه من أحسن الموشحات .

ومن موشحاته قوله :

سلم الأمر للقضا فهو للنفس أنفعُ

واغتنم حين أقبلا وجهُ بدر تهللا لا تَقُل بالهموم لا

كل ما فات وانقضى ليس بالحزن يرجِعُ[(٥)]

واصطبح بابنة الكُرُوم مِنْ يَدَىْ شادن رخيم حين يفترّ عن نظيم

فيه برق قد أومَضَا ورَحِيق مُشَعْشَعُ

أنا أفديه مِنْ رَشَا أهيف القدِّ والحشا سُقِيَ الحُسْنَ فانتشى

مذ تولَّى وأعْرَضَا ففؤادى يُقَطَّعُ

من لصبٍّ غدا مَشُوق ظَلَّ فى دَمْعه غريق حين أمّوا حِمَى العقيق

(١) فى أصل ا « نسب يزيدك عندهن خيالا » محرفا .

(٢) فى ا « وانقادت إليه طباعه » .

(٣) فى ب موافقا لما فى ابن خلكان « زبدة الشعر ونسبته ، وخالصة جوهره »

(٤) فى ا « أغرب فيها » (٥) فى ب ونسخة عند ا « ليس بالحسن يرجع »

واستقلُّوا بذى الغَضَـا أسـفى يوم وَدَّعُوا

ما ترى حين أظعنا وسَرَى الركب مَوْهِنا واكْتَسَى الليلُ بالسنا

نورُهُم ذا الذى أضا أم مع الركب يُوشَعُ (١)

ورأيت مع هذا موشحا آخر لا أدرى هل هو لابن زهر أم لا ، وهو هذا :

فُتِقَ المسكُ بكافور الصباح ووشَتْ بالرَّوْض أعرافُ الرياح

فاسقنيها قبل نُورِ الفَلَق وغِناءِ الوُرْق بين الوَرَقِ كاحمرار الشمس عند الشفق

نسج المـزج عليها حين لاح فلك اللهو وشمس الاصطباح

وغـــزال سامنى بالمَلَقِ وبَرَاجِسْمى وأذكى حُرَقى أهيف مذسل سيف الحدق

قصرت عنـــه أنابيب الرماح وثنى الذعر مشاهير الصـــفاح

صار بالدّل فؤادى كَلِفاَ وجفون ساحرات وُطفاَ كلما قلت جوى الحب انطفا

أمْرَضَ القلبَ بأجفانٍ صحاح وسَبَى العَقْـــلَ بجدٍّ ومزاح

يُوسُفى الحسن عَذبُ المبتسم قمَرِىّ الوجه لَيْلىُّ اللمَمْ عنترىُّ البأس عُلْوِى الهمم

غصُنِىُّ القَدِّ مهضوم الوِشَاح ما دِرِىُّ الوصل طائىُّ السماح (٢)

قدَّ بالقدِّ فؤادى هَيَفاَ وسَبَى عقْلِىَ لما انعطفا ليته بالوصـل أحيا دَنِفاَ

مُسْتَطَار العقل مقصوصَ الجناح ما عليه فى هواه من جُنَاح

يا على أنت نُورُ المُقـلِ جُدْ بوَصْل منك لى يا أملى كم أغنيك إذا مالحت لى

طَرَقَتْ والليـلُ ممدود الجناح مَرْحَباً بالشمس من غير صباح

أبو الحجاج يوسف ابن إبراهيم الساحلى

ومنهم أبو الحجاج الساحلى ، يوسف بن إبراهيم بن محمد بن قاسم بن على ، الفِهْرى ، الغَرْنَاطى .

---

(١) يوشع : رجل من بنى إسرائيل حبست له الشمس عن المغيب ، واشتهر ذلك حتى كُنيت الشمس « أخت يوشع » ووقع لأبى تمام من قصيدة :

نضا ضوءها صبغ الدجنة وانطوى لبهجتها ثوب السماء المجزع

فوالله ما أدرى أأحلام نائم ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

(٢) مادرى : نسبة لمادر مضرب المثل فى البخل ، وطائي : نسبة إلى طىء قبيلة حاتم مضرب المثل فى الكرم ، ووقع فى ب وأصل ا « صابى السماح » محرفا .

قال فى الإحاطة : صَدْر من صدور حملة القرآن على وَتيرة الفضلاء و [سَنَن] الصالحين حج ولقى الأشياخ بعد أن قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير وطبقته ، ومن نظمه يخاطب الوزير ابن الحكيم (١) وقد أصابته حمى تركت على شفته بثُورا :

حاشاك أن تَمْرَضَ حاشاكا ... قد اشتكى قلبى لشكواكا

إن كنت محموماً ضعيفَ القوى ... فإننى أحسُدُ حُمَّاكا

ما رضيتْ حُمَّاك إذ باشرت ... جسْمَك حتى قَبَّلَتْ فاكا

قال أبو الحجاج رحمه الله تعالى : وكتب إلى شيخنا محمد بن محمد بن عَتيق ابن رشيق فى الاستدعاء الذى أجازنى فيه ولمن ذكر معى :

أَجزْتُ لهم أبقاهُمُ الله كلَّ ما ... رَوَيتُ عن الأشياخ فى سالف الدهر

وما سَمِعَتْ أذناى من كل عالم ... وماجاد من نظمى وما راق من نثرى

على شَرْط أصحاب الحديث وضَبْطِهِمْ ... برىء عن التصحيف عار عن النكر

كتبْتُ لهم خطِّى وإسمى محمد ... أبو القاسم المكنى ما فيه من نكر

وَجَدِّى رشيق شاع فى الغرب ذِكْرُهُ ... وفى الشرق أيضاً فادْرِ إن كنت لا تدرى

ولى مولد من بعد عشرين حجة ... ثمان على الست المئين ابتدا عمرى

وبالله توفيقى عليه توكلى ... له الحمد فى الحالين فى العسر واليسر

ومولد أبى الحجاج المذكور سنه ٦٦٢ (٢) ، وتوفى سنة ٧٠٢ (٣) ، رحمه الله تعالى ! انتهى باختصار .

ومن ارتحل من الأندلس إلى المشرق شاعر الأندلس يحيى بن الحكم ، البكرى الجيانى الملقب بالغزال لجماله ، وهو فى المائة الثالثة ، من بنى بكر بن وائل .

يحيى بن الحكم الشاعر (الغزال)

قال ابن حيان فى « المقتبس » : كان الغزال حكيم الأندلس ، وشاعرها ، وعرافها ، عمر أربعا وتسعين (٤) سنة ، ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية

---

(١) فى ب « الوزير ابن الحكم » . (٢) فى نسخة عند ا « سنة ٦٦٧ »
(٣) فى نسخة عند ا « سنة ٧٥٢ » (٤) فى نسخة « أربعاً وسبعين سنة »

بالأندلس : أولهم عبدالرحمن بن معاوية ، وآخرهم الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم.

ومن شعره :

أدركتُ بالمصر مُلوكا أربَعَهْ وخامساً هـذا الذى نحن معه

وله على أسلوب ابن أبى حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب :

خَرَجَتْ إليك وثوبُهَا مقلوبُ ولقلبها طربا إليك وجِيبُ[(١)]

وكأنها فى الدار حين تعرَّضَتْ ظبىٌ تَعَلَّلَ بالفلا مَرْغُوبُ

وتبسَّمَتْ فأتَتْكَ حين تبسَّمَتْ بجُمَان دُرٍّ لم يَشِنْهُ ثقوبُ[(٢)]

ودَعَتْك داعيةُ الصِّبَا فتطرَّبَتْ نفسٌ إلى داعى الضلال طروب

حَسبتْكَ فى حال الغَرَام كعهدها فى الدار إذ غُصْنُ الشباب رَطِيبُ[(٣)]

وعرفت ما فى نفسها فضمَمْتُها فتساقطت بَهْنَانَةٌ رُعْبُوبُ

وقَبَضْتُ ذاكَ الشىء قَبْضَةَ شاهن فنزَا إلىّ عَضَنَّكٌ حلبوبُ[(٤)]

بيدى الشمال وللشِّمَال لَطَافة لَيْسَتْ لأخرى والأديب أريبُ

فأصاب كَفِّى منه حين لَمَسْتُه بَلَلٌ كماء الورد حين يسيبُ

وتَحَلَّتْ نفسى لِلَذّةِ رشحه حتى خشيتُ على الفؤاد يذُوبُ

فتَقَاعَسَ الملعون عنه ورُبّمَا نادَيْتُه خَيْرًا فليس يُجيبُ

وأبى تحقق فى الإباء كأنه جانٍ يُقاد إلى الردى مَكْرُوبُ

وتغضّنَتْ جَنَباته فكأنه كيرٌ تقادم عهدُه مثقُوبُ

حتى إذا ما الصبحُ لاح عَمُودُه قَبَساً وحان من الظلام ذُهُوبُ

ساءلْتُهَا خجلا أمالك حاجة عندى ؟ فقالت : ساخر وخَروب

(١) طربا : مفعول لأجله ، والطرب : خفة تعترى الإنسان من فرح أوحزن ، والوجيب : الخفقان والاضطراب .

(٢) أصل الجمان حبات الفضة . وأراد هنا تشبيه الأسنان التي جعلها الدر بالفضة فى البياض فأضاف المشبه به للمشبه . (٣) فى أصل ا «حسبتك فى حال الغلام» محرفا .

(٤) وقع فى ب « لعضه حلبوب » والعضنك ـ بزنة السفرجل ـ المرأة اللفاء العجزاء ، والحلبوب : الشعر الأسود الفاحم .

قالت حرامك إذ أردت وداعها قَرَن وفيه عَوارض وشُعوب

وذكرها ابن دِحْيَة بمخالفة لما سَرَدْناه .

قال عتبة التاجر : وجهنى الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن إلى المشرق وعبد الله بن طاهر[1] أمير مصر من قبل المأمون ، فلقيته [بالعراق] ، فسألنى عن هذه هل أحفظها للغَزَال ؟ قلت: نعم، فاستنشدنيها ، فأنشدته إياها ، فسر بها ، وكتبها ، قال عتبة : ونلت بها حظا عنده .

والبهنانة : المرأة الطيبة النفس والأرج ، كما فى الصحاح ، وقيل : اللينة فى منطقها وعملها ، وقيل : الضحاكة المتهللة ، والرعبوب : السَّبْطة البيضاء ، والسبطة : الطويلة .

وقال سامحه الله تعالى :

سَأَلْتُ فى النَّوْم أبى آدماً فَقُلْتُ والقلبُ به وامِقٌ[2]

إبنك بالله أبو حازم ؟ ! صَلَّى عليك المالك الخالق

فقال لى : إن كان منى ومن نَسْلى فحوّا أُمُّكم طالِقُ

وقال رضى الله تعالى عنه :

أرى أهْلَ اليَسَار إذا تُوُفُّوا بَنَوْا تلك المقابرَ بالصخور

أبَوْا إلا مُباهاة وفخراً على الفقراء حتى فى القبور

فإن يكن التفاضل فى ذُرَاها فإن العدل فيها فى القعور

رَضِيتُ بمن تأنّقَ فى بناء فبالغ فيه تصريف الدهور

ألَمَّا يبصروا ما خربته الد هور من المدائن والقُصُور

---

(١) فى ا «عبد الله بن ظاهر» محرفا

(٢) الوامق: الشديد المحبة، ومق يمق مقة

لَعَمْرُ أبيهمُ لو أبصروهم لما عُرِفَ الغنىُّ من الفقير
ولا عرفوا العبيد من الموالى ولا عرفوا الإناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوب صوف من البدن المباشر للحرير
إذا أكل الثّرى هذا وهذا فما فضل الكبير على الحقير(١)

وقال رضى الله تعالى عنه :

لا ، ومَنْ أعْمَلَ المطايا إليه كلٌّ من يرتجى إليه نصيبا(٢)
ما أرى هٰهُنا من الناس إلا ثَعْلبا يطلبُ الدجاج وذيبا
أو شَبِيهاً بالقط ألقى بعينيه إلى فارةٍ يريد الوثوبا

وقال رضى الله تعالى عنه :

قالت أحِبُّكَ قلت كاذبة غُرِّى بذا مَنْ ليسَ ينتقد
هذا كلام لستُ أقبله الشيخ ليس يحبه أحد
سِيَّان قَوْلُكِ ذا وقَوْلك إن الريح نعقدها فتنعقد
أو أن تقولى النارُ باردة أو أن تَقُولِى الماء يتقد

وحكى أبو الخطاب بن دِحْية فى كتاب « المطرب » أن الغزَالَ أرسل إلى بلاد المجوس وقد قرب الخمسين ، وقد وَخَطَه الشيب ، ولكنه كان مجتمع الأشُد ، فسألته زوجة الملك يوما عن سنه ، فقال مداعبا لها : عشرون سنة ، فقالت : وما هذا الشيب ؟ فقال : وما تنكرين من هذا ؟ ألم تَرَىْ قَطُّ مهرا ينتج وهو أشهب(٣) ؟ فأعجبت بقوله ، فقال فى ذلك ، واسم الملكة تود :

كُلِّفْتَ يا قلبى هوًى متعبا غالبت منه الضَّيْغَمَ الأغلبا
إنى تعلقت مَجُوسِيَّةً تأبى لشمس الحسن أن تغربا

(١) فى نسخة « فما فضل الكبير على الفقير » وفى أخرى « على الصغير »
(٢) فى ا « كل من ترتجى لديه نصيبا »
(٣) فى ا « ألم ترى قط مهرة تنتج وهى شهباء »

أقصى بلاد الله فى حيث لا … يلفى إليـه ذاهبٌ مذهبا

يا تود يا رُودَ الشباب التى … تُطْلِعُ من أزرارها الكوكبا[١]

يا بأبى الشخصَ الذى لا أرى … أحلى على قلبى ، ولا أعذبا[٢]

إن قلتُ يوما إنَّ عينى رأتْ … مُشْبِهه لم أعْدُ أن أكذبا

قالت أرى فَوْدَيْه قد نوَّرَا … دُعابة توجب أن أدعبا

قلت لها : ما باله ؟ إنه … قد ينتج المهر كذا أشهبا

فاستضحكت عُجْباً بقولى لها … وإنما قلت لكى تعجبا

قال : ولما فهمها الترجمان شعر الغَزَال ضحكت ، وأمرته بالخضاب ، فغدا عليها وقد اختضب وقال :

بَكَرَتْ تحسِّنُ لى سَوَاد خضابى … فكأن ذاك أعادنى لشبابى

ما الشيبُ عندى والخضاب لواصِفٍ … إلا كشمس جُلِّلَتْ بضباب

تخفى قليلا ثم يَقْشَعُها الصَّبا … فيصير ما سُتِرَت به لذهاب[٣]

لا تنكرى وَضَحَ المشيب فإنما … هو زهرة الأفهام والألباب[٤]

فلَدَىَّ ما تَهْوَيْنَ من زهو الصبا … وطلاوة الأخلاق والآداب

وحكى ابن حيان فى « المقتبس » أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم المروانى وَجَّه شاعره الغَزَال إلى ملك الروم ، فأعجبه حديثه ، وخف على قلبه ، وطلب منه أن ينادمه ، فامتنع من ذلك ، واعتذر بتحريم الخمر ، وكان يوماً جالساً عنده ، وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها ، وهى كالشمس الطالعة حسناً ، فجعل الغَزَال لا يُميل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه وهو لاهٍ عن حديثه ، فأنكر ذلك عليه ، وأمر الترجمان بسؤاله ، فقال له : عرفه أنى قد بهرنى من حسن

---

(١) رود — بضم الراء — يراد به فتاة شابة حسنة ممشوقة
(٢) يا : حرف ندا حذف المنادى به ، و« بأبى » يتعلق بفعل محذوف : أى أفدى بأبى
(٣) يقشعها : أراد يذهبها (٤) وضح المشيب : أراد بياضه

هذه الملكة ما قطعني عن حديثه ، فإني لم أرقط مثلها ، وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها ، وأنها شوقته إلى الحُورِ العِينِ ، فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حُظْوَته عنده ، وسُرَّت الملكة بقوله ، وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذي دعا المسلمين إلى الخِتَان ، وتجشّم المكروه فيه ، وتغيير خلق الله ، مع خلوه من الفائدة ، فقال للترجمان : عرفها أن فيه أكبر فائدة ، وذلك أن الغصن إذا زُبِرَ قَوِيَ[(١)] ، واشتد ، وغلظ ، وما دام لا يفعل به ذلك لا يزال رقيقاً[(٢)] ضعيفاً ، فضحكت وفطِنت لتعريضه ، انتهى .

ومن شعر الغزال قوله :

يا راجياً وُدَّ الغواني ضَلَّةً ... وفؤاده كَلِفٌ بهن مُوَكَّلُ

إن النساء لكالسُّروج حقيقةً ... فالسَّرْجُ سَرْجُك ريثما لا تنزل

فإذا نَزَلْتَ فإنَّ غيرك نازلٌ ... ذاك المكانَ وفاعل ما تفعل

أو منزلُ المجتازِ أصْبَحَ غادياً ... عَنْهُ وينزل بعده من ينزل

أو كالثمار مُبَاحة أغصانُهَا ... تَدْنُو لأول من يمر فيأكل

أعْطِ الشبيبةَ لا أبالَكَ حَقهَا ... منها ، فإنَّ نعيمهَا متحوِّلُ

وإذا سُلبت ثيابها لم تنتفع ... عند النساء بكل ما تستبدل

وقال :

قال لي يَحْيَى وصِرْنَا ... بين مَوْج كالجِبَالِ

وتولَّتْنَا رِيَاحٌ ... من دَبُورٍ وشَمَال

شقت القلعين وانبتّتْ ... عُرَا تلك الحبال[(٣)]

وتمطَّى مَلَكُ المو ... تِ إلينا عن حِيَالِ

---

(١) زبر : أراد أنه إذا هذب بالقطع ، كما يصنع بتشذيب أغصان الشجر

(٢) كذا في ا ، ووقع في ب « دقيقا »

(٣) انبتت : انفصمت وتقطعت ، والعرا : جمع عروة

فرأينا الموت رأىَ الْـعَيْن حالاً بعد حال
لم يَكُنْ لِلقَوْمِ فينا يا رفيقى رأسُ مال

ومنها :

وسُلَيْمَى ذاتُ زُهْدٍ فى زهيدٍ فى وصال
كلما قلت صِلِينى حاسَبَتْنى بالخيال
والكَرَى قد منعته مقلتى أخرى الليالى
وهى أدرَى فلماذا دافعَتْنِي بمحال
أترى أنا اقتضينا بعدُ شيئاً من نوال

وله :

من ظن أن الدهر ليس يصيبه بالحادثات فإنه مَغْـرُورُ
فَالْقَ الزمانَ مُهَوِّنا لخطوبه وانْجرَّ حيث يجرك المقدور
وإذا تقلبتِ الأمور ولم تَدُمْ فسواءٌ المحزونُ والمسرورُ

وعاش الغزَال أربعا وتسعين سنة ، وتوفى فى حدود الخمسين والمائتين ، سامحه الله تعالى ! .

وكان الغزال أقذع[1] فى هجاء على بن نافع المعروف بزِرياب[2]، فذكر ذلك لعبد الرحمن ، فأمر بنفيه ، فدخل العراق ، وذلك بعد موت أبى نُوَاس بمدة يسيرة ، فوجدهم يلهجون بذكره ، ولا يساوون شعر أحد بشعره ، فجلس يوما مع جماعة منهم فأزرَوْا بأهل الأندلس ، واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم حتى وقعوا فى ذكر أبى نواس ، فقال لهم : من يحفظ منكم قوله :

---

(١) أقذع : أفحش وجاء بما لا يليق ذكره من الكلام

(٢) كذا فى ا ، ووقع فى ب « بابن زرياب » وانظر الجزء الأول ص ٣٢٢ ثم انظر الجزء الثانى ص ٢١٥

ولما رأيت الشَّرْبَ أ كْدَتْ سماؤهم تأبَّطْتُ زِقّى واحتبست عنائى(١)
فلما أتيت الحان ناديت رَبَّهُ فثابَ خفيف الروح نحو ندائى
قليلَ هجوعِ العين إلا تعِلَّة على وَجَلٍ منى ومن نُظَرائى
فقلت أذِقْنيها فلما أذاقها طرحْتُ عليه رَيْطَتى وردائى(٢)
وقلت أعِرْنى بذلة أستتر بها بَذَلْتُ له فيها طلاق نسائى
فوالله ما برتْ يمينى ولا وَفَتْ له غير أنى ضامنٌ بوفائى
فأبْتُ إلى صَحْبى ولم أكُ آئبا فكلٌّ يُفَدِّينى وحُقَّ فدائى

فأعجبوا بالشعر ، وذهبوا فى مدحهم له ، فلما أفرطوا قال لهم : خفضوا عليكم ، فإنه لى ، فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التى أولها :

تداركت فى شرب النبيذ خَطائى وفارَقْتُ فيه شِيمَتى وحيائى

فلما أتم القصيدة بالإنشاد خجلوا ، وافترقوا عنه .

وحكى أن يحيى الغَزال أراد أن يعارض سورة (قل هو الله أحد) فلما رام ذلك أخذته هَيْبة وحالة لم يعرفها ، فأناب إلى الله ، فعاد إلى حاله .

وحكى أن عباس بن ناصح الثقفى قاضى الجزيرة الخضراء كان يَفِدُ على قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها ومرت عليهم قصيدته التى أولها :

لعَمْرُكَ ما البَلْوَى بعارٍ ولا العدم إذا المرء لم يعدم تُقَى الله والكرم

حتى انتهى القارىء إلى قوله :

تجَافَ عن الدنيا فما لمعجِّزٍ ولا عاجز إلا الذى خُطَّ بالقلم

---

(١) الشرب ــ بالفتح ــ جماعة الشاربين ، وأكدت سماؤهم : أصل معناه احتبس مطرها ، وفى نسخة « واحتسبت غدائى »

(٢) فى ا « طرحت إليه ريطتى وردائى » والريطة ــ بالفتح ــ هنا : الثوب الرقيق اللين ، يريد أنه رهنهما عنده فى ثمن ما يشرب

فقال له الغَزَال ، وكان فى الحلقة ، وهو إذ ذاك حَدَثٌ نِظَامٍ متأدب ذكى القريحة : أيها الشيخ ، وما الذى يصنع مُفعِّل مع فاعل ؟ فقال له : كيف تقول ؟ فقال : كنت أقول : فليس لعاجز ولا حازم ، فقال له عباس : والله يا بنى لقد طلبها عمُّكَ فما وجدها .

وأنشد يوما قوله من قصيدة :

بَقَرْتُ بطونَ الشعر فاستُفْرِغ الحشى ... بكفى حتى آب خَاوِيه من بَقْرِى

فقال له بكر بن عيسى الشاعر : أما والله يا أبا العلاء ، لئن كنت بقرت الحشى لقد وسخت يديك بفرْثِه (١) ، وملأتهما بدمه ، وخَبُثَتْ نفسُك بنتنه ، وخَشِمت أنفك (٢) بعَرْفه ، فاستحيا عباس وأفحم عن جوابه .

أبو الحسن على ابن موسى بن سعيد ، العنسى

ومنهم الشهير بالمغارب والمشارق ، المحلى بجواهره صدور المهارق (٣) ، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العَنْسى .

متمم كتاب « المغرب ، فى أخبار المغرب » قال فيه : وأنا أعتذر فى إيراد ترجمتى هنا بما أُعتذر به ابن الإمام فى كتاب « سمط الجُمَان » وبما اعتذر به الحِجَارى فى كتاب « المسهب » وابن القَطَّاع فى « الدرة الخطيرة » وغيرهم من العلماء .

فمن نظمه عند ما ورد الديار المصرية :

أصبحت أعترض الوُجُوه ولا أرى ... ما بينها وَجْهاً لمن أدريه

عَوْدِى على بَدْئى ضلالاً بينهم ... حتى كأنى من بقايا التيِّه

وَيْحَ الغريب توحَّشَتْ ألحاظه ... فى عالم ليْسُوا له بشَبِيهِ

إن عادَ لى وطنى اعترفتُ بحقه ... إن التغرُّب ضاع عمرى فيه

---

(١) الفرث – بالفتح – السرجين مادام فى الكرش ، ووقع فى ا « ببقره »

(٢) خشم الأنف – من باب فرح – إذا تغيرت ريحه من داء فيه

(٣) المهارق : جمع مهرق ، وهو ما يكتب فيه من الصحف ، معرب

وله من قصيدة يمدح ملك إفريقية أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حَفْصٍ (١) :

الأفق طَلْق والنسيمُ رُخَاء ... والروضُ وَشَّتْ بُرْدَه الأنداء (٢)

والنهرُ قد مالت عليه غُصُونُهُ ... فكأنما هو مُقْلة وطفاء (٣)

وبدا نِثَار الجُلَّنار بصفحه ... فكأنما هو حَيَّة رَقْطاء

والشمسُ قد رَقَمتْ طِرَازاً فوقه ... فكأنما هى حُلة زرقاء

فأدِرْ كؤسَك كى يتم لك الْمنَى ... وأسْمَع إلى ما قالت الوَرْقَاء

تَدْعُوك حَىّ على الصَّبُوح فلا تنم ... فعلَى المنام لدى الصباح عَفَاء

وله [أيضا] :

كم جَفَانى ورُمْتُ أدعو عليه ... فتوَقفت ثم ناديت قائل

لا شَفَى الله لحظه من سَقام ... وأرانى عِذَارهُ وهو سائل

وله من قصيدة كتب بها إلى ملك سَبْتة الموفق أبى العباس أحمد بن أبى الفضل السَّبْتى (٤) شافعا لشخص رغب فى خدمته :

بالعدل قمتَ وبالسماح فدِنْ وجُدْ ... لا فارقتك كفاية وعطاء

ما كلُّ من طلبَ السعادة نالها ... وطلاب ما يأبى القضاء شقاء

ومنها :

وقد استطار بأسْطُرِى نحو الندى ... من أنهضته لنحوك العلياء

طلبَ النباهَةَ فى ذَرَاكَ فما له ... إلا لديك تأمُّل ورجاء

وَهُوَ الذى بعد التجارب أحْمدَتْ ... أحواله وجرى عليه ثناء

---

(١) كذا فى ا ، على الصواب ، ووقع فى ب « بن أبى جعفر » محرفا

(٢) وشت : نمقت وحسنت ، وأصل البرد - بالضم - الثوب ، والأنداء : جمع ندى وهو البلل ينزل شبه رذاذ قبيل الشروق ، وأراد المطر

(٣) المقلة - بالضم - العين ، والوطفاء : الكثيرة شعر الأهداب

(٤) في ب « النيشتى »

لايقربُ الدنسَ المريبَ كواصِلٍ هجرتْهُ خوفا أن يشان الراءِ

[قد مارسَ الحرْبَ الزبونَ زمانَهُ وَجَرَتْ عليـــه شدة ورخاء](١)

وعلاكَ تقضى أن يَسُود بأفقها لا غرو أن يُعْلِي الشهابَ بهاء

وقوله من قصيدة :

ألف التغرُّبَ والتوحُّشَ مثلَ ما ألف التوحُّشَ والنفورَ ظباء

حُجَّابه ألفوا التجهُّـــمَ والجفا فهمُ لكل أخى هدًى أعـداء

مهما يَرُمْ طَلَبٌ إليه تقرباً بَعُدَتْ بذاكَ البدر عنـــه سماء

لـكننى مازلت أخـدَعُ حاجباً ومُرَاقبا حتى ألان حبـــاء

والأرض لم تُظْهِرْ محجب نبتها حتى حَبَتْهَا الديمة الوطفـــاء

قيل : وهذا معنى لم يسمع من غيره ، وقوله فى خسوف البدر :

شان الخسوفُ البدرَ بعد جَمَالِهِ فكأنه ماء عليه غُثَـــاء(٢)

أو مثل مرآة لَخِـوْدٍ قد قضت نظراً بها فعلا الجـلاء غشاء

وله من قصيدة عتاب يقول فيها :

ولقد كسبت بكم عُـلاً لـكنها صارت بأقوال الوشاة هَبَـاءَ

فغَدَوْت ما بين الصحابة أجربا كُلٌّ يُحاذر منى الأعـــداءَ

ولقد أرى أن النجوم تَقِـلُّ لى حُجُباً وأصْغر أن أحُـــلَّ سماء

فليهجروا هجـــر القطيم لدرِّهِ ويُسَاعدوا الزمَنَ الخؤن جفاءَ

فلقد شكوت لهم إحالة وُدِّهم إذ لم أكن أرضى بهم خُدَمَاءَ

---

(١) هذا البيت ساقط من ا ، والحرب الزبون ــ بزنة صبور ــ التى تزبن الناس أى تدفعهم بشدتها

(٢) الغثاء ــ بضم الغين، بزنة الغراب ــ الزبد والوسخ والقذر ، ووقع فى أصل ا « عليه غشاء » محرفا (٣) إحالة ودهم : تغيره وتحوله من حال الصفاء إلى الجفاء

إيهٍ فذكرُهُمُ أقلّ ، وإنما أومِى إليك فتفهــمُ الإيماء
لو لم يكن قيدٌ لما فتكتْ ظُباً أنت الذى صيرتهم أعــداء
وَلَو أننى أرجُو ارتجاعَكَ لم أطِلْ شَكْوَى ولم أستبعِدِ الإغضاء
لـكن رأيتك لا تميلُ سَجِيَّـةً نحوى ولا تتكلَّفُ الإصــغاء
إن لم يكن عطف فمنُّوا بالنَّوَى إن الـكريم إذا أُهِينَ تناءى

وقوله :

ولـكم سَرَيْنَا فى مُتُون ضوامر تثنى أعنتها من الخيلاء(١)
من أدهم كالليل حُجِّلَ بالضحى فتشقّ غُرّتُهُ عن ابن ذُكاءِ(٢)
أو أشهب يحكى غَـدائر أشيَبٍ خَلَعتْ عليه الشهبُ فضلَ رداء
أو أشقر قد نَمَّقَتْه بشُعْـلة كالمزج ثار بصَفْحَـة الصَّهْبَاء
أو أصْفَر قد زَيَّنَتْهُ غـرّة حتى بدا كالشمعــة الصفراء
طارت ، ولـكن لا يُهَاض جَنَاحُهَا هَبَّتْ ، ولـكن لم تكن برُخَاءِ

وقوله من أبيات فى افتضاض بكر :

وخريدةٍ ما إن رأيتُ مثالَهَا حَيَّتْ من الألحــاظ بالإيماء(٣)
فسألتها سَمْعَ الشكاة فأفْهمَتْ أن الرقيب جُهَيْنَــة الأنباء(٤)
وتَبِعْتُها وسألت منها قُبْلَةً فى خَلْوة من أعين الرقباء
فثنَتْ على قَوامِهَا بتعانقٍ أحْيَــا فؤادًا مات بالبُرَحَاءِ
ووَجَـدْتُها لمـا ملـكتُ عِنانَها عَذْرَاء مثلَ الدرة العــذراء

(١) أصل السرى سير الليل خاصة ، ويطلق على السير عامة ، والمتون : جمع متن وهو الظهر ، والضوامر : جمع ضامر ، وهو من الخيل الضامر البطن ، والخيلاء : الإعجاب والـكبر والزهو ، وقالوا « سميت الخيل خيلا لأنها تختال فى مشيها »

(٢) ابن ذكاء : هو القمر ، وذكاء : الشمس ، جعله ولدها لأنه يستمد منها نوره

(٣) الخريدة : أراد بها البكر التى لم تمس

(٤) لحظ فى عجز هذا البيت قولهم فى مثل « وعند جهينة الخبر اليقين »

جاءت إلى كَوَرْدَةٍ محمـــرَّةً فتركتُها كعَرارة صَفراءِ[١]
وسلبْتُها ما احمـــرَّ منها صَفوهُ فجرَى مُذاباً مُنْجِحاً لرجائي

وقوله من أبيات :

أحبابَنَا عُودُوا علينا عَــوْدَةً ما منكُمُ بعـد التفرقِ مَرْغَبُ
كم ذا أداريكم بنفسي جاهدًا وكأنمـا أرضيكمُ كي تغضبوا
وأزيد بعدًا ما اقتربْتُ إليكمُ كالسَّهم أبعدُما يُرَى إذيقْرُبُ
وأجوب نحوكمُ المنازل جاهـدا ومع اجتهادى فاتنى ما أطلب[٢]
كالبـدرِ أقطع منزلا فى منزل فإذا ما انتهيت إلى ذَرَاكم أغرب

وقوله من أبيات :

سألتك يا من يُسْتَلانُ فيصْعُبُ ومَنْ يُتَرَضَّى بالحيـاة فيَغْضَبُ
أمَا خَدُّكَ البدرُ المنيرُ فَلِمْ غَدَتْ تحلُّ به ضـدَّ القضية عقرب[٣]

وقوله ، وقد داعَبه أحدُ الفقهاء وسرق سكينه من حرز[٤] :

أيا سارِقاً ملكا مَصُوناً ولم يَجِبْ على يَدِهِ قَطْع وفيـــه نِصَابُ[٥]
ستندبه الأقــلامُ عند عثارها ويَبْكيه إن يعدالصَّواب كتابُ

وقوله فى تفاحَةٍ عَنبر أهْدِيَتْ للملك الصالح نجم الدين أيوب :

أنا لونُ الشباب والخـال أهْديـــتُ لمن قد كَسَا الزمانَ شَبَابَا
ملك العالمين نجـــم بنى أيـــوب لازال فى المعالى شهابا[٦]

---

(١) العرارة ــ بزنة السحابة ــ واحدة العرار ، وهو النرجس البرى ، أو هو نبت طيب الريح صفراء اللون ، ووقع فى ا « جاءت إلى كوردة حمراء »

(٢) أجوب : مضارع « جاب فلان البلاد يجوبها جوبا » إذا قطعها منزلا فمنزلا

(٣) العقرب : منزلة من منازل القمر ، وفى هذا اللفظ تورية، فإنه أراد الصدغ ، وهو شعر متدل على الصدغين ، والشعراء يشبهون هذا الشعر بالعقرب .

(٤) الحرز ــ بالكسر ــ هو الموضع الحصين الذى يحفظ فيه مايخاف عليه

(٥) النصاب ، ههنا نصاب السكين ، أى حده ، والنصاب : مقدار بينه الشرع لا تقطع اليد إلا أن يبلغه المسروق

(٦) فى نسخة عندنا « لازال فى المعالى مهابا »

جئت ملأى من الثنـــاء عليه   من شكورٍ إحسانَه والثـوابا
لستُ ممَّنْ له خطابٌ ولـكن   قد كفانى أريجُ عَرْفِي خطابا (١)

وقوله من قصيدة :

فالحمـــــد لله على ساعة   قد قرّبتنى من عـلا الصاحب
وليعذرِ المـولَى على أننى   قد كنت من عَلْيَاه فى جانب
كمن أتى نافـلَةً أوّلا   ثم أتى من بعـدُ بالواجب

وقوله من أبيات :

فإن كنتُ فى أرضِ التغرُّبِ غاربا   فسوف ترَانى طالعاً فوق غارب (٢)
فصَمْصام عمرٍو حين فارق كفه   رَمَوْهُ ولا ذَنبٌ لعجز المضارب (٣)
وما عـــزة الضِّرغام إلا عرينه   ومن مكة سادت لؤى بن غالب

وقوله فى فرس أصفر أغر أكحل الحلية :

وأجْرَدَ تِبْرِيّ أثرْتُ به الثرى   وللفجْر فى خَصْرِ الظلام وشَاحُ (٤)
له لون ذى عِشقٍ وحُسْنُ مُعَشَّقٍ   لذلك فيــه ذِلَّة ومَرَاحُ (٥)
عَجِبْتُ له وهو الأصيـل بعرفِهِ   ظـلامٌ و بين الناظِرَيْنِ صَباحُ
يقيد طَيْرَ اللحظِ والوَحْشِ عندما   يَطِـيرُ به نحو النجاح جَنَاحُ

وقوله من أبيات :

إذا ما غُرَابُ البين صاح فقلْ له   ترَفَّقْ رماكَ الله يا طَيْرُ بالبعدِ
لأنْتَ على العشاق أقبحُ منظراً   وأكره فى الأبصار من ظلمة اللحدِ (٦)
تصيحُ بنَوْحٍ ثم تعـــثر ماشياً   وتبرز فى ثوبٍ من الحزن مُسْوَدِّ

---

(١) الأريج : طيب الريح وانتشارها وتضوعها ، والعرف ـ بالفتح ـ الريح
(٢) غارب الأول اسم الفاعل من قولهم «غربت الشمس» إذا تضيفت للغروب ، وغارب الثانى اسم لسنام البعير وما يليه ، ويراد به ذروة الشىء وأعلاه
(٣) الصمصام : اسم علم لسيف عمرو بن معديكرب الزبيدى .
(٤) الاجرد : القصير الشعر ، والتبرى : الذى لونه لون التبر وهو الذهب
(٥) فى ا « لذلك فيه لذة ومراح » .
(٦) فى نسخة عند ا « طلعة اللحد »

متى نحتَ صح البين وانقَطَعَ الرجا ... كأنك من وَشْكِ الفراق على وَعْدِ [١]

وقوله فى غلام جميل الصورة أهدى تفاحة :

ناب ما أهْدَيْتَ عن عَرْ ... فٍ وعَن ريقٍ وخـــدّ

حَبَّـــذا تفاحَةٌ قد ... أشبَهَتْ أوصافَ مُهْدِى [٢]

بِتُّ منها فى سُرورٍ ... فكأنْ قد بتَّ عنــدى

وقوله من قصيدة :

هذا الذى يَهَبُ الدنيـا بأجمعها ... و بعد ذلك يُلْفَى وَهْو يعتـــذر [٣]

إن هزَّه المدحُ فالأموال فى بَدَدٍ ... والغصْنُ ما هُزَّ إلا بُدِّدَ الثمرُ

[فقلت لما بدا لى حُسْنُ منظره ... لـكنه زاد إشراقا : هو القمرُ] [٤]

مَتِّعْ لحاظك فى وَجْهٍ بلا ضرر ... إن كان شَمْساً يداهُ تحتها مَطَرُ

وقوله من أبيات :

لى جـيرة ضَنُّوا علىَّ وجارُوا ... فنَبَتْ بِىَ الأوطانُ والأوطار [٥]

ومنَ العجائبِ أننى مع جَوْرِهِمْ ... ما قرّ لى بعـــد الفراق قَرَارُ

وقوله :

أنا شاعر أهوى التخلِّىَ دون ما ... زوج لـكيما تخلص الأفكارُ

لو كنت ذا زَوْج لـكنتُ مُنغَّصًا ... فى كل حين رزقهَا أمتـــارُ

دَعْنى أرح طول التغرب خاطرى ... حتى أعـــودَ ويَسْتَقِرِ قَرَارُ

كم قائلٍ قد ضاع شَرْخُ شبابِهِ ... ما ضيَّعَتْهُ بَطَـــالة وعُقَارُ [٦]

---

(١) وقع فى نسخة عند ا « متى لحت » أى ظهرت . ووشك الفراق : قربه
(٢) فى ا « أشبهت أوصاف نهد » (٣) فى ا « وبعد ذلك يلقى وهو يعتذر » ويلفي ـ بالفاء ـ أى يوجد (٤) هذا البيت لايوجد فى ا . (٥) ضنوا : بخلوا ، وجاروا : اعتدوا ، ونبت : بعدت ، والأوطار : جمع وطر وهو الغرض . وبعده : مشقة الحصول عليه (٦) فى ا « كم قائل لى ضاع شرخ شبابه » وشرخ الشباب : قوته ونشاطه ، والعقار ـ بزنة الغراب ـ الخمر ، سميت بذلك لأنها تعقر شاربها .

إذ لم أزل فى العلم أجْهَدُ دائماً حتى تأتَّت هــذه الأبكار

مَهْما أرُمْ من دون زوج لم أكن كَلًّا ورزقى دائماً مِدْرار،[١]

وإذا خرجتُ لفُرْجَـة هنيتها لا ضَيْعَة ضاعت ولا تذْكار،[٢]

وقوله من قصيدة :

ما كنتُ أحسب أن أضيع وأنت فى الــدنيا وأن أمسى غَريباً مُعْسِرَا

أنا مثلُ سَهْمٍ سَوْف يَرْجعُ بعدما أقصاه راميه المجيــدُ ليخبرا

وقوله سامحه الله تعالى :

وافى عَلِىٌّ لنا بسَيْفٍ والبينُ قد حان والوَدَاعُ

فقال شَبِّـهْ فقلت شمس قد مدَّ من نورها شعاع

وقوله من قصيدة فى ملك إشبيلية الباجى ، وقد هزم ابن هُود :

لله فرسانٌ غدت راياتهم مثل الطيور على عِداكَ تُحَلِّقُ

السمر تنقط ما تُسَطِّر بِيضُهم والنقـع يُتْرب والدماء تخلق،[٣]

وقال ارتجالا بمحضر زكى الدين بن أبى الإصبغ وجمال الدين أبى الحسين[٤] الجزار المصرى الشاعر ونجم الدين بن إسرائيل الدمشقى بظاهر القاهرة ، وقد مشى أحدهم على بسيط نرجس[٥] :

يا واطئ النرجس ما تستحى أنْ تطأ الأعيُنَ بالأرجُلِ

فتهافتوا بهذا البيت ، وراموا إجازته ، فقال ابن أبى الإصبغ مجيزاً :

فقلت دعـنى لم أزل مُحْرَجاً على لحاظ الرشَإ الأكحل

---

(١) الكل – بفتح الكاف – العالة التى يجعل ثقله على غيره ، ومدرار : كثير

(٢) فى ا «لاصنعة ضاعت ولا تذكار»

(٣) وقع فى ا « الشمس تنقط » محرفا ، والسمر : جمع أسمر ، وأراد بها الرماح ، والبيض : جمع أبيض ، وأراد به السيف ، والنقع : الغبار الذى تثيره الخيول بسنابكها ، وتخلق : تصبغ بالخلوق ، وهو ضرب من الطيب ، وشبه صبغ الدم به .

(٤) فى ب « جمال الدين بن أبى الحسين » بزيادة كلمة « بن » وسيأتى في ص ٣٩ بدونها فى النسخ كلها (٥) فى ا « علي بساط نرجس »

وكان أمثل ما حضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غيره ، فقال :

قابل جُفوناً بجفونٍ ولا تبتذل الأرْفعَ بالأسْفَلِ (١)

وقوله فى الجزيرة الصالحية بمصر (٢) ، وهى الشهيرة الآن بالروضة :

تأمّلْ لحُسْنِ الصالحية إذ بَدَتْ مَناظِرُهَا مثلَ النجوم تلألأَ (٢)
وللقَلْعة الغراء كالبَدْر طالعاً تفجّرَ صدرُ الماء عنه هِلالاَ
ووافى إليها النيلُ من بعد غاية كما زار مَشْغُوفٌ يروم وِصَالاَ (٣)
وعانَقَها من فَرْط شوق بحُسْنها فمدّ يميناً نحوها وشِمَالاَ
جَرَى قادماً بالسعد فاختطّ حَوْلها من السعد إعلاماً بذلك دَالاَ (٤)

وقوله من أبيات فى ملك إفريقية وقد جهز ولده الأمير أبا يحيى بعسكر :

وقد أرسَلْته نحو الأعادى كما جردْتَ من غمدٍ حُسَامَا

وقوله فى قوس :

أنا مثلُ الهلال فى ظُلَمِ النَّقْـع سهامى تنقضُّ مثلَ النجومِ
تقصُرُ القُضْبُ والقنَا عن مَجالى عِنْدَ رَجْمِى بها لكل رَجيمِ
قد كَسَتْها الطيورُ لما رأتها كافلاتٍ لها برِزْقٍ عَميمِ

وقوله من أبيات :

وأشْقرَ مثْلِ البَرْق لوناً وسُرْعَةً قَصَدْتُ عليه عارضَ الجودِ فانهمى

ولنذكر ترجمته من الإحاطة ملخصة ، فنقول :

قال لسان الدين : على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن

(١) تبتذل ـ بالذال معجمة ـ تمتهن ، ووقع فى ا « تبدل » بالدال المهملة ، وفى نسخة عندها « تبتدل » بالمهملة أيضاً .

(٢) الصالحية : نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل ، وهو السابع من ملوك الأيوبيين بمصر .

(٣) فى نسخة عند ا « من بعد غيبة » وما أثبتناه يوافق ما فى أصل ا ، ب

(٤) فى نسخة عند ا « من السعد أعلاما ، فزاد دلالا »

سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر بن كنانة بن قيس بن الحصين العَنْسى ، المُدْلجى[١] ، من أهل قلعة يَحْصُب ، غَرْناطى ، قَلْعى[٢] ، سكن تونس ، أبو الحسن بن سعيد ، وهذا الرجل وُسْطَى عقد بيته ، وعلم أهله ، ودرة قومه ، المصنف ، الأديب ، الرحالة ، الطرَفة ، الأخبارى ، العجيب الشأن فى التجوّل فى الأقطار ، ومداخلة الأعيان ، للتمتُّع بالخزائن العلمية ، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية ، أخذ من أعلام إشبيلية كأبى على الشَّلَوْبين ، وأبى الحسن الدباج وابن عصفور وغيرهم ، وتواليفه كثيرة : منها « المرقصات والمطربات » و« المقتطف ، من أزاهر الطرف » و« الطالع السعيد[٣] ، فى تاريخ بنى سعيد » تاريخ بيته و بلده ، والموضوعان الغريبان المتعددا الأسفار ، وهما « المغرب ، فى حلى المغرب » و «المشرق ، فى حلى المشرق» وغير ذلك مما لم يتصل إلينا ، فلقد حدثنى الوزير أبو بكر بن الحكيم أنه تخلف كتابا يسمى « المِرْزَمة » يشتمل على وَقْر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والأخبارية إلا الله تعالى ، وتعاطى نظم الشعر فى حد من الشبيبة يُعْجَبُ فيه من مثله ، فيذكر أنه خرج مع أبيه إلى إشبيلية وفى صحبته سَهْل بن مالك ، فجعل سهل بن مالك يُبَاحثه عن نظمه إلى أن أنشده فى صفة نهر والنسيم يردده والغصون تميل عليه :

كأنما النهر صفحةٌ كتبت أسطرها ، والنسيم ينشئها
لما أبانت عن حُسْن منظرِها مالت عليها الغصون تقرؤها

فطرب وأثنى عليه .

ثم ناب عن أبيه فى أعمال الجزيرة ، ومازج الأدباء ، ودوّن كثيرا من نظمه ، ودخل القاهرة ، فصنع له أدباؤها صنيعا فى ظاهرها ، وانتهت بهم الفرجة إلى

---

(١) المدلجى : نسبة إلى مدلج ، وهى قبيلة من كنانة ، أبوهم مدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة (٢) قلعى : نسبة إلى القلعة ، وهي قلعة يحصب المذكورة أولا ، وتسمى « قلعة بنى سعيد » (٣) فى نسخة عندنا « المطلع السعيد ـ إلخ »

رَوْضِ نرجس[١] ، وكان فيهم أبو الحسين[٢] الجزار فجعل يدوس النرجس برجله ، فقال أبو الحسن .

يا واطىء النرجس ما تستحى   أن تطأ الأعْيُنَ بالأرجل

فتهافتوا بهذا البيت ، وراموا إجازته ، فقال ابن أبى الإصبع :

فقال دعنى لم أزل مُحْنَقاً   على لحاظ الرشإ الأكْحَلِ

وكان أمثل ما حضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غيره ، فقال :

قابل جفونا بجفونٍ ، ولا   تبتذل الأرفعَ بالأسفلِ

ثم استدعاه سيف الدين بن سابق إلى مجلس بِضَفَّةِ النيل مبسوط بالورد ، وقد قامت حوله شمامات نرجس ، فقال فى ذلك :

مَنْ فضَّل النرجسَ فهو الذى   يرضى بحكم الورد إذ يرأسُ

أما ترى الورد غدا قاعداً   وقام فى خدمته النرجسُ

ووافق ذلك مماليك الترك وقوفا فى الخدمة ، على عادة المشارقه فطرب الحاضرون

ولقى بمصر أيدَمُر التركى والبهاء زُهَيْرًا وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وغيرهم ، ورحل صحبة كمال الدين بن العديم[٣] إلى حلب ، فدخل على الناصر صاحب حلب ، فأنشده قصيدة أولها :

جُدِّلى بما لقى الخيالُ من الكرَى   لابد للضيف المُلِمِّ من القِرَى[٤]

فقال كمال الدين : هذا رجل عارف ، وَرَّى بمقصوده من أول كلمة ، وهى قصيدة طويلة ، فاستجلسه[٥] السلطان ، وسأله عن بلاده ومقصوده برحلته ، وأخبره أنه جمع كتابا فى الحلى البلادية والعلى العبادية المختصة بالمشرق ، وأخبره أنه سماه « المشرق ، فى حلى المشرق » وجمع مثله فسماه « المغرب ، فى حلى المغرب »

(١) كذا فى ا ، وفى ب « صنو نرجس » (٢) فى ا ، ب « وكان فيهم أبو الحسن » وانظر ص ٣٦ السابقة (٣) كذا فى ا ، ووقع فى ب « كمال الدين بن القيم » محرفا

(٤) الملم : من الإلمام وهو الزيارة ، والقرى ــ بكسر أوله مقصوراً ــ مايقدم للضيف من الألطاف (٥) كذا فى ا ، وفى ب « فاستجلبه »

فقال : نعينك[١] بما عندنا من الخزائن ، ونوصلك إلى ماليس عندنا كخزائن الموصل و بغداد ، وتُصَنف لنا ، فخدم على عادتهم ، وقال : أمرمولاى بذلك إنعام وتأنيس، ثم قال له السلطان مداعبا : إن شعراءنا ملقبون بأسماء الطيور ، وقد اخترت لك لقبا يليق بحسن صوتك و إيرادك للشعر ، فإن كنت ترضى به ، و إلا لم نُعلم به أحدا غيرنا[٢] ، وهو البُلْبُل ، فقال : قد رضى المملوك يا خوند ، فتبسَّم السلطان . وقال له أيضا يُدَاعبه : اختر واحدةً من ثلاث : إمّا الضيافة التى ذكرتها أوّل شعرك ، و إمّا جائزة القصيدة ، و إمّا حق الأسم ، فقال : يا خوند المملوك مما لا يختنق بعشر لُقَم [لأنه مغربى أكول] فكيف بثلاث ؟ فطرب السلطان وقال : هذا مغربى ظريف ، ثم أتبعه من الدنانير والخلع [الملوكية][٣] والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف .

ولقى بحضرته عون الدين العجمى ، وهو بحر لا تُنْزفه الدلاء ، والشهاب التَّلَّعْفَرِى ، والتاج ابن شُقَير ، وابن نجيم الموصلى ، والشرف بن سليمان الإربلى ، وطائفة من بنى الصاحب ، ثم تحول إلى دمشق ، ودخل الموصل و بغداد ، ودخل مجلس السلطان المعظم [بن الملك الصالح][٣] بدمشق ، وحضر مجلس خلوته ، وكان ارتحاله إلى بغداد فى عقب سنة ثمان وأربعين وستمائة فى رحلته الأولى إليها، ثم رحل إلى البصرة ودخل أرَّجَان ، وحج ، ثم عاد إلى المغرب ، وقد صنف فى رحلته مجموعا سماه بـ«النفحة المسكية ، فى الرحلة المكية » وكان نزوله بساحل مدينة إقْلِيبِيَة[٤] من إفريقية فى إحدى جمادى سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، واتصل بخدمة الأمير أبى عبد الله المستنصر ، فنال الدرجة الرفيعة من حُظْوته .

---

(١) فى نسخة عند ا « تغنيك بما عندنا »

(٢) فى ا « والإلم يعلمه غيرنا »

(٣) ما بين المعقوفين لا يوجد فى غير ا

(٤) إقليبية : حصن بإفريقية قريب قرطاجنة

حدثنى شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم أن المستنصر جفاهُ فى آخر عمره وقد أسن لِجَرّاء خدمة مالية أسندها إليه ، وقد كان بلاءٌ منه قبل جفوة أعقبها انتشال وعناية ، فكتب إليه بنظم من جملته .

* لا تَرُعْنِي بالجفا ثانيةً *

فرق له ، وعاد إلى حسن النظر إليه ، إلى أن توفى تحت بر وعناية .

مولده بغرناطة ليلة الفطر سنة عشر وستمائه[1] ، ووفاته بتونس فى حدود خمسة وثمانين وستمائة ، انتهى باختصار .

وذكرت حكاية إجازة بيته فى النرجس وإن تقدمت لاتصال الكلام .

قلت : قد كنت وقفت على بعض ديوان شعره المتعدد الأسفار ، ونقلت منه قوله من قصيدة يهنىء ابن عمه الرئيس أباعبد الله بن الحسين بقدومه من حركة هَوّارة :

أما واجبٌ أن لايحولَ وجيبُ ... وقد بَعُدَتْ دار وحان حبيبُ

وليس أليفٌ غيرُ ذكر وحَسْرَةٍ ... ودَمْعٌ على من لايرقُّ صبيبُ

وخفق فؤاد إن هفا البرق خافقا ... وشوق كما شاء الهوى ونحيبُ[2]

ويَعْذِلنى مَنْ ليس يَعْرِف ما الهوى ... وعَذلُ مَشُوق فى البكاء عجيبُ[3]

ألا تعِسَ اللوامُ فى الحبِّ قد عَمُوا ... وَصمُّوا ودائى ليس منه طبيبُ

يرومون أن يثنى الملامُ صبابتى ... ولسْتُ إلى داعى الملام أجيبُ

وفائى إذا ماغبتُ عنكم مُجَدَّدٌ ... وغيرىَ ذو غدرٍ أوانَ يغيب

ولو لم يَكُنْ منى الوفاء سَجِيَّةً ... لكنت لغير ابن الحسين أنيبُ

سَمَوْءَل هذا العصر حاتمُ جوده ... مُهَلَّبه إن مارسَتْهُ حُروبُ[4]

---

(١) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « سنة ٦١٥ »

(٢) فى نسخة « إن بدا البرق » وفى أخرى « إن خفا البرق »

(٣) فى نسخة « وعذل مشوق فى البكاء غريب » وفى أخرى « فى الغرام »

(٤) شبهه بالسموءل بن عادياء فى الوفاء ، وبحاتم الطائى فى الكرم ، وبالمهلب ابن أبى صفرة فى الشجاعة ، وفى ا « ماما رسته حروب »

فتىً سَيَّرَ الأمداح شرقا ومغربا أبو دُلَف من دونه وخَصِيب[١]
إذا رقَمَ القرطاسَ قلت ابن مُقْلة وإن نظم الأشعار قلتَ حَبيب[٢]
وإن نثر الأسجاع قلت سميُّهُ وإن سَرَدَ التاريخ قلت عَريب[٣]
وما أحرز الصُّولىُّ آدابَهُ التى إذا ما تلاها لم يجبه أديب[٤]

ومنها :

وأما إذا ما الحربُ أخمد نارها ففيه تَلَظِّى مارجٍ ولهيبُ
فكم قارَعَ الأبطال فى كل وجْهَةٍ نحاها وكم لُفَّتْ عليه حُروبُ
وكائن له بالغَرْبِ من مَوْقِفٍ له حديثٌ إذا يُتْلَى تطير قلوبُ
بمَرَّاكشٍ سَلْ عنه تَعْلَمْ غناءه وقد ساءهم يومٌ هناك عَصيبُ
إذا ما ثنى الرمْحَ الطويل كأنه مُدير لغصن الخيزُرَانِ لَعُوبُ
وإن جرَّه أبصرْتَ نجماً مجرَّرا ذُؤَابته ، منه الكماة تذوب
يَهِيمُ به ما إن يزالُ مُعَانقاً له راكعاتٍ ما تحوزُ كعوبُ
محمدُ ، لاتبد الذى أنت قادرٌ عليه ، وخَفْ عَيْناً عُلاكَ تصيبُ
نفوذُ سهام العَيْنِ أوْدَى بمُصْعَبٍ وطاح به بعد الشبوب شَبيبُ
ألا فهنيئاً أن رَجَعْتَ لتونُسٍ فأطلعْتَ شمساً والسِّفارُ غروبُ

(١) أبو دلف : أراد به القاسم بن عيسى العجلى ، أحد قواد الدولة العباسية فى عصر المأمون ، وكان شجاعا جواداً ، والخصيب : أراد به الخصيب بن عبد الحميد عامل الخراج بمصر فى زمن الرشيد العباسى وهو ممدوح أبى نواس

(٢) ابن مقلة : هو محمد بن على الحسين ، كان وزيراً للمقتدر العباسى ، وبه يضرب المثل في جودة الخط ، وحبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائى الشاعر المشهور

(٣) سميه : أراد به أبا الفضل بن العميد الذى يقال فيه « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » وعريب ــ بالعين مهملة ــ هو ابن محمد بن مطرف ، له مختصر تاريخ الطبرى مع الاستدراك عليه وكتابة مالم يصل إليه الطبرى

(٤) الصولى : أبو بكر محمد بن يحي بن عبد الله ، الأديب البليغ الناظم الناثر النديم المصنف الراوية ، نادم الراضى والمكتفى والمقتدر العباسيين

كواكبها تبدو إذا ما تركتها ... وقد جعلت مهما حضرت تغيب

إذا سُدْتَ فى أرض فغيرك تابع ... علاك ، ومهما ساد فهو مريب

ومنها :

كفانىَ أنى أستظل بظلكم ... ومن هاب ذاك المجد فهو مَهِيبُ

فأصلك أصلى والفروع تباينت ... بعيد على من رامه وقريب

وحسبىَ فخرا أن أقول محمد ... نسيب علىّ جل منه نصيب

تركت جميع الأقربين لقَصْده ... على حين حانت فتنة وخطوب

رأيت به جنات عَدْن فلم أُبَلْ ... إذا وصلتنا للخلود شَعُوبُ

فقَبَّلْتُ كفا لا أعاب بلثمها ... وأيدى الأيادى لثمهن وجوب

وكيف وليس الرأس كالرِّجْل، فرّقت ... شِيَاتٌ لعمرى بيننا وضروب

ولو كان قدرى مثل قدرك فى العلا ... لحق بأن يعلو الشباب مشيب

ولولا الذى أُسْمِعْتَ من مكر حاسد ... أتاك بقول وهو فيه كذوب

لما كنت محتاجا لقولى آنفا ... تخليت من ذنب وجئت أتوب

إذا كنت ذا طوع وشكر وغبطة ... فمن أين لى يا ابن الكرام ذنوب

لقد كنت معتادا ببشر فما الذى ... تقلدته حتى يزال قطوب

أ إن رفع السلطان سَعْيى بقربكم ... أحلّأ عن ورد لكم وأخيب

فأحسب ذنبى ذنب صُخْرٍ بدارها ... ألِى البِرُّ عند الخابرين مَعِيبُ

وحاشاك من جور على ، وإنما ... أخاطب من أصفو له فيشوب

صحاب هم الداء الدفين فليتنى ... ، ولم أدنُ منهم ، للذئاب صحوب (١)

كَلَامهمُ شهد ولكن فعلهم ... كسمٍ له بين الضلوع دبيب

(١) تمنى أن يكون صاحبا للذئاب ، دون أن يصاحب هؤلاء الأناسى ، وقد صنع ذلك الشنفرى :

ولى دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط ذهلول وعرفاء جيأل

هم الأهل لا مستودع السر ذائع ... لديهم ولا الجانى بما جر يخذل

سأرحل عنهم والتجارب لم تدع بقلبي لهم شيئاً عليه أثيب[١]

إذا اغترب الإنسان عمن يسوءه فما هو فى الإبعاد عنه غريب

فدارك برأبٍ منك ما قد خرقته ليحسن منى مشهد ومغيب[٢]

ولا تستمع قول الوشاة فإنما عدوهُمُ بين الأنام نجيب

فياليت أنى لم أكن متأدبا ولم يك لى أصل هناك رسوب

وكنت كبعض الجاهلين محببا فما أنا للهم المُلِمِّ حبيب

وما إن ضربت الدهر زيدا بعمره ولم يك لى بين الكرام ضريب

أأشكوك أم أشكو إليك فما عَدَتْ عداتىَ حتى حان منك وُثوب

سأشكر ما أولىٰ وأصبر للذى توالى ، على أن العزاء سليب

فدم فى سرور ما بقيتَ فإننى وحقك مذدب الوشاة كئيب

قال : وكان سبب التغير بينى و بين ابن عمى الرئيس المذكور أن ملك إفريقية استوزر لأشغال الموحدين أبا العلاَء[٣] إدريس بن على بن أبى العلاء بن جامع ، فاشتمل على ، وأولانى من البر ما قيَّدَنى وأمال قلبى إليه ، مع تأكيد ما بينه و بين ابن عمى من الصحبة ، فلم يزل ينْهَض بى ، و يرفع أمداحى للملك ، و يُوَصِّل إليه رسائلى ، مُنَبِّها على ذلك ، مرشحا ، إلى أن قبض الملك على كاتب عسكره ، وكان يقرأ بين يديه كتب المظالم ، فاحتيج إلى من يَخْلفه فى ذلك ، فنبه الوزير على ، وارتهن فى ، مع أنى كنت من كتاب الملك ، فقلدنى قراءة المظالم المذكورة ، وسَفَر لى الوزير عنده فى دار الكاتب المؤخر ، فأنعم بها ، فوجد الوشاة مكانا متسعا للقول ، فقالوا وزوروا من الأقاويل المختلقة ما مال بها حيث مالوا ، وظهر

---

(١) أراد بأثيب أجازى وأ كافىء .

(٢) رأب الصدع : إصلاحه ، ووقع فى ا « فدارك برأى منك » وما فى ب أتم مقابلة لقوله « ما قد خرقته » .

(٣) فى ب « أبا العلى » .

منه مخايل التغيير ، فجعلت أداريه وأستعطفه ، فلم ينفع فيه قليل ولا كثير ، إلى أن سعى فى تأخير والدى عن الكتب للأمير الأسعد أبى يحى ابن ملك إفريقية ، ثم سعى فى تأخيرى ، فأخرت عن الكتابة وعن قراءة[1] المظالم ، فانفردت بالكتابة للوزير المذكور ، وفوض إلىّ جميع أموره ، وأولانى من التأنيس ما أنسانى تلك الوحشة ، ومن العز ما أنقذنى من تلك الذلة .

فرد علىّ العيش بعد ذهابه ... وآنسنى بعد انفرادى من الأهل

وقالوا إذا ما الوبلُ فاتك فاقتنع ... بما قد تَسَنَّى عندك الآن من طَلِّ[2]

ووالله ما نُعْمَاه طَلٌّ وإنما ... تأدُّبه غيث يجُودُ على الكل

رآنى أظْما فى الهجيرة ضاحيا ... فرق وآوانى إلى الماء والظل

ولم أزل عنده فى أسرِّ حال ما لها تكدير إلا ما يبلغنى من أن ابن عمى لايزال يسعى فى حقى بما أخشى مَغَبّته ، وخِفتُ أن يطول ذلك ، فيُسْمع منه ، ولا ينفع دفاع الوزير المذكور عنى ، فرغبت له فى أن يرفع للملك أنى راغب فى السَّراح إلى المشرق برسم الحج :

ومن بَلّه الغيثُ فى بطن واد ... وبات فلا يأمنَنَّ السيُولا

فلم يُسْعِفنى فى ذلك ، ولامنِى على تخوّفى ، وقلة ثقتى بحمايته ، فرفعت له هذه القصيدة :

هل الهجر إلا أن يطول التجنُّبُ ... ويبعد مَنْ قد كان منه التقرُّبُ

وتقطع رُسْلٌ بيننا ورسائل ... ويمنع لقيانا نوًى وتحجب[3]

ولو أننى أدرى لنفسى زلة ... جعلت لكم عذرا ولم أكُ أعتب

ولكنكم لما ملكتم هجرتُمُ ... وذنّبتم فى الحب من ليس يذنب

---

(١) فى ا « وعن كتابة المظالم »

(٢) فى ا « فقال إذا ما الوبل » والوبل ــ ومثله الوابل ــ المطر الكثير، والطل ــ بفتح الطاء ــ المطر الخفيف ، وفى القرآن الكريم « فإن لم يصبها وابل فطل »

(٣) فى أصل ا « نوى وتجنب »

إلى الله أشكو غدركم ومَلالكم وقلبا له ذلك التعذب يعذب
فلو أنه يجزيكمُ بفعالكم لكان له عنكم مَرَاد ومطلب(١)
ولكن أبى أن لايحن لغيركم وأن لا يُرَى عنكم مَدَى الدهر مذهب
فهلا رعيتم أنه فى ذَرَاكم غريب ، وليس الموت إلا التغرب
لزمتك لما أن رأيتك كاملا جمالا وإجمالا وذاك يحبِّب
وإنى لَأَخْشَى أن يطول اشتكاؤه لمن إن أتى مكرا فليس يثرب
فلم أسع إلا لارتياح وراحة وغيرى وقد آواه غيرك يتعب
فأنت الذى آويتنى ورحمتنى وذو الرحِمِ الدنيا لنارِىَ يحطب
فما مر يوم لايريد مصيبة عليك ، وبالتدبير منك يُخَيَّبُ(٢)
وهَبْكَ ثبوتا لا تُحِيل أما ترى مجر حبال فى الحجارة يرسب(٣)
وهبك له سدا فكم أنت حاضر أحاذر خرقا منه أن يتسببوا
وما إن أرى إلا الفرار مخلصا وما راغب فى الضيم مَنْ عنه يرغب
فأنهى إلى الأمر العلىِّ شَكِيَّتى وأن خطوب الدهر نحوى تخطب
ولا تطمعونى فى الذى لست نائلا فلا أنا عرقوب ولا أنا أشعب
ألا فَلتمنُّوا بالسَّراح فإنه لراحة من يشقى لديكم ويَنْصَبُ
سلوا الكأس عنى إذ تدار فإننى لأتركها هما ودمعى أشرب
ولا أسمع الألحان حين تهزنى ولو كان نوحا كنت أصغى وأطرب
فديتكم كم ذا أهون بأرضكم أهذا جزاء للذى يتغرب

---

(١) فى ا « مراد ومذهب » والمراد : اسم المكان من « راد الكلأ يروده » إذا طلبه ، وهذا البيت مأخوذ من قول النابغة الذبيانى فى إحدى قصائده الاعتذارية :

ولكننى كنت امرأ لى جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب

(٢) وقع فى ا « فما مر يوم لايدير مصيبه »

(٣) وقع فى ب « وهبه ثبوتا لا يحيل » وثبوتا : ثابتا على العهد ، ولاتحيل : لاتتحول عنه ولا تتغير ، ومجر حبال : أراد أن الحبل إذا تكرر إمراره على الحجر أثر فيه ، يريد أنه يخشى أن يؤثر فى وده تتابع الوشايات

أبخل على أن ما سواك يصيخ لى ... فهل لى مما كدَّر العيش مهرب[1]

تقلص عنى كلُّ ظِـلٍ ولم أجد ... كما كنت ألقى من أودُّ وأصحب

أذو طمع فى العيش يبقى وحوله ... مدى الدهر أفْعَى لاتزال وعقرب

أجزنى لأنجو بالفـرار فإنه ... وحَقِّك من نُعْماك عندى يحسب[2]

فلا زلت يا خير الكرام مهنأ ... فعيشى منه الموت أشهى وأطيب

وصانك من قدصنت فى حقه دمى ... وغيرك من ثوب المروءة يسلب

ولم يزل الوزير ـ لا أزال الله عنه رضاه ! ـ يحمى جانبى ، إلى أن أصابتنى فيه العين ، فأصابه[3] الحين ، [فقلت فى ذلك][4] :

وطَيَّبَ نفسى أنه مات عندما ... تناهَى ولم يشمت به كل حاسد

ويحكم فيـه كل من كان حاكما ... عليـه ويعطى الثأر كل معاند[5]

وقلت أرثيه :

بكت لك حتى الهاطلاتُ السواكبُ ... وشقت جيوبا فيك حتى السحائبُ[6]

فكيف بمن دافعت عنـه ومَنْ به ... أحاطت وقد بُوعِدْتَ عنه المصائبُ

ألا فانظروا دمعى فأكثره دم ... ولا تذهبـوا عنى فإنىَ ذاهب

وقولوا لمن قد ظل ينـدب بعده ... وفاؤك لو قامت عليك النوائب

لعمرك ما فى الأرض وافٍ بذمّـةٍ ... أيصمت إدريس ومثلى يخاطب

دعوتك يا من لا أقوم بشكره ... فهل أنت لى بعد الدعاء مجاوب

أيا سـيدا قد حال بينى وبينـه ... ترابٌ حوت ذكراك منـه الترائب

---

(١) يصيخ : مضارع « أصاخ له » إذا ألقى نحوه أذنه وأصغى إليه وأنصت له

(٢) فى ب « أجرنى أنجز بالفرار » والإجازة : الإذن بالشىء وتسويغه وتصييره جائز الفعل (٣) الحين ـ بفتح الحاء وسكون الياء ـ الموت

(٤) مابين المعقوفين لا يوجد في ب (٥) فى نسخة « ويحكم عليه »

(٦) الهاطلات : أراد السحائب الكثيرة انصباب المطر

لمن أشتكى إن جار بعدك ظالم … على وإن نابت جناب النوائب
لمن أرتجى عند الأمير بمنطق … تحف به حولى المنى والمواهب

وهى طويلة ، ومنها قبيل الختم :

وقد كنت أختار الترحُّل قبل أن … يُصِيبَكَ سهم للمنية صائبُ
ولكنْ قضَاء الله من ذا يردُّه … فصبرًا فقد يرضى الزمان المغاضب

ومنها ، وهو آخرها :

وإنِّى لأدْرِى أن فى الصبر راحةً … إذا لم تكن فيه علىَّ مَثَالبُ(١)
وإن لم يؤب من كنت أرجو انتصاره … عليك فلُطْفُ الله نحوِىَ آيب

قال رحمه الله تعالى : ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتنى فيهما وَحْشة ، وأثار [لى](٢) تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التى قطعت بها العيش غضًّا خصيبا ، وصحبت بها الزمان غلاما ولبست الشباب [بردا] قشيبا(٣) ، فقلت :

هذه مِصْرٌ فأين المغرب ؟ … مذ نأى عنى فعينى تسكب(٤)
فارَقَتْه النفسُ جهلا إنما … يُعْرَفُ الشىء إذا ما يَذْهَبُ
أين حِمْصٌ ؟ أين أيامى بها ؟ … بعدها لم ألق شيئاً يعجب
كم تَقَضَّى لى بها من لذة … حيث للنهر خرير مطرب(٥)
وحَمام الأيك تَشْدُو حولنا … والمثانى فى ذَرَاها تَصْخَبُ(٦)
أى عيش قد قطعناه بها … ذكره من كل نُعْمَى أطْيَبُ
ولكم بالمَرْجِ لى من لذة … بعدها ما العَيْشُ عندى يعذب

---

(١) مثالب : جمع مثلبة ، وهى النقيصة ومايعاب به (٢) فى نسخة «وأثارنى»
(٣) قشيبا : جديدا ، وكلمة « بردا » لاتوجد فى ا
(٤) فى نسخة عند ا عجز هذا البيت * مذ نأى عنى دموعى تسكب *
(٥) فى ب صدر هذا البيت * كم بعيش لى بها من لذة *
(٦) الأيك : الشجر الكثير الملتف ، ونشدو : تغنى ، والمثانى : أراد آلات الطرب ، وذراها ـ بفتح الذال ـ أعلاها

والنواعير التى تذكارها بالنوى عن مهجتى لا تُسلب [١]
ولكم فى شَنْتَبُوس من مُنىً قد قضيناه ولا من يعتب [٢]
حيث هاتيك الشراجيب التى كم بها من حسن بدر مُغْصَبُ [٣]
وغناءٍ كلٌّ ذى فقر له سامع غصبا ولا من يغصب
بلدة طابت وربٌّ غافر ليتنى ما زلت فيها أذنب
أين حسن النيل من نهرٍ بها كل نغْمات لديه تطرب
كم به من زَوْرَقٍ قد حله قمر سَاقٍ وعُودٌ يضرب
لذة الناظر والسمع على شم زهر وكؤسٍ تشرب
كم ركبناها فلم تجمح بنا ولكم من جامح إذ يركب
طوعنا حيث اتجهنا لم نجد تَعَباً منها إذا ما نتعب [٤]
قد أثارت عِثْيَرًا يشبهه نثر سلك فوق بُسْطٍ ينهب [٥]
كلما رِشْنَا لها أجنحة من قلاع ظَلْتَ منها تعجب
كطيور لم تجد رَيًّا لها فبدا للعين منها مشرب
بل على الخضراء لا أنفكُّ من زَفْرَةٍ فى كل حين تلهب
حَيْثُ للبحر زئير حولها تبصر الأغصان منه ترهب
كم قطعنا الليل فيها مشرقا بحبيب ومُدام يُسْكَب
وكأن البحر ثوب أزرق فيه للبدر طِرازٌ مُذْهَبُ
وإلى الحَوْزِ حنينى دائما وعلى شَنِّيلَ دمعى صَيِّبُ [٦]

(١) النواعير : جمع ناعورة ، وأراد بها السانية ، أو الساقية

(٢) شنتبوس : جزيرة كانت تعد من منازه بلاد المغرب ، وفى ا «قدقضيناها»

(٣) هذا البيت لا يوجد فى أصل ا ، وفى نسخة عندها «مغصب» بالغين معجمة ، والشراجيب : جمع شرجب ، وهو درابزين من خشب ، وأراد به هنا سور الجسر

(٤) وقع في ا « إذا لم نتعب » محرفا (٥) العثير – بوزن درهم – الغبار

(٦) فى ا « دمعى صبب »

حيث سلّ النهر عَضْباً وانثنت فوقه القُضْبُ وغنّى الربرب (١)
وتشفَّتْ أعين العشاق من حُورٍ عِينٍ بالمواضى تحجب
ملعب للهو مذ فارقته ما ثنانى نحوَ لهوٍ ملعب
وإلى مالقَةٍ يهفو هوًى قلبُ صب بالنوى لا يقلب
أين أبراج بها قد طالما حَثَّ كأسى فى ذرَاها كوكب
حفت الأشجار عشقا حولنا تارة تنأى وطورا تقرب
جاءت الريح بها ثم انثنت أتراها حَذِرَتْ من ترقب
وعلى مُرْسِيَة أبكى دما منزل فيه نعيم معشب
مع شمس طلعت فى ناظرى ثم صارت فى فؤادى تغرب
هذه حالى ، وأمّا حالتى فى ذرَى مصر ففكر مُتْعِبُ (٢)
سمعت أذنى محالا ، ليتها لم تصدِّق ويحها من يكذب
وكذا الشىء إذا غاب انتهَوْا فيه وصفا كى يميل الغُيَّبُ
ها أنا فيها فريد مُهْمَلٌ وكلامى ولسانى معرب
وأرى الألحاظ تنبو عندما أكتب الطرْسَ أفيه عقرب (٣)
وإذا أحسب فى الديوان لم يَدْرِ كتابهمُ ما أحسب
وأنادَى مغربيا ، ليتنى لم أَكن للغرب يوما أنسب
نسب يشرك فيه خامل ونبيه ، أين منه المهرب ؟
أترانى ليس لى جدّ له شهرة أوليس يُدْرَى لى أب

---

(١) أصل العضب السيف القاطع ، شبه النهر به ، وأراد بالقضب الأغصان ، والربرب : جماعة بقر الوحش ، وأراد بهن القينات المغنيات ، على الاستعارة

(٢) في ا « هذه حال »

(٣) تقول « نبا السيف عن ضريبته ينبو » إذا لم يقطع ، والطرس — بكسر الطاء وسكون الراء — الصحيفة التى يكتب فيها

سوف أثنى راجعا لأغرّنى بعد ما جرّبْتُ بَرْقٌ خُلّبُ [١]

وقال بقَرْمُونَةَ متشوقا إلى غَرْناطة :

أغِثْنِى إذا غنى الحمامُ المطرب بكأسٍ بها وَسْوَاسُ فكرىَ يُنْهَبُ
ومِلْ مَيْلة حتى أعانق أيْكَة وألثِمَ ثغرا فيه للصَّبِّ مشرب
ولم أر مَرْجَانا ودرًّا خلافَه يُطيف به وَرْد من الشهد أعذب
فديتك من غصن تحمله نقًا تطلع أعلاه صباح وغَيْهَبُ [٢]
وجَنَّتهُ جنات عَدْنٍ وفى لَظًى فؤادى وما لى من ذنوب تعذب
ويعذلنى العذال فيه وإننى لأعصى عليه من يلوم ويعتب
لقد جهلوا هل عن حياتىَ أنثنى إذا نَمَّقُوا أقوالهم وتألبوا
يقولون لى قد صار ذكرك مخلقا وأصبح كل فى هواه يؤنب
وعرضك مبذول وعقلك تالِفٌ وجسمك مسلوب ومالك ينهب
فقلت لهم عرضى وعقلىَ والعلا وفخرى لا أرضى بها حين يغضب
جنون أبَى أن لا يلين لعازم بسحر بآيات الرُّقَى ليس يذهب [٣]
فقالوا ألا قد خان عهدك قلت لم يَخُنْ مَنْ إذا قربته يتقرب
وكم دونه من صارم ومثقف فيامن رأى بدرا بهذين يحجب [٤]
على أنه يستسهل الصعب عندما يزور فلا يجدى حِمًى وتَرَقُّبُ
وكم حيلة تترى على إثر حالة وذو الود من يحتال أو يتسبب
على أنه لو خان عهدى لم أزل له راعيا ، والرعى للصب أوجب

---

(١) البرق الخلب ـ بزنة سكر ـ الذى يطمع فى المطر وليس فيه مطر

(٢) أراد بالغصن قوامه وقده ، وأصل النقا كثيب الرمل ، وأراد به ردفه ، وأراد بالصباح وجهه المشرق المضىء ، وأصل الغيهب الظلام الشديد ، وأراد به شعره الأسود الفاحم

(٣) فى ب « جفون أبت ألا تلين لعازم » وأثبتنا ما فى ا

(٤) الصارم : السيف ، والمثقف : الرمح ، يريد أن هذا المحبوب يحميه فرسان قومه بسيوفهم ورماحهم

فأين زمان لم يخنى ساعة — به وهو منى فى التنعم أرغب
ولا فيه من بخل ولا بى قناعة — كلانا بلذات التواصل مُعْجَبُ
ويا رب يوم لا أقوم بشكره — على أننى ما زلت أثنى وأطنب
على نهر شَنِّيلٍ وللقضب حولنا — منابر ما زالت بها الطير تخطب
وقد قرعت منه سَبَائِكَ فضة — خلال رياض بالأصيل تُذَهَّبُ(١)
شربنا عليها قهوة ذهبية — غدت تشرب الألباب أيان تشرب
كأنْ يا سمينا وَسْطَ ورد تفتحت — أزاهره أيان فى الكأس تسكب(٢)
إذا ما شربناها لنيل مسرة — تَبَسَّمُ عن در لها فتقطب(٣)
أتت دونها الأحقاب حتى تخالها — سرابا بآفاق الزجاجة يلعب
نعمنا بها واليوم قد رق برده — إلى أن رأينا الشمس عنا تغرّب
فقالوا ألا هاتوا السراج فكل من — درى قدر ما فى الكأس أقبل يعجب
وقال ألا تدرون ما فى كؤسكم — فلا كأس إلا وهو فى الليل كوكب
كواكب أمست بين شرب ولم نَخَلْ — بأن النجوم الزهر تدنو وتغرب
ظللنا عليها عاكفين وليلنا — نهار إلى أن صاح بالأيك مطرب
فلم نثن عن دين الصَّبُوحِ عناننا — إلى أن غدا من ليس يعرف يندب
صُرعنا فأمسى يحسب السكر قد قضى — علينا وذاك السكر أشهى وأعجب
وكم ليلة فى إثر يوم وعُذَّلِى — وعُذَّلُ من يُصْغِى لقولى خُيَّبُ
فياليت ما ولى مُعَادٌ نعيمه — وأى نعيم عند من يتغرب

---

(١) فى ب « سنابك فضة » والسبائك : جمع سبيكه، شبه بياض ماء النهر ببياض الفضة ، والأصيل : الوقت قبيل غروب الشمس ، وتذهب : تلون بلون الذهب ، وأصل معنى هذا البيت من قول الشاعر :

والريح تعبث بالغصون ، وقد جرى — ذهب الأصيل على لجين الماء

(٢) فى ب « كأن يا سمينا وسط در » وأثبتنا ما فى ا

(٣) أراد بالدر نفاخات الماء ، والأصل فيه قول أبى نواس :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها — حصباء در على أرض من الذهب

قال : وقلت بإشبيلية ذاكراً لوادى الطَّلْح ، وهو بشرق إشبيلية ملتف الأشجار، كثير مُتَرنم الأطيار ، وكان المعتمد بن عباد كثيرا ما ينتابه مع رميكيَّتِهِ ، وأولى أنسه ومسرته[١] :

سائل بوادى الطَّلْح ريح الصَّبَا ... هل سُخِّرت لى فى زمان الصِّبا
كانت رسولاً فيه ما بيننا ... لن نأمن الرُّسْل ولن نَكْتُبَا
يا قاتل الله أناسا إذا ... ما استؤمنوا خانوا ، فما أعجبا
هلا رَعَوْا أنا وثِقْنَا بهم ... وما اتخذنا عنهمُ مَذْهَبَا
يا قاتل الله الذى لم يَتب ... من غدرهم من بعد ما جرَّبا
والْيَمُّ لا يعْرِفُ ما طعْمُه ... إلا الذى وَافَى لأن يشربا[٢]
دَعْنِى من ذكر الوُشَاة الألىٰ ... لما يزل فكرى بهم مُلْهَبَا
واذكر بوادى الطلح عهداً لنا ... لله ما أحلى وما أطيبا
بجانب العطف وقد مالت الأغـصان والزهر يبثُّ الصَّبَا[٣]
والطيرُ مازَتْ بين ألحانها ... وليسَ إلا مُعْجِباً مطربا
وخانَنِى مَنْ لا أسمِّيه من ... شح أخاف الدهر أن يُسْلَبَا[٤]
قد أترع الكأس وحيَّا بها ... وقلت أهلا بالمُنَى مرحبا[٥]
أهلا وسهلا بالذى شِئْته ... يا بدر تمّ مُهْدِياً كوكبا
لكننى آليْتُ أسْقَى بها ... أو تودِعَنْهَا ثغرك الأشنبا
فَمجَّ لى فى الكأس من ثغره ... ما حبَّب الشرب وما طيبا

---

(١) القصيدة الآتية قد مضت من قبل ، ولهذا لم تذكر فى ا ، وإنما اكتفت بذكر المطلع ثم قالت : إلخ (٢) فى ب «والهم لا يعرف ماطعمه» واليم : لجة البحر
(٣) يبث : مضارع « بث فلان الشىء » إذا فرقه ونشره
(٤) فى ب « أخاف الدهر أن يصحبا » (٥) أترع الكأس : ملأها

فقال هالثمى نَقْـــلاً ولا تَشَمَّ إلاَّ عَرْفِيَ الأطيبــا[(١)]
فاقطف بخدّى الورد والآس والــــنسرين لا تحفـل بزهر الربا
أسْعِفته غصـنا غـدا مثمراً ومن جَنَـــاه مَيْسه قربا[(٢)]
قد كنت ذا نهى وذا إمرة حتى تبــدّى فحللت الُحْبَا[(٣)]
ولم أصن عرضى فى حبــه ولم أطع فيـــه الذى أنَّبَا
حتى إذا ما قال لى حاسـدى ترجوه والكوكب أن يغربا
أرسلت من شعرىَ سحراً له ييسر المَرْغَبَ والمطلبـــا
وقال عرّفـــه بأنى سأحـــتال فما أجتنب المَكْتَبَا
فزاد فى شـــوقى له وَعْـدُه ولم أزل مُقْتَعِدًا مَرْقَبـــا[(٤)]
أمـدّ طرفى ثم أثنيه من خوف أخى التنغيص أن يرقبا
أصـدِّق الوعـد وطوراً أرى تكذيبه والحـر لن يكذبا
أتَى ومن سَخَّرَه بعـد ما أيأس بُطْئًا كاد أن يغضبا
قبلت فى الترب ولم أستطـع من حَصَرِ اللُّقْيَا سوى مرحبا
هنأت ربعى إذ غـدا هالة وقلت يا من لم يضع أشعبا
بالله مل معتنقاً لاثمـا فمال كالغصن ثنتـه الصَّبَا
وقال ما ترغب قلت اتئـد أدركت إذ كلمتـنى المـأرَبَا
فقال لا مرغب عن ذكر ما ترغبـه قلت إذا مركبا
فكان ما كان فوالله ما ذكرته دهرى أو أغلبـا

---

(١) ها : اسم فعل معناه خذ ، والنقل : مايتنقل به بين الشراب ، والأفصح فيه فتح النون ، والعرف ـ بالفتح ـ الريح

(٢) في ب «أشغفته» وأثبتنا مافى خ

(٣) يقال « حل فلان حبوته » يكنى بذلك عن كونه خلع ثوب التوقر والاستحياء

(٤) فى ب « معتقدا مرقبا » والمرقب : المكان العالى تجلس فيه ترقب منه

قال : وقلت باقتراح الملك الصالح نور الدين صاحب حِمْص أن أكتب بالذهب على تفاحة عَنْبر قدّمها لابن عمه الملك الصالح ملك الديار المصرية :

أنا لَوْنُ الشباب والخال أهديـــت لمن قد كسا الزمانَ شَبابَا

ملك العالمين نجـم بنى أيـــوب ، لا زال فى المعالى مهابا ![1]

جئت مَلْأَى من الثناء عليه من شكورٍ إحسانَهُ والثوابا

لست ممن له خطاب ولـكن قد كفانى أريج عَرفى خطابا[2]

قال : ولما أنشد أبو عبد الله بن الأَبَّار كاتب ملك إفريقية لنفسه :

لله دولاب يدور كأنه فلك ولـكن ما ارتقاه كوكب

هامت به الأحداق لما نادَمَتْ منه الحديقة ساقياً لا يشرب

نَصَبَتْه فوق النهر أيدٍ قَدَّرَتْ ترويحه الأرواح ساعة يُنْصَبُ

فكأنه وهو الطليق مُقَيَّدُ وكأنه وهو الحبيسُ مُسَيَّبُ

للماء فيـه تصعُّد وتحدُّر كالمُزن يستسقى البحار ويسكب

حلف أبو عبد الله بن أبى الحسين ابنُ عمى أن يصنع فى ذلك شيئاً ، فقال :

ومَحْنِيَّةِ الأضلاع تحنو على الثرى وتسقى نباتَ الترب، درَّ الترائب[3]

تعدّ من الأفلاك أن مياهها نجومٌ لرجم المَحْلِ ذات ذوائب[4]

وأعجبها رقص الغصون ذوابلا فدارت بأمثال السيوف القواضب

وتحسبها والروضَ ساقٍ وقينةً فما بَرِحَا ما بين شاد وشارب[5]

وما خلتها تشكو بتحنانها الصدا ومن فوق متنيها اطراد المذانب

---

(١) فى ب « لازال فى المعالى شهابا » وانظر ص ٣٣ من هذا الجزء

(٢) الأريج ـ ومثله الأرج بفتحتين ـ تضوع الريح وانتشاره وتفرقه وطيبه ، والعرف ـ بفتح فسكون ـ أراد به هنا الريح

(٣) فى نسخة « ومحنية الأصلاب ... در السحائب »

(٤) المحل ـ بالفتح ـ الجدب والقحط ، يريد أن مياه هذه المحنية تذهب بالجدب وتأتى بالخصب والرخاء

(٥) الشادى : المغنى، والشارب: الذى يشرب الخمر على الغناء

فخذ من مَجَاريها ودُهْمَة لونها بياضَ العطايا فى سواد المطالب (١)

ثم كلفت فى أن أقول فى ذلك ، وأنا أعتذر بأن هذين لم يتركا لى ما أقول :

وذاتِ حَنينٍ لا تزال مُطِيفَة تئن وتبكى بالدموع السواكب (٢)
كأن أليفاً بانَ عنها فأصْبَحَتْ بمَرْبعِهِ كالصَّبِّ بعد الحبائب
إذا ابْتَسَمَتْ فيها الرياض شَماتَةً تَرُعْها بأمْثَالِ السيوف القَوَاضِبِ (٣)
فكم رَقَصَتْ أغصانُهَا فرَمَتْ لها نِثارًا كما بدَدْتَ حَلْى الكواعب (٤)
لقد سخطت منها الثغورُ وأرضَتِ الـــقدودَ ولم تَحْفِلْ بتثريب عائب
شربْتُ على تحْنَانها ذهبيَّــةً ذخيرةَ كسرى فى العصور الذواهب
فهاجَتْ لى الكأسُ ادِّكَارَ مغاضِبٍ فَحَاكَيْتُهَا وَجْدًا بذاك المغاضب (٥)
فلا تدع التبريز فى كثرة الهوى فلولاى كانت فيه إحدى العجائب

قال : وقلت بغرناطة :

باكر اللهو وَمَنْ شاء عَتَبْ لا يَلَذُّ العيشُ إلا بالطَّرَبْ
ما توَانى من رأى الزهْرَ زها والصَّبَا تمرَحُ فى الروْضِ خَبَبْ
وشَذاه صانَهُ حتّى اغتــدى بين أيدى الريح غَصْباً يُنْتَهب
يا نسيماً عطّر الأرجاء ، هل بعثوا ضمنك ما يشفى الكرب؟
هُمْ أعلُّوه وهم يَشْــفُونَه لاشفاه الله من ذاك الوَصَبْ!
خَلَع الروضُ عليه زهْــرَهُ حين وافى من ذَرَا كم فِعْلَ صَبّ
فأبى إلا شَــذَاه فانْــثَنَى حاملاً من عَرْفِهِ ما قد غصب
لستُ ذا نُكْرٍ لأن يُشْبِهكم مَنْ بعثتم ، غيرُ ذا منه العجب

(١) أخذ هذا من قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى :

وأحسن نور من تفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

(٢) فى ب « لاتزال مطيقة » بالقاف — محرفا

(٣) القواضب : جمع قاضب ، وهو القاطع من السيوف

(٤) الكواعب : جمع كاعب ، وهى الجارية التى كعب ثديها ونهد ، ووقع فى ب « كما بدرت » محرفا ، وأثبتنا ما فى ا

(٥) وقع فى ب « فهاجيتها » وأثبتنا ما فى ا

غالَبَ الأغصان فى بَدْأَتِهِ ثم لما زاد أعطته الغَلَبْ
فبَكَى الطلُّ عليها رحمةً أو بكى من وَعْظ طَيْرٍ قد خَطَبْ [١]
كُلُّ هذا قد دَعانى لِلَّتِى ملكت رقى على مر الحِقَبْ [٢]
قَهْوَة أبسمُ من عُجْب لها عند ما تَبْسِمُ عُجْبًا عن حَبَبْ [٣]
حاكت الخمر فلما شعشعت قُلْتُ ما للخمر بالماء الْتَهَبْ [٤]
و بدَت من كأسها لى فضّة ملئت إذ جَمَدت ذَوْبَ الذهبْ
أُسقِنِيها من يَدَىْ مشبهها بالذى يحويه طَرْف وشَنَبْ [٥]
لا جَعَلْت الدهر نَقْلِى غير ما لذَّلِي من ريق ثَغْرٍ كالْضَّرَبْ
لا جَعَلْتُ الدهرَ رَيْحانى سِوَى ما بخَدَّيْه من الوَرْدِ انتخبْ
لم أزل أقطعُ دهرى هٰكذا وكذا أقْطَعُ منه المرتقبْ
حبَّذا عيش قَطَعْناه لَدَى معطف الخابور ما فيه نَصَبْ
مع من لم يدر يوماً ما الجفا من أراح الصب فيه من تَعَبْ
كل ما يصدر منه حسن لم يذقنى فى الهوى مر الغضب
أى عيش سمح الدهر به كل نعمى ذهبت لما ذهبْ

قال : ودخلت بتونس مع أبى العباس الغَسَّانى حماماً ، فنظرنا إلى غِلمان فى نهاية الحسن ونُعُومة الأبدان ، فقلت مخاطباً له :

دخلت حماما وقصدى به تنعيم جسم فَغَدَا لى عذاب
قلت لَظًى فاعترضت حُورُهُ وقلت عَدْن فنهانى التهاب

---

(١) الطل ـ بفتح الطاء ـ الضعيف من المطر، وفى الكتاب الكريم (فإن لم يصبها وابل فطل) .
(٢) الحقب ـ بكسر الحاء وفتح القاف ـ السنون ، واحدها حقبة .
(٣) الحبب ـ بفتح الحاء والباء جميعا ـ مايعلو وجه الماء من النفاخات يشبهها الشراب بالدر . (٤) شعشع الخمر : مزجها بالماء ، وفى معلقة عمرو بن كلثوم :
مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
(٥) الشنب ـ بفتح الشين والنون جميعا ـ صفاء ورقة مع برودة وعذوبة فى الفم

وأنت فى الفضل إمام فكن ... فى الحكم ممن حاز فصل الخطاب

فقال :

لا تأمَنِ الحمامَ فى فعله ... فليس ما يأتيه عندى صواب

فما أرى أخْدَعَ منه ولا ... أكذب إلا أن يكون السراب

يُبْدى لك الغيد كحور الدمى ... ويُلْبِس الشيخَ بُرُودَ الشباب (١)

ظن به النار فلا جنة ... للحسن إلا ما حوته الثياب

الهودج متنزه من متنزهات الفاطميين بمصر بناه الآمر

ومن فوائده - أعنى ابن سعيد رحمه الله تعالى ! - فى كتابه المحلى بالأشعار نقلا عن القرطبى قضية بناء الهودج بروضة مصر ، وهو من متنزهات الخلفاء الفاطميين العظيمة العجيبة البناء البديعة ، وذلك أنه يقال : إن البانى له الخليفة الآمر بأحكام الله ، للبدوية التى غلب عليه حبها ، بجوار البستان المختار ، وكان يتردد إليه كثيراً وقتل وهو متوجه إليه ، وما زال متنزهاً للخلفاء من بعده .

وقد أكثر الناس فى حديث البدوية وابن مَيَّاح من بنى عمها ، وما يتعلق بذلك من ذكر الآمر ، حتى صارت رواياتهم فى هذا الشأن كحديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك ، والاختصار منه أن يقال : إن الآمر قد كان بُلِى بعشق الجوارى العربيات ، وصارت له عيون فى البوادى ، فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرفهم ، شاعرة جميلة ، فيقال : إنه تزيا بزى بُدَاة الأعراب (٢) ، وكان يجول فى الأحياء إلى أن انتهى إلى حيها ، و بات هنالك ، وتحيل حتى عاينها هناك ، فما ملك صبره ، ورجع إلى مقر ملكه ، وأرسل إلى أهلها يخطبها ، وتزوجها ، فلما وصلت إليه صَعُبَ عليها مفارقة ما اعتادت ، وأحبت أن تسرِّح طرفها فى الفضاء ،

---

(١) يبدى : يظهر ، والغيد : جمع أغيد أو غيداء ، والأغيد : الذى لانت أعطافه ومالت عنقه ، والحور : جمع أحور أو حوراء ، والدمى : جمع دمية ، وهى الصورة من العاج ، والبرود : جمع برد ، وهو الثوب .

(٢) البداة - بالدال المهملة - جمع باد ، مثل غزاة فى جمع غاز ، والبادى : الذى يسكن البادية ، ووقع فى ب « بذاة » بالذال المعجمة - محرفا ، وأثبتنا ما فى ا

ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة ، فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفُسْطاط المعروف بالهودج ، وكان غريب الشكل ، على شط النيل ، و بقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها رُبِّيتْ معه ، يعرف بابن مَيَّاح ، فكتبت إليه من قصر الآمر :

يا ابن مَيَّاحٍ إليك المشتكى ... مالك من بعدكم قد ملكا

كنت فى حي طليقاً آمراً ... نائلا ماشئت منكم مدركا

فأنا الآن بقصر مُوصَدٍ ... لا أرى إلا حَبيسًا ممسكا

كم تثنينا كأغصان النقا ... حيث لانخشى علينا دَرَكا[١]

فأجابها فقال :

بنتَ عمى والتى غَذَّيْتُهَا ... بالهوى حتى علا واحتبكا

بُحْتِ بالشكوى وعندى ضِعْفُها ... لو غدَا يَنْفَعُ مِنَّا المُشْتَكَى

مالكُ الأمر إليه يُشْتَكَى ... هالك ، وهْو الذى قد أهلكا[٢]

قال : وللناس فى طلب ابن مَيّاح واختفائه أخبار تطول .

بعض خبر طراد ابن مهلهل الطائى

وكان من عرب طيء فى عصر الآمر طِرَادٍ بن مهلهل ، فقال وقد بلغته هذه الأبيات :

ألا بلغوا الآمر المُصْطفَى ... مَقَال طِرَادٍ ونعم المقال

قطعت الأليفين عن أُلفة ... بها سَمَرُ الحمى حول الرحال

كذا كان آباؤك الأكرمون ... سألت فقل لى جواب السؤال

فقال الخليفة الآمر لما بلغته الأبيات : جوابُ سؤاله قطع لسانه على فضوله ، فطُلب فى أحياء العرب فلم يوجد ، فقيل : ما أخسرَ صَفْقةَ طراد ، باع عدة أبيات[٣] بثلاثة أبيات .

(١) تثنينا : ملنا ، ووقع فى ا « كأغصان اللوى »

(٢) فى ب « وهو الذى قد هلكا » وأثبتنا مافى ا

(٣) فى نسخة عند ا « باع أبيات الحى » .

مكين الدولة أبو طالب أحمد ابن عبد المجيد متولى القضاء بالإسكندرية وعلو همته

وكان بالإسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد ابن الحسن بن حَدِيد ، له مروءة عظيمة ، ويحتذى أفعالَ البرامكة ، وللشعراء فيه أمداح كثيرة ، ومدحه ظافر الحداد وأمية أبو الصَّلْت وغيرهما ، وكان له بستان يتفرَّج فيه ، به جُرْن كبير من رخام ، وهو قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره ، وكان يرى فى نفسه برؤيته زيادة على أهل التنعم والمباهاة فى عصره ، فوشى به للبدوية محبوبة الآمر ، فسألت الآمِرَ فى حمل الْجُرْن إليها ، فأرسل إلى ابن حديد فى إحضار الجرن ، فلم يجد بُدًّا من حمله من البستان ، فلما صار إلى الآمر أمر بعمله فى الهودج ، فقلق ابن حَديد ، وصارت فى قلبه حزازة من أخذ الجرن ، فأخذ يخدم البدوية وجميع من يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد فى الكثرة ، حتى قالت البدوية : هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ، ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا ، فلما قيل له عنها هذا القول قال : مالى حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها فى عز غير رَدِّ السَّقِيَّة[1] التى قُلِعت من دارى التى بنيتها فى أيامهم من نعمتهم تُرَدُّ إلى مكانها ، فتعجبت من ذلك ، وردتها عليه ، فقيل له : قد حصلت فى حد أن خَيَّرَتْكَ البدوية فى جميع المطالب ، فنزلت همتك إلى قطعة حجر ، فقال : أنا أعْرَفُ بنفسى ، ما كان لها أمل سوى أن لاتغلب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه ، وقد بلغها الله تعالى أملها .

وكان هذا المكين متولى قضاء الإسكندرية ونظرها فى أيام الآمر، و بلغ من علو همته وعظيم مروءته أن سلطان الملوك حَيْدَرة أخا الوزير المأمون بن البطائحى[2] لما قلّده الآمِرُ ولاية ثغر الإسكندرية سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وأضاف إليها

(١) هكذا فى ا ، ووقع فى نسخة عندها «الفسقية» بزيادة الفاء ، وليست بعربية

(٢) نسبة إلى البطائح ، وهو موضع بعينه بين واسط والبصرة .

الأعمال البحرية ، ووصل إلى الثغر - وصف له الطبيب دهن الشمع بحضرة القاضى المذكور ، فأمر فى الحال بعضَ غلمانه بالمضىِّ إلى داره لإحضار دهن الشمع فما كان أكثر من مسافة الطريق إلا وقد أحضر حُقًّا مختوماً ، ففك عنه ، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مُدَاف بلور فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر : بيت دهن مُمَسك ، و بيت دهن بكافور ، و بيت دهن بعنبر طيب ، ولم يكن فيه شىء مصنوع لوقته ، فعندما أحضره الرسولُ تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته ، فعندما شاهد القاضى ذلك بالَغَ فى شكر إنعامه ، وحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه ، وكان [من] جواب المؤتمن : وقد قبلته منك لا لحاجة إليه ، ولا نظر فى قيمته ، بل لإظهار هذه الهمة و إذاعتها ، وذكر أن قيمة هذا المُدَاف وما عليه خمسمائة دينار .

فانظر رحمك الله تعالى إلى مَنْ يكون دهن الشمع عنده فى إناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لايكاد أكثر الناس يحتاج إليه ، فماذا تكون ثيابه وحُلى نسائه وفرش داره وغيرذلك من التجملات ؟ وهذا إنما هوحال قاضى الإسكندرية ومَنْ قاضى الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة ؟ ! وما نسبة أعيان الدولة و إن عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة وأبهتها إلا يسير حقير .

مقتل الآمر الفاطمى فى طريق الهودج

وما زال الخليفة الآمر يتردد إلى الهودج المذكور إلى أن ركب يوم الثلاثاء رابع القعدة سنة ٥٢٤ يريد الهودج ، وقد كمن له عدة من النزارية (١) على رأس الجسر من ناحية الروضة ، فوثبوا عليه ، وأثخنوه بالجراحة ، وحمل فى العُشَارِىِّ إلى اللؤلؤة (٢) ، فمات بها ، وقيل : قبل أن يصل إليه ، وقد خرب هذا الهودج ، وجهل مكانه من الروضة ، ولله عاقبة الأمور ، نقل ذلك كله الحافظ المقريزى ، رحمه الله تعالى! .

---

(١) « النزارية » فى بعض الأمهات أنهم من الإسماعيلية ، وفى ابن خلكان فى ترجمة الآمر « فكمن له قوم بالأسلحة وتواعدوا على قتله فى السكة التى يمر فيها إلى فرن هناك ، فلما مر بهم وثبوا عليه فلعبوا عليه بأسيافهم » اه .

(٢) العشارى : ضرب من السفن ، ومنظرة اللؤلؤة : كانت نزهة الخلفاء الفاطميين ، وكانت بها قصورهم ، بناها العزيز ، وهدمها الحاكم، وجددها الظاهر

بعض شعر شهاب الدين التلعفرى ووالده

قال النور ابن سعيد ، ومن خطه نقلت : لما نزلنا بتَلَّعْفَر (١) حين خرجنا من سِنْجَار إلى الموصل سألت أحد شيوخنا عن والد شهاب الدين التَّلَّعْفَرِى ، فقال : أنا أدركته ، وكان كثير التجول ، وأنشدنى لنفسه فى عيد أدركه فى غير بلده :

يبتهج الناس إذا عَيَّدُوا وعنـــد سَرَّائهمُ أكمد
لأننى أبصر أحبابهـــم ومقلتى محبوبَهَـــا تَفْقِدُ

قال : وخرج ابنه الشهاب أجول منه شخصا ، وشعرا ، وصدق فيما قاله .

وأنشد ابن سعيد للشهاب التلعفرى :

لك ثغرٌ كلؤلؤ فى عقيق ورُضاب كالشُّهْد أو كالرَّحِيقِ (٢)
وجُفُونٌ لم يمتشق سيفها إلا لمُغْرًى بقَدِّكَ المشوقِ (٣)
تِهْتَ عُجْباً بكل فن من الحســـن جليل وكل معنى دقيق
وتفردْت بالجمـــال الذى خَـــلاَّكَ مستوحشاً بغير رفيق
باللحاظ التى بِهَا لم تزل تر شُقُ قلبى وبالْقَوَام الرَّشِيق (٤)
لا تُغِرْ بالغوير إذ تَتَثَـنَّى فيه أعْطَافَ كل غصن وَرِيقِ (٥)
واثْنِ محمَرَّ وَرْدِ خَدَّيْكَ واستر هُ وإلاَّ يَنْشَقُّ قلبُ الشفيق

بعض خبر الشهاب التلعفرى

قال ابن سعيد : وحظى الشهاب التلعفرى بمُنَادمة الملوك ، وكونهم يقدمونه ، ويُقْبِلون على شعره ، وعهدى به لا ينشد أحدٌ قبله فى مجلس الملك الناصر ، على

---

(١) أصل هذه الكلمة « تل أعفر » ويقال « تل يعفر » ويقال « التل الأعفر » ثم أدمجت إحدى الكلمتين فى الأخرى لكثرة الاستعمال فصارت كما ترى وإليها ينسب الشهاب التلعفرى الشاعر المعروف .

(٢) الشهد ــ بضم الشين أو فتحها ــ العسل ، والرحيق : الخمر .

(٣) القد : القوام ، والممشوق : المعتدل ، الذى يشبه السيف إذا امتشقه صاحبه : أى استله من غمده .

(٤) فى ب « باللحاظ التى لها لم تزل ــ إلخ »

(٥) لا تغر : أى لا تـ الغيرة ، وتتثنى : تميل ، والغصن الوريق : الكثير الورق ، وأراد الاخضر اليانع

كثرة الشعراء ، وكثرة من يعتنى بهم ، ولما جمعتُ للملك الناصر كتابَ ملوك الشعر جعلتُ ملك شعر الشهاب البيت الرابع من المقطوعة المتقدمة ، فإنه كان كثيراً ما ينشده ، وينوه به ، والتشفى من ذكر الشهاب ومحاسن شعره له مكان بكتاب « الغرة الطالعة ، فى فضلاء المائة السابعة » وهو الآن عند الملك المنصور صاحب حَمَاة قد عَلَتْ سنه ، وما فارقه غرامه ودَنُّه ، انتهى .

بعض أخبار الملك العادل عن ابن سعيد

ولما أجرى ابنُ سعيد فى بعض مصنفاته ذكْرَ الملك العادل بن أيوب قال ما نصه : وكان من أعظم السلاطين دَهاَء وحَزْماً ، وكان يضرب به المثل فى إفساد القلوب على أعدائه و إصلاحها له ، ويحكى أنه بَشَّره شخص بأن أميراً من أمراء الأفضل بن صلاح الدين فَسَد عليه ، فأعطاه مالا جزيلا ، وأرسل مستخفياً إلى المذكور يزيده بصيرة فى الانحراف عن الأفضل ، ويَعِده بما يفسد الصالح فكيف الفاسد ، قال : وكان يمنع حتى يوصف بالبخل ، ويجود فى مواضع الجود حتى يوصف بالسَّمَاح ، وكان صلاح الدين ـ وهو السلطان ـ يأخذ برأيه ، وقدم له أحدُ المصنفين كتاباً مُصَوراً فى مكايد الحروب ومنازلة المدن ، وهو حينئذ على عَكاّ محاصراً للفرنج ، فقال له : ما نحتاج إلى هذا الكتاب ومعنا أخونا أبو بكر ، وكان كثير المُدَاراة والحزم ، ومن حكاياته فى ذلك أن أحد الأشياخ من خَوَاصِّه قال له يوما ، وهو على سماطه يأكل : ياخُوَنْدُ ، ماوفيتَ معى ولا رعيت سابق خدمتى ، وكلمه بدَالَّةِ السن وقِدَم الصحبة قبل الملك ، فقال لمماليكه : أُنظروا وسَطه ، فحلُّوا الكَمَرَانَ وقال : خذوا الصرة التى فيه ، فوجدوا صُرَّة ، فقال : افتحوها ، ففتحوها فإذا فيها ذَرُور ، فقال العادل : كُلْ مِنْ هذا الذرور ، فتوقف ، وعلم أنه مُطَّلع على أنه سم ، فقال : كيف نَسَبْتنى إلى قلة الوفاء ، وأنا منذ سنين أعلم أنك تريد أن تسمنى بهذا السم ، وقد جعل لك الملك الفلانى على ذلك عشرةَ آلافِ دينار ، فلا أنا أمكنتك من نفسى ، ولا أشعرتك ، لئلا يكون فى ذلك مالا خفاء به ، وتركتك على حالك ، وأنا مع هذا لا أُغير عليك نعمة ، ثم قال : ردوا سمه إلى

كَمَرَانِهِ ، لاأبقى الله تعالى عليه إن قدر وأبقى على ، فجعل يقبل الأرض ويقول : هكذا والله كان ، وأنا تائب لله تعالى ، ثم إن الشيخ جَدَّد توبة ، واستأنف أدباً آخر وخدمة أخرى ، وكانت هذه الفعلة من إحدى عجائب العادل .

قال : وكان كثير المصانعات [١] حتى إنه يَصُوغ الحلى الذى يصلح لنساء الفرنج ويُوَجِّه فى الخفية إليهنّ ، حتى يمسكن أزواجهنّ عن الحركة ، وله فى ذلك مع ملوك الإسلام ما يطول ذكره .

ولما خرج ابنُ أخيه المعز إسماعيل بن طغتكين [٢] باليمن ، وخطب لنفسه بالخلافة ، وكتب له أن يبايعه ويخطب له فى بلاده ، كان فى الجماعة مَنْ أشار إلى النظر فى توجيه عسكر له فى البر والبحر ، وإنفاق الأموال قبل أن يتفاقم أمره ، فضحك وقال : مَنْ يكون عقله هـذا العقل لا يحوج خصمه إلى كبير مؤنة ، أنا أعرف كيف أفسد عليه حالَهُ فى بلاده ، فضلا عن أن يتطرق فساده لبلادى ، ثم إنه وجه فى السر لأصحاب دَوْلته بالوعد والوعيد وقال لهم : أنتم تعلمون بعقولكم أن هذا لا يسوغ لى ، فكيف يسوغ له ؟ وقد أدخل نفسه فى أمر لا يخرج منه إلا بهلاكه ، فاحذروا أن تهلكوا معه ، واتعظوا بالآية (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) وما لهذا عقل يدبر به نفسه ، فكيف يفضل عن تدبير خاصته إليكم (ولتعلمنّ نبأه بعد حين) فعند ما وَعَتْ أسماعُهم هذا وتدبروه بعقولهم قبضوا عليه وقتلوه ، وعادت البلاد للعادل ، وقال للمشيرين عليه فى أول الأمر بتجهيز العسكر : قد كُفِينا المؤنة بأيسر شىء من المال ، ولو حاولناه بما أشرتم به لم تقم خزائن ملكنا بالبلوغ إلى غايته .

وكان ـ على ما بلغه من عَظَمة السلطان ، واتساع الممالك ـ يحكى ما جرى له من [٣] زمان خُلُوِّهِ من ذلك ، ويحب الاستماع لنوادر أنذال العالم [٤] ، واشتهر فى

---

(١) فى ا « كثير المصايغات »

(٢) فى ا « ظفر كين » وفى نسخة عندها « طغركين » وكلاهما تحريف .

(٣) فى ا « فى زمان خلوه ـ إلخ » . (٤) فى نسخة عند ا « أنزال العالم »

خدمته مَساخر أشهرهم خضير صاحب البستان المشهور عند الربوة بغُوطَة دمشق ومن نوادره الحارَّة معه[١] أنه سمعه يوما وهو يقول فى وضوئه : اللهم حاسبنى حساباً يسيراً ، ولا تحاسبنى حساباً عسيراً ، فقال له : ياخُوَنْدُ على أى شىء يحاسبك حساباً عسيراً ؟ إذا قال لك : أين أموال الخلق التى أخذتها ؟ فقل له : تراها بأماتها فى الكرك ، وكان قد صنع بهذا المعقل الحسرات ، سميت بذلك لأن من رآها يتحسر إذانظرها ، ولايستطيع على شىء منها بحيلة ، وهى خواب[٢] مفروغة من ذهب وفضة تركت بمرأى من الناظرين ليشتهر ذلك فى الآفاق .

وقال العادل مرة ، وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم ممن ذكر فى كتاب « المستجاد ، فى حكايات الأجواد » : إنما هذا كذب مختلق من الورَّاقين ومن المؤرخين ، يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والأكابر للسخاء وتبذير الأموال فقال خضير : يا خُوَنْدُ ، ولأى شىء لا يكذبون عليك ؟

قال ابن سعيد : مَنْ وقف على حكايات أبى العَيْناء مع عُبَيْد الله بن سليمان يجد مثل هذه الحكاية .

قال ابن سعيد : ووجدت الشهاب القوصى قد ذكر السلطان العادل فى كتاب « المعاجم » وابتدأ الكتاب المذكور بمحاسنه والثناء عليه ، وخرَّج عنه الحديث النبوى عن الحافظ السِّلَفى ، وتمثل فيه عند وفاته :

ألامُ على بُكائى خيرَ مَلْكٍ ... وقَلَّ له بكائى بالنَّجِيع[٣]

به كان الشبابُ جميع عُمْرِى ... ودَهْرِى كله زمن الربيع

ففرَّقَ بيننا زمَنٌ خؤن ... له شَغَف بتفريق الجميع

قال ابن سعيد : ودفن العادل بالمدرسة العادلية[٤] بدمشق ، وكان أنشأها للشافعية ،

---

(١) هكذا فى ا ، ووقع فى ب « الحاضرة منه »

(٢) خواب : جمع خابية ، وهى الحب ـ بضم الحاء ـ أى الزير ، وهكذا وقع فى ا ، ووقع فى ب « وهى خراب » بالراء ـ محرفا

(٣) النجيع : الدم ، وقيل : دم الجوف خاصة

(٤) فى ب « بمدرسته العادلية »

وهى فى نهاية الحسن ، وبها خزانة كتب ، فيها تاريخ ابن عساكر ، وذيل هذا التاريخ واختصره أبو شامة ، سمعت عليه منه هنالك ما تيسر أيام إقامتى بدمشق.

وأولاد العادل ملوك البلاد فى صدر هذه المائة السابعة ، منهم الكامل والمعظم والأشرف ، وهؤلاء الثلاثة شهروا بالفضل وحب الفضلاء وقول الشعراء ، انتهى .

شىء من خبر أحمد بن سعيد المرذغانى

وقال ابن سعيد ، فى ترجمة الرئيس صفى الدين أحمد بن سعيد المرذغانى[١] ، وهو من بيت وزارة ورياسة بدمشق : إن من شعره قوله :

كيف طابت نفوسُكم بفراقى وفراقُ الأحباب مُرُّ المَذَاقِ

لو علمتم بلَوْعَتِى وصَبابا تِى ووَجْدِى وزَفْرَتِى واحتراقى

لَرَثَيْتُمْ للمسْتَهَام المُعَنّى ووفيتم بالعهد والميثاق

قال ابن سعيد : وقفت على ذكر هذا الرئيس فى كتاب « تاج المعاجم » ووجدت صاحبه الشهاب القوصى قد قال : أخبرنى بدمشق أنه قد كان عزم على السفر منها إلى مصر ، لأمر ضاق به صدره ، فهتف به هاتف فى النوم ، وأنشده :

يا أحْمَدُ اُقْنَعْ بالذى أُعْطِيتَهُ إن كُنْتَ لاتَرْضَى لنفسك ذُلّهَا

وَدَعِ التكاثر فى الغِنَى لمعاشر أضحَوْا على جَمْعِ الدراهم وُلّهَا

واعْلَمْ بأن الله جلَّ جَلاَلُهُ لم يخلق الدنيا لأجلك كلّهَا

فانثنى عزمه عن الحركة ، ثم بلغ ما أمّله دون سفر .

بعض خبر أحمد بن عبد الكريم دفترخوان

وقال ابن سعيد ، فى ترجمة المنتخب أحمد بن عبد الكريم الدمشقى المعروف بدِفتِرْخُوَان ، وهو الذى يقرأ[٢] الدفاتر بين أيدى الملوك والأكابر : إنه كان يقرأ الدفاتر بين يدى العادل بن أيوب ، وكان يكتب له بالأشعار فى المواسم والفصول ، فينال من خيره ، وكتب له مرة وقد أظل الشتاء[٣] فى دمشق فقال :

---

(١) فى ا « أحمد بن سعد المرذغانى » وفي ب « أحمد بن سعيد المردغانى » وفى نسخة عند ا « المزدغانى » (٢) فى ب « وهو الذى كان يقرأ »

(٣) فى أصل ا « وقد أطل الشتاء »

مَوْلاَى جاء الشتاءُ والكيس منه خَلاَءُ[1]
لا زَالَ يَجْرى بماتر تَضِى عُلاكَ القَضَاءُ
وكلُّ كافٍ إليه يُحْتَاج فيه التواءُ[2]

فقال له العادل : هذا الضمير الذى فى البيت الأول على ماذا يعود؟ قال : بحسب مكارم السلطان ، إن شئت على الدراهم ، وإن شئت على الدنانير ! فضحك وقال : هات كيسك ، فأخرج له كيساً يسع قدر مائة دينار ، فملأه له ، وقال : أظنه كان مُعَدّا عندك ، فقال : مثل السلطان مَنْ يكون جوده مظنونا .

وكتب إليه مرة وقد أملق :

أنظر إلىَّ بعين جُودِكَ مرةً فلعلَّ محروم المطالب يرزق
طَيْرُ الرجاء على عُلاك مُحَلِّق وأظنُّه سيعود وَهْوَ مخلق

فأعطاه جملة دنانير ، وقال له : أُشْتَرِ بهذه ما تخلق به طير رجائك ، انتهى .

بين الرباطى وابن الربيب

وأنشد ابن سعيد رحمه الله تعالى لبعض المغاربة ، وهو أبو الحسن على بن مروان الرباطى[3] الكاتب :

أُنْسُ أخى الفضل كتابٌ أنيق أو صاحبٌ يُغْنَى بوُد وثيق
فإن تُعِرْهُ دونَ رَهْن به تخسَرْهُ أو تخسَرْ وداد الصديق
ورُبَّما تخسر هٰذاَ وذا فاسْمَعْ رعاكَ اللهُ نُصْحَ الشفيق

قال : وأجابه المخاطب بهذه الأبيات ، وهو ابن الرَّبيب ، بنثر نصه : مثلك يُفِيد تجربة قد نفق عليها عمر ، وضل عن فوائدها غِرٌّ غُمْر ، وقد أنفذتُ رهناً لا يسمح بإخراجه من اليد إلا إليك ، فتفضل بتوجيه الجزء الأول ، فأنا أعلم أنه عندك

(١) فى أصل ا « والكيس منها خلاء » وهو أنسب بالدراهم والدنانير .
(٢) يشير إلى كافات الشتاء المشهورة ، وقد جمعها ابن سكرة فى بيت واحد حيث يقول :

جاء الشتاء وعندى من حوائجه سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كن وكيس وكانون وكأس طلا بعد الكباب و...... ناعم وكسا

(٣) فى أصل ا « الزناطى »

مثل ولدك ، قال : فوجهه ومعه بطاقة صغيرة فيها : يا أخى ، إن عرضت بولدى فكذلك كنت مع والدى وقد توارثنا العقوق كابراً عن كابر، فكن شاكراً فإنى صابر

ثم قال ابن سعيد : وتفاقم أمر ولده فقيَّده بقيد حديد وقال فيه :

بعض أخبار أبي الحسن الرباطى

لى وَلَدٌ يا ليتــه لم يَكُ عندى يُخْلَقُ
يجهد فى كل الذى يرغم وهو يُعْشَقُ
وإن أكن قيَّدْتُهُ دمعى عليه مُطْلَقُ

وذكر ابن سعيد أن الكاتب أبا الحسن المذكور كان كثيرا ما يستعير الكتب ، فإذا طُلبت منه فكأنها ما كانت ، فذكر لبعض أصحابه ـ وهو ابن الربيب المؤرخ ـ أن عنده نسخة جليلة من تاريخ عَرِيب الذى لخص فيه تاريخ الطبرى واستدرك عليه ما هو من شرطه وذيل ما حدث بعده ، فأرسل إليه فى استعارتها ، فكتب إليه : يا أخى ، سَدَّد الله آراءك ، وجعل عقلك أمامك لا وراءك ، ما يلزمنى من كونك مُضَيِّعا أن أكون كذلك ، والنسخة التى رُمْتَ إعارتها هى مؤنسى إذا أوحشنى الناس ، وكاتم سرى إذا خانونى ، فما أعيرها إلا بشىء أَعْلَمَ أنك تتأذَّى بفقده إذا فقد جزء من النسخة ، وأنا الذى أقول :

* أنس أخى الفضل كتاب أنيق *

إلى آخره :

وأنشد للكاتب أبى الحسن المذكور :

إنَّ ذاك العِذَار قام بِعُذْرِى وفَشَا فيــه للعَوَاذل سِرِّى
ما رأينـا من قبل ذلك مسكاً صاغ منــه الإلهُ هالَةَ بَدْرِ
أىُّ آسٍ مِنْ حَوْل جنـةِ وردٍ ليس منه آسٍ مَدَى الدهر يُبْرِى[1]

(١) آس فى أول البيت اسم لنوع من الريحان ، وآس فى النصف الثانى اسم ففاعل من أسا الطبيب المريض يأسوه فهو آس ، إذا عالجه ، ويبرى : أصله يبرىء القلب الهمزة باء لتطرفها إثر كسرة .

ولما اشتد مرضه بين تِلِمْسَان وفاس قال هذه الأبيات ، وأوصى أن تكتب على قبره :

ألا رحم الله حَيًّا دعا لمَيْتٍ قضى بالفلانْحبَهْ
تمر السَّوافِى على قبره فتهدى لأحبابه تربَهُ
وليس له عملٌ يرتجى ولكنه يرتجى ربَّهُ

رجع إلى نظم ابن سعيد المترجم به ، فنقول :

من نظم ابن سعيد

وقال لما سار المعظم من حصن كيفا ، وآل أمره إلى الملك ، ثم القتل والهلك :

ليت المعظم لم يَسِرْ من حصنه يوما ولا وافى إلى أملاكه
إن العناصِرَ إذ رأته مكمَّلاً حَسَدَته فاجْتمَعَتْ على إهلاكه

ومما نقلته من ديوانه الذى رتبه على حروف المعجم قوله ـ رحمه الله تعالى ! ـ وقلت بالقاهرة على لسان من كلفنى ذلك :

شرفَ الدين أبِنْ لى ما السبب فى انقلاب الدهر لى عند الغضب
فلْتَدُمْ غضبان أظفر بالمنى ليس لى فى غير هذا من أرب
إنما ظهرك عنـدى قبلة ووضوئى الدهر من ذاك الشَّنَبْ(١)

وأستغفر الله من قول الكذب ، قال : وقلت بإشبيلِيَةَ :

قد جاء نصر الله والفتح والصبح لما رضيت صبح
فهنِّئونى بارتجاع المنى لولا الرضا ما برح البَرْحُ(٢)
يا أورقا يا غُصُـنـاً يانقاً ياظبيـة بالليـل يا صبح
يصحو جميع الناس من سكرهم ولست من سكركُمُ أصحو
بلغت فيـه غاية لم يُبِنْ غايتَهَا التفسير والشرح
و ينصح العذال ، مَنْ لى بأن يعذلنى عن غيك النصح

---

(١) الشنب ـ بفتح الشين والنون جميعا ـ عذوبة ورقة وماء فى الأسنان .
(٢) البرح ـ بفتح الباء وسكون الراء ـ الشر والأذي والشدة .

وقلت بإشْبِيلِيَةَ :

وضح الصبح فأين القَدَحُ يعرف اللذات من يصطبح
ما ترى الليل كطِرْفٍ أدهم وضياء الفجر فيه وضح (١)
والثرى دبّجه دَرُّ الندى وعلى الأغصان منه وُشُحُ
ومدير الراح لم يَعْدُ المنى كل ما يأتى به مقترح (٢)
فى بطاح المرج قد نادمنى رشأ من سكره ينبطح
جعل المسواك ستراً للمنى فكأنْ قبّلَ فاه قُزَحُ
كلما شئت الذى قد شاءه فحشى لى كاسَهُ أفتتحُ
ما أبالى أن رآنى كاشح أم رآنى من لديه نُصُحُ
هكذا العيش ودع عيش الذى خاف من نقد إذا يفتضح

وقلت بشَرِيشَ :

طاب الشراب لمعشر سُلبوا المروءة فاستراحوا
لا يعرفون تسترا السكر عندهم مُباحُ
متهتكون لدى المنى وفسادهم فيها صلاح (٣)
ساقيهمُ متبذِّل هل يمنع الماء القراح
غصن يميل به الصَّبا ردته طوع الراح راح (٤)
طوع الأمانى كل ما يأتى به فهو اقتراح
ما إن نبالى إن بدا أن لا يلوح لنا الصباح
مازلت أرشف ثغره وعليه من عَضُدِى وشاح

---

(١) الطرف — بكسر الطاء — الفرس ، والأدهم : الأسود ، وأراد أنه أغر محجل
(٢) فى أصل ا « ومدير الخمر » والراح والخمر واحد (٣) فى أصل ا « يتهتكون لدى المنى »
(٤) فى ا « ردته طوع الروح راح » وماهنا عن ب أحسن ، والراح الأول : اسم الخمر ، والراح الثانى : الكف ، ويجوز العكس

والقلب يهفو طائرا وَلَعاً ولا يُخْشَى افتضاح
ولَوَ أننـا نخشاه كا ن لنامن الظَّلْما جَنَاحُ
لـكننا فى عصـبة ما فى تهتكهم جُنَاح
لاينكرون سوى ثقيـل لا أُيميـل به مزاحُ
أفنى الذى قد جَمَّعو ه الكأس والحدَقُ الملاح

وقلت بمراكش(١) :

قم هاتها لاح الصباح ماالعيش إلاالاصطباح
مع فتيـة ما دأبهم إلا المروءة والسماح
جر بتهم فوجـدتهم ما للمنى عنهم بَرَاحُ
يثنيهمُ نحو الصِّبا نقر المثانى والمراح(٢)
ما نادموا شخصاً فكا ن لهم بخدمته استِرَاحُ
بل يعرفون مكانه فله إذا شاء اقتراح
هم يتعبون وضيفهُم مادام عندهم يُرَاحُ
ما إن يملُّون النزيـل و بالرضامنه السراح
يدعونه بأجل ما يدعى به الحر الصُّراح(٣)
حتى إذا ما بان كدّ ر عيشهم منه انتزاح(٤)
فعـلى مثالهم يبا ح لىَ المدامع والنواح
كرهاً فقدتهمُ فما لى بعد بعدهم ارتياح
لله شوقى إن هفت من نحوأرضهم الرياح
فهناك قلبى طائر لهم ومن شوقى جَنَاحُ

---

(١) فى أصل ا « وقلت بأركش » وحصن أركش : قريب من قرطبة
(٢) المراح ـ بكسر الميم ـ الخفة والنشاط
(٣) الصراح ـ بضم الصاد ـ الخالص النسب (٤) بان : بعد وفارق

قال : وقلت بمدينة ابن السليم فى وصف كلب صيد أسود فى عنقه بياض :

وأدهم دون حَلْيٍ ظل حالى كأنْ لَيْلاً يقلده صباح
يطير وماله ريش ولكن متى يهفو فأربَعُهُ جَناح
تكلُّ الطير مهما نازعته وتحسده إذا مرقَ الرياح
له الألحاظ مهما جاء سلك ومهما سار فهى له وشاح

وقلت فى نيل مصر :

يانيل مِصْرأيْنَ حِمْصُ ونَهْرُهَا حيث المناظر أنجم تلتاح(١)
فى كل شط للنواظر مسرح تدعو إليه منازح و بطاح(٢)
و إذاسبحْتُ فلست أسبح خائفاً ما فيه تيارٌ ولا تمساح

قال : وقلت وقد حضرت مع إخوان لى بموضع يعرف بالسلطانية على نهر إشْبِيلِيَةَ وقد مالت الشمس للغروب :

رق الأصيلُ فواصِلِ الأقداحا واشرب إلى وقت الصباح صباحا
وانظر لشمس الأفق طائرةً وقد ألقتْ على صَفْحِ الخليج جناحا
فاظفر بصفو الأفق قبل غروبها واستنطق المثنى وحُثَّ الراحا(٣)
متع جفونك فى الحديقة قبل أن يكسو الظلام جمالها أمساحا

وقلت بمُرْسِيَةَ :

أقلقه وجده فباحا وزاد تبريحه فناحا(٤)
ورام يثنى الدموع لما جرت فزادت له جماحا
يا من جفا فارفقن عليه مستعبد الابرى السراحا(٥)
يكابد الموت كل حين لو أنه مات لاستراحا

---

(١) فى نسخة عند ا « حيث المنازل أنجم تلتاح »
(٢) المنازح : الدلاء ، والبطاح : الأراضي الواسعة
(٣) المثنى : وتر من أوتار الغناء (٤) التبريح : شدة الجهد والمشقة
(٥) السراح : الفكاك والخلاص

ينزو إذا ما الرياح هبت كأنه يعشق الرياحا(١)
يسألها عن ربوع حمص لما نما عَرْفها وفاحا
كم قد بكى للحَمام كيما يعيره نحوها جناحا

قال : وخرجت مرة مع أبى إسحاق إبراهيم بن سَهْل الإسرائيلى إلى مَرْج الفضة بنهر إشْبِيليَةَ فتشاركنا فى هذا الشعر :

غيرى يميل إلى كَلاَم اللاحى ويَمُدُّ راحته لغير الراح
لا سيما والغصن يزهو زهره ويميل عطف الشارب المرتاح(٢)
وقد استطار القلبَ ساجعُ أيكه من كل ما أشكوه ليس بصاحِ
قد بان عنه جناحه عجباله من جانح للعجز حلف جناح(٣)
بين الرياض وقد غدا فى مأتم وتخاله قد ظل فى أفراح
الغصن يمرح تحته والنهر فى قَصْفٍ تزجِّيه يد الأرواح(٤)
وكأنما الأنسام فوق جنانه أعلام خَزٍّ فوق سُمْر رماح
لا غرو أن قامت عليه أسطر لما رأته مُدَرَّعاً لكفاح
فإذا تتابع موجه لدفاعه مالت عليه فظل حِلْفَ صياح(٥)

قال : وقلت بمالَقَةَ متشوّقا إلى الجزيرة الخضراء :

يا نسيماً من نحو تلك النواحى كيف بالله نَوْرُ تلك البِطَاح
أَسقتْهَا الغمام رِيًّا فلاحت فى رداء ومئزر ووشاح
أم جفته فصيرته هشيما تركته تَذْروه هُوجُ الرياح
يا زمانى بالحاجبية إنى لست من سكر ماسقيت بصاحى
آه مما لقيت بعدك من هَمٍّ وشوق وغربة وانتزاح

---

(١) ينزو : يثب (٢) فى ا « والغصن يزهز زهره »
(٣) فى نسخة « خلف جناح » (٤) الأرواح : جمع ريح
(٥) فى نسخة عند ا « خلف صياح »

أين قوم ألفتهم فيك لما قرّبَ الدهرُ آذنوا بالرواح

تركونى أسيرَ وجدٍ وشوق ما لقلبى من الجوى من سَرَاح

أسلمونى للويل حتى تولوا وأصاخوا ظلما لقول اللواحى

أعرضوا ثم عرّضونى لشوق ترك القلبَ مُثْخَناً بجراح(١)

أسهر الليل لست أغفِى لصبح أترى النوم ذاهباً بالصباح(٢)

قد بدا يظهر النجوم حُلِيًّا وهو من لبسة الصبا فى براح

مسبلا ستره مُنَعَّمَ بال وجفونى من سهده فى كفاح(٣)

أيها الليل لا تؤمل خلوداً عن قريب يمحو ظلامك ماح

ويلوح الصباح مشرقَ نورٍ فيه للمستهام بدء نجاح

إن يوم الفراق بدّد شملى طائراً ليته بغير جناح

حالك اللون شبه لونك فاعرف عن عيانى يا شبه طير النِّزَاح(٤)

وإذا ما بدا الصباح فما يشبه إلّا لَوْنَ الخدود الملاح

وقلت بالجزيرة الخضراء :

قد رُفِعَتْ راية الصباح تدعو الندامى للاصطباح

فبادروا للصَّبُوح إنى قد بعت فى غيه صلاحى

ولا تميلوا عن رَشْفِ ثغرٍ وسمع شَدْوٍ وشرب راح

وأنت يا من يروم نصحى قد يئس القوم من فَلَاَحى

فلست أصغى إلى نصيح مانهضت بالكؤوس راحى

قال : وقلت أمدح ملك إفريقية وأهنئه بقَتْل ثائر من زَنَاتَةَ يدّعى أنه من نسل يعقوب المنصور :

---

(١) تقول « أثخن فلان فلانا جراحا ، وبالجراح » إذا أوهنه وأضعفه بكثرة ما جرحه (٢) أغفى يغفى : نام ونعس (٣) فى ا «من شهده» محرفا ، والسهد : الأرق (٤) النزاح : البعد والفراق

بَرَّحَ بى مَنْ ليس عنه بَرَاحْ ... ومَنْ رأى قتلى حَلالاً مُباحْ
مَنْ صَرَّحَ الدمعُ بحُبِّى له ... وما لقلبى عن هواه سَرَاحْ
ظبى عدمت الصبح مذ صدّنى ... وكيف لا يُعْدَمُ وهو الصباح
مورد الخدّ شهى اللَّمىٰ ... منعم الردف جديب الوشاح (١)
تظنه من قلبه جلمدا ... ومنه للماء بجفنى انسياح
لِرِدْفُه أضعف من صبه ... ولم أزل من لحظه فى كفاح
نشوان من ريقته عربدت ... أجفانه بالمرهفات الصِّفاح
فها أنينى خافِتٌ مثل ما ... أنا أسير مُثْخَنٌ بالجراح
يا قاتلى صدّا أما تستحى ... أن تلزم البخل بأرض السماح (٢)
من ذا الذى يبخل فى تونس ... والملح فيها صار عذباً قراح
وأصبحت أرجاؤها جنة ... مبيضة الأبراج خضر البطاح
لولا ندى يحيي وتدبيره ... ما برحت تعبر منها النوّاح
لكن يداه سُحُبٌ كلما ... حلت بأرض حل فيها النجاح
هذا وقد آمَنَ مَنْ حلها ... وحفها من غربة وانتزاح (٣)
كم شُتِّتُوا من قبل تأميره ... وحكمت فيهم عَوَالى الرماح
ياسائراً يرجو بلوغ المنى ... باكر ذَرَى يحيي وقل لارَوَاح
وحَيِّه بالمدح فهو الذى ... يهتز كالهِنْدِىِّ حين امتداح
بالشرق والغرب غدا ذكره ... يَحُثُّ من حمد وشكر جنَاح
ساعَدَهُ السعد وأضحت له الـ ... آمال لا تجرى بغير اقتراح
ويَسَّرَ الله له ملكه ... من غير أن يشهر فيه السلاح

(١) اللمى ــ بفتح اللام مقصورا ــ سمرة فى شفاه الحسان ، يستملحها العرب كل الاستملاح ، ومنعم الردف : أراد أن أرادفه ممتلئة ثقيلة ،وجديب الوشاح: أراد أنه نحيل الخصر (٢) هذا البيت لا يوجد فى أصل ا (٣) فى ا «وحقها من غربة وانتزاح»

وكل من كان على غيره ذا مَنْعَةٍ أمسى به مستباح
وكم جَموحٍ عند ما قام بالأمـــر رأى القهر فخلى الجماح
كَفٌّ بكف للنَّدى والردى بها مَعَانٍ وهى خرْسٌ فصاح(١)
حتى لقد أحسبُ من سعده تجرى على ما يرتضيه الرياح
قولوا ليعقوب فماذا جَنَى وابن أبى حمزة ماذا استباح
قد أصبحا من فوق جِذْعَيْنِ لا تؤنسهم غير هبوب الرياح
واسأل عن الداعى الدعى الذى حاول أمراً كان عنه انْضِرَاح(٢)
أكان من صيره والدا بزعمه أمل فيه فـــلاح
شكراً لسعد لم يَدَعْ فرقةً قد صير الملك كضرب القداح
راموا بلا جاهٍ ولا محتِدٍ ما حُزْتَ بالحق فكان افتضاح
زنانة يهنيـــكم فعلكم عاجلكم ثأركم باجتياح
كفرَّ ما قدّمتم آخـــر والخير لن يبرح للشر ماح(٣)
عهدى به فى موكب الملك ما بينكم نَشْوَانَ من غير راح
يحسب أن الأرض ملك له وروحه ملك لسُمْر الرماح
غـــدا بعز الملك لكنه أهون مملوك على الأرض راح
جاؤابه يَمْرَحُ فى عزه وهم أزالوا عنه ذاك المراح
توقَّعُوا فى القرب منه الردى مِنْ صحبة الأجرب يخشى الصِّحاح
فأسرعوا نحوك يبغون ما عَوَّدتهم من عطفة والتماح
فغادروه جانياً غـــدره لطائر البين عليه نِيَاح
فالحمد لله على كل ما سَنَّى لك السعد برغم اللواح

(١) فى نسخة عند ا « بها مغاث وهى خرس فصاح » (٢) فى ب « كان عنه الصراح » والانضراح : الاندفاع والابتعاد تقول « ضرحه » تريد دفعه وأبعده « فانضرح : ابتعد واندفع (٣) فى ب ونسخة عند ا « كفى ما قدمتم آخرا »

مِثلك لا ينفد ما شادَه فلست تأتى الدهر إلَّا صلاح[1]
لا زلت فى عز وفى مُكْنة وفى سرور دائم وانفساح

قال : وقلت ببَنْيُونِشَ موضع الفرجة بسَبْتَةَ :

أُشرب على بنيونش بين السوانى والبطاح[2]
مع فتية مثل النجو م لهم إذا مروا جماح
ساقيهم متبذل لا يمنع الماء القراح
كل يمد يمينه ما فى الذى يأتى جُنَاح
هَبُّوا عليه كلما هبت على الروض الرياح
طوع الأمانى كل ما يأتى به فهو اقتراح
عانقته حتى تركت بِخَصره أثر الوشاح

وقلت بإشْبِيلِيَةَ :

أوجْهُ صبح أم الصباح ولَحظُهَا أم ظُبَا الصفاح
وثَغْرها أم نظيمُ دُرٍّ وريقُها أم سُلاف راح
وقَدُّها أم قَوَام غصن وعَرْفها أم شَذَا البطاح
يا حبذا زورة تأتت منها على غفلة اللواح
فلم أصدق بها سروراً وظَلْتُ نَشْوان دون راح
أما منعت السلام دهراً ولا رسول سوى الرياح
قالت ألا فَانْسَ ما تقَضَّى فمن يَدَعْ ما مضى استراح
يا حبذاها وقد تأتَّتْ من دون وعد ولا اقتراح
زارت ومن نورها دليل والليل قد أسبل الجناح

---

(١) فى ب « مثلك لا ينفد ما شاءه »
(٢) السوانى : جمع سانية ، وهي آله يستقى بها الماء ، ووقع فى ا « الشوافى »

أَخْفَتْ سُراها فباح نَشْرٌ لها بِعَرْف فشا وفاح
وافت فأمسى فمى مداماً وساعداى لها وشاح
كأنما بتُّ بين روض والغصن والورد والأقاح
فبينما الشمل فى انتظامٍ إذ سمعت داعى الفلاح(١)
فغادرتنى فقلت غدْرًا ؟ قالت أما تحذر افتضاح
وَلَّتْ وما خلتُ مِنْ صَباحٍ يَبْدو على إثْرِهِ صباح

قال : وقلت بتُونُس :

لا مَرْحَباً بالتين لما بَدَا يَسْحَبُ من ليل عليه الوشاح
ممزق الجلباب يَحْكى ضحى هامَةَ زنجى عليها جراح
وإن تُصَحِّفه فلا حبذا ما قد أتى تصحيفه بانتزاح(٢)

وقلت بالجزيرة الخضراء ، وقد كُلِّفْتُ ذلك :

غرامى بأقوال العِدَا كيف يُنْسَخُ وعَهْدِى وقد أحْكَمْتُهُ كيف يُفْسَخُ
كلامُكم لا يدخل السمعَ نصحُه ولكن إذا حرضتم فَهْوَ يرسخ
وبى بَدْرَ تِمٍّ قد ذللت لحسنه فمن ذا الذى فيما أتيت يوبخ ؟
إذا خاصمونى فى هواء خَصَمْتُهم ويبغون تنقيصى بذاك فأشمخ
أرى أن لى فضلا على كل عاشق فقصتنا فى الدهر مما يؤرخ
فما بَشَر مثل له فى جماله ووجدى به فى العشق ليس له أخ

وقلت بالإسكندرية ، وقد تعذَّر على الحج عند وصولى إليها سنة تسع وثلاثين وستمائة :

قرُبَ المزارُ ولا زمانٌ يُسْعِدُ كَمْ ذا أقرِّبُ ما أراه يَبْعُدُ(٣)
وارَحْمَةً لمتيَّم ذى غُرْبَةٍ ومَعَ التغرُّب فاتَهُ ما يَقْصِدُ

---

(١) سمعت داعى الفلاح : يريد طلع الصباح وأذن مؤذن الفجر
(٢) تصحيف تين « بين » وهو الفراق ، وهو مما يكرهه العشاق
(٣) فى نسخة عند ا « كم ذا أقرب ما أراه فيبعد »

قَدْ سار مِنْ أقصى المغاربِ قاصدًا ... مَنْ لَذّ فيه مسيره إذ يجهد
فلكم بحار مَعْ قفار جُبْتُها ... تلقى بها الصمصام ذعراً يرعد(١)
كابدتها عَرَباً ورُوماً ، ليتنى ... إذ جُزْتُ صَعْبَ صِراطها لا أطْرَدُ
يا سائرين ليَثْرِب بُلِّغْتُمُ ... قد عاقنى عنها الزمانُ الأنكَدُ
أعلمتمُ أن طرت دون محلها ... سَبْقًا وها أنا إذ تدانى مُقْعَدُ
يا عاذِلِى فيما أكابدُ قَلَّ فى ... ما أبتغيه صَبَابَةٌ وتسهد
لم تَلْقَ ما لقيتُهُ فعذلتنى ... لا يعذِرُ المشتاقَ إلا مُكْمَدُ
لو كُنْتَ تعلم ما أرومُ دُنُوَّه ... ما كنتَ فى هٰذا الغرام تُفَنِّدُ
لا طاب عيشى أو أحل بطيبة ... أفُقٌ به خير الأنام محمد
صلّى عليه من بَرَاه خِيرَةً ... من خلقه فهو الجميع المفرد
يا ليتنى بلغت لثم ترابه ... فيزاد سعداً مَنْ بنعمى يسعد
فهناك لو أعطى مُنَاى محلة ... من دونها حل السُّهاَ والفرقد
عينى شكت رمداً وأنت شفاؤها ... مِنْ دائها ذاك الثرى لا الإثمد
يا خير خلق الله مهما غِبْتُ عن ... عليا مشاهدها فقلبى يشهد
ما باختيار القلب يترك جسمه ... غِيَرُ الزمان له بذلك تشهد(٢)
يا جنة الخلد التى قد جئتها ... من دون بابك للجحيم تَوَقُّدُ
صَرَمَ التواصلَ ذُبَّلٌ وصوارم ... ما للجليد على تَقَحُّمِها يد(٣)
فلئن حرمتُ بلوغَ ما أملته ... فلدىَّ ذكرى لا تزال تردد
فلتنعشوا منى الذَّمَاء بذكره ... ما دمت عن تلك المعالم أبعد(٤)
لولاه ما بقيت حياتى ساعة ... هُوَ لى إذا مت اشتياقاً مولد

---

(١) فى ا « تلقى بها الصمصام أذعر يرعد » ويرعد : يضطرب وتأخذه الرعدة

(٢) غير الزمان — بكسر الغين وفتح الياء — أحداثه ونوازله وكوارثه

(٣) صرم : قطع ، والذبل : الرماح ، واحدها ذابل ، والصوارم : السيوف واحدها صارم ، وتقحمها : خوضها

(٤) الذماء — بفتح الذال — بقية الروح فى الجسد

ذكر يليه من الثناء سحائب أبداً على مرّ الزمان يُجَدَّد
من ذا الذى نرجوه لليوم الذى يُقْضَى الظماء به ويُحْمَى الموردُ
يا لهف من وافى هناك وماله من حبه ذخر به يتزود
ما أرتجى عملاً ولكن أرتجى ثقتى به وحَسْبُ من يتزود
ما صحّ إيمان خلا من حبه أبلا رياش يستعِدُّ مهنّدُ ؟!
عن ذكره لا حُلْتُ عنه لحظة ومديحه فى كل حفل أسْرُدُ
يا ما دحى يبغى ثواباً زائلا فثوابُ مدحى فى الجنان أخلّد
لولا رسول الله لم ندر الهدى وبه غداً نرجو النَّجاة ونسعد
يا رحمة للعالمين بعثت والدنيا بجنح الكفر ليل أربد[(١)]
أطلعت صبحاً ساطعاً فهَدَيْتَ للإيمان إلاَّ مَنْ يَحيدُ ويَجْحد
لم تخش فى مولاك لومة لائم حتى أقر به الكفور الملحد[(٢)]
ونصرت دين الله غير محاذر ودعوت فى الأخرى الألى قد أصْعَدُوا
ولقيتَ من حرب الأعادى شدّة لو كابدوها ساعة لتبدَّدوا
أيّان لا أحد عليهم عاضد إلا الإله ولم يَخُنْ من يَعْضُدُ
فحماك بالغار الذى هو من أدلّ المعجزات وخاب من يترصَّدُ
ووقاك من سمّ الذراع بلطفه كيما يغاظ بك العدا والحسَّدُ
والجذع حنّ إليك والماء انهمى ما بين خمسك والصحابة شُهَّدُ
والذئب أنْطِقَ للذى أضحى به يهدى إلى سبل النجاح ويرشد
وبليلة الإسرا حَباكَ وسمى الصديق من أضحى لقولك يُسْعِدُ[(٣)]
وحَباك بالخلق العظيم ومعجز الكلم الذى يهدى به إذ يورد

---

(١) فى ا « يا رحمة للمؤمنين » وفيها « ليل أزبد » والأربد ــ بالراء المهملة ــ الأسود المظلم (٢) فى ا « لما تخف فى الله لومة لائم »
(٣) فى ب « بقولك يسعد » ولهاوجه ، ويسعد هنا مضارع من الإسعاد بمعنى الإعانة

وبُعِثْتَ بالقرآن غير معارَض فيه وأمسى من نحاه يعرِّد[١]
فتوالتِ الأحقاب وهو مبرّأ من أن يكون له مثال يوجد
ولَكَمْ بليغ جال فصل خطابه والسُّرْجُ فى ضوء الغَزَالة تهمد[٢]
زُوِيت لك الأرض التى لا زال حتى الحشر ربك فى ذراها يعبد[٣]
ونصرت بالرعب الذى لما يزل يَثْرَى كأنْ ماعين شخصك تفقد
فمتى تَعَرَّضَ طاعن أو حاد عن حرم الهداية فالحسام مجرد
يا من تُخُيِّر من ذؤابة هاشم نعم الفخار لها ونعم المحتد
لِسَنَاكَ حين بدا بآدم أقبلت رعيا لأخراه الملائك تسجد
لم أستطع حَصْراً لما أعطيته فذكرت بعضاً واعتذارى منشد
ماذا أقول إذا وصفت محمداً نفد الكلام ووصفه لا ينفد
فعليك ياخير الخلائق كلها منى التحية والسلام السرمد

قال : وقلت بإشبيلِيَة :

هل تمنع النهود ما أبدت الخدود
نعم وكم طعين بطعنها شهيد
يا رَبَّةَ المحيا حفت به السعود
لم تُسكر الحميا بل ريقك البَرُودُ
لله يا عذولى ما تكتم البُرُودُ
مازلت فيه أفنى والوجد مستزيد
ياهل ترى زماناً مضى لنا يعود
لدى الغُروس سَقَّتْ جنابها العهود

(١) نحاه : قصده ، ويعرد : يفر ويهرب ويحجم وينكل ويسرع فى الهزيمة ، ووقع فى ب ونسخة عند ا « يعدد » محرفا
(٢) الغزاله : الشمس ، يعنى أن السرج لايظهر لها ضوء مع الشمس
(٣) كذا فى ا ، وفى ب « لازال يوم الحشر »

حيث الغصون مالت كأنها قدود

وزهرها نظيم كأنه عقود

حمامها تغنى أعطافها تميد

وبالنسيم شُقَّتْ لنهرها برود

فروعه سيوف وسوره بنود[١]

هناك كم دعتنى إلى الورود رُودُ[٢]

فنلت كل سؤل يفْنَى به الحسود

قضيت فيه عيشاً ما بعده مزيد

أضْحِى به وأمسى مرنحا أميد

كأننى يزيد كأننى الوليد

يجرى الزمان طَوْعى بكل ما أريد

الخمر مَلَّكَتنى فالخلق لى عبيد

يحق لى إذا ما أبصرتها تجود[٣]

فها أنا إذا ما فقدتها فقيد

يا من يلوم بَغْياً العذل لا يفيد

إذا عدمت كأسى فليس لى وجود

قال : وقلت بإشْبِيليَةَ :

أو ما نظرت إلى الحمامة تُنْشِدُ والغصن من طرب بها يتأوّد

ونثاره تلقاه جائزة لها لما يزل بيد النسيم يبدد[٤]

ألقى عليها الطل برداً سابغاً فثناؤه طول الزمان يردد

---

(١) البنود : جمع بند ، وهو العلم

(٢) الرود ــ بضم الراء ــ الشابة الحدثة السن ذات الدل والخفر

(٣) فى ا « إذا ما أبصرتها سجود »

(٤) فى ا « ونثاره ألفاه » وفيها « بيد النسم يبرد » محرفا

أترى الحمامة من محبٍّ مخلص أولى بشكر حين تغمره يد
فلأُثنين عليك ما أثنى بأعـلى الغصن حَنَّانُ الهديل مغرد
كم نعمة لى فى جنابك ؟ كم أكا بد جهدها ؟ أيان برك يجهد ؟

وقال :

أرى العين منى تحسد الأذن كلما جرت مدحة للعلم والفضل والمجد
أحقق أنباء ولم أر صورة كتحقيقىَ الأخبارعن جنة الخلد
فمن ّ على عينى بلقياك إننى أخذت لها أمنا بذاك من السهد

قال : وقلت أمدح ابن عمى وأشكره[1]، على ما أذكره :

آه ممـا تكنّ فيك الجوانح ودموعى على نوَاك سوافح[2]
واشتفاء من العدوّ ببين كدّرالعيش ، أىُّعيش لنازح؟
يا أتم الأنام حسنا أما تحـسن حتى يتمّ إطراء مادح
يا زمان الوصال عَوْدًا فإنى طَوَّحَتْ بى لما غدرتَ الطوائح
أين عيش العروس إذ يبطح السكـر حبيبى ما بين تلك الأباطح[3]
والأمانى تترى ولا أحد ينـصح إذ لا يُصْغَى إلى قول ناصح
وزمان السرور سَمْح مطيع ورسول الحبيب غاد ورائح
ولـكم ليـلة أتانى بلا طيـب ولـكن يزرى بأذكى الروائح
هو ظبى فليس يحتاج طيبا قد كفاه عَرْفٌ من المسك فائح
مثل عليا محمد لم تكن كسـبا وما لا يكون فى الطبع فاضح
يا كريما أتى من الجود مالا كان يدرى فأوجدته المدائح[4]
وعلا كل ذى علاء وأضحى نحو ما لا يرومه الناس طامح
قد أتانى إحسانك الغمر فى إثـر سواه فكنت أكمل مادح

(١) فى أصل ا « وأشكوه » (٢) فى ا « ودموع على نواك »
(٣) فى ب « يبطح البكر » وفى أصل ا « ينطح البكر » وكلاهما تحريف
(٤) فى ا « فوجدته المدائح » وفى ب « فوحدته المدائح »

فاض بحر النوال منك ولا سا حل يبدو ولم أزل فيه سابح

حُلَلٌ مثل ما كسوتك فى المد ح تميت العدا ومال وسائح (١)

أوردَ الوَرْدُ منطقى كلَّ شكر حين أضحى طوع البنان مسامح (٢)

لون خد الحبيب حين كَسَوْهُ حلة الحسن بالعيون اللوامح

شَفَق سال بين عينيه صبح حسنه قيَّد اللحاظ السوارح

لم أجد فيه من جماح ولكنَّ ثنائى عليك ما زال جامح

لك يا ابن الحسين ذكر جميل صير الكل نحو بابك جانح

قد هدى نحوك الثناء كما يهدى إلى الروض باسمات النوافح

فاعذر الناس إن أتوالك أفوا جا فكلٌّ بقصد فضلك رابح

ما هَدَتْهم إليك إلا الأمانى لم تحلهم إلا عليك القرائح

قل لذى المفخر الحديث تأخَّرْ ليس مهر فى شأوه مثل قارح

أى أصل وأى فرع أقاما شرَفاً ظَلَّ للنجوم يناطح

قد حوت مذحِجٌ من الفخر لما كنت منها ما ليس يحويه شارح

أفق مَجْدٍ قد زانه منك بدر فى ظلام الخطوب ما زال لائح

بدر تم حفت به هالةٌ من بيت مجد عَلاَؤها الدهر واضح

ياسما كا بمسْكِهِ القلمَ الأعلى بدا بين أنجم الملك رامح (٣)

رفع الله للكتابة قدرا بعد ما كا بدَتْ توالى الفضائح

يا أعزَّ الأنام نفساً وأعلا هم محلاً لا زال أمرك راجح

أين أعداؤك الذين رعى سيفك فيهم فأشبهوا قوم صالح

---

(١) بين فى هذا البيت أنه أعطاه حللا نفيسة ومالا وفرسا سائحا أو سابحا

(٢) الورد — بفتح الواو وسكون الراء — ما كان لونه الوردة ، وهى حمرة تضرب إلى صفرة ، والورد من الخيل بين الكميت والأشقر فى اللون

(٣) وقع فى ا « ياسما كا بملكه القلم الأعلى »

أفسد الدهر حالهم ليُرَى حا لُكَ رغما بمن يناويك صالح[١]

دمت فى عزة وسعد مدى الدهـــر ولا زال طائر منك سانح[٢]

أبو عبد الله محمد بن الحسين ابن سعيد

وابن عمه المذكور قال فى حقه فى « المغرب » ما ملخصه : إنه الرئيس الأعلى ، ذو الفضائل الجمة ، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبى الحسين سعيد بن الحسين ابن سعيد بن خلف بن سعيد ، قال : واجتماع نسبنا مع هذا الرئيس فى سعيد بن خلف ، وهو الآن قد اشتمل عليه ملك إفريقية اشتمال المقلة على إنسانها ، وقدمه فى مهماته تقديم الصَّعْدة لسِنَانها[٣] ، وأقام لنفسه مدينة حذاء حضرة تونس ، واعتزل فيها بعسكر الأندلس الذين صَيَّرهم الملكُ المنصور إلى نظره ، وهو كما قال الفتح صاحبُ القلائد « فقد جاء آخِرَهم ، فجدد مفاخرهم » ومن نظمه وقد نزل على من قدم له مشروبا أسود اللون غليظا وخروبا وزبيبا [أسود ، وزبيبا] كثير الغصون جاءت به عجوز فى طبق ، فقال :

ويوم نزلنا بعبد العزيز فلا قدس الله عبد العزيز

سقانا شرابا كلون الهِنْـاء ونَقَّلَنَا بقرون العنوز[٤]

وجاءت عجوز فأهدت لنا زبيبا كخيلان خَدِّ العجوز

ونزل السلطان أبو يحيى فى بعض حركاته لموضع فيه نهر ، وعلى شطه نَوْرٌ ، فقال الرئيس أبو عبد الله بن الحسين يصفه أو أُمِرَ بذلك :

ونهر يرفُّ الزهر فى جَنَباته ويثنى النسيم قضبه ويقنطر[٥]

يسيل كما عَنَّ الصباح بأفقه وإلا كما شيم الحسام المجوهر

---

(١) فى ا « صائح » وفى ب « طائح » وكلاهما تحريف

(٢) الطير السانح والسنيح : الذى يتيمن به ، ووقع فى ا « سابح » وفى ب « سائح » (٣) الصعدة – بالفتح – القناة المستوية التى لا تحتاج إلى تثقيف

(٤) الهناء – بالكسر – القطران ، ونقلنا : معناه جعل نقلنا ، والعنوز : جمع عنز : شبه الخروب بقرونها ، ووقع في ا « كلون الهفاء » و « أثقلنا » محرفا

(٥) فى ا « يرف النور » وفيها « فتأطر »

عليه ليحيى قبة ، هل سمعتم بقرصة شمس حل فيها عضنفر ؟
فإن قلت هذى قبـة لعُفَاتها فقل ذلك الوادى الذى سال كوثر

وقال أبو عمرو أحمد بن مالك بن سعيد المير اللخمى النشابى فى ذلك(١) :

وأرض من الحصباء بيضاء قد جرت جداول ماء دونهـا تتفجر(٢)
كما سَبَحَتْ تبغى الحيـاة أراقم على روضـة فيها الأقاح المنوّر
وإلا كما شَقَّتْ سبائك فضـة بساطا على حافاته الدر ينـثر

وقال أبو على يونس :

أُنظر إلى منظر يَسْبيك منظره ويزدهيك بإذن الله مخبره
ومعجب معجب لاشىء يشبهه خرير ماء نمـير ثَمَّ منهره(٣)
كأنمـا فرشت بالدر صفحته فالمـاء ينظمه طورا وينـثره
كأن خُلْجانه قُدَّت على قـدر بمائهـا قسم يجرى مفجَّره
أحلَّ سـيدنا المأمون قبتـه بجوزه فغـدا يزدان جعفره(٤)

عود إلى أخبار ابن الحسين

رجع إلى ما كنا فيه من أخبار الرئيس بن الحسين ، فنقول :

رأيت بالمغرب آخر كتاب « روح السحر » من نسخة ملوكية كتبت له أبياتا علق بحفظى منها الآن ما نصه :

تمَّ روحُ السحر نسحاً فأتى مُصْحَباً باليُمْن والفخر البعيد
لأبى عبـد الإله المرتقى فى ذرا المجد الرئيس بن سعيد

ولم أحفظ تمام الأبيات :

وقال أبو الحسين(٥) على بن سعيد : كتبت إليه من أبيات بحضرة تونس وقد نَقَلَ إليه بعض الحساد ما أوجب تغيره :

---

(١) فى ا « أحمد بن مالك بن سيد اللخمى الشابى »

(٢) فى ا « جداول ماء فوقها تتفجر » (٣) فى ا « خرير ماء معين »

(٤) فى ا « أحل سيدنا الميمون » (٥) فى ا « وقال أبو الحسن »

ومن بعد هذا قد أتيت بزَلَّةٍ أما حسن أن لاتضيق بها صدرا(١)
وعلمك حسبى بالأمور فإننى عهدتك تدرى سر أمرىَ والجهرا
وقد أصلح الله الأمور بسعيكم ونيتكم صلحا على البِشْرِ والبُشْرى
ولم يبق لى إلا رضاك فإنْ به كتبت ولو حرفا أطبتَ به العمرا(٢)
فبُقِّيت كهفا للجميع وموئلا ولا زلت ما دام الزمان لنا سترا

فكتب إلى هذه الأبيات ، وكان متمرضا ، و بعث إلى بما يذكر :

أ كُفّ الصبا حفت جَنَى زَهَرِ الربا سؤالك عن مُضْنًى يسامى بك الزهرا(٣)
بعثت بمثل الزهر فى مثل صفحة لذلك ما قلدتها الشذر والدرا
معانٍ لها أعنو وأعْنِى بها فكم وقفت عليها العين والسمع والفكرا
فلو عرضت للبحر لم يلفظ الدرا ولو عارضت هاروت لم ينفث السحرا
أبا حسن هنئت ما قد منحته ضروبا من الآداب تحلى بها الدهرا
ودونك بحرا من ودادى تلاطمت به زاخرات المدّ لا يعرف الجزرا
فإن خطرت فى جانب منك هفوة فلا تحسبن أنى أضيق بها صدرا
يزلّ الجواد عند ما يبلغ المَدَى و يعثر بالرِّمْثِ النسيمُ إذا أسرى(٤)
فدع ذا وخذها شائبات قرونها عَرُوباً لَعُوباً جائزا حكمها بكرا
ولو غادرت أوصافها متردِّمًا لشنفت من أشعارها أُذُنَ الشعرا
ألا فاحْجُبَنْهَا عن صديق معمم فإن قصارى العمر أن يبكى العمرا
ومن كان ذا حِجْرٍ ونبل ورقة فلا يخلون إلا على الخمرة الحمرا
قرنت بها صفراء لم تعرف الهوى ولا ألفت وصلا ولا عرفت هجرا
ولاضُمِّخت نضخ العبير وإن غدت تؤخره لونا وتفضحه نشرا

---

(١) فى ا « ألا تضيق به صدرا » (٢) فى ا « أطلت لى العمرا »

(٣) فى ا « سؤالك عن نضو »

(٤) الرمث — بالكسر — مرعى للابل من الحمض

فإن خلتها بنت الظليم أظلها فقد فرش الإذْخِرَ من تحتها تبرا
لها نسب بين الثريا أو الثرى وسل بِرباها المزن والغُصُنَ النضرا[١]
فشربا دِهَاقًا وانتشاقا ولا تَرِمِ عن البيت فتراً أو تقيم به شهرا

وله فى الخشكلان :

هو الأهِلَّة لكن تدعونه خشكلانا
فإن تفاءلت صحف تجد حبيبك لانا

انتهى باختصار .

وحَظِى المذكور جدًّا عند السلطان ملك إفريقية أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد ابن أبى حَفْص ، ولما مات السلطان المذكور ، وحَدَثَتْ فتنة بموته واختلاف ، ثم استقرت الدولة لابنه الشهير الكبير القدر أبى عبد الله المستنصر ممدوح حازم بالمقصورة ، وقاتل ابن الأبار القضاعى - سخط على الرئيس ابن الحسين المذكور ، وقبض على دياره وأمواله ، وصيره كالمحبوس ، فكتب إليه رقعة يطلب الاجتماع به فى مصلحة للدولة ، فأحضره ، وسأله فأخبره بأن أباه صنع داراً عظيمة تحت الأرض ، وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عُدَّة وذَخيرة لسلطانه ، ولم يترك على وجه الأرض مَنْ له علم بهذا الموضع الذى أودعه نفائس أمواله غيرى، وأوصانى أنه إذا انتقل إلى جوار ربه ، إذ توقع أن تقع فتنة بين أقاربه ، أنه إذا انقضت سنة واستقر الأمر لأحد من ولَدِى أو من يتيقن أنه يصلح لأمور المسلمين ، فأطلعه على هذه الذخائر ، فربما فنيت الأموال بالفتنة ، فلا يجد القائم بالأمر ما يصلح به الدولة إذا تفرغَ للتدبير والسياسة ، ففرح السلطان ، وبادر إلى تلك الدار ، فرأى ما ملأ عينه ، وسر قلبه ، وخرج الرئيس ابن الحسين والخيل تجنب أمامه ، وبِدَر[٢]

---

(١) فى ا « وسل بأبيها المزن والغصن النضرا »

(٢) فى ا « وبدد الأموال » ولها وجه وجيه على أن « بدد » فعل ماض و « الأموال » مفعوله

الأموال بين يديه ، وأعاده إلى أحسن أحواله ، وجعله وزيراً لديه ، كما كان أبوه مفوضاً أموره إليه ، وقال السلطان : إن مِنْ أوجَبِ شكر الله على أن أفتتح المال بأن أؤدى منه للرعية الذين نُهبت دورهم واحترقت فى الفتنة التى كانت بينى وبين أقاربى ما خسروه ، وأمر بالنداء فيهم ، وأحضرهم وكل مَنْ حلف على شىء قَبَضه وانصرف .

بعض أخبار السلطان المستنصر

وكان السلطان المستنصر المذكور فى بعض متصيداته فكتب لأبى عبد الله الرئيس المذكور يأمره بإحضار الأجناد لأخذ أرزاقهم بقوله :

ليَحْضُرْ كلُّ ليثٍ ذى منال ... زَكَا فرْعًا لإسداء النَّوال

غدًا يومَ الخميس فما شُغِلْنَا ... بأسد الوحش عن أسد الرجال

وحكى أن السلطان المذكور عَرَض مرة أجناده ، وقيل : بل سلم عليه الموحدون يوم عيد بتونس ، وفيهم شاب [مليح] وَسيم أُسمُ جده النعمان ، فسأله السلطانُ عن اسمه ، وأعجبه حسنه ، فخجل واحمر وجهه ، وازداد حسناً ، فقال السلطان : هذا المصراع

* كلَّمته فكَلَمَتْ صَفْحَة خَدِّهِ *

وسأل من الحاضرين الإجازة ، فلم يأتوا بشىء ، فقال السلطان مجيزاً شطره :

* فتفتحت فيها شقائق جده[١] *

وهذا من البديع[٢] مع ما فيه من التورية والتجنيس .

ومما نسبه له أبو حيان بسنده إليه :

مالى عَلَيْكَ سوى الدُّمُوعِ مُعِينُ ... إن كنت تَغْدِرُ فى الهوى وتخون

---

(١) الشقائق : نور أحمر ، تضاف إلى النعمان ، فيقال « شقائق النعمان » ويقال : النعمان هنا الدم ، وذلك لأن لونها لونه ، ويقال : هو ملك العرب فى الحيرة ، وكانت هذه الشقائق قد أعجبته ، فحماها

(٢) فى ا « وهذا من البدائع »

مَنْ مُنْجِدِى غير الدموع وإنها لمغيثةٌ مَهْماَ استغاثَ حَزِينُ[1]

الله يعـلم أن ما حملتنى صَعْبٌ ولٰـكِنْ فى رضاك يَهُونُ

وكان للسلطان المذكور سعد يُضْرَب به المثل ، حتى إنه كتب له صاحب مكة البيعة من إنشاء ابن سبعين المتصوف ، كما ذكر ذلك ابن خلدون فى تاريخه الـكبير ، وسرد نصها ، وهى من الغرائب .

ومن سعده أن الفرنسيس الذى كان أُسِرَ بمصر وجُعِل فى دار ابن لُقْمَان والطواشى صَبيح يحرسه لما سُرِّحَ جاء من أمم النصرانية لبلاد المسلمين بما لم يجتمع قط مثله ، حتى قيل : إنهم كانوا ألف ألف ، فـكتب إليه أهل مصر مِنْ نظم ابن مطروح القصيدة المشهورة التى منها :

قل للفرنسيس إذا جِئْتَهُ مَقَالَةً من ذى لِسَانٍ فصيح

إلى أن قال :

دَارُ ابْنِ لُقْمَان على حالها ومِصْرُ مِصْرٌ والطَّواشى صَبيح

والقصيدة مشهورة فلذلك لم أسْرُدْها ، فصرف الفرنسيس جيوشه إلى تونس ، فـكتب إليه بعض أدباء دولة المستنصر :

أفرنسيسُ ، تونسُ أختُ مصر فتأهَّبْ لما إليه تَصِـيرُ

لك فيها دارُ ابنِ لقمان قَبْرٌ وطَوَاشيك مُنْـكر ونَـكِير

فقضى الله سبحانه وتعالى أنه مات فى حركته لتونس ، وغنم المستنصر غنيمة ما سمع بمثلها قط ، ويقال : إنه دس إليه سيفاً مسموماً من سَلَّه أثر فيه سمه ، وقَلده رسولا إليه بعد أن جعل عليه من الجواهر النفيسة مالم ير مثله عند غيره ، وقال للرسول : إن الفرنسيس رجل كثير الطمع ، ولولا ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره ، وإنه سيرى السيف ، ويكثر النظر إليه ، فإذا رأيته فعل ذلك فانزعه من عنقك وقبله ، وقل له : هذا هدية منى إليك ، لأن من آدابنا مع ملوكنا أن

---

(١) منجدى : معينى ومساعدى

كل ما وقع نظر الملك عليه وعاوَدَ النظر إليه بالقصد فلا بد أن يكون له ، ويحرم علينا أن نمسكه ، لأن ماأحبه المولى على العبيد حرام، وتكرار [ه] النظر إليه دليل على حُبه له ، ففرح النصرانى بذلك ، وأسرع الرسول العَوْد إلى سلطانه ، فسلّ النصرانىُّ السيف ، فتمكن فيه السم بالنظر ، فمات فى الحين ، وفرج الله تعالى عن المسلمين .

رجع إلى أخبار أبى الحسن على بن سعيد .

رجع إلى أخبار أبى الحسن على ابن سعيد

قال ابن العديم فى تاريخ حلب : أنشدنى شرف الدين أبو العباس[(١)] أحمد بن يوسف التيفاشى بالقاهرة فى أبى الحسن على بن موسى بن سعيد الغَرْناطى يشير إلى كتاب أبى الحسن الذى جمعه فى محاسن المغرب وسماه « المغرب » :

سَعِدَ الغربُ وازْدَهَى الشرق عُجْباً ... وابتهاجاً بمُغْرِبِ ابن سعيد
طلَعَتْ شمسُه من الغرب تُجْلَى ... فأقامت قيامَةَ التقييد
لم يَدَعْ للمؤرِّخينَ مقالا ... لاولا للرواة بيتَ نشيد
إن تلاه على الحمام تغَنَّتْ ... ما على ذا فى حُسْنِهِ من مَزِيدِ

وأنشد[نى] أبو العباس التِّيفاشى لنفسه فيه:

يا طيب الأصل والفرع الزكى كما ... يبدو جَنَى ثَمَرٍ من أطيب الشجر
ومَنْ خلائقُه مثل النسيم إذا ... يَهْفُو على الزهر حول النهر فى السحَر
ومن مُحيَّاه والله الشهيد إذا ... يبدو إلى بصرى أبهى من القمر
أثقلْتَ ظهرى ببر لا أقوم به ... لو كنت أتلوه قرآنا مع السور
أهديت لى الغربَ مجموعاً بعالمه ... فى قاب قوسين بين السمع والبصر[(٢)]
كأننى الآن قد شاهدت أجمعه ... بكل مَنْ فيه من بَدْو ومن حضر

---

(١) فى نسخة عند ا « أبو الحسن »

(٢) فى ب « أهديت للغرب مجموعا بعالمه »

نعم ولاقيت أهل الفضل كلهم ... فى مُدَّتِى هذه والأعصر الأخر
إن كنت لم أرهم فى الصدر من عمرى ... فقد رددت علىّ الصدر من عمرى
وكنتَ لى واحداً فيهم جميعهم ... ما يُعْجِزُ اللهَ جمعُ الخلق فى بشر (١)
جُزِيتَ أفضل ما يُجْزَى به بشر ... مفيد عمر جديد الفضل مبتكر

من شعر أبى الحسن ابن سعيد

ومن نظم أبى الحسن بن سعيد قوله :

وعَشِيَّةٍ بلغت بنا أيدى النوى ... منها محاسن جامعات للنُّخَب
لحدائق ما بينهن جَداول ... وبلابل فوق الغصون لهاطرب (٢)
والنخل أمثال العرائس لُبْسُها ... خز وحليتها قلائد من ذهب

ومن نظمه رحمه الله تعالى فى حلب قوله :

حادىَ العيسِ كم تنيخُ المَطَايا ... سُقْ فروحى من بعدهم فى سياق
حلب إنها مقر غرامى ... ومرامى وقِبْلَة الأشواق
لاخلا جَوْسَقٌ وبطياس والسعداء من كل وابل غَيْدَاق
كم بها مرتع لطرف وقلب ... فيه يسقى المنى بكأس دِهَاقِ
وتُغَنِّى طيوره لارتياح ... وتَثَنَّى غصونه للعناق
وعلوّ الشهباء حيث استدارت ... أنجم الأفق حولها كالنطاق

وقوله أيضاً فى حَمَاة :

حمى الله من شَطَّىْ حماة مناظراً ... وقفت عليها السمع والفكر والطَّرْفَا (٣)
تُغَنِّى حمام أو تميل خمائل ... وتُزْهِى مبان تمنح الواصف الوصفا
يلومون أن أعصى التَّصَوّن والنهى ... بها وأطيع الكأس واللهو والقصفا (٤)
إذا كان فيها النهر عاصٍ فكيف لا ... أحاكيه عصياناً وأشربها صرفا

---

(١) أخذ هذا من قول أبى نواس :
وليس لله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد
(٢) فى ا « لحدائق ما بينه من جدول » (٣) فى ا « حمى الله عن شطى حماة »
(٤) فى ا « يلوموننى أن أعصى الصون والنهى » وهي أحسن مما هنا

وأشدو لدى تلك النواعير شَدْوَها   وأغلبها رقصـــاً وأشبهها غرفا
تئن وتُذْرِى دمعها فكأنها   تهـــيم بمرآها وتسألهـا العطفا

وقوله فى وداع ابن عمه وكتب بهما إليه :

وَدَاعٌ كما ودَّعْت فصـل ربيع   يفُضُّ ضُلوعى أو يفُيضُ دُمُوعِى
لئن قيل فى بعضٍ يفُارق بَعْضَه   فإنِىَ قد فارقتُ منكَ جميعى

قال : فأرسل إلى إحساناً ، واعتذر ولسانُ الحال ينشد عنه :

أحِبُّكَ فى البَتُول وفى أبيها   ولـكنِّى أحِبُّكَ من بعيد

وقوله ، وقد أفلت المركب الذى كان فيه من العدو :

اُنظر إلى مَرْكَبنا مُنْقَــذاً   من العِدَا من بَعْدِ إحـراز
أفْلَتَ منهم فغدَا طائراً   كطائر أفْلَتَ من بازى

وقال رحمه الله تعالى لما خرج من حدود إفريقية :

رَفيقىَ جَاوَزْنَا حدود مواطن   صحبنا بها الأيام طَلْقاً مُحَيَّاها
وما إن تركناها لجَهْلٍ بقدرها   ولـكن ثَنَتْ عنا أعِنَّةَ سُقْياها
فسِرْنَا نحثُّ السير عنها لغيرها   إلى أن يَمُنَّ الله يومًا بلُقْياها

وكان وصوله الإسكندرية فى السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وقال رحمه الله تعالى : أخذت مع والدى يوماً فى اختلاف [مذاهب] الناس ، وأنهم لا يسلمون لأحد فى اختياره ، فقال : متى أردت أن يسلم لك أحد فى هذا التأليف ـ أعنى المغرب ـ ولا يعترض أتعبت نفسك باطلا[1] ، وطلبت غاية لاتدرك ، وأنا أضرب لك مثلا : يحكى أن رجلا من عُقَلاء الناس كان له ولد ، فقال [له][2] يوماً :

---

(١) فى ا « أتبعت نفسك باطلا »
(٢) لاتوجد هذه الـكلمة فى ا

يا أبى ، ما للناس ينتقدون عليك أشياء وأنت عاقل ؟ ولو سعيت فى مُجانبتها سلمت من نَقْدهم ، فقال : يا بنى ، إنك غِرٌّ لم تجرِّب الأمور ، وإن رضا الناسِ غاية لا تدرك ، وأنا أوقفك على حقيقة ذلك ، وكان عنده حمار ، فقال له : اركب هذا الحمار وأنا أتبعك ماشياً ، فبينما هو كذلك[1] إذ قال رجل : اُنظر ، ما أَقَلَّ هذا الغلام بأدب ! يركب ويمشى أبوه ، وانظر ما أشد تخلف والده لكونه يتركه لهذا ، فقال له : اُنزل أركب أنا وامْشِ أنت خلفى ، فقال شخص آخر : انظر هذا الشخص ، ما أقلَّه بشفقة ! ركب وترك ابنه يمشى ، فقال له : اركب معى ، فقال شخص : أشقاهما الله تعالى ! اُنظر كيف ركبا على الحمار ، وكان فى واحد منهما كفاية ، فقال له : اُنزل بنا ، وقَدَّماه وليس عليه راكب ، فقال شخص : لا خَفَّف الله تعالى عنهما ! اُنظر كيف تركا الحمار فارغاً وجعلا يمشيان خلفه ، فقال : يا بنى ، سمعتَ كلامهم ، وعلمت أن أحداً لا يسلم من اعتراض الناس على أى حالة كان[2] ، انتهى .

وقال فى أثناء خطبة المغرب ما نصه : الحمد لله الذى جعل الأدب أفضل ما اكتُسب ، وأفضل ما انتُخب ، إذ هو ذُخْر لا يُخاف كَساده ، وكنز لا يخشى انتقاصه و إن كثر مُرْتاده ، ولله درّ القائل :

رأيت جميعَ الكَسْب يَفقِدُهُ الفتى ... وتبقى له أخلاقه والتأدُّبُ
إذا حل فى أرض أقام لنفسه ... بآدابه قدرًا به يتكسَّبُ
وأوما كُلٌّ نحوَه ، ولعله ... إلى غير أهلٍ للنباهة يُنسَبُ

وقال فى أثناء الكلام لبعض المغاربة :

فأثبتَّ فى كل المواطِنِ هِمَّةً ... إلى طلب العلم الذى كان مُطَّرَحْ
وصَيَّرْتَ مَنْ قد كان بالنظم جاهلاً ... يُحاوله كَيْما تجودَ لك المِدَحْ

(١) فى ا « فبينما هما كذلك »

(٢) فى ب « على أى حالة كان اعتراضهم » وكلمة « اعتراضهم » لامعنى لها

تداول أبناء سعيد تأليف كتاب «المغرب»

وقال أيضاً فى الخطبة : و بعد ، فهذا كتابُ راحةٍ قد تعبت فى جمعه الأسماع والأبصار والأفكار ، وكل عناء سهل إذا أنجح القصد ، وقد بدأ فيه من سنة ثلاثين وخمسمائة ، ومنتهاه إلى غرة سنة إحدى وأربعين وستمائة ، قال : وأول مَنْ كان السبب فى أُبتداء هذا الكتاب جَدّ والدى عبد الملك بن سعيد ، وهو إذ ذاك صاحب قلعة بنى سعيد تحت طاعة على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر ، إلى أن استبدّ بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقَصَده فى سنة ثلاثين وخمسمائة حافظُ الأندلس أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن الحِجَارى وصنف له كتاب « المسهب ، فى غرائب المغرب » فى نحو ستة أسفار ، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذى ابتدأه فيه ، وهو سنة ثلاثين وخمسمائة ، ثم ثار فى خاطر عبد الملك أن يضيف إليه ما أغفله الحِجَارى ، وتولع بمطالعته أُبناه أبو جعفر ومحمد ، وأضافا له ما استفاداه ، ولم يزل يزيد إلى أن استبدّ به محمد ، فاعتنى به أشد اعتناء ، ثم استبد به والدى — وكان أعلمهم بهذا الشأن — و بلغ من اجتهاده فى هذا الكتاب أننى أذكره يومًا وقد نوّه[1] به ابن هُودٍ وهو ملك الأندلس وولاّه الجزيرة الخضراء ، فأعلمه شخص أن عند أحد المنسوبين إلى بيت نَبَاهة كراريسَ من شعر شعرائها ، وأخبار رؤسائها ، الذين تحتوى عليهم دولة بنى عبد المؤمن ، فأرسل إليه راغباً فى استعارتها ، فأبى ، وقال : على يمين أن لاتخرج عن منزلى[2] ، وقال : إن كانت له حاجة يأتى على رأسه ، وكان جاهلا ، فلما سمع والدى ضحك فقال [لى] : سر معى إليه ، فقلت له : ومن يكون هذا حتى نمشى له على هذه الصورة ؟ فقال : إنى لا أمشى له ، ولكن أمشى للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم ، أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين فى موضع أنِفتُ أن أمشى إليهم ؟ قلت : لا ، قال : فإن الأثر ينوب عن العين ،

(١) نوه به : رفع من قدره وأعلى شأنه

(٢) فى ا « ألا يخرج عن منزلى »

فمشينا إلى منزل الرجل ، فوالله ما أنصفنا فى اللقاء ، فلما قضينا منها الغرض صرّفها إليه والدى ، وشكره ، وقال : هذه فائدة لم أجدها عند غيرك ، فجزاك الله تعالى خيراً ! ثم انفصل وقال : ألم تعلم يابنى أننى سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية ، وإن هذا والله أوّل السعادة ، وعنوان نجاحها .

قلعة بنى سعيد وأصلها

والقلعة التى كان بها بنو سعيد تُعْرَفُ بهم فيقال لها : قلعة بنى سعيد ، وكانت تعرف قبل بقلعة أسطلير ، وهو عين لها ، وقال المَلاَّحى فى تاريخه : إنها تعرف بقَلْعة يَحْصُب ، قَبيلٍ : من اليمن نزل بها عند فتح الأندلس ، وبها كامر صنف الحِجَارى كتاب[1] « المسهب » لصاحبها عبد الملك بن سعيد .

وفى بنى سعيد يقول الحِجارى :

قومٌ لهم فى فَخْرِهم ... شرف الحديثِ مع القديم

وَرِثُوا الندَى والبأسَ والعَلْياَ ... كريماً عن كريم

من كلِّ وضَّاحٍ به ... يُجْلَى دُجَى الليل البهيم

أولية ابن سعيد فى الاندلس

وكان أوّلَ من دخل الأندلس من ولد عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه عبدُالله بن سعد بن عمار[2] ، وقد ذكره ابن حيان فى مُقْتَبسه ، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِى صاحبَ الأندلس آخِرَ دولة بنى أمية بالمشرق كتب إليه[3] أن يدافع عبد الرحمن بن معاوية المروانى الداخل للأندلس ، وكان إذ ذاك أميراً على اليمانية من جند دمشق ، وإنما ركن إليه فى محاربة عبد الرحمن لما بين بنى عمار وبين بنى أمية من الثأر بسبب قتل عَمَّار بصِفِّين على يد عسكر معاوية رضى الله تعالى عنه ، وكان عمار من شِيعة على رضى الله تعالى عنهما .

---

(١) فى ا « كتابه »

(٢) فى ا « عبد الله بن سعد بن عثمان » وفي ب « عبد الله بن سعيد بن عمار »

(٣) فى ب « كتب الله » تحريف ما أثبتناه موافقا لما فى ا

وقال الحِجَارى : أنشدنى أبو بكر محمد بن سعيد[1] صاحب أعمال غَرْنَاطة فى مدة الملثَّمين لنفسه ، فيما يليق بجنسه :

إن لم أكن للعَلاَء أهلا ... بما تراه فمن يكون
وكل ما أبتغيه دونى ... ولى على همتى ديون
ومن يَرُمْ ما يقلّ عنه ... فذاك من فعله جنون
فرع بأفق السماء سامٍ ... وأصله راسخ مَكِينُ

ومن نظمه قوله أيضاً :

الله يعلم أنى ... أحبُّ كسب المعالى
وإنما أتوانى ... عنها لسوء المآل
تحتاج للكد والبذ ... ل واصطناع الرجال[2]
دع كل مَنْ شاءَ يسمو ... لها بكل احتيال
فحالهم بانعكاس ... فيها وحالى حالى

أبو العباس أحمد الغسانى

ولما ذكر ابنُ سعيد فى «المغرب» ترجمة الكاتب الرئيس المجيد [أبى العباس] أحمد الغسانى كاتب ملك إفريقية قال : بماذا أصفه؟ ولو أن النجومَ تصير لى نثرًا لما كنت أنْصِفه ، وكفاك أنى اختبرت الفضلاء من البحر المحيط إلى حضرة القاهرة ، فما رأيت أحسنَ ولا أفضلَ عِشْرة منه ، ولما فارقته لم أشعر إلا برسالته قد وافَتْنِى بالإسكندرية من تونس ، وفيها قصيدة فريدة منها :

ايهٍ أبا الحَسَنِ اسْتَمِعْ شَدْوِى فقد ... يُصْغِى الحمام إذا الحمام ترنَّمَا

ثم سرد بعضاً من القصيدة ، وستأتى قريبا إن شاء الله تعالى ، بزيادة على ما ذكر منها فى المغرب .

رجع - وجد بخطه رحمه الله تعالى آخر الجزء من كتاب «المغرب» ما نصه :

---

(١) فى ب « بكر بن محمد بن سعيد » وأثبتنا ما فى ا

(٢) فى ب « واصطفاف الرجال»

أجزتُ الشيخَ القاضى الأجلَّ أبا الفضل أحمد ابن الشيخ القاضى أبى يعقوب التِّيفاشى ، أن يروى عنى مُصَنَّفى هـذا ، وهو « المغرب ، فى محاسن المغرب » ويُرْوِيه من شاء ثقة بفهمه ، واستنامة إلى علمه[1] ، وكذلك أجزت لفتاه النبيه جمال الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن خطلخ الفارسى الأرموى أن يرويه عنى ، ويُرويه من شاء ، وكتبه مصنفه على بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد فى تاريخ الفراغ من نَسْخ هذا السِّفْر ، انتهى .

لابن سعيد فى وسيم عجمى

وقال فى وسيم من أبناء العجم صحبه فى الطريق من حَلَب إلى بغداد فمات ، وكان ظريفاً أديباً :

لهفى على غُصْنٍ ذَوَى ... أفقدته لما استوى
رَيَّان من ماء الصبا ... ومن المدامع ما ارتوى
لا تعذلونى إن نطقـ ... ـت الدهْرَ فيه عن الهوى
كم ضل صاحبه بسحـ ... ـر اللحظ منه وكم غَوَى
أنا لا أفيق الدهـ ... ـر فيـه من الصبابة والجوى
إن الهـوى حيًّا وميـ ... ـتاً لا يزال به سَوَى
كم قد نويت به النعيـ ... ـم فقدّر الله النوى
دارَ السلام حَوَيْتِ مَنْ ... كلَّ المحاسن قد حَوَى
مجموع حسنٍ قد تَوَى ... فى جنة وبها ثَوَى[2]

وولد أبو الحسن [على] بن موسى [بن محمد][3] يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شهر رمضان عام عشرة وستمائة ، وهو على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد ابن عبدالله بن سعيد[4] بن عمار بن ياسر ، رضى الله تعالى عنه ! وقال فى « المغرب »

---

(١) فى نسخة عند ا « واستنامة إلى عمله » (٢) توى ــ بالتاء المثناة ــ هلك ، وثوى ــ بالمثلثة ــ أقام (٣) ما بين المعقوفين ساقط من ا ومضى ، وسيذكر بعد سطر (٤) اتفقت النسخ كلها هنا على « عبد الله بن سعيد بن عمار » وانظر ص ٩٦

ترجمة لأبى عمران موسى بن محمد ابن عبد الملك ابن سعيد

لما عرف بوالده الكاتب الشهير أبى عِمْرَان موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، ماملخصه[١] : لولا أنه والدى لأطنبت فى ذكره، ووفيته من الوصف حق قَدْرِه، لكن كفاه وصفاً ما أثبتُّ له فى هذه الترجمة، وما مر له ويمر فى أثناء هذا الكتاب، وكونُ كل مَن اشتغل بهذا التأليف نهراً وهو بحر، واشتهاره فى حفظه التاريخَ والاعتناء بالآداب فى بلاده، بحيث لايحتاج إلى تنبيه ولا إطناب، وله من النظم والنثر ما تضج الأقلام من كثرته، ويستمد القَطْر من درَّتِهِ، ومما شاهدت من عجائبه أنه عاش سبعاً وستين سنة ولم أره يوماً تخلى[٢] عن مطالعة كتاب أو كَتْب مايخلده، حتى إن أيام الأعياد لا يخليها من ذلك، ولقد دخلت عليه فى يوم عيد وهو فى جهد عظيم من الكَتْب، فقلت له : ياسيدى، أفى هذا اليوم لا تستريح ؟ فنظر إلى كالمغضَب وقال : أظنك لا تفلح أبداً، أترى الراحة فى غير هذا ؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها، ولو ددت أن الله تعالى يُضَاعف عمرى حتى أتم كتاب « المغرب » على غرضى، قال : فأثار ذلك فى خاطرى أن صرت مثله لا ألتذُّ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن، ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه، وكان أولع الناس بالتجول فى البلدان، ومشاهدة الفضلاء، واستفادة ما يرى وما يسمع، وفى تولُّعه بالتقييد والمطالعة للكتب يقول :

يامفنياً عُمْرَه فى الكأس والوتَرِ ... وراعياً فى الدُّجَى للأنجم الزهرِ
يَبْكى حَبيباً جناه أو ينادمُ مَنْ ... يَهْفُو لديه كغصْنٍ باسِمِ الزهر
منعَّماً بين لذات يحققها ... ولا يخلد من فَخْرٍ ولا سير
وعاذلا لىَ فيما ظَلْتُ أكتبه ... يبدى التعجب من صبرى ومن فكرى
يقول مالك قد أفنيت عمرك فى ... حبر وطِرْس عن الأغصان والحبر
وظَلْتَ تسهر طول الليل فى تعب ... ولا تَنِى أمد الأيام فى ضجر[٣]

(١) فى ا « ما محصله »
(٢) فى ا « يتخلى من »
(٣) لاتنى : لاتفتر ولا تضعف همتك

أقصر فإنىَ أدرى بالذى طمحت لأُفقه همتى واسأل عن الأثر

واسمع لقول الذى تتلى محاسنه من بعد ما صار مثل الترب كالسور

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة ، وهم بعد الممات جمال الكتب والسير

وولد أبو عمران موسى بن محمد فى الخامس من رجب عام ثلاثة وسبعين وخمسمائة ، وتوفى بثغر الإسكندرية يوم الاثنين الثامن من شوّال عام أربعين وستمائة .

محمد ابن عبد الملك ابن سعيد

وولد أبوه محمد بن عبد الملك صاحب أعمال غَرْنَاطة وأعمال إشبِيلِيَة عام أربعة عشر وخمسمائة ، وتوفى بشعبان عام تسعة وثمانين وخمسمائة بغرناطة .

وكان محمد بن عبد الملك وزيراً جليلا ، بعيدَ الصيت ، عالى الذكر ، رفيع الهمة ، كثير الأموال ، وذكره ابن صاحب الصّلات فى كتابه «تاريخ الموحِّدين» ونبه على مكانته منهم فى الُحظْوة والأخذ فى أمور الناس ، وأثنى عليه ، وذكره السهيلى فى « شرح السيرة الشريفة » حيث ذكر الكتاب الموجَّه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هِرَقْل وأن محمد بن عبد الملك عاينه عند أدفونش[1] مكرماً مفتخراً به ، والقصة مشهورة[2] ، ومدحه الرصافى بقصيدة أوّلها :

ذهنا يفيض وخاطرا متوقدا ماذا عسى يُثْنَى على عَلَم الندى

ولما أنشده قصيدته فيه التى أولها :

لمحلِّكَ الترفيعُ والتعظيمُ ولوَجْهِكَ التقديس والتكريم

حَلَف لايسمعها ، وقال : علىَّ إجازتك ، ولكن طباعى لا تحمل مثل هذا ، فقال له الرصافى : ومَنْ مثلك يستحق هذا فى الوقت غيرك ؟ فقال له : دعنى من خداعك ، أنا وما أعلمه من قلبى

وأنشد له فى الطالع السعيد :

فلا تظهرَنْ ما كان فى الصَّدْرِ كامناً ولا تركَبَنْ بالغيظ فى مَرْكَبٍ وَعْرِ

ولا تبحثن فى عُذْرِ من جاء تائبا فليس كريما من يباحث فى العذر

(١) فى ا « أذفونش »

(٢) فى ا « والقضبة مشهورة »

وولى للموحدين أعمالا كثيرة بمراكش وسَلاَ وإشبيلية وغَرْنَاطة ، واتصلت ولايته على أعمال غَرْنَاطة ، وكان من شيوخها وأعيانها ، وكتب عليه عقد أن فى داره من الحلى وأصنافه ما لا يمكن إلا فى دار الملك ، وأنه إذا ركب فى صلاة الصبح شوش عليه(١) نُبَاح الكلاب ، فأمر المنصور بالقبض عليه وعلى ابن عمه صاحب أعمال إفريقية أبى الحسن(٢) سنة ٥٩٣ ، ثم رضى عنهما ، وأمر محمد بن عبدالملك أن يكتب بخطه كل ماأخذ منه(٣) ، فصرفه عليه ، ولم ينقص منه شيئا ، وغرم له ما فات منه ، وهذا مما يدل على قوة سَعْد محمدبن عبدالملك المذكور ونباهة قدره ، وحَسْبُه من الفخر مدحُ أديب الأندلس وشاعرها أبى عبد الله الرصافى له ، وهو ممن يمدح الخلفاء فى ذلك العصر ــ رحمه الله تعالى ! ــ

عبد الملك ابن سعيد

وولد أبوه عبد الملك بن سعيد عام ستة وتسعين وأربعمائة ، وتوفى بحضرة مراكش عام اثنين وستين وخمسمائة . قال الحِجَارى : لما مات يحيى بن غانية الملثَّم ملك الأندلس بحضرة غَرْنَاطة ، وكان وزيره ومُدَبِّر دولته عبد الملك بن سعيد ، بادر الفرار لغَرْنَاطة عند ما سمع بموته إلى قلعته ، وثار بها ، وطلبه خليفة يحيى بن غانية طلحةُ بن العنبر ، فوجده قد فاته(٤) .

الذين قاموا بتأليف «المغرب» من بنى سعيد

وقد قدمنا أن عبد الملك هذا هو السبب فى تأليف كتاب «المغرب ، فى أخبار المغرب» ثم تممه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم تمم ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ، ثم أربى على الكل فى إتمامه أبو الحسن على بن موسى الذى قصدناه بالترجمة فى هذا الكتاب ، وقد ذكرنا من أحواله جملة كافية .

(وصف) فسطاط مصر عن أبى الحسن ابن سعيد

ومن فوائد ابن سعيد أبى الحسن ما حكاه عن صاحب كتاب «الكمائم» وهو : فأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس ، وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن ، وهو الذى عليه نزل عمرو

---

(١) الكلام متصل فى ب من غير تنبيه ، ولكن ناشرا ترك بياضاً قدر سطر ، وكتب فى أسفل النسخة يقول : «هذا سطر بخط المؤلف رحمه الله ما قدرنا على استخراجه ، جبره الله تعالى»

(٢) فى ب ونسخة عندا «أبى الحسين»

(٣) فى ا «كل ما أخذله»

(٤) فى أصل ا «فوجده قد مات»

ابن العاص ، وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب إليه ، ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ، ونسب المدينة إليه ، فقيل : فسطاط عمرو ، وتداولت عليها بعد [ذلك] وُلاَة مصر ، فاتخذوها سرير السلطنة ، وتضاعفت عمارتها ، فأقبل الناس من كل جانب إليها ، وقصروا أمانيهم عليها ، إلى أن رسخت بها دولة بنى طُولُونَ ، فبَنَوْا إلى جانبها المنازلَ المعروفة بالقطائع ، وبها كان مسجدُ ابنِ طولون الذى هو الآن إلى جانب القاهرة ، وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ، وتحطُّ فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد ، وبها منتزهات ، وهى فى الإقليم الثالث ، ولا ينزل فيها مطر إلا فى النادر ، وترابُها ينتن الأرجل ، وهو قبيح اللون ، تستكدر منه أرجاؤها ، ويسوء بسببه هواؤها ، ولها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة ، ومبانيها بالقَصَب والطوب طبقة على طبقة ، ومذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط ، وفُرِّطَ فى الاعتناء بها بعد الإفراط ، وبينهم نحو ميلين ، وأنشدت فيها للشريف العقيلى :

أحِنُّ إلى الفسطاط شَوْقا وإننى ... لأدعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل فى الحَيَا من حاجة لجنَابها ... وفى كل قطر من جوانبها نهر[1]
تبدت عروساً والمقطَّـــم تاجها ... ومن نيلها عقـد كما انتظم الدر

وقال عن كتاب إجار : والفسطاط هو قَصَبة مصر ، والجبل المقطم شرقيها ، وهو متصل بجبل الزمرذ[2] ، وقال عن كتاب ابن حوقل : الفسطاط مدينة عظيمة[3] ، ينقسم النيل لديها ، وهى كبيرة ، ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية العمارة والطيب واللذة ذات رِحَاب فى محالِّها ، وأسواق عظام فيها ضيق ، ومتاجر فخام[4] ، ولها ظاهر أنيق ، وبساتين نضرة ، ومنتزهات على ممر الأيام خضرة ، وفى الفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب إليها كالكوفة والبصرة ، إلا أنها أقل من ذلك ، وهى سبخة

---

(١) فى ا « وهل فى الحيا من حاجة لجنانها » (٢) فى ا « الزمرد »
(٣) فى ا « مدينة حسنة » (٤) فى ا « ومتاجر ضخام »

وصف مساكن الفسطاط ومسجديها

الأرض ، غير نقية التربة ، وتكون الدار بها سبعَ طبقات وخمساً وستاً ، وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس ، ومُعْظم بنيانهم بالطوب ، وأسفل دورهم غير مسكون ، وبها مسجدان للجمعة ، بنى أحدَهما عمرُو بن العاص فى سط الفسطاط ، والآخر على الموقف بناهُ ابن طولون ، وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون مِيلاً فى ميل يسكنها جنده ، وتعرف بالقطائع ، كما بنى بنو الأغلب خارجَ القيروان رَقَّادة ، وقد خربتا فى وقتنا هذا ، وأخاف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة .

وصف زيارة الفسطاط لابن سعيد

قال ابن سعيد : لما استقرَرْتُ بالقاهرة تشوَّقت إلى مُعاينة الفسطاط ، فسار معى إليها أحد أصحاب القرية ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المُعَدَّة لركوب مَنْ يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لى بمثلها فى بلد ، فركب منها حماراً ، وأشار إلى أن أركب حماراً آخر ، فأنِفْتُ من ذلك جَرْيًا على عادة ما خلفته فى بلاد المغرب (١) ، فأخبرنى أنه غير مَعِيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحابَ البزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت ، وعند ما استويتُ راكباً أشار المُكَارى إلى الحمار ، فطاربى ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ، ودنس ثيابى ، وعاينت ما كرهته ، ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عَدْوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المُكَارى ، وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج ، فقلت :

لقيتُ بمصرَ أشدَّ البَوَار	ركوبَ الحمار وكحل الغُبَار
وخَلْفِي مُكَارٍ يفوق الريا	ح لا يَعرِفُ الرفقَ مهما استطار
أناديه مَهْلا فلا يَرْعَوِى	إلى أن سجدْتُ سُجُودَ العثار
وقد مدَّ فَوْقِي رواق الثرى	وألحد فيها ضياء النهار

(١) فى ا « من بلاد المغرب »

فدفعت إلى المكارى أجرته ، وقلت له : إحسانُكَ أن تتركنى أمشى على رجلى ومشيت إلى أن بلغتها ، وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين ، ولما أقبلت على الفسطاط أدبَرَتْ عنى المسرة ، وتأملت أسواراً مُثَلمة سوداء وآفاقا مغبرة ، ودخلت من بابها وهو دون غَلَق يُفضى إلى خراب معمور[1] بمبان مُشَتَتة[2] الوضع ، غيرمستقيمة الشوارع ، قد بُنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة[3] ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف ، فسرت وأنا مُعَاين لاستصحاب تلك الحال ، إلى أن صرت فى أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والرَّوَايَا التى على الجمال مالاتفى به إلا مشاهدته ومُقاساته إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع ، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ماذكرت به ضده فى جامع إشبيلية وجامع مَرَّاكش ، ثم دخلت إليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء ، غير مزخرف ، ولا مُحْتَفَل فى حُصُره التى تدور مع بعض حيطانه ، وتنبسط فيه ، وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه مَعْبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك ، والناس يأكلون فى عدة أمكنة منه غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك ، وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من يأكل ، قد جعلوا مايحصل لهم منه رزقا ، وفضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع ، وفى زَوَاياه العنكبوت قد عظم نسجه فى السقف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون فى صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كَتْب فقراء العامة ، إلا أن مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لاتجده فى جامع إشبيلية مع زخرفته

(١) فى ب « مغمور » (٢) فى ا « متشتتة الوضع »
(٣) فى ا « طبقة على طبقة »

والبستان الذى فى صحنه ، ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس[١] دون منظر يوجب ذلك فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى ساحته عند بنائه[٢] ، واستحسنت ما أبصرته من حَلَق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن ، وسألت عن مواد أرزاقهم فأخبِرْت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجاه والتعب ، ثم انفصلنا من هناك إلى ساحل النيل ، فرأيت ساحلا كدر التربة[٣] ، غير نظيف ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سور أبيض ، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلتُ إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقا ، والنيل هنالك ضيق[٤] ، لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته[٥] قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل ، وقد ذكر ابن حَوْقَل الجسر الذى يكون ممتدا من الفسطاط إلى الجزيرة ، وهو غير طويل ، ومن الجانب الآخر إلى البر الغربى المعروف ببر الجيزة[٦] جسر آخر من الجزيرة إليه ، وأكثرُ جَوَازِ الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما لحصولهما فى حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط والجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان ، وبتنا فى ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل ، فقلت :

نَزَلْنا من الفُسْطَاطِ أحْسَنَ مَنْزِلِ ... بحيثُ امتدادُ النيل قد دَارَ كالعِقْدِ
وقد جُمِعَتْ فيه المراكبُ سُحْرَةً ... كسِرْبِ قَطًا أضحى يَرِفُّ على وِرْدِ
وأصبح يطفو الموجُ فيه ويرتمى ... ويطرب أحيانا ويلعب بالنرد

(١) فى ا « الارتياح والحسن »
(٢) فى ب « عند بابه »
(٣) فى ا « كدر التربة »
(٤) فى ا « أضيق »
(٥) في ب « قلعة »
(٦) فى ا « الجزيرة » محرفا

حلا ماؤه كالرِّيق ممن أُحِبُّهُ فمدت عليه حلة من حلى الخد
وقد كان مثل النهر من قبل مده فأصبح لما زاده المد كالوَرد

وقلت هذا لأنى لم أذق فى المياه أحلى من مائه ، و إنه يكون قبل المد الذى يزيد به و يفيض على أقطاره أبيض ، فإذا كان عباب النيل صار أحمر ، وأنشدنى علم الدين فخر الترك أيدَمُرُ عتيق وزير الجزيرة فى مدح الفسطاط :

حَبَّــذا الفسطاط من والدة جَنَّبَتْ أولادَها دَرَّ الجَفَا(١)
يَرِدُ النيلُ إليهــا كَدِرًا فإذا ما زَجَّ أهليهــا صفا
لطفوا فالمزن لا تألفهم خَجَلاً لمــا رأتهم ألطفا

ولم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط ، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة ، و بينهما نحو ميلين ، والحال أن أهل الفسطاط فى نهاية [من] اللطافة واللين فى الـكلام ، وتحت ذلك من المَلَق وقلة المبالاة ورعاية(٢) قدر الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

وأمّا ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى فإنه فوق ما يوصف ، وبه مجمع ذلك ، لا بالقاهرة ، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد .

و بالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زى(٣) الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ماينسج و يصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية ، والخراب فى الفسطاط كثير ، والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة ، باعتبار انتقال السلطان إليها ، وسكنى الأجناد فيها ، وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن ، لمجاورتها للجزيرة الصالحية ، وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة ، و بنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر ، انتهى .

---

(١) فى ب « جنبت أولادها دار الجفا » وأثبتنا ما فى ا
(٢) فى ا « برعاية قدر الصحبة » (٣) فى ا « ذى الجند »

وصف الروضة لابن سعيد

قال المقريزى : يعنى ابنُ سعيد ما بنى على شقة مصر(١) من جهة النيل ، انتهى

وقال ابن سعيد المذكور فى « المغرب ، من حلى المغرب » ما ملخصه : الروضة أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجيزة ، و بها مقياس النيل ، وكانت منتزها لأهل مصر ، فاختارها الملك الصالح بن الملك الكامل سرير السلطنة(٢) ، و بنى فيها قلعة مُسَوَّرة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السَّمْك لم تَرَ عينى أحسنَ منه ، وفى هذه الجزيرة كان الهَوْدَج الذى بناه الخليفة الآمر لزوجته البدوية التى هام فى حبها ، والمختار بستان الإخشيد وقصره ، وله ذكر فى شعر تميم بن المعز وغيره ، ولشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار ، منها قول أبى الفتح بن قادوس الدمياطى :

أرى سُرُجَ الجزيرة من بَعيدٍ ... كأحداق تُغَازِلِ فى المغازل

كأن مجرة الجوزاء خَطَّت ... وأثبتَتِ المنازلَ فى المنازل

قال : وكنت أبِيتُ بعض الليالى بالفسطاط ، فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل مع سور هذه الجزيرة الدرى اللون ، ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور [هذه] القلعة ، وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها ، وهو من أعظم السلاطين فى البناء ، وأبصرت بهذه الجزيرة إيواناً لجلوسه لم ترعينى مثاله ، ولا يُقَدَّر ما أنفق عليه ، وفيه من صحائف الذهب والرخام الآبنوسى والكافورى والمجزَّع ما يذهل الأفكار ، ويستوقف الأبصار ، و يفضل عما أحاط به السور أرض طويلة فى بعضها حاظر حصر(٣) فيه أصناف الوحوش التى يتفرج عليها السلطان ، و بعدها مروج تنقطع فيها مياه النيل فتنظر فيها أحسن منظر ، قال : وقد تفرجت كثيراً فى طرف(٤) هذه الجزيرة مما يلى أثر الفسطاط فقطعت به عشيات مُذْهَبَات ، لم تزل لأحزان الغربة مُذْهِبات ، و إذا زاد النيل فصل برها عن بر الفسطاط من جهة خليج القاهرة ، ويبقى موضع الجسر تكون فيه المراكب ، انتهى .

(١) فى ا « شفة مصر » (٢) فى ا « سريراً لسلطنته »

(٣) فى أصل ا « خطر » ولعله محرف عن « حظر » وفى نسخة عند ا « خص »

(٤) فى ب « فى طرق هذه الجزيرة »

وأورد الصفدى فى تذكرته لابن سعيد المذكور فى هذه الجزيرة :

اُنظر إلى سور الجزيرة فى الدُّجَى	والبَدْرُ يلثم منه ثغرًا أشْنبَا
تتضاحك الأنوار فى جنَبَاته	فتريك فوق النيل أمراً مُعْجبا
بَيْنَا تَرَاه مُفضَّضًا فى جانبٍ	أبْصَرْتَ منه فى سِوَاه مذهبا
لله مَرْأًى ماراًه ناظِـرِى	إلا خَلَعْتُ له المقـام تطربا

وصف مدينة القاهرة وقصورها

وقال فى « المغرب » نقلا عن بعضهم ما صورته : وأما مدينة القاهرة ، فهى الحاليه الباهرة ، التى تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا فى بنائها ، واتخذوها قُطْبا لخلافتهم ومركزا لأرجائها ، فنُسِى الفسطاط ، وزهد فيه بعد الاغتباط ، وسميت القاهرة لأنها تقْهَر من شذ[عنها] ورام مخالفة أميرها . قال ابن سعيد : هذه المدينة اسمها أعظم منها ، وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظمُ خلفاء العُبَيْدِيين ، وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أوّل الديار المصرية إلى البحر المحيط :

وسارت مَسيرَ الشمسِ فى كل بلدة	وهَبَّتْ هبوبَ الريح فى البر والبحر

لا سيما وقد عاين مبانى أبيه المنصور فى مدينة المنصورية[1] إلى جانب القيروان ، وعاين المهدية مدينة جَدِّه عُبَيْد الله المهدى ، لـكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهى ناطقة إلى الآن بألسن الآثار ، ولله در القائل :

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها	من بَعْدِهِمْ فبألسُنِ البُنيانِ
إن البناء إذا تعاظم شأنه	أضْحَى يدل على عظيم الشان

وتهمم من بعده الخلفاء المصريون فى الزيادة فى تلك القصور ، وقد عاينت فيها إيوانا يقولون [إنه] بنى قدر إيوان كسرى الذى بالمدائن ، وكان يجلس فيها خلفاؤهم

(١) فى ا « المدينة المنصورية »

ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مَبَان عظيمة جليلة الآثار، وأبصرت فى قصورهم حيطاناً عليها طاقات عديدة من الكِلْس والجبس ذُكر لى أنهم كانوا يجدّدون تبييضها فى كل سنة ، والمكان المعروف بالقاهرة ببين القصرين هو من الترتيب السلطانى ، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرّجين ما بين القصرين ، ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه إلى أمد ضيق ، وتمرّ فى ممر كدر خَرَج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيلُ مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور ، وتسخن منه العيون ، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة و بين يديه الأمراء ، وهو [فى] موكب جليل ، وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان [فى] موضع طباخين ، والدخان فى وجه الوزير، وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك فى جملتهم ، وأكثر دُروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضَيَّقَتْ مسلك الهواء والضوء بينها ، ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى ، وتُدْركنى وحشة عظيمة ، حتى أخرج إلى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة أنها فى أرض النيل الأعظم و يموت الإنسان فيها عَطَشا لبعدها عن مجرى النيل ، لئلا يصادرها و يأكل ديارها ، و إذا احتاج الإنسان إلى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور إلى موضع يعرف بالمَقْس ، وجَوُّها لا يبرح كدراً مما تثيره الأرض[1] من التراب الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر علىّ رفاقى من الحض على العود فيها :

يقولون سافِرْ إلى القاهِرَهْ ... ومالى بها رَاحَــةٌ ظاهره

---

(١) فى ا « بما تثره الأرض »

زِحَامٌ وضيق وكَرْبٌ وما تُثِير بها أرْجُـلٌ سائره

وعند ما يُقْبِل المسافر عليها يرى سوراً أسود كدراً ، وجوّا مغبراً ، فتنقبض نفسه، ويفر أنسه ، وأحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة ، لاسيما أرض القرط والـكتان ، وقلت :

سقى الله أرْضاً كلما زُرْتُ رَوْضَهَا كسَاهَا وحَلاَّها بِزِينَتِهِ القرط(١)

تجَلّتْ عَرُوساً والمياه عُقُودُهَا وفى كل قطر من جوانبها قرط

وفيها خليج لايزال يضعف بين حضرتها حتى يصير كما قال الرصافى :

ما زالت الأمحالُ تأخـذه حتى غدَا كَذُؤابة النَّجْمِ

وقلت فى نوّار الـكتان(٢) على جانبى الخليج :

اُنظر إلى النهر والـكتان يَرْمُقُهُ من جانبيه بأجفانٍ لها حَـدَقُ

رأته سَيْفاً عليه للصَّبَا شُطَبٌ فقابلته بأحـداق بها أَرَقُ

وأصْبَحَتْ فى يد الأرواح تَنْسجُهَا حتى غَدَتْ حلقاً من فوقها حلق

فلِمْ تزرها ووَجْهُ الأرض مُصْطَبح أو عنْدَ صَفْوته إن كنت تغتبق

بركة الفيل فى ظاهر القاهرة

وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتُسْرِجُ أصحابُ المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لهـا بذلك منظر عجيب ، وفى ذلك قيل :

اُنظر إلى بِرْكَةِ الفِيل التى اكْتَنَفَتْ بها المَنَاظِرُ كالأهـداب للبَصَرِ

كأنمـا هى والأبْصَـارُ تَرْمُقُهَا كواكبٌ قد أدارُوهَا على القمَرِ

ونظرت إليها وقد قابلتها الشمس بالغُدْوَة(٣) فقلت :

اُنظر إلى بركة الفيل التى فَجَرَتْ لهَا الغزالة فَجْراً من مَطَالعها(٤)

وخَلِّ طَرْفَكَ مجنُوناً ببهجتها يَهِيمُ وَجْدًا وحُبًّا فى بَدَائعها

(١) في ب « وحلاها بمنظره القرط »

(٢) فى ا « نور الـكتان » (٣) فى ا « بالغدو »

(٤) فجرت ــ بفتح الجيم مخففة ــ شقت ، والغزالة : الشمس

موازنة بين الفسطاط والقاهرة

والفسطاط أكثر أرزاقاً ، وأرخص أسعارا من القاهرة ، لقرب النيل من الفسطاط ، والمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة ، لأنه يبعد عن المدينة ، والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط ، لأنها أجَلُّ مدارس ، وأضخم خاناتٍ ، وأعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منها ، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر ، وأكثر ، وبها الطراز[١] وسائر الأشياء التى يتزين بها الرجال والنساء ، إلا أن فى هـذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة الجزيرة التى أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة عَظُمَت عمارة الفسطاط ، وانتقل إليها كثير من الأمراء ، وضخمت أسواقها ، وبنى فيها السلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قَيْسَارِية عظيمة ، فنقل إليها من القاهرة سوقَ الأجناد التى يُبَاع فيها الفِرَاء والجوخ وما أشبه ذلك .

إلى أن قال : وهى الآن عظيمة آهلة ، يُجْبَى إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال مالا يحيط بجملته وتفسيره إلا خالق الكل جلّ وعلا ، وهى مستحسنة للفقير الذى لا يخاف طلب زكاة ولا ترسيما[٢] ولا عذاباً ، ولا يطالب برفيق له إذا مات ، فيقال له : ترك عندك مالا ، فربما سجن فى شأنه أو ضرب أو عصر ، والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السماع[٣] والفرج فى ظواهرها ودَوَاخلها[٤] ، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب إليه نفسه ، يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة أو صحبة مُرْدَان وما أشبه ذلك ، ، بخلاف غيرها من بلاد المغرب ، وسائر الفقراء لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول إلا المغاربة ، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة [الحرب] والبحر ،

(١) أراد دار الطراز ، وهى الدار التى تنسج فيها ثياب السلاطين والأمراء
(٢) الترسيم : وضع المشكوك فى سيره أو المشكوك فى ولائه للحاكم تحت المراقبة
(٣) فى ا « ووجود السماعات » وأراد الأغانى
(٤) فى ب « وداخلها »

وقد عم ذلك مَنْ يعرف معاناة البحر منهم ومَنْ لا يعرف ، وهم فى القدوم عليها بين حالين : إن كان المغربى غنياً طولب بالزكاة وضُيِّق عليه(١) ، و إن كان مجرداً فقيراً حُمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول

وفى القاهرة أزاهر كثيرة غير منقطعة الاتصال ، وهذا الشأن فى الديار المصرية يفضل كثيراً من البلاد ، وفى اجتماع النرجس والورد فيها أقول :

مَنْ فَضَّلَ النرجِسَ وَهْوَ الذى يَرْضَى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترَى الوردَ غَـدَا قاعداً وقام فى خـدمته النرجس

وأكثر مافيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز ، أمّا التفاح والإجاص فقليل غال ، وكذلك الخوخ، وفيها الورد والنرجس والنسرين والنيلوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر ، وأما العنب والتين فقليل غال ، ولكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل ، ومع هذا فشرابه عندهم فى غاية الغلاء ، وعامتها يشربون المِزْرَ الأبيض المتخذ من الحنطة ، حتى إن الحنطة يطلع سعرها بسبب(٢) ذلك ، فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه وكسر أوانيه ، ولا ينكر فيها إظهار أوانى الخمر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ، ولا تبرج النساء العواهر، ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب ، وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلى القاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك فى بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة ، حتى إن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العُبُور به فى مركب ، وللسُّرُج فى جانبيه بالليل منظر ، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر فى الليل ، وفى ذلك أقول :

لا تركَبَنْ فى خليج مِصْرٍ إلا إذا أسْدِلَ الظلامُ

---

(١) فى ا « وضيقت عليه السعاة » جمع ساع ، وهو محصل الزكاة هنا

(٢) فى ا « بسببه »

فقد علمت الذى عليه — من عالمٍ كُلّهم طَغَامُ
صفان للحرب قد أَطَلاّ — سِلاحُ ما بينهم كَلاَمُ[1]
يا سيدى لا تَسِرْ إليه — إلا إذا هَوَّمَ النيامُ
والليل ستر على التصابى — عليه من فضله لثام
والسُّرْجُ قد بدت عليه — منها دنانير لاترام
وهو قد امتدَّ والمبانى — عليه فى خدمة قيام
لله كم دوحة جنينا — هناك أثمارها الأثام

قال المقريزى : وفيه تحامل كثير ، انتهى .

ومَنْ نظر بعين الإنصاف علم أن التحامل فى نسبة التحامل إليه ، والله تعالى الموفق .

قال ابن سعيد : ومعاملة الفُسْطَاط والقاهرة بالدراهم المعروفة بالسوداء ، كل درهم منها ثلاث من الدراهم[2] الناصرية ، وفى المعاملة بها شدة وخسارة فى البيع والشراء ، ومخاصمة بين الفريقين ، وكان بها قديماً الفلوس ، فقطعها الملك الكامل ، فبقيت الآن مقطوعة منها ، وهى فى الإقليم الثالث ، وهواؤها ردىء ، لا سيما إذا هبَّ الْمَرِيسى من جهة القبلة ، وأيضاً فرَمَدُ العين فيها كثير ، والمعايش فيها متعذرة نَزْرة ، لا سيما أصناف الفضلاء ، وجوامك[3] المدارس قليلة كدرة ، وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى فى كتابة الطب والخراج ، والنصارى بها يمتازون بالزنَّار فى أوساطهم ، واليهود بعمائم صُفر ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة ، ويأكل أهل القاهرة البَطَارخ ، ولا تصنع حلاوة القمح إلا بها وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جَوَارٍ طباخات أصلُ تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، ولهن فى الطبخ صنائع عجيبة ، ورياسة متقدمة ، ومطابخ السكر والمواضع التى يصنع بها

(١) فى ا « صنفان للحرب قد أظلا » .

(٢) فى ا « ثلاث من الدرهم الناصرى » .

(٣) الجوامك : جمع جومك ، وهو الراتب الذى يعطى لرجالات الدولة .

الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة ، انتهى المقصود من هذا الموضع من كلام أبى الحسن النور بن سعيد رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله :

كَمْ ذا تُقِيمُ بمصر مُعَـذَّباً بذَوِيها
وكيف ترجُو نَدَاهُمْ والسحْبُ تَبْخَلُ فيها[1]

وقال رحمه الله تعالى :

لابن الزبير مكارم أضْحَتْ بها طيْرُ المدائح فى البـلاد تُغَرِّدُ
إن قيدوه وَبَالَغُوا فى عَصْره فالـكرمُ يُعْصَر والجَوَادُ يُقَيَّدُ[2]

بعض أخبار والد أبى الحسن ابن سعيد

ولنذكر بعض أخبار والده ، فإنه ممن رحل إلى المشرق وتوفى بالإسكندرية ، وقد ذكر ابنه أبو الحسن فى « المغرب » وغيره من أخباره العجائب ، ولا بأس بأن نلم بشىء من ذلك ، سوى ما تقدم ، فنقول :

من أخباره أنه لما اجتاز بمالَقَةَ ومشرفها إذ ذاك أبو على بن تقى[3] وَجَّه إليه من نقل أسبابه إلى داره وأقبل عليه منشدا :

أكذا يَجُوز القَطْر لا يَثْنِى على أرضٍ تَوالَى جَدْبُها من بعـده
أللهُ يعْـلَم أنها ما أنبتت زَهَرًا ولا ثَمَرًا بمدة فقده
عَرِّجْ عليها ساعـةً يا مَنْ له حَسَبٌ يفوق العالمين بمجده
وانثر عليها من أزاهرك التى تَشْفِى المتيَّم من لَوَاعج وَجْدِهِ
والله ما ذاكرتُ فـكرك ساعةً إلا وأقبس خاطرى من زَنْدِهِ

قال موسى : فارتجلت للحين :

أنت الذى تَعْرِفُ كيف العلا وتَبْتَدِى فى سبـل المجد

(١) فى ب « والسحب تنحل فيها » وأثبتنا ما فى أصل ا .

(٢) فى ا « والجواد يعقد » .

(٣) فى ا « ابن مبتى » وفى ب « ابن بقى » .

بدأتَ بالفضل المنير الذى أكمل بدر الشكر والحمد
والله ما أبصرتكم ساعة إلاَّ بَدَا لى طالع السعد

وانصرفت معه إلى منزله :

فلم أزل فى كَرَامَهْ ليست كظل غمامه

ولما كان أبو عمران موسى بن سعيد بالجزيرة الخضراء مُقَدّما على أعمالها من قبل ابن هودٍ وصله كتاب من الفقيه القاضى أبى عبد الله محمد بن عسكر قاضى مالقَة مع أحد الأدباء ، منه :

أفاتح من قلبى بعَلْيَاه واثقٌ وإن كانت الأبصار لم تنسخ الودا
وَثِقتُ بما لى من ذمام تشيُّعى بآل سعيد وابتغيت به السَّعْدَا(١)
وبالحبِّ يدنو كل من أقصَتِ النوى برغم حِجَابٍ للنوى بيننا مُدّا

يا سيدى الذى حملنى ما أمال أسماعى من الثناء عليه ، أن أهجم على مفاتحته شافعا فى موصِّلها إليه ، واثقا بالفرع لعلم الأصل ، مؤمّلا للإفضال بتحقق الفضل ، إن لم تَقْضِ باجتماع بيننا الأيام ، فلاتجرى بالمشافهة بيننا إلا ألسن الأقلام(٢) ، ويوحى بعضنا إلى بعض بسُوَر الوداد ، والحمد لله الذى أطلعك فى ذلك الأفق بدرا ، وأدناك من هذه الدار فصرنا لقرب مَنْ يرد عنك لانعدم لك ذكرا ، فكلٌّ يُثْنى بالذى علمت سعد(٣) ، ويصف من خلالك ما يقضى ذلك المجد ، ولما كان إحسانك يبشر [به] الصادر والوارد ، ويحرض(٤) عليه الغائب والشاهد ، مدَّ أمله نحوك موصل هذه المفاتحة ، وليس له وسيلة ولا بضاعة إلا الأدب وهى عند بيتك الكريم رابحة ، وهو من شتتتْ خطوبُ هذا الزمان شَمْله ، وأبانت نوائبه صبره وفضله ، وما طمح ببصره إلا إلى أفقك ، ولا وَجَّه رجاءه إلا نحو طرقك ،

---

(١) فى ا « فابتغيث به السعدا » .

(٢) فى ا « فلا تجزى من المشافهة بيننا ألسن الأقلام » .

(٣) أخذ هذه الفقرة من قول الحطيئة يمدح بغيض بن عامر أحد بنى سعد بن زيد مناة :

وتعذلنى أفناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذى علمت سعد

(٤) فى ب « ويحرص عليه » بالصاد مهملة .

والرجاء من فضلك أن يعود وقد أثنت حقائبه ، وأعنقت من الحمد ركائبه ، دُمْتَ غرة فى الزمن البهيم ، مخصوصا بأفضل التحية والتسليم ، انتهى .

وابن عسكر المذكور عالم بالتاريخ متبحر فى العلوم ، وله كتاب فى أنساب بنى سعيد أصحاب هذه الترجمة ، ومن شعره :

أهْوَاكَ يا بدرُ وأهْوَى الذى يَعْذِلُنى فيك وأهْوَى الرقيب
والجارَ والدارَ ومَنْ حَلَّها وكلَّ من مَرَّ بها من قريب
وكلَّ مُبْدٍ شَبَهاً منكمُ وكل مَنْ يلفِظُ باسم الحبيب

وصية من موسى ابن سعيد لولده أبي الحسن

رجع - قال ابنه على : لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة أول وصولى إلى الإسكندرية ، رأى أن يكتب لى وصية أجعلها إماما فى الغربة ، فبقى فيها أياما إلى أن كتبتها عنه ، وهى هذه ، وكفى بها دليلا على ما اختبرَ وعلم :

أودِعُكَ الرحمن فى غُرْبتِك مُرْتَقِباً رُحماه فى أوْبتِك
وما اختيارى كان طَوْع النوى لكننى أجْرى على بغْيَتِكْ
فلا تُطِل حَبْلَ النوى إننى والله أشتاقُ إلى طَلعتك
مَنْ كان مَفْتُوناً بأبنائه فإننى أمْعَنْتُ فى خبرتك
فاختصِرِ التوديع أخْذًا ، فما لى ناظرٌ يَقوَى على فُرْقَتِكْ
واجْعلْ وَصَاتى نُصْبَ عين ولا تبرَحْ مدى الأيام من فكرتك
خُلَاصة العُمْرِ التى حُنِّكَتْ فى ساعة زُفَّتْ إلى فِطْنَتِك[1]
فللتَّجاريب أمورٌ إذا طالَعْتَها تَشْحَذُ من غفلتك
فلا تَنَمْ عن وَعْيِها ساعةً فإنها عَوْنٌ إلى يَقظَتِك
وكلُّ ما كابدته فى النوَى إياكَ أن يكسرَ من هِمَّتك[2]
فليسَ يُدْرَى أصْلُ ذى غُرْبة وإنما تُعرفُ من شِيمتك
وكلُّ ما يُفضِى لِعُذْرٍ فلا تجعله فى الغُرْبة من إربتك[3]

(١) فى ا « رفت إلى فطنتك » بالراء المهملة .
(٢) النوى : البعد والفراق ، وبكسر من همتك : أراد يقلل من عزمك .
(٣) الإربة - بكسر الهمزة وسكون الراء - الغرض والحاجة .

ولا تجالسْ مَنْ فشا جهلُه … واقصِدْ لمن يرغبُ فى صنعتك

ولا تجادل أبداً حاسـداً … فإنه أدْعَى إلى هَيْبَتـك

وامْشِ الْهُوَيْنَى مظهراً عِفّةً … وابغِ رضا الأعْيُنِ عن هيئتك

أفْشِ التحيّات إلى أهْلِها … ونبِّهِ الناس على رتبتـك

وانْطِقْ بحيثُ العِيُّ مُسْتَقْبَح … واصْمتْ بحيثُ الخيرُ فى سكتتك

ولا تزلْ مجتمعاً طالبـاً … مِنْ دَهْرِكَ الفُرْصَةَ فى وَثبَتك

وكلما أبْصَرْتَهَا أمْكَنَتْ … ثِبْ واثِقاً بالله فى مُكْنتك

ولج على رِزْقك من بَابِهِ … واقصِدْ له ماعِشْتَ فى بُكْرتك

وأيْأس من الود لدى حاسد … ضِدٍّ ونافِسْهُ على خُطّتك[1]

ووفِّر الجهد فمن قصـده … قصدكَ لاتَعْتِبْهُ فى بغضَتك

ووفِّ كُلاًّ حَقَّه ولْتكُنْ … تكسر عند الفخر من حِدّتك

ولا تكن تحقِرُ ذا رُتْبـةٍ … فإنه أنفعُ فى غُرْبَتـك

وحَيْثُما خيمت فاقْصِدْ إلى … صُحْبَةِ مَنْ تَرْجُوه فى نصرَتك

وللرَّزَايا وثبـة مالها … إلا الذى تدْخَرَ من عُدّتك[2]

ولا تقلْ أسْلَمَ لى وحْدَتى … فقد تقاسِى الذل فى وَحْدَتك

ولْتَزِنِ الأحوالَ وزْناً ولا … ترجعْ إلى ما قام فى شهوَتك

ولتجعل العقلَ مَحَكّاً وخُذْ … كلا بما يظهر فى نَقْدتك

واعتـبر الناسَ بألفاظهم … واصْحَبْ أخاً يرْغبُ فى صُحْبَتك

بعْدَ اختبارٍ منك يَقْضِى بما … يحْسُنُ فى الأخْدَانِ من خلطتك[3]

كم من صَدِيق مُظْهِرٍ نصحه … وفكْرُهُ وقْفٌ على عثْرَتك

إياك أن تقربَه ، إنهُ … عَوْن معَ الدَّهْرِ على كُرْبَتك

---

(١) فى ا ، ب « وأس من الود لدى حاسد » .

(٢) فى نسخة « تذخر » بالذال معجمة ، واجتمعت ا ، ب على « تدخر » بالمهملة

(٣) الأخدان : جمع خدن ، وهو الصديق والصاحب ، ووقع فى ب « الآخذ من خلطتك » وأثبتنا ما فى ا .

واقْنَعْ إذا ما لم تجِدْ مَطْمَعا   واطْمَعْ إذا أُنْعِشْتَ من عسرتك(١)
وانْمُ نموّ النَّبْتِ قد زارَهُ   غبُّ الندى واسْمُ إلى قُدْرتك
وإن نبا دهـــرٌ فوطّنْ له   جأشك وانْظِرْهُ إلى مُدَّتك
فكل ذى أمر له دَوْلَةٌ   فوفِّ ما وافاك فى دولتك
ولا تُضَيِّعْ زمناً ممكنا   تذكارُهُ يذكى لظَى حسْرَتك
والشر مهما اسطعت لا تأته   فإنه حوبٌ على مهجتـــك(٢)

يا بنى الذى لا ناصح له مثلى ، ولا منصوح لى مثله [قد] قدمت لك فى هذا النظم ما إن أخطرته بخاطرك فى كل أوان رجوت لك حسن العاقبة ، إن شاء الله تعالى وإنَّ أخفَّ منه للحفظ وأعلق بالفكر وأحق بالتقدم قول الأول :

يزين الغريبَ إذا ما اغتربْ   ثلاثٌ فمنهنَّ حسنُ الأدبْ
وثانيـــة حُسْنُ أخلاقِهِ   وثالثـــة اجتناب الرِّيَبْ

وإذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها فى الغربة رأيتها جامعة نافعة ، لا يلحقك إن شاء الله تعالى مع استعمالها ندم ، ولا يفارقك بر ولا كرم ، ولله در القائل :

يُعَدُّ رفيع القوم مَنْ كان عاقلا   وإن لم يكن فى قَوْمِه بحَسِيبِ
إذا حلَّ أرضاً عاش فيها بعَقْلِهِ   وما عاقل فى بَلْدَةٍ بغَرِيبِ

وما قصر القائل حيث قال :

واصْبِرْ على خُلْقِ مَنْ تعاشره   وَدَارِهِ فاللبيبُ مَنْ دَارَا
واتخِذِ الناسَ كلهم سَكنا   ومَثِّلِ الأرض كُلَّهَا دَارَا

وأصْغِ(٣) يا بنى إلى البيت الذى هو يتيمة الدهر ، وسُلَّم الكرم والصبر :

ولَوَ أنَّ أوطانَ الديار نبَتْ بكم   لسَكنتم الأخلاق والآدابا

إذ حسن الخلق أكرم نزيل ، والأدب أرحب منزل ، ولتكن كما قال بعضهم(٤)

---

(١) فى ا « واطمع إذا نفست من عسرتك » .
(٢) الحوب : الألم والوجع والظلم والإثم ، ووقع فى ب «حوز» وفى ا «حرز»
(٣) فى ا « واصنع يا بنى » محرفا   (٤) فى ا « كما قال أحدهم » .

فى أديب متغرّب : وكان كلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد ، وإليه قصد ، غير مستريب بدهره ، ولا منكر شيئاً من أمره ، و إذا دعاك قلبك إلى صحبة مَنْ أخذ بمجامع هواه فاجعل التكلف له سلما ، وهُبَّ فى روض أخلاقه هُبُوبَ النسيم ، وحُلّ بطرفه حُلولَ[1] الوسن ، وأنزل بقلبه نزول المسرة ، حتى يتمكن لك وداده ، و يخلص فيك اعتقاده ، وطهر من الوقوع [فيه] لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا ترخِّصْ فى جانبه لحسود لك منه ، يريد إبعادك عنه ، لمنفعته ، أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك ، ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته ، ولا تتمهد بدوام رقدته ، فقد ينبهه الزمان ، و يغير منه القلبَ واللسان ، ولذا قيل : أذا أحبيت فأحبب هونا مّا ، ففى الممكن أن ينقلب الصديق عدوّا والعدوّ صديقا ، و إنما العاقل مَنْ جعل عقله معيارا ، وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله ، وجعل نصب ناظره قول أبى الطيب :

ولما صار وُدُّ الناس خبًّا جَزَيت على ابتسامٍ بابتسامِ

وفى أمثال العامة : من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل ، فاحتذِ بأمثلة مَنْ جرَّبَ ، واستمع إلى ماخلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال ، فإنها خلاصة عمرهم ، وزُبْدة تجاربهم[2] ، ولا تتكل على عقلك ، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طولَ أعمارهم وابتاعوه غاليا بتجاربهم يربحك ، و يقع عليك رخيصاً ، و إن رأيت مَنْ له مروءة وعقل وتجربة فاستفد منه ، ولا تضيع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحا لعقلك ، وحَثًّا لك واهتداء ، و إياك أن تعمل بهذا البيت فى كل موضع :

* فالحُرُّ يُخْدَع بالكلام الطيب *

فقد قال أحدهم : ماقيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمل ، وليس كل ماتسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه ، حتى تتدبره ، فإن كان موافقا

---

(١) فى ا « محل الوسن » والوسن : النوم .

(٢) فى ا « وزبدة حياتهم » .

لعقلك مصلحاً لحالك فراعِ ذلك عندك[١] ، و إلا فانبذه نَبْذَ النواة ، فليس لكل أحد يُتَبسم ، ولا كل شخص يُكَلم ، ولا الجود مما يعم به ، ولا حسن الظنّ وطيب النفس مما يعامل به كل أحد ، ولله در القائل :

وَمَالِى لا أُوفى البَرِيَّةَ قِسطَهَا عَلَى قَدْرِ مَا يُعطى وعَقْلِى مِيزَانُ

و إياك أن تعطى من نفسك إلا بقدر ، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء ، ولا الكفء بمعاملة الأعلى ، ولا تضيع عمرك فيمن يملكك[٢] بالمطامع ، و يَثْنِيكَ عن[٣] مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة ، واسمع قول الأول

* و بِعْ آجِلاً منك بالْعاجل *

وأقلل من زيارة الناس ما استطعت ، ولا تَجْفُهم بالجملة ، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ولا ضجر ولا جفاء ، ولا تقل أيضا أقعد فى كسر بيتى ولا أرى أحدا ، وأستريح من الناس ، فإن ذلك كسل داع إلى الذل والمَهَانة ، و إذا علم عدو لك أو صديق منك ذلك عاملاك بحسبه ، فازدراك الصديق وجَسَر عليك العدوّ ، و إياك أن يغرك صاحبٌ واحد عن أن تدخر غيره للزمان ، وتطيعه فى عداوة سواه ، ففى الممكن أن يتغير عليك فتطلب إعانة عليه أو استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها ، وكان هو فى أوسع حال وأعلى رأى بما دبره بحيلته فى انقطاعك عن غيره ، فلو اتفق لك أن تصحب من كل صناعة وكل رياسة من يكون لك عُدَّة لكان ذلك أولى وأصوب ، وسَلْنى فإنى خبير ، طال والله ماصحبت الشخص أكثر عمرى لا أعتمد على سواه ، ولا أعتدّ إلا إياه ، منخدعا بسَرَابه ، موثوقا فى حبائل خطابه ، إلى أن لايحصل لى منه غير العَضِّ على البَنَان ، وقول لوكان ولوكان ، ولا يحملنك أيضا هذا القول أن تظنه فى كل أحد ، وتعجل

---

(١) فى ا « قواه ذلك عندك » .

(٢) فى ب « فيمن يعاملك بالمطامع » وفى نسخة « فيمن يعللك بالمطامع » وأثبتنا مافى أصل ا . (٣) فى ب « ويثيبك على » .

المكافأة ، ولْيَكُنْ حسن الظن بمقدار ، واصبر بمقدار مّا ، والفطن لا تخفى عليه مخايل الأحوال ، وفى الوجوه دلالات وعلامات ، وأصْغ إلى القائل :

ليس ذا وَجْـه من يضيف ولا يقـرِى ولا يَدْفَعُ الأذى عن حريم

فمن يكن له وجه مثل هذا الوجه فولِّ وجهك عنه قبلة ترضاها ، ولتحرص جهدك على أن لا تصحب أو تخدم إلا ربَّ حشمة ونعمة ، ومن نشأ فى رفاهية ومروءة ، فإنك تنام معه فى مِهَاد العافية ، وإن الجياد على أعراقها تَجرِى ، وأهل الأحساب والمروآت يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وَصْمة ، وقد قيل فى مجلس عبد الملك بن مروان : أشرب مصعب الخمر ؟ فقال عبد الملك ، وهو عدوّ له محارب له على الملك : لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ماشرب به

* والفَضْل ماشهدَت به الأعداء *

يابنى، وقد علمت أن الدنيا دارمفارقة وتغير ، وقد قيل: اَصْحَبْ من شئت فإنك مفارقه ، فمتى فارقت أحدًا فعلى حسنى فى القول والفعل ، فإنك لاتدرى هل أنت راجع إليه ، فلذلك قال الأول :

* ولما مَضى سلْمٌ بكيت على سلْمِ [1] *

و إياك والبيت السائر [2] :

وَكُنْتَ إذَا حَلَلْتَ بدَارِ قَوْم رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارَا

واحرص على ما جمع قول القائل : ثلاثة تبقى لك الودَّ فى صدر أخيك ، أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحبِّ الأسماء إليه ، واحذر كل مايبنه لك القائل : كلُّ ماتغرسه تجنيه إلا ابن آدم فإنك إذا غرسته يقلعك ، وقول الآخر : ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن ، وقول الآخر : ابن آدم ذئب مع الضعف ،

---

(١) البيت فى سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلى .

(٢) البيت لجرير يقوله للفرزدق .

أسد مع القوّة ، وإياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تُطيل اختباره ، فيحكى أن ابن المقفّع خطب من الخليل[١] صحبته ، فجاوبه : إن الصحبة رِقٌّ ، ولا أضع رقى فى يدك حتى أعرف كيف مَلَـكتك ، واستَمْلِ من عين من تعاشره ، وتفقّد فى فلتات الألسن وصفَحات الأوجه ، ولا يحملك الحياء على السكوت عما يضرك أن لاتبينه ، فإن الـكلام سلاح السلم ، وبالأنين يعرف ألم الجرح ، واجعل لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك ، وآكد ما أوصيك به أن تطرح الأفكار ، وتسلم للأقدار

واقبل من الدهر ما أتاك به   مَنْ قَرَّ عيناً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ

إذ الأفـكار تجلب الهموم ، وتضاعف الغموم ، ومُلازمة القُطُوب ، عنوان المصائب والخطوب ، يستريب به الصاحب ، ويشمت العدوّ المجانب ، ولا تضر بالوساوس إلا نفسك ، لأنك تنصر بها الدهر عليك ، ولله در القائل :

إذا ما كنت للأحزان عَوْناً   عليك مع الزمان فَمَن تلُومُ

مع أنه لا يردُّ عليك الفائتَ الحزن[٢] ، ولا يرعوى بطول عتبك الزمن ، ولقد شاهدتُ بغَرْناطة شخصاً قد ألفته الهموم ، وعشقته الغموم ، من صغره إلى كبره ، لاتراه أبدا خليا من فـكره ، حتى [لقد] لقب بصدر الهم ، ومن أعجب مارأيته منه أنه يتنـكد فى الشدة ، ولا يتعلل بأن يكون بعدها فرج ، ويتنـكد فى الرخاء خوفا من أن لايدوم ، وينشد :

* توقع زَوَالاً إذا قيل تَمّ[٣] *

وينشـد :

* وعِنْدَ التَّنَاهى يَقْصر المتطاول[٤] *

---

(١) أراد الخليل بن أحمد الفراهيدى شيخ النحاة .

(٢) فى ا « مع أنه لا يرد عليك الغائب الحزن » .

(٣) هذا عجز بيت صدره : * إذا تم شىء بدا نقصه *

(٤) هذا عجز بيت للمعرى ، وصدره : * فإن كنت تبغى العز فابغ توسطا *

وله من الحكايات فى هذا الشأن عجائب ، ومثل هذا عمره مخسور يمر ضياعا ، ومتى رَفَعك الزمان إلى قوم يَذُمون من العلم ما تحسنه حسدا لك ، وقَصْداً لتصغير قدرك عندك ، وتزهيدا لك فيه ، فلا يحملك ذلك على أن تزهد فى علمك ، وتركن إلى العلم الذى مدحوه ، فتكون مثل الغراب الذى أعجبة مَشْيُ الحجَلة فرام أن يتعلمه فصعب عليه ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه ، فبقى مخبل المشى [كما قيل :

حَسَدَ القطَا وأراد يَمْشى مشيها ... فأصابه ضربٌ من العُقَّال

فأضلَّ مِشْيتَهُ وأخطأ مَشْيَها ... فلذاك سَمَّوْهُ أبا مِرْقالِ] (١)

ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ، ويقول : مابقى فى الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يرتاح فيه (٢) ، فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبه الحرمان ، واستحقَّت طلعته للهوان ، وأبرموا على الناس بالسؤال ، فمقتوهم ، وعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها فاستراحوا إلى الوقوع فى الناس ، وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، وتعذير أمورهم ، ولا تزل هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إذا ما نلت عزاً ... فأخو العز يلين

فاذا نابك دَهْرٌ ... فكما كنت تكون

ولا قول الآخر :

تِهْ وارْتفِعْ إن قيل أقْتَرَ ... وانخفض إن قيل أثرى

كالغُصْن يسفل ما اكتسى ... ثمراً ويعلو ما تعَرَّى

ولا قول الآخر :

الخيرُ يبقى وإن طال الزمان به ... والشرُّ أخبَثُ ماأوعيْتَ من زادِ

---

(١) هذان البيتان لا يوجدان فى ا

(٢) فى ا « يستراح فيه » .

واعتقد فى الناس ما قاله القائل :

وَمَنْ يَلْقَ خيراً يحمد الناسُ أمره ومن يَغْوِ لا يَعْدَمْ على الغى لائما

[وقريب منه قول القائل[١] :

بقَدْرِ الصُّعود يكون الهبوطُ فإياك والرتب العاليه

وكن فى مكان إذا ما سَقَطْتَ تقومُ ورجلاك فى عافيه][١]

وتحفظ بما تضمنه قول الآخر :

ومن دَعَا الناس إلى ذمّهِ ذموه بالحق وبالباطل

ولله در القائل :

ما كل مافوق البسيطة كافياً فاذا اقْتَنَعْتَ فكل شىء كافى

والأمثال يضربها لذى اللب الحكيم ، وذو البصر يمشى على الصراط المستقيم ، والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير ، والله سبحانه خليفتى عليك ، لا رب سواه

نجزت الوصية وتكفيك عنوانا على طبقته فى النثر .

وله رسالة كتب بها إلى ملك المغرب أبى محمد عبد الواحد بن أبى يعقوب بن عبد المؤمن مهنئا له بالخلافة حين بويع بها بمراكش ، وكان إذ ذاك بإشبيلية ، وكان قبل ذلك كاتبا له ومختصا به :

رسالة من ابن سعيد إلى أبى محمد عبد الواحد بن عبد المؤمن

الحضرة العلية ، السامية السنية ، الطاهرة القدسية ، حضرة الإمامة ، وجنة دار الإقامة ، مدّ الله على الإسلام ظلالها ، وأنمى فى سماء السعادة تمامها وكمالها ، وهنأ المؤمنين باستقبال إمارتها ، وأدام لهم بركة خلافتها ، عَبْدُ أياديها ، وخديم ناديها ، المتوسّل بقديم الخدمة ، المتوصل بعميم النعمة وكريم الحرمة ، المنشد بلسان المسرَّة ، حين أطلع الزمان هذه الغُرَّة[٢] :

---

(١) سقط ما بين المعقوفين من ا .

(٢) البيتان لأبى العتاهية من قصيدة يقولها فى الأمين بن الرشيد العباسى .

أتته الخلافة منقادة إليه تجـــرِّرُ أذيالها

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

موسى بن محمد بن سعيد [بن محمد](١) لازال هذا الأمر العلى محمودا سعيدا ، ولا برح يستزيد(٢) ترقيا وصعودا :

يا نعمة الله زيدى إن كان فيك مزيد

سلام الله الكريم ، يخص حضرة الإجلال والتعظيم ، والتقديس والتفخيم ، ورحمته وبركاته ، و بعد حمد الله الذى بلغ الإسلام بهذه الخلافة آماله ، وحَلَّى بهذه(٣) الولاية السعيدة أحواله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم ، الذى أدحض(٤) الله تعالى به الكفر وضلاله ، وعلى آله وصحبه الطاهرين الذين سمعوا أقواله ، وامتثلوا أفعاله ، والرضا عن الإمام المهدى المعلوم الذى أفاء الله به على الدين الحنيفى ظلاله ، وأذهب عنه طواغيته وضلاله ، والدعاء للمقام العالى الكريم ، بالسعد المتوالى والنصر الجسيم ، وكتب العبد وقد ملأت هذه البشرى المسرة أفقه ، ووسعت عليه هذه المرتبة العلية طرقه :

فهذه رتبةٌ ما زلتُ أرقبُها فاليوم أبسط آمالى وأحتكم

ولا أقنع منى ان اقتصرت على السماء دارا ، والهلال للبشير سوارا ، والنجوم عِقدا ، والصباح بندا ، حتى أسُرَّ كل أحد بشكله ، وأقابل كل شخص بمثله :

ومن خَدَم الأقوام يَرْجُو نوالهم فإنِّىَ لم أخْدُمْك إلا لأُخْدَمَا

وما بعد الخلافة رتبة ، ودون ثَبِير تنحط كل هَضْبة ، فالحمد لله رب العالمين ، وهنيئاً لعباده المؤمنين ، حيث(٥) نظرلهم نظر رحمة ، فأسبل عليهم ستر هذه النعمة :

ولقد علمتُ بأن ذلك معصَمٌ ما كان يتركه بغير ســوار

---

(١) هذا الاسم لا يوجد فى ا (٢) فى ا « يتزيد » .

(٣) فى أصل ا « وجلا بهذه الولاية » (٤) فى ا « دحض الله بنبوته » .

(٥) فى ا « حين نظر لهم » .

والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، وإلى مَنْ يشير بآياته ، فلله صباح ذلك اليوم السعيد وليلته ، لقد سَفَر عن وجه من البُشْرى أضاءت الآفاق شرقاً وغرباً غرته ، ولقد اجتمعت آراء السداد ، حتى أَتت الإسلام بالمراد ، فأخذ القوس باريها ، وحل بالدار بانيها ، هنيئاً زادك الرحمن [لطفا و] خيرا ، ولا برحت المسرات تسير إليك سَيْرًا ، وهل يصلح النور إلا للمُقَل ، وهل يليق بالحسن إلا الحُلَل ، فالآن مَهَّدَ الله البرين ، وأفاض العدل على العُدْوتين ، وقَدَّم للنظر من لا يعزب[1] عن حفظه مكان ، ولا يختصُّ بحفظه إنسان دون إنسان ، خليفة له النفس العمرية ، والآراء العَمْرية ، والفراسة الإياسية ، ولا ينبئك مثل خبير ، فلقد شاهد العبد ما لا يحصره[2] تفسير ، ولعمرى لقد صار[3] الصباح فى إشراق النهار ، ولم يخف عنا ما زاد الدنيا من البَهْجَة[4] والمسار ، وشملت الناسَ هذه البشائر ، وعمت كل باد وحاضر ، وأصاخوا لتاليها إصاخة المجدبين لمرتادهم ، وأهطعوا لها مُهَلِّلين ومكبرين إهطاع الناس لأعيادهم ، وأما العبد فقد أخذ بحظه ، حتى خاف أن يغلب السرور على قلبه ولحظه .

* ومن فَرَحِ النفس ما يَقْتُل *[5]

وهذه نعمة يقصر عنها النثر والنظم ، ويحسد عليها الهلال والنجم ، بل يسلمان لما استحقته من المراتب ، ويخضعان إليها خضوع المفترض الواجب ، أقر الله بها عيون المسلمين ، وأفاض سُحُبَها على الناس أجمعين ، وحفظها بعينه التى لا تنام ، ووقف على خدمتها الليالى والأيام .

له فى مديح سلطان تونس

ولما قدم من الأندلس على تونس مدح سلطانها أبا زكريا بقوله :

بشرى ويُسْرَى قد أنار المُظْلِمُ نجماً وقد وضح الصباحُ المعلم

(١) فى ا « من لا يغرب » (٢) فى نسخة عند ا « يحضره » .
(٣) فى ا « لقد عاد الصباح » (٤) فى ب ونسخة عند ا « البهجات » .
(٥) هذا عجز بيت للمتنبى ، وصدره * فلا تنكرن لها صرعة *

ورنت عيون الأمن وهى قريرة   وبدت ثغور السعد وهى تَبَسَّمُ
فارحل لتونس واعتقد أعلام من   قوى الضعيف به وأثرى المعدم
حيث المعالى والمعانى والندى   والفضل والقوم الذين هم هُمُ
أجروا إلى الغايات ملء عنانهم   سبقا وَبَذَّهُمُ الجواد المنعم
ساد الإمام الملك يحيى سادة   أعطى الورى لهم القيادَ وسلموا
إن الإمارة مذ غدا يقتادها   يقظى وأجفان الحوادث نوَّم
لله منك مبارك ذو فطنة   بزغت فأحجم عندها من يقدم
يقظان لا وانٍ ولا متقاعس   كالدهر يبنى مايشاء ويهدم
إن صال فالليث الهَصُور المقدم   أو سال فالغيث المغيث المثجم
أعلى منار الحق حين أماله   قوم تبرأت المنابر منهمُ
أعلى الإلٰهُ مكانه وزمانه   والنصر يقدم والسعادة تخدم

وله فى مأمون بنى عبدالمؤمن

وقال يخاطب ملك المغرب مأمون بنى عبد المؤمن ، حين أخذ البيعة لنفسه بإشبيلية ، وكان المذكور بمراكش ولبنى سعيد بهذا الملك اختصاص قديم :

الحزم والعزم موجودان والنظر   واليمن والسعد مضمونان والظَّفَرُ
والنور فاض على أرجاء أندلس   والزور ليس له عين ولا أثر
حُثَّ الركاب إلى هذا الجناب فقد   ضلوا فما تنفع الآيات والنُّذُرُ
واعزم كما عزم المأمونُ إذ نشزت   أرض العراق فزال البؤس والضرر (١)

ولما قدم العادلُ القائم بمُرْسِية المتولى على مملكة البَرَّيْنِ إلى إشبيلية كان فى جملة من خرج للقائه ، ورفع له قصيدة منها :

لقائه بِهِ للبر والشكر مجمع   إلى يومه كنا نخب ونوضع (٢)
لقد يَسَّرَ الرحمن صعب مرامه   فأبصرتُ أضعاف الذى كنت أسمع

(١) فى ا « إذ نشرت » بالراء المهملة .
(٢) فى ب « لقائه للبر والشكر » وأثبتنا مافى أصل ا .

وله أيضاً :

يا مُنْعِماً قد جاءنى بره من غير أن أجرى له ذكرا
إنى أحب الخير ما جاءنى عفوا ، ولم أعمل به فكرا(١)

وله فى غلام واعظ ، وهو من حسناته :

وشادن ظل للوعظ تالياً بين جمع
مَتَّعْتُ طَرْفى بمرآ ه فى خفارة سمعى

وله من أبيات :

ومن عَجَب أنَّ الليالى تغيرت ولكنها ما غيرت منى العهدا

ومن الفضلاء الذين أدركهم وأخذ عنهم الحافظ أبو بكر بن الجد، وأبو بكر بن زُهْر، وغيرهما ، وحضر حصار طلَيْطلة مع منصور بنى عبد المؤمن ، وكتب لملك البرين أبى محمد عبد الواحد ، وكتب أيضاً عن مأمون بنى عبد المؤمن ، وكتب أخيرا عن ملك بِجَايَةَ والغرب الأوسط الأمير أبى يحيى ابن ملك إفريقية ، رحم الله تعالى الجميع !

رجع إلى أخبار ابى الحسن على ابن سعيد

رجع إلى أبى الحسن بن سعيد .

قال رحمه الله تعالى : حضرت ليلةَ أنسٍ مع كاتب ملك إفريقية أبى العباس أحمد الغَسَّانى ، فاحتاجت الشمعة أن تقطّ ، فتناول قطها غلام ببنانه ، فقلت :

ورَخْصِ البنان تَصَدَّى لأن يَقُطَّ السراج بمثل العَنَمْ(٢)

فقال :

ولم يَهَبِ النار فى لمسه ولا احتاج فى قَطِّهِ للجَلَمْ

فقلت :

وما ذاك إلا لسُكناه فى فؤادى على ما حَوَى من ضَرَمْ

---

(١) فى ا « ولم أعمر به بكراً »

(٢) الرخص : الناعم الطرى ، والعنم ـ بفتح العين والنون جميعاً ـ شجرة حجازية لها ثمرة حمراء ، ومن عادة الشعراء أن يشبهوا بها الأصابع المخضوبة بالحناء

فقال :

تعـوَّدَ حرَّ لهيبٍ به فليس به من أُوار ألم

وأنشد فى « المغرب » للغسانى المذكور فى خسوف القمر مما قاله ارتجالا :

كأن البـدر لما أن علاه خسوف لم يكن يعتاد غيره

سَجَنْجَلُ غادةٍ قَلَبَتْهُ لما أراها شبهها حسداً وغَيْرَهْ(١)

وخاطبه المذكور برسالة يقول فى آخرها : وعند حامل هذه الأحرف ـ سلّمه الله تعالى ! ـ كُنْهُ خبرى ، واستيعاب ما قصر عنه قلمى فضاقت بحمله(٢) أسْطُرِى ، لتعلم ما أجده وأفقده من تشوقى وتصـبرى ، وأنى لا أزال أنشد حيث تذكرى وتفكرى :

يا نائياً قد نأى عنى بمُصْطَبَرِى وثاوِياً فى سَوَاد القلب والبصر

إذا تناسيتَ عهداً من أخى ثقةٍ فاذكر عهودى فما أخْلَيكَ من فكرى

وارُدد علىّ تحيـاتى بأحسنها تَرْدُدْ علىّ حياتى آخر العمـر

ولنُمْسِكِ العِنان عن الجرى فى ميدان أخبار ابن سعيد ، فإنها لا يشق غبارها ، ومنها قوله رحمه الله تعالى : سمعت كثيراً من السماع المشرقى ، فلم يهزنى مثلُ قول الشريف الشمسى المكى :

مُقَـلٌ بالدمـع غَرْقَى وفـؤاد طار خَفَقَا

وتجـنٍّ وتَثَنٍّ شق جَيب الصبر شقا

يا ثقاتى خـبرونى عن حديث اليوم حقا

أ كذا كل محب فارق الأحباب يشقى؟

لا وعيش قد تقضَّى وغـرام قد تبقَّى

ونعـيم فى ذَرَاكم قد صفـا دهرا ورقَّا

---

(١) السجنجل ـ بزنة السفرجل ـ المرآة ، والغادة : الفتاة الناعمة ، والغيرة : بفتح الغين وسكون الياء ، وفى البيتين جناس (٢) فى ا «فضاقت بجمله أسطرى»

ونسيم من حماكم حمل الوجد فرقَا
برسالات صبابا تٍ على المشتاق تُلْقَى
وغصون ناعمات بمياه الدنّ تسقى
ووجوه فقن حسناً فملَان الأرض عشقا[1]
لو رضيتم بى عبدا ما رضيت الدهر عتقا

وقال : ما سمعت ولا وقفت على شىء أبدع من قول الجزار ، وقد تردد إلى جمال الدين بن يغمور رئيس الديار المصرية فلم يُقَدَّر له الاجتماع به :

أسأل الله أن يديم لك العز و يبقيك ما أردت البقاء
كلَّ يوم أرجو النعيم بلقيا ك فألقى بالبعد عنك شَقَاء
علم الدهر أننى أشتكيه لك إذ نلتقى فعاق اللقاء

فبعث له بما أصلح حاله من الإحسان ، وكتب فى حقه إلى ولاة الصعيد كُتُباً أغنته مدة عن شكوى الزمان ، انتهى .

وقال أيضاً : ولم أسمع فى وضع الشىء موضعه أحسن من قول المتنبى :

وأصبح شِعْرِى مُنْهِماً فى مكانه وفى عُنُقِ الحسناء يُسْتَحْسَنُ العقدُ

ولم أسمع فى وضع الشىء غير موضعه أحسن من قول أبى الفرج :

مَرَّ مَدْحِى ضائعاً فى لؤمه كضياع السيف فى كَفِّ الجبان

ومن تأليف النور بن سعيد كتاب « عِدَة المستنجز ، وعُقْلَة المستوفز »[2] وذكر فيه أنه ارتحل من تونس إلى المشرق رحلته الثانية سنة ٦٦٦ ، وأورد فى هذا الكتاب غرائب وبدائعُ ، وذكر فيه أنه لما دخل الإسكندرية لم يكن عنده آكد من السؤال عن الملك الناصر ، فأخبر بحاله ، وما جرى له مع التتر حتى قتلوه بعد الأمان ، ثم ساق فيه دخول هُولاَكُو حلبَ فقال بعد كلام كثير : وارتَكَبَ فى أهل

(١) فى ا « ووجوه فضن حسنا »
(٢) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « وغفلة المستوفز » محرفا

حلب التتر والمرتدون ونصارى الأرمن ماتصَمّ عنه الأسماع ، وكان فيمن قتل بتلك الكائنة البدرُ بن العديم الذى صدر عنه من الطبقة العالية فى الشعر مثلُ قوله :

واهاً لعقْرَبِ صُدْغِهِ ... لو لم تكن لِلمَاهُ تحْمِي
ولغُفْلِ خط عـذاره ... لو بت أعْجِمُهُ بلثمى (١)

وابنُ عمه الافتخار بن العديم الذى وقع له مثلُ قوله :

والغُصْنُ فيـه الماءُ مُطَّرد ... والماء فيه الغصن منعكس

ثم قال ، لما ذكر أحوال الناصر بعد استيلاء التتر على بلاد حلب والشام وما يليهما ، ما نصه : قال مَنْ دخل على الملك الناصر وقد نزل بميدان دمشق : قبلت يده ، وجعلت أدعوله ، وأظهرتعزيته على ماجرى من تلك المصائب العظيمة ، فأضرب عن ذلك ، وقال لى : فيم تتغزل اليوم ؟ ثم أنشدنى قوله فى مملوك فقد له (٢) فى هذه الكائنة :

والله ما أبكى لُمْلْكٍ مضى ... ولا لحال ظاعن أو مقيم
و إنما أبكى وقد حق لى ... لفقد من كنت به فى نعيم
يطلع بدراً ينثـنى بانَةً ... يمر فيما رمته كالنسـيم
فى خاطرى أبصره خاطراً ... فألْتَوِى مثل التواء السقيم
يا عاذلى دعنى وما حلَّ بى ... فما سوى الله بحالى عليم
إن مت من حزن له أسترح ... و إن أعِشْ عشت بهم عظيم

قال : ثم إنه سار نحو هولاكو، فلمامر بحلب ونظر إلى معاهده على غير مايعهد قال :

مررت بجَرْعَاء الِحمَى فتلفتت ... لحاظى إلى الدار التى رحلوا عنها
ولوكان عندى ألف عين وقمت فى ... معالمها عمرى لما شَبِعَتْ منها

وصنع فى نعيها أشعاراً يغنى بها المسمعون ، ثم رحل إلى صحراء يُوشَنَ (٣) فى جهة طريق

---

(١) الغفل ـ بالضم ـ المهمل من النقط والشكل ، وأعجمته بنقطه ، واللثم : التقبيل ، ووقع فى ا « لوبت أعجبه بلثمى » محرفا

(٢) فى ا « مملوك فقده » (٣) فى ا « يوش »

أرمينيه ، فوجد هولاكو هنالك فى تلك المروج المشهورة بالخصب ، فأنزله ، وأقام يشرب معه إلى أن وصل الخبر بوقعة عين جالوت على التتر للملك المظفر قُطُز صاحب مصر سنة ٦٥٨[١] ، فقتلوه ، وخلعوا عظم كتفه ، وجعلوه فى أحد الأعلام على عادته فى أكتاف الملوك[٢] ، انتهى باختصار .

رجع

عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الملك بن سعيد

ومن الوافدين من الأندلس إلى المشرق الأديب الحسيب عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الملك بن سعيد .

وكان صعب الخلق ، شديد الأنَفَة ، جرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه إلى أقصى المشرق ، وفى ذلك يقول ، وكتب به إليهم :

مَنْ لِصَبٍّ يرعى النجوم صبابه ضَيَّعَ السير فى الهموم شبابه
زدت بعداً فزدت فيه اقتراباً بودادى كذاك حُكْم القرابه
منزلى الآن سمرقند وبالقلـ ـعة ربع وطئت طفلا ترابه
شدّ ما أبعد الفراق انتزاحى هكذا الليث ليس يدرى اغترابه[٣]
لا ولا أرتجى الإياب لأمر إن يكن يرتجى غريب إيابه

وكتب لهم من بُخَارى :

إذا هَبَّتْ رياحُ الغرب طارت إليها مهجتى نحو التلاقى
وأحْسَبُ من تركتُ به يلاقى إذا هبت صَبَاها ما ألاقى[٤]
فيا ليت التفرق كان عَدْلاً فحمل ما يطيق من اشتياق
وليت العمر لم يبرح وصالا ولم يَحْتم علينا بالفراق[٥]

إذا كان الشوق فوق كل صِفة ، فكيف تعبّر عنه الشفة ، لكن العنوان دليل

(١) فى ب « سنة ٥٨٠ » وفى نسخة عند ا « سنة ٥٩٦ »
(٢) فى ا « فى أكناف الملوك »
(٣) فى ا « شذ ما أبعد الفراق »
(٤) فى ا «وأحسب من تركت بها»
(٥) يحتم : يقضى ، وفى ب « ولم يختم »

على بعض مافى الصحيفة ، والحاجبُ قد ينوب فى بعض الأمور مَنابَ الخليفة ، وماظنكم بمشوق طريح ، فى يد الأشواق طليح[١] ، يقطع مسافات الآفاق يتقلب تقلب الأفياء ، ويتلون تلون الحِرْباء ، حتى كأنه يَخْبُرُ مساحات الأرض ، ذات الطول والعرض ، ويجوب أهوية الأقاليم السبع ، خارجاً بما أدخله فيه اللجاج عن السمع[٢] ، فكأنه خليفة الإسكندر ، لكن مايجيش من هموم الغربة بفكرى قائمة مقام الجيش والعسكر ، جزت إلى برالعُدْوة من الغرب الأقصى ، ثم تشوقت[٣] نفسى فطمحت إلى مشاهدة الغرب الأوسط فلاقيت فيما بينهما من المسافة من المشاق مالا يحصى ، ثم تشوقت إلى إفريقية دربِ بلاد الشرق ، فاستشعرت من هنالك ما بينها و بين بلادى من الفرق ، واختطفت من عينى تلك الطلاوة ، وانتزعت من قلبى تلك الحلاوة .

فلله عين لم تر العين مثلها ولاتلتقى إلا بجَنَّات رِضْوان

ثم نازعتنى النفس التواقة إلى الديار المصرية ، فكابدت فى البحر ما لايفى بوصفه إلا المشاهدة[٤] إلى أن أبصرت منار الإسكندرية ، فيالك من استئناف عمر جديد ، بعد اليأس من الحياة بما لقينا من الهول والتنكيد ، ثم صعدت إلى القاهرة قاعدة الديار المصرية ، لمعاينة الهرَمَين وما فيهما من المعالم الأزلية ، وعاينت القاهرة المعزية ، ومافيها من الهمم [العلية] الملوكية ، غير أنى أنكرت مبانيها الواهية ، على ما حوت من أولى الهمم العالية ، وكونها حاضرة العسكر الجرار ، وكرسىّ الملك العظيم المقدار ، وقلت : أصداف فيها جواهر ، وشوك مُحْدِق بأزاهر ، ثم ركبت النيل وعاينت تماسيحه ، وجُزْت بحرجدة وذقت تباريحه ، وقضيت الحج والزيارة ، وملت إلى حاضرة الشام دمشق والنفس بالسوء أمّارة ، فهنالك بعت الزيارة

---

(١) الطليح : المعى المجهود المتعب (٢) فى ا « عن الشرع »

(٣) فى ا « فطمحت نفسى إلى مشاهدة الغرب الأوسط »

(٤) فى ا « إلا المشافهة »

بالأوزار[١] ، وآلت تلك التجارة إلى ما حكمت به الأقدار ، إذ هى كما قال أحد من عاينها :

أما دمشق فجنَّاتٌ مُعجَّلة للطالبين بها الولدانُ والحورُ

فلله ماتضمن داخلها من الحور والولدان ، ومازين به خارجها من الأنهار والجنان ، وبالجملة فإنها حمى تتقاصر عن إدراكها أعناقُ الفصَاحة ، وتقصر عن مناولتها فى ميدان الأوصاف كل راحة ، ولم أزل أسمع عن حاب ، أنها دار الكرم والأدب ، فأردت أن يَحْظى بصرى بما حظى به سمعى ، ورَحَلْتُ إليها وأقمت جابرا بالمذاكرة والمطايبة صَدْعى ، ثم رحات إلى الموصل فألفيت مدينة عليها رَوْنق الأندلس ، وفيها لطافة وفى مبانيها طلاوة ترتاح لها الأنفس ، ثم دخلت إلى مقر الخلافة بغداد ، فعاينت من العظم والضخامة ما لايفى به الكتب ولو أن البحر مِداد ، ثم تغلغات إلى بلاد[٢] العجم بلدا بلدا ، غير مقتنع بغاية ولاقاصد أمدا ، إلى أن حللت ببخارى قبة الإسلام ، ومجمع الأنام ، فألقيت بها عصا التسيار ، وعكفت على طلب العلم واصلا فى اجتهاده سَوَادَ الليل و بياضَ النهار ، انتهى .

وكتب إليهم أيضا من هذه الرسالة : كتبت وقد حصلتنى السعادة ، وحظ الأمل والإراده ، بحضرة بخارى قبة الإسلام .

وأجابه أهله من الغرب بكلام من جملته : و إن كنت قد تحصنت بقبة الإسلام ، فقد تعجلت لنا ولك الفَقْدَ قبل وقت الحِمَام .

وأتبعوا ذلك بما دعاه لأن خاطبهم بشعر منه :

عتبتم على حَثِّ المطىِّ وقلتمُ تعجَّلْتَ فَقْداً قبل وقت حِمام

إذا لم يكن حالى مُهِمّا لديكم سواء عليكم رِحْلَتى ومقامى

وقتل المذكور ببخارى ، حين دخلها التتر ، وهو عم على بن سعيد الشهير .

---

(١) فى ب « بعث الزيارة بالازورار » (٢) فى ا « ثم تغلغلت فى بلاد العجم »

وكان لعبد الرحمن المذكور أخ يسمى يحيي قد عانى الجندية ، فلما بلغه أن أبا القاسم عبد الرحمن قتل ببخارى قال : لا إله إلا الله ! كان أبدا يُسَفّه رأيي فى الجندية ، ويقول : لو اتبعتَ طريق النجاة كما صنعت أنا لكان خيرا لك ، فهاهو ربَّ قلم قد قتل شر قتلة بحيث لاينتصر وسُلب سلاحه ، وأنا مازلت أغازى فى عُبَّاد الصليب وأخاص ، فما يقدر أحد أن يحسن لنفسه عاقبة ، انتهى .

قال أبو الحسن على بن سعيد : ثم إن يحيي المذكور بعد خَوْضه فى الحروب صَرَعه فى طريقه غلام كان يخدمه ، فذبحه على نَزْرٍ من المال ، أفلَتَ به ، فانظر إلى تقلب الأحوال كيف يجرى فى أنواع الأمور لاعلى تقدير ولااحتياط ، انتهى .

ومن شعر أبى القاسم عبد الرحمن المذكور ما خاطبَ به نقيبَ الأشراف ببخارى ، وقد أهدى إليه فاختاً مع زوجه[1] .

أيا سيد الأشراف لازلت عاليـا معاليك تَنْبُو الدهر عن كل ناعت[2]

من الفضل إقبال على ما بعثته لمغناك من شاد دعوه بفاخت

ألا حبذا من فاخت ساد جنسه وأصبح مقرونا بست الفواخت[3]

لئن فاتنى منه الأنيس فكل ما يحل إلى علياك ليس بفائت

(ابن العابد) أبو الحسن على ابن عبد الله الأنصارى القرطبي

ومنهم الشيخ الصالح الزاهد أبو الحسن على بن عبد الله بن يوسف بن حمزة ، القرطبي ، الأنصارى ، المعروف بابن العابد[4] .

نزيل رباط الصاحب الصفى بن شُكْر ، قال بعض المشارقة عنه : إنما سميت الخمر بالعجوز لأنها بنتُ ثمانين ، يعنى عدَد حَدِّهَا[5] ، وأنشد له :

عذلنا فُلَانًا على فعـله ولُمْنَاه فى شربه للعجوز

فقال : دعونىَ من أجلها أنالُ أنا وأخى والعجوز

---

(١) الفاخت : ضرب من الحمام المطوق ، له أنس بالناس وفيه ملاحة صوت

(٢) تنبو : تبعد (٣) وقع هذا البيت فى ا متأخراً عن البيت الذى يليه هنا

(٤) فى ب « المعروف بابن العائد »

(٥) أوجبت الشريعة ضرب شارب الخمر ثمانين جلدة ، ويسمى حد الخمر

رضى الدين أبو عبد الله محمد بن على لأنصارى الشاطبى

ومنهم الشيخ الفاضل المتقن أبو عبد الله محمد بن على بن يوسف بن محمد بن يوسف ، الأنصارى ، الشاطبى الأصل ، البَلَنْسى المولد فى أحد ر بيعى سنة إحدى وستمائة ، ولقبه المشارقة برضى الدين .

وتوفى بالقاهرة فى جمادى الأولى سنة ٦٨٤ ، رحمه الله تعالى ! .

ومن نظمه لما حضر أجله، وقد أمر خادمه أن ينظف له بيته ، وأن يغلق عليه الباب و يفتقده بعد زمان ، ففعل ذلك ، فلما دخل عليه وجده ميتا ، وقد كتب فى رقعة :

حان الرحيل فودِّع الدار التى ما كان ساكنها بها بمخلد

واضرع إلى الملك الجواد وقل له عبد بباب الجود أصبح يجْتَدِى

لم يرض غير الله معبودا ولا ديناً سوى دين النبى محمد

ومن نظمه أيضا رحمه الله تعالى :

أقول لنفسى حين قابلها الردى فرامت فرارا منه يسرى إلى يمنى (١)

قِرِى تحملى بعضَ الذى تكرهينه فقد طالما اعتدتِ الفرار إلى الأهنى (٢)

أنشده [له] تلميذه أبو حَيَّان إمام عصره فى اللغة .

حدث عن ابن المنير وغيره ، واشتغل الناسُ عليه بالقاهرة ، وله تصانيف مفيدة ، وسمع من الحافظ أبى الربيع بن سالم ، وكتب على صحاح الجوهرى وغيره حواشى فى مجلدات ، وأثنى عليه تلميذه أبو حيان ، رحم الله تعالى الجميع !

ومن فوائده قوله : نقلت من خط أبى الوليد بن خِيَرَة الحافظ القرطبى فى فهرست أبى بكر بن مفوّز قد أدركته بِسِنِّى ولم آخذ عنه واجتمعت به أنشدنى له أبو القاسم بن الأبرش يخاطب بعض أكابر أصحاب أبى محمد (٣) بن حزم ، والإشارةُ لابن حزم الظاهرى :

---

(١) فى ا « فراغت فراراً منه »

(٢) قرى : فعل أمر ماضيه وقر مثل وعد، ومعناه استقرى واثبتى ، ووقع فى ب « ترى » وفى ا « قوي » (٣) فى ب « أصحاب محمد بن حزم » وفى ا « أصحاب ابن حزم »

يا من تُعَانِى أموراً لن يعانيها ‏ ‏ خَلِّ التعانِى وأعْطِ القوسَ باريها
تَرْوِى الأحاديثَ عن كلٍّ مسامحةً ‏ ‏ وإنما لِمُعانيها معانيها

وقد سبق فى ترجمة القاضى أبى الوليد الباجى ذكر هذين البيتين عند ما أجرينا ذكر ابن حزم ، قال : وإنما قال هذا الشعر فى ذكر رواية أُدعيت على قول النبى صلى الله عليه وسلم « إن خالدا قد احتبس أدراعه وأعتُدَه فى سبيل الله » وصحح رواية من روى « أعْبُدَه » جمع عبد ، وعَلَّل رواية من روى « أعتده » بالتاء مثناة باثنتين من فوق جمع عَتَدٍ ، وهو الفرس ، قال ابن خِيَرَة : الإحاطة ممتنعة ، وهذه الرواية قد رواها جماعة من الأثبات والعلماء المحدِّثين ، فهو إنكار غير معروف ، والله تعالى أعلم .

ومن فوائده ما نقله تلميذه أبو حيان النحوى عنه ، قال : أنشدنا للمقرى[1] ونقلته من خطه :

إذا ماشئت مَعْرِفَةً ‏ ‏ لما حار الورى فيه[2]
فخذ خمساً لأربعة ‏ ‏ ودع للثوب رافيه

وهو لغز فى ورد .

وقال : وأنشدنا لبعضهم :

لا رَعَى الله عزمةً ضمنَتْ لى ‏ ‏ سَلْوة الصبر والتصبر عنه
ما وفت غير ساعة ثم عادت ‏ ‏ مثل قلبى تقول : لا بُدَّ منه

قال : وأنشدنا لغيره :

وكان غريب الحسن قبل التحائه ‏ ‏ فلما التحى صار الغريبَ المصنَّفَا[3]

وأنشدنا لغيره :

طب على الوحدة نفسا ‏ ‏ وارض بالوحشة أنسا

---

(١) فى ب « للمعرى » ‏ ‏ (٢) فى ا « بما صار الورى فيه »
(٣) فى هذا البيت تورية ، و « الغريب المصنف » اسم كتاب لأبى عمرو الشيبانى

ما عليها من يساوى حين يُستخبر فَلْسًا

وقرأ الرضى ببلده على ابن صاحب الصِّلاَت آخر أصحاب ابن هذيل ، وسمع منه كتاب التلخيص للوانى ، وسمع بمصر من ابن المقير[1] وجماعة ، وروى عنه الحافظ المزى[2] واليونينى والظاهرى وآخرون ، وانتهت إليه معرفة اللغة وغريبها ، وكان يقول : أحرف[3] اللغة على قسمين قسم أعرف معناه وشواهده ، وقسم أعرف كيف أنطق به فقط ، رحمه الله تعالى !.

ومن فوائد الرضى الشاطبى المذكور ما ذكره أبو حيان فى البحر قال : وهو من غريب ما أنشدنا الإمام اللغوى رضى الدين أبو عبد الله محمد بن على بن يوسف الأنصارى الشاطبى لزينب بنت إسحاق النصرانى الرسعينى[4] :

عَدِىٌّ وتَيْم لا أحاول ذكرهم ... بسوء ، ولكنِّى محبٌّ لهاشم
وما يعترينى فى على ورهطه ... إذا ذُكِروا فى الله لوْمَةَ لائم
يقولون: ما بال النصارى تحبهم؟ ... وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم: إنى لأحسب حبهم ... سرى فى قلوب الخلق حتى البهائم

ومن نظم الرضى المذكور :

مُنَغَّصُ العيش لا يأوى إلى دَعَة ... إن كان فى بلد أو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم ترض همته ... سكنى بلاد ولم يَسْكُنْ إلى أحد

وله :

لولا بناتى وسيئاتى ... لطرت شوقا إلى الممات
لأننى فى جوار قوم ... بَغَّضَنى قربهم حياتى

---

(١) فى ا « ابن المقيرى » (٢) فى ا « المرى » وفى ب « المزنى »
(٣) فى ا « أعرف اللغة على قسمين »
(٤) فى ا « الرسغينى »

وقرأ عليه أبو حيان كتاب « التيسير » وأثنى عليه ، ولما توفى أنشد ارتجالا :

نَعَوْا لى الرضىّ فقلت لقد نعى لىَ شيخ العلا والأدب

فمن للغات ومن للثقات ومن للنحاة ومن للنسب

لقد كان للعلم بحرا فغار وإنَّ غؤر البحار العجب

فقُدِّسَ من عالم عامل أثار لشجوىَ لما ذهب

وتحاكم إلى رضى الدين المذكور الجزار والسراج الوراق أيهما أشعر ، وأرسل إليه الجزار شيئاً ، فقال : هذا شعر جَزْلٌ ، من نمط شعر العرب ، فبلغ ذلك الوراق ، فأرسل إليه شيئا فقال : هذا شعر سَلس ، وآخر الأمر قال : ما أحكم بينكما ، رحمه الله تعالى !

قلت : رأيت بخطه كتبا كثيرة بمصر وحواشى مفيدة فى اللغة وعلى دواوين العرب ، رحمه الله تعالى ! .

حميد الزاهد أبو بكر ابن عبد الله الأنصارى القرطبي

ومنهم حميد الزاهد ، وهو الأديب الفاضل الزاهد أبو بكر حميد بن أبى محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله ، الأنصارى ، القُرْطبى ، نزيل مالَقَة .

قال الرضى الشاطبى المذكور قريبا : أنشدنى حميدٌ بالقاهرة لأبيه أبى محمد وقد تأخر شيبهُ مع علوّ سنه :

وهل نافعى أن أخطأ الشيبُ مفرقى وقد شاب أترابى وشاب لِدَاتِي

إذا كان خط الشيب يوجد عينه بتربى فمعناه يقوم بذاتى

واللِّدات : مَنْ ولد معه فى زمان واحد ، انتهى .

وفى ذكرى أنه قال هذين البيتين لما قال له القاضى عياض : شِبْنَا ولم تشب .

وقال الرضى أيضا : أنشدنى حميدٌ لأبيه فيمن يكتب فى الورق بالْمِقص ، وهو غريب :

وكاتبٍ وَشْىُ طِرْسه حِبَرٌ لم يَشِهَا حبره ولا قلمه[1]
لكن بمقراضه ينمنمها نمنمةَ الروْضِ جاده رِهَمُه
يُوجِدُ بالقطع أحرفاً عدمت فاعجب لشىء وجوده عدمه

والرهم : المطر .

قال : وتوفى حُمَيد الزاهد هذا بمصر ، قبيل الظهر من يوم الثلاثاء ، وصلى عليه خارج مصر بجامع راشدة بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء المذكور ، ودفن بسَفْح المقطم بتربة الشيخ الفاضل الزاهد أبى بكر محمد الخزرجى الذى يدق الرصاص ، حذاء رجليه ، فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، انتهى .

اليسع بن عيسى ابن حزم الغافقى

ومنهم الْيَسَعُ بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقى من أهل بَلَنْسِيَة وأصله من جيّان ، وسكن المَرِية ثم مالَقَة ، يكنى أبا يحيى ، كتب لبعض الأمراء بشرقى الأندلس ، وله تأليف سماه «المغرب، فى أخبار محاسن أهل المغرب» ، جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية بعد أن رحل إليها من الأندلس سنة ستين وخمسمائة ، وبها توفى يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

أبو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن التجيبى

ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن على بن محمد التجيبى ، يكنى أبا عبد الله ، من أهل إشبيلية .

تجول فى بلاد الأندلس طالباً للعلم ، ثم حج، ولقى الحافظ السِّلَفى وغيره ، واستوطن تلمسان ، وبها توفى فى جمادى الأولى سنة عشر وستمائة ، وله تواليف كثيرة .

ومنهم أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللّخْمى ، الباجى .

---

(١) الوشى : النقش ، والطرس ــ بالكسر ــ ما يكتب فيه ، والحبر ــ بكسر الحاء وفتح الباء ــ جمع حبرة ، وأصلها برد يمنى منقوش ، شبهت به الكتابة هنا

أبو مروان محمد بن أحمد اللخمى ، الباجى

من أهل إشبيلية ، ولى القضاء بها وأصله من باجة إفريقية ، دخل المشرق لأداء الفريضة فحج ، وتوفى بمصر بعدما دخل الشام ، فى اليوم الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ومولده عام أربعة وستين وخمسمائة ، وكانت رحلتُه من المغرب أول يوم من المحرم عام أربعة وثلاثين وستمائة .

وليد بن بكر ابن مخلد العمرى

ومنهم وليد بن بكر بن مخلد بن زياد العمرى (١) .

من أهل سَرَقُسْطة ، يكنى أبا العباس ، له كتاب سماه « الوجازة ، فى صحة القول بالإجازة » وله رحلة لقى فيها ألف شيخ ومحدث وفقيه ، توفى بالدينوَر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة ، يروى عنه أبو ذر الهروى وعبد الغنى الحافظ ، وكفاه فخراً بهذين الإمامين العظيمين ، رحم الله تعالى الجميع !.

عيسى ابن سليمان الرعينى ، الرندى

ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الملك بن عبد الله بن محمد الرُّعَيْنى الرُّنْدِى ، يكنى أبا محمد .

استوطن مالَقَةَ ، ورحل إلى المشرق ، وحج ، ولقى جماعة من العلماء ، وقَفَل إلى المغرب أواخر عام واحد وثلاثين وستمائة ، وولى الإمامة بالمسجد الجامع بمالَقَةَ ، وبها توفى فى ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، ولقب فى المشرق برشيد الدين ، وولد فى ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بقرية من قرى الأندلس يقال لها يالمالتين (٢) كورة بَشْتَغْيَر ، ذكر ذلك ابن المستوفى فى تاريخ إربل .

أبو الربيع سليمان بن أحمد اليبنينى

ومنهم أبو الربيع سليمان بن أحمد ، اليبنينى (٣) .

من أهل الأندلس ، استوطن المشرق ومدح الملك الكامل ، ومن شعره رحمه الله تعالى قوله :

لولا تحدِّيه بآية سحره ... ما كنت ممتثلا شريعة أمره
رَشأ أُصدقه وكاذبُ وعدِهِ ... يبدى لعاشقه أدلة غَدْره (٤)

---

(١) فى ا « الغمرى » (٢) فى ا « يلماتين »
(٣) فى ا « الينيبى » (٤) فى ا « أدلة عذره »

ظهرت نُبُوَّةُ حسنه فى فَتْرةٍ ... من جَفْنِهِ وضلالة من شَعْره

أبو جعفر أحمد ابن يحيى الضبى

ومنهم أبو جعفر أحمد بن يحيى الضبى .

رحل حاجا فلقى ببِجَايَةَ عبد الحق الإشبيلى ، وبالإسكندرية أبا الطاهر ابن عوف ، ولقى غيرواحد فى رحلته كالغزْنوى[1] [وابن بر][2] وأبى الثناء الحرانى وأبى الحسين الُحرَيْثى ، وللحُرَيْثى أحاديث ساوى بها البخارى ومسلما ، ولقى جماعة ممن شارك السِّلَفى فى شيوخه .

أبو الحسن محمد ابن أحمد بن جبير الكنانى الرحالة

ومنهم أبو الحسين محمد بن أحمد جُبَير ، الكنانى ، صاحب الرحلة .

وهو من ولد ضَمْرة بن بكر بن عبد مَنَاة بن كنانة ، أندلسى ، شاطبى ، بَلَنْسى ، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة ببَلَنْسية ، وقيل فى مولده غير ذلك ، وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبى عبد الله الأصيلى وأبى الحسن بن أبى العيش ، وأخذ عنه القراآت ، وعُنى بالأدب فبلغ الغاية فيه ، وتقدم فى صناعة القريض والكتابة .

ومن شعره قوله ، وقد دخل إلى بغداد فاقتطع غصنا نضيراً من أحد بساتينها فذَوَى فى يده :

لا تغترِبْ عن وَطَنٍ ... واذكر تصاريفَ النَّوَى

أما ترى الغصن إذا ... ما فارق الأصل ذَوَى[3]

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الصدر الُخجَنْدِى :

يا من حَوَاه الدين فى عصره ... صَدْراً يحلُّ العلمُ منه فؤاد[4]

ماذا يرى سيدنا المرتَضَى ... فى زائر يخطب منه الوداد

لا يبتغى منه سوى أحرف ... يعتدّها أشرف ذُخر يفاد

ترسمها أنملة مثل ما ... نمَّقَ زَهْرَ الروض كف العِهَاد

(١) فى ا « كالعربوى » وفى نسخة عندها « كالغذ تورى »

(٢) لا يوجد هذا العلم فى ب (٣) ذوى : ذبل وجف

(٤) فى ا « يحل العلم فيه فؤاد » وفى نسخة عندها « يحلى العلم فيه »

فى رقعة كالصبح أهدى لها   يد المعالى مسك ليل المداد
إجازة يُورِثُنِيهَا العلا   جائزة تبقى وتفنى البلاد
يستصحب الشكر خديماً لها   والشكر للأمجاد أسنى عَتَاد

فأجابه الصدر الخُجَنْدِى :

لك الله من خاطب خُلَّتِى   ومن قابسٍ يجتدى سَقْطَ زَنْدِى
أجزت له ما أجازُوهُ لى   وماحَدَّثوه وما صَحَّ عندى
وكاتب هذى السطور التى   تراهُنَّ عبدُ اللطيف الخُجَنْدِى

ورافقَ ابنَ جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القُضَاعى ، وأصله من أُنْدَةَ من بَلَنْسِية ، رحل معه فأدَّيا الفريضة ، وسمعا بدمشق من أبى الطاهر الخشوعى ، وأجاز لهما أبو محمد بن أبى عَصْرون وأبو محمد القاسم ابن عساكر وغيرهما ، ودخلا بغداد وتجولا مدة ، ثم قَفَلا جميعا إلى المغرب ، فسُمِع منهما به بعضُ ما كان عندهما .

وكان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب ، وله فيه تقييد مفيد ، مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم .

وكَتَبَ عن السيد[1] أبى سعيد بن عبد المؤمن ، وجدُّه لأمه القاضى أبو محمد عبد الحق ابن عطية .

وتوفى أبو جعفر هذا بمراكش سنة ثمان ، أو تسع وتسعين وخمسمائة ، ولم يبلغ الخمسين فى سنه ، رحمه الله تعالى! .

رجع إلى ابن جُبَير .

قال لسان الدين فى حقه : إنه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة فى الآداب ، وله الرحلة المشهورة ، واشتهرت فى السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب

---

(١) كذا فى ا ، ووقع فى ب « ومنهم السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن » كأنه انتقال إلى مرتحل جديد

له قصيدتان : إحداهما أولها :

أطلّتْ على أفقك الزاهر ... سُعودٌ من الفلك الدائر

ومنها :

رَفَعْتَ مغارم مكس الحجاز ... بإنعامك الشامل الغامر
وأمّنت أكناف تلك البلاد ... فهان السبيل على العابر
وسُحْبُ أياديك فيَّاضة ... على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامدٍ ... وكم لك بالغرب من شاكر

والأخرى منها فى الشكوى من ابن شُكْر الذى كان أخذ المكس من الناس فى الحجاز :

وما نال الحجاز بكم صلاحا ... وقد نالته مصر والشآم

ومن شعره :

أخلاء هذا الزمان الخؤن ... توَالَتْ عليهم حروف العلل
قضيت التعجب من بابهم ... فصرت أطالع باب البدل

وقوله :

غريبٌ تذكرَ أوطانه ... فهيج بالذكر أشجانه
يحلُّ عُرَاصبره بالأسى ... ويعقد بالنجم أجفانه

وقال رحمه الله تعالى ، لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفا [ومهابة وتعظيما]

بَدَتْ لى أعلام بيت الهدى ... بمكة والنور باد عليه
فأحرمت شوقا له بالهوى ... وأهديت قلبى هَدِيًّا إليه

وقوله يخاطب مَنْ أهدى إليه موْزاً :

يا مُهْدِىَ الموز تبْقَى ... وميمُـه لك فاء (1)

---

(1) إذا صارت ميم الموز فاء صار « فوزاً » وإذا صارت زايه تاء صار « موتا » وقد جعل الفوز للمهدى والموت لعدوه

وزَايُهُ عن قريب لمن يعَاديك تاءْ

وقال رحمه الله تعالى :

قد ظَهرَتْ فى عصرنا فرقة ظُهورهَا شؤم على العصر
لا تقتدى فى الدين إلا بما سَنَّ ابن سينا وأبو نَصْرِ (١)

وقال :

يا وحشة الإسلام من فرقة شاغلة أنفُسَهَا بالسَّفَهْ
قد نبذت دين الهدى خلفها وادَّعَتِ الحكمة والفلسفه

وقال :

ضلت بأفعالها الشنيعه طائفة عن هُدَى الشريعه
لَيْسَتْ ترى فاعلا حكيما يفعل شيئا سوى الطبيعة

وكان انفصاله ـ رحمه الله تعالى ! ـ من غَرْنَاطة بقصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ ، ووصل الإسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذى القعدة الحرام من السنة ، فكانت إقامته على متن البحر من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثين يوما ، ونزل البر الإسكندرانى فى الحادى والثلاثين ، وحج رحمه الله تعالى وتجوَّلَ فى البلاد ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها ، وكان ـ رحمه الله تعالى ! كما قال ابن الرقيق ـ من أعلام العلماء العارفين بالله ، كتب فى أول أمره عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرْناطة ، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتاباً وهو على شرابه ، فمدَّ يده إليه بكأس ، فأظهر الأُنقباض، وقال: يا سيدى ما شربتها قط ، فقال : والله لتشربَنَّ منها سبعاً ، فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس ، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك فى حجره ، فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ، ثم رغب إلى

---

(١) ابن سينا : هو الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ، الحكيم ، الفيلسوف ، صاحب المؤلفات البارعة فى الطب والحكمة ، وقانون ابن سينا أشهر من أن يشار إليه . وأبو نصر : أراد به محمد بن طرخان ، الفارابى ، أحد فلاسفة الإسلام المشهورين

السيد ، وأعلمه أنه حلف بأيمان لاخروج له عنها أنه يحج فى تلك السنة ، فأسعفه ، وباع ملكا له تزود به ، وأنفق تلك الدنانير فى سبيل البر .

ومن شعره فى جارية تركها بغرْناطة :

طول اغتراب وبَرْحُ شوقٍ لا صَبْرَ والله لى عليه
إليك أشكو الذى ألاقى يا خير من يُشْتَكَى إليه
ولى بغرناطَةٍ حبيبٌ قد غَلِقَ الرهن فى يديه
ودعته وهو فى دَلالٍ يظهر لى بعض مالديه
فلو ترى طَلَّ نرجسيه ينهلُّ فى ورد وجنتيه
أبصرت دُرًّا على عقيق من دمعه فوق صفحتيه

وله رحلة مشهورة بأيدى الناس .

ولما وصل بغداد تذكر بلده ، فقال :

سقى الله بابَ الطاق صَوْبَ غمامة وردَّ إلى الأوطان كل غريب

ابن جبير يصف دمشق

وقال فى رحلته فى حق دمشق : جنة المشرق ، ومطلع حسنه المونق المشرق[1] ، هى خاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها[2] ، وعَروس المدن التى اجتليناها [التى] قد تحلَّت بأزاهير[3] الرياحين ، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحلت من موضع[4] الحسن بمكان مكين ، وتزينت فى منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه منها إلى رَبْوة ذاتِ قَرار ومَعين ، ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، تنساب مَذَانبه[5] إنسيابَ الأراقم بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نَسِيمُها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم هلموا إلى مُعَرَّس للحسن ومَقيل ، قد سئمت أرضها كثرة المَا ، حتى اشتاقت إلى الظَّمَا ، فتكاد تناديك بها الصمُّ الصلاب ، أُركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، قد أحدقَتْ بها البساتينُ إحداق الهالة

(١) المونق : المعجب بحسنه ورونقه (٢) استقريناها : تتبعناها
(٣) الأزاهير : جمع الأزهار الذى هو جمع زهر (٤) فى ا «من موضوع الحسن»
(٥) المذانب : جمع مذنب ، وهو مسيل الماء إلى الأرض

بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة(١) للزهر ، وامتدّتْ بشرقيها غُوطتُها الخضراء امتداد البصر ، فكلُّ موقع لحظة بجهاتها الأربع نظرته اليانعة قَيْدُ النظر ، ولله صدق القائلين فيها : إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها ، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تُسامتها(٢) وتحاذيها .

قال العلامة ابن جابر الوادى آشى ، بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق ، ما نصه : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتوّق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد ، هذا ولم تكن له بها إقامة، فيعرب عنها بحقيقة علامة ، وما وصف ذهبيّات أصيلها وقد حان من الشمس غروب ، ولا أزمان فصولها المتنوعات(٣)، ولا أوقات سرورها المهنئات ، ولقد أنصف من قال : ألفيتها كما تصف الألسن ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، انتهى .

رجع إلى كلام ابن جبير فنقول :

ابن جبير يصف جامع دمشق

ثم ذكر فى وصف الجامع أنه من أشهر جوامع الإسلام حسناً ، وإتقانَ بناء ، وغرابة صنعة ،واحتفال تنميق وتزيين ،وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه ، ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت ، ولا تدخله ، ولا تُلم به الطير المعروفة بالخطاف ، ثم مَدّ النفَس فى وصف الجامع وما به العجائب ، ثم قال بعد عدة أوراق ما نصه : وعن يمين الخارج من باب جَيْرون فى جدار البلاط الذى أمامه غُرْفة ، ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقانُ صُفْرٍ ، وقد فتحت أبوابا صغاراً على عدد ساعات النهار دبرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صَنْجتَان من صُفْر من فمى بازَيْنِ مصورين من صفر قائمين على طاسى صفر(٤) تحت كل واحد منهما أحَدُهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثانى تحت

---

(١) اكتنفتها : أحاطت بها ، والكمامة ــ بكسر الكاف ــ غلاف النور

(٢) تسامتها : تقع فى سمتها ، والمراد تحاذيها وتوازيها وتقابلها ، ووقع فى ا « تساميها » محرفا (٣) فى ا « المنوعات » (٤) فى ا « طاستين من صفر »

آخرها، والطاسان[١] مثقوبتان، فعند وقوع البُنْدُقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة ، وتبصر البازين يمدّان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاسين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا ، وعند وقوع البندقتين فى الطاستين يسمع لهما دوى ، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلَوْح من الصُّفْر ، لايزال كذلك عند انقضاء كل ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ، ثم تعود إلى حالها الأول ، ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة أثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت عَمَّ الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها ، دَرِبٌ بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها ، وهى التى تسميها الناس المنجانة ، انتهى المقصود منه .

قلت : كل ماذكر رحمه الله تعالى فى وصف دمشق الشام وأهلها فهو فى نفس الأمر يسير ، ومن ذا يروم[٢] عدّ محاسنها التى إذا رجع البصر فيها انقلب وهو حسير[٣] ، وقد أطنب الناسُ فيها ، وما بقى أكثر مما ذكروه ، وقد دخلتها أواخر شعبان من سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة ، وأقمت بها إلى أوائل شوال من السنة ، وارتحلت عنها إلى مصر وقد تركت القلب فيها[٤] رَهْناً ، وملك هواها منى فكراً وذهناً ، فكأنها بلدى التى بها ربيت ، وقَرَارى الذى لى به أهل وبيت ، لأن أهلها عاملونى بما ليس [لى] بشكره يدَانِ ، وها أنا إلى هذا التاريخ لا أرتاح لغيرها من

(١) فى ا « والطاستان » (٢) يروم : يطلب

(٣) الحسير : المتعب المعيى ، وقد أخذ هذه الفقرة من قوله تعالى : (ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) (٤) فى ا « وقد تركت القلب بينها رهنا »

البلدان ، ولا يَشُوقنى ذكر أرض بابل ولا بغدان[1] ، فالله سبحانه وتعالى يعطِّر منها بالعافية الأردان[2] .

شيء من أقوال الشعراء فى وصف دمشق

وقد عنّ لى[3] أن أذكر جملة مما قيل فيها من الأمداح الرائقة ، وأسرد ما خاطبنى به أهلها من القصائد الفائقة ، فأقول :

قال البدر بن حبيب :

يَمِّمْ دمشق ومل إلى غـربيها   والمح محاسن حسن جامع يِلْبُغَا

من قال من حسد رأيت نظيره   بين الجوامع فى البلاد فقد لغا

وقال فى كتاب « شِنْفِ السامع ، بوصف الجامع »[4] :

لله ما أحـلى محاسن جلق   وجهاتها اللاتى تروق وتعـذب

بيزيد ربوتها الفرات وجنكها   يا صاح كم كنا نخوض ونلعب

وقال فيه أيضاً :

لله ما أجمـل وَصْفَ جِلَّقٍ   وما حوى جامعها المنفـرد

قد أطرب الناس بصوت صيته   وكيف لا يُطْرِبُ وهو مَعْبَدُ

وقال فى ذكر باب الجامع المعروف بالزيادة :

يا راغباً فى غـير جامع جلق   هل يستوى الممنوع والممنوح

أقصر عناكَ وفى غلوِّك لا تزد   إن الزيادة بابُهَا مفـتوح

وقال فى مَنَارته المعروفة بالعَروس :

معبد الشام يجمع الناس طـراً   وإليه شوقا تميـل النفوس

كيف لا يجمع الورى وهو بيت   فيه تُجْلَى على الدوام العروسُ

ومنه فى ذكر بانيه الوليد :

تالله ما كان الوليد عابثاً   فى صرفه المال وبذل جهده

---

(١) بغدان : لغة فى بغداد (٢) الأردان : جمع ردن ـ بالضم ـ وهو الثوب

(٣) عن لى : عرض

(٤) لم يذكر فى ا اسم الكتاب إلا مع البيتين الآتيين بعد هذين البيتين

لكنه أحرز ملك معبد   لا ينبغى لأحد من بعده

ومن أبيات فى آخره :

بجامع جلق رب الزعامه   أقم تلق العناية والكرامه
ويم نحوه فى كل وقت   وصَلِّ به تَصِلْ دار الإقامه
مصلى فيه للرحمن ذكر   ومَثْوًى للقبول به علامه(١)
محل كَمَّلَ البارى حلاه   وبيت أبدع الْبَانِي نظامه(٢)
دمشق لم تزل للشام وجها   ومسجدها لوجه الشام شامه(٣)
وبين معابد الآفاق طرا   له أمر الإمارة والإمامه
أدام الله بَهْجَته وأبقى   محاسنه إلى يوم القيامه

ولم أقف على كل هذا الكتاب المذكور ، بل على بعضه [فقط] .

ومن قصيدة القاضى المهذب بن الزبير :

بالله يا ريح الشما   ل إذا اشتملت الرَّنْدَ بُرْدَا(٤)
وحملت من عَرْف الخزا   مى ما اغتدى للندّ ندا
ونسجت ما بين الغصو   ن إذا اعتنقن هَوًى وودا
وهززت عند الصبح من   أعطافها قدا فقدّا
ونثرت فوق الماء من   أجيادها للزهر عِقْدَا
فملأت صفحة وجهه   حتى اكتسى آسا وردا
وكأنما ألقيت فيه منهما صُدْغا وخدّا
مرّى على بَرَدَى عسا   ه يزيد فى مَسْرَاك بردا
نهر كنصل السيف تكسر مَتْنَه الأزهارُ عمدا

(١) فى ا « مصلى فيه للرحمن سر »   (٢) فى ب « وبيت أبدع البارى نظامه »
(٣) الشامة : العلامة   (٤) في ا « إذا اشتملت الروح بردا »

صَقَلَتْهُ أنفاس النسيم بمرّهنّ فليس يَصْدَا

ومنها :

أحبابنا ما بالكم فينا من الأعداء أعدى
وحياةِ حبكم وحُرْ مَةِ أصلكم ما خنت عهدا

وقال الكمال الشَّريشى :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبر فإن قلبى بنار الشوق يَسْتَعِرُ
بعدت عنكم فلا والله بعدكم ما لَذَّ للعين لانوم ولا سهر
إذا تذكرت أوقاتا نأت ومضت بقربكم كادت الأحشاء تنفطر
كأننى لم أكن بالنَّيِّرَيْنِ ضحى والغيم يبكى ومنه يضحك الزهر
والوُرْقُ تنشد والأغصان راقصة والدوح يَطْرَبُ بالتصفيق والنهر
والسفح أين عشياتى التى ذهبت لى فيه فهى لعمرى عندىَ العُمُرُ
سقاك بالسفح سفحُ الدمع منهمرا وقلَّ ذاك له أن أعْوَزَ المطر (١)

وحكى ابن سعيد وغيره أن غَرْنَاطة تسمى « دمشق الأندلس » لسكنى أهل دمشق الشأم بها عند دخولهم الأندلس ، وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار ، وقد أطلّ عليها جبلُ الثلج ، وفى ذلك يقول ابن جُبَير صاحب الرحلة :

يا دمشق الغرب هاتيك لقد زدْت عليها
تحتك الأنهار تجرى وهى تنصبُّ إليها

قال ابن سعيد : أشار ابن جبير إلى أن غَرْنَاطة فى مكان مشرف وغُوطَتها تحتها تجرى فيها الأنهار ، ودمشق فى وَهْدَة تنصبُّ إليها الأنهار ، وقد قال الله تعالى فى وصف الجنة (تجرى من تحتها الأنهار) انتهى .

---

(١) فى ا « سفح الدمع منهملا » والانهمال والانهمار بمعنى واحد وهو تتابع الدمع وسيلانه

وقال [الشيخ] الصفدى فى تذكرته : أنشدنى المولى الفاضل البارع شمس الدين محمد بن يوسف بن عبدالله الخياط بقلعة الجبل من الديار المصرية حرسها الله تعالى لنفسه فى شعبان المكرم سنة ٧٣٣[1] :

قصدت مصر من رُبَا جِلَّق ... بهمَّـــةٍ تجرى بتجريبى
فـلم أر الطرة حتى جرت ... دموع عيـــنى بالمزيريب[2]

وأنشدنى لنفسه أيضا :

خلفت بالشـام حبـيبى وقد ... يممت مصرا لعَـــناً طارِقِ
والأرض قد طالت فلا تَبْعَدِى ... بالله يا مصر على العاشـــق

وأنشدنى لنفسه أيضا :

يا أهلَ مصر أنتمُ للعـــلا ... كواكبُ الإحسان والفضل
لو لم تكونوا لى سعودا لما ... وافيتكم أضربُ فى الرمـــل

وذكرته برمته لحسن مغزاه .

وقال الشيخ مجد الدين محمد بن أحمد المعروف بابن الظَّهير[3] الحنفى الإرْبَلِى[4] :

لعـل سَنَى بَرْق الحمى يتألَّقُ ... على النأى أو طيفا لأسماء يطرق
فلا نارها تبــدو لمرتقب ولا ... وعود الأمانىّ الـكواذبِ تصدق
لعل الرياح الهُوجَ تدنى لنازح ... من الشام عَرْفًا كاللطيمة تعبق
ديار قضينـا العيش فيهـا منعما ... وأيامنا تحنو علينا وتشفق
سَحَبْنَا بها بُرْدَ الشباب وشربنا ... لدينـا كما شئنا لذيذ مروّق
مواطن منها السهم سهمى وظِله ... تَخُبُّ مطايا اللهو فيــه وتُعْنِـقُ
جلا جانبيه معـــلم متجعد ... من المـاء فى أطلاله يتدفق

---

(١) فى ا « سنة ٧٣٢ » (٢) فى أصل ا « بالمرازيبى »
(٣) فى ب ونسخة عند ا « المعروف بابن الظهر » (٤) فى ب « الأزبكى »

إذا الشمس حلت متنه فهو مذهب ... وإن حَجَبَتْها دَوْحه فهو أزرق

وإن فرج الأوراق جادت بنَوْرِهَا ... فرقم أجادته الأكفُّ منمَّقُ

يطل عليه قاسيون كأنه ... غمام معلى أو نعام معلق

تسافر عنه الشمس قبل غروبها ... وترجف إجلالا له حين تشرق (١)

وتصفرُّ من قبل الأصيل كأنها ... محب من البين المشتِّتِ مُشْفِقُ

وفى النَّيْرَبِ الميمون للبِّ سالب ... من المنظر الزاهى وللطرف مومق

بدائع من صنع القديم رصائع ... تأنَّق فيها المحدث المتأنق (٢)

رياض كوَشْيٍ للبُرود يشقها ... جداولها فالنَّوْر بالماء يشرق

فمن نرجس يخشى فراق فريقه ... ترى الدمع فى أجفانه يترقرق

ومن كل ريحان مقيم وزائر ... يصافح رياه الرياض فتعبق

كأن قدود السرو فيه مؤانساً ... قدود عذارى ميلها مترفق

إذا ما تدلَّتْ للشقائق صَدَّها ... عيون من النور المفتح ترمق (٣)

وقصر يَكِلُّ الطرف عنه كأنه ... إلى النسر نسر فى السماء معلق

وكم جَدْول جار يطارد جدولا ... وكم جَوْسق عال يوازيه جوسق

وكم بركة فيها تضاحك بركة ... وكم قَسْطل للماء فيه تدفقُ

وكم منزل يعشى العيون كأنما ... تألق فيها بارق يتألق

وفى الربوة الفيحاء للقلب جاذب ... وللهم مسلاة وللعين مرفق

عروس جلاها الدهر فوق منصة ... من الدهر والأبصار ترمى وترمَقُ

فهام بها الوادى ففاضت عيونُهُ ... فكل قرار منه بالدمع يشرق

تكفل من دون الجداول شربها ... يزيد يُصَفِّيه لها ويُرَوِّقُ

---

(١) فى ا « وتزحف إجلالا له حين تشرق »

(٢) فى ا « بدائع من صنع القديم ، ومحدث »

(٣) فى ا « إذا ما تداعت للشقائق صدها »

وقال أبو تمام فى دمشق :

لولا حدائقها وأنِّى لا أرى عَرْشاً هناك ظننتها بَلْقِيسا[١]
وأرى الزمان غدا عليك بوجهه جذلانَ بَسَّامًا وكان عَبُوسا
قدبُورِكَتْ تلك البطون وقدسمت تلك الظهور وقُدِّسَتْ تقديسا

وقال البحترى :

أمّا دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وَفَى لك مُطْرِيها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمانٍ يشبه البلدا
تمشى السحاب على أجبالها فِرَقًا ويصبح النور فى صحرائها بَدَدَا
فلست تبصر إلا واكفا خَضِلاً أو يانعا خَضِرًا أو طائرا غَرِدَا
كأنما القيظ ولى بعد جَيْئَتَه أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وفى دمشق يقول بعضهم :

برزت دمشق لزائرى أوطانها من كل ناحية بوجهٍ أزْهَرِ
لوأن إنسانا تعمد أن يرى مَغْنًى خلا من نزهة لم يقدر

وقال القيراطى[٢] فى قصيدته التى أولها :

* للصب بعدك حالة لاتعجب *[٣]

لله ليلٌ كالنهار قطعْتُه بالوصل لا أخشى به ما يُرْهَبُ
وركبت منه إلى التصابى أدهما من قبل أن يبدو لصبح أشهبُ
أيام لاماء الخدود يَشُوبُهُ كدر العِذار ولا عذارى أشيب
كم فى مَجال اللهو لى من جولة أضحت ترقص بالشباب وتطرب[٤]
وأقمت للندماء سوق خلاعة تُجبى المجون إلىَّ فيه وتجلبُ

---

(١) فى ا « عرشا لها لظننتها بلقيسا » (٢) فى نسخة عند ا « وقال القرطبى »
(٣) فى ا « للصب بعدك حالة لاتصحب » (٤) فى ا « أضحت ترقص بالسماع وتطرب »

وذكرت فى مغنى دمشق معشرا   أُمُّ الزمان بمثلهم لا تُنْجِبُ
لا يسأل القصاد عن ناديهمُ   لـكن يدلهـمُ الثناء الطيب
قوم بحسن صفاتهم وفعالهم   قد جاء يعتذر الزمان المذنب
يا من لحرّان الفؤاد وطرفه   بدمشق أدمعه غدت تتحلَّبُ
أشتاق فى وادى دمشق معهدا   كل الجمال إلى حماه ينسب
ما فيه إلا روضـــة أو جَوْسَق   أو جدول أو بلبـل أو رَبْرَبُ
وكأن ذاك النهر فيـــه معصم   بيَدِ النسـيم مُنَقَّشٌ ومكتب
وإذا تكسَّر ماؤه أبصرته   فى الحال بين رياضه يتشعب
وشدت على العيدان وُرْقٌ أطربت   بغنائها مَنْ غاب عنه المطرب
فالوُرْقُ تنشد والنسيم مشبِّب   والنهر يسقى والحدائق تشرب
وضياعها ضاع النسيمُ بها فكم   أضحى له من بين روض مطلب
وحلت بقلبى من عساكر جنة   فيها لأرباب الخلاعة ملعب
ولكم رقصت على السماع بجُنْكِهَا   وغدا بربوتها اللسان يشبب
فمتى أزور مَعَالما أبوابهـا   بسماحها كتب السماح تُبَوَّبُ

وقال الصَّفِىُّ الحِلِّى عند نزوله بدمشق مسمطا لقصيدة السموءل بالحماسة :

قبيحٌ بمن ضاقت عن الرزق أرضُه   وطول الفَلاَ رَحْبٌ لديه وعرضه
ولم يُبْلِ سربالَ الدجى فيه ركْضُه   (إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل)[1]

إذا المرء لم يحجب عن العين نومها   ويغْلِ من النفس النفيسة سَوْمَها
أضيع ولم تأمن معاليه لَوْمَهَا   (وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها[2]
فليس إلى حسن الثناء سبيل)

---

(١) السربال : القميص ، والدجى : الليل المظلم ، والركض : السير السريع ، ويدنس : يتلطخ   (٢) فى ا « أضيع ولم تأمن معاليه يومها »

رفعنا على هام السِّماك محلنا فلا ملك إلا تغشاه ظلنا[١]
لقد هاب جيش الأكثرين أقلنا (ولا قلَّ من كانت بقاياه مثلنا
شباب تسامى للعلا وكهول)

يوازى الجبال الراسيات وَقارنا وتبنى على هام المجرة دارنا
ويأمن من صرف الزمان جوارنا (وما ضرنا أنا قليل وَجارُنَا
عزيز وجار الأكثرين ذليل)

ولما حللنا الشام تمَّتْ أموره لنا وحَبانا مَلْكه ووزيره[٢]
وبالنَّيْرَبِ الأعلى الذى عَزَّ طُورُهُ (لنا جَبَل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل)

يريك الثريا من خلال شعابه وتُحْدِقُ شُهْبُ الأفق حول هضابه
ويقصر خطو السحب دون ارتكابه رسا أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرع لايُنَال طويل)

وقصر على الشقراء قد فاض نهره وفاق على فخر الكواكب فخره
وقد شاع ما بين البرية شكره (هو الأبلق الفَرْدُ الذى سار ذكره
يعز على مَنْ رَامَهُ ويطول)

إذا ما غضبنا فى رضا المجد غضبة لندركَ ثارا أو لنبلغ رتبة
نزيد غداة الكر فى الموت رغبة (وإنا لقَوْمٌ لانرى الموت سُبَّة
إذا ما رأته عامر وسلول)

وكتب الشيخ محب الدين الحموى فى ترجمة الشيخ إسماعيل النابلسى شيخ الإسلام من مصر :

---

(١) السماك : سماكان ، أحدهما السماك الأعزل ، وثانيهما السماك الرامح

(٢) فى ا « وحبانا ملكه وأميره »

لواء التهانى بالمسرّة يخفِقُ ... وشمسُ المعالى فى سَمَا الفضل تُشْرِقُ
وسعد و إقبال ومجـد مخيم ... وأيام عـز بالوفا تتخلق
فيا أيهـا المولى الذى جَلَّ قدره ... ويا أيها الحـبر اللبيب المدقق
أرى الشام مذ فارقتها زال نورها ... وثوب بهاهـا والنضارة يَخْلُق(١)
إذا غبت عنها غاب عنها جمالهـا ... ونفس بدون الروح لاتتحقق
وإن عُدْتَ فيها عاد فيها كمالهـا ... وصار عليها من بهائك رَوْنَقُ
فيا ساكنى وادى دمشق مزاركم ... بعيد وباب الوصل دونى مُغْلَقُ
وليس على هـذا النوى لى طاقة ... فهل من قيود البين والبعد أطلق
وإنى إلى أخباركم مُتَشَوِّفٌ ... وإنى إلى لقياكم متشوق
أود إذا هب النسـيم لنحوكم ... بأنىَ فى أذياله أتعـلَّقُ
وأصبو لذكراكم إذا هبت الصَّبَا ... لعلى من أخباركم أتنشق
ولى أنَّةٌ أودت بجسمى ولوعـة ... ونار جَوًى من حرها أتفلق
فحنُوا على المضْنَى الذى ثوبُ صبره ... إذا مسـه ذيل الهوى يتمزق
غريب بأقصى مصر أضحت دياره ... ولـكنّ قلـبى بالشآم معلَّقُ
وقد نسخ التبريح جسمى فهل إلى ... غبار ثرى أعتاب وصـلٍ يحقَّقُ
فياليت شعرى هل أفوز بروضة ... وفيها عيون النرجس الغض تحدِقُ
وأنظر واديهـا وَآوِى لربوة ... وماء معين حولهـا يتدفق(٢)
ويحلو لى العيش الذى مر صفوه ... وهل عائد ذاك النعـيم المروّق
وأنظر ذاك الجامع الفَرْدَ مرة ... وفى صَحْنه تلك الحلاوة تشرق
وأصحابنا فيـه نجوم زواهر ... ونور مُحَيَّـا وجههم يتألق
فلا برحوا فى نعمة وسـعادة ... وعز ومجـد شأوه ليس يُلْحَقُ

(١) يخلق : يبلى ويرثّ ، وفعله من بابى فرح وكرم »

(٢) فى ب « وأدنو لربوة » وفيها « وماء معين حولنا » وأثبتنا ما فى أصل ا

وقال ابن عنين :

ماذا على طيف الأحبة لو سَرَى ... وعليهمُ لو ساعدونى بالكَرَى
جنحوا إلى قول الوُشَاة وأعرضوا ... والله يعلم أن ذلك مُفتَرَى
يا معرضا عنى بغير جناية ... إلا لما نقل العذول وزَوَّرَا(١)
هبنى أسأت كما تقول وتَفْتَرِى ... وأتيت فى حُبِّكَ شيئا منكرا
ما بعد بعدك والصدود عقوبة ... يا هاجرى ما آن لى أن تغفرا
لا تجمعنّ علىّ عَتْبَكَ والنوى ... حَسْبُ المحب عقوبة أن يهجرا
عبءُ الصدود أخف من عبء النوى ... لو كان لى فى الحب أن أتخيرا
فسقى دمشق ووادِيَهَا والحمى ... متواصل الأرهام منفصم العرا(٢)
حتى ترى وجه الرياض بعارض ... أحْوَى وفَوْدَ الدَّوْح أزهَرَ نيرا
تلك المنازل لا ملاعب عالج ... ورمال كاظمة ولا وادى القرى
أرض إذا مرت بها ريح الصبا ... حملت على الأغصان مسكا أذفرا
فارقتها لا عن رضا وهجرتها ... لا عن قِلًى ورحلت لا متخيرا
أسعى لرزق فى البلاد مُشَتَّتٍ ... ومن العجائب أن يكون مقترا

ابن عنين كان هجاء

وابن عنين المذكور كان هجاء ، وهو صاحب « مقراض الأعراض » تجاوز الله تعالى عنه ، فمن ذلك قوله :

أرح من نزح ماء البئر يوما ... فقد أفضى إلى تَعَبٍ وعىّ
مُرِ القاضى بوضع يديه فيه ... وقد أضحى كرأس الدَّوْلَعِىِّ(٣)

يعنى أقرع .

وسببُ قوله البيتين أن المعظَّم أمر بنزح ماء بقلعة دمشق ، فأعياهم ذلك .

(١) فى ا « يامن نأى عنى لغير جناية »
(٢) فى ا « مستواصل الأدغام منفصل العرا » والأرهام : جمع رهم ، وهو ضعيف المطر الدائم (٣) كذا فى ا ، وهو الصواب ، وفي ب « كرأس زيرنعى »

ومن هَجْوه قوله :

شكا شعرى إلى وقال تهجو ... بمثلى عرضَ ذا الكلب اللئيم

فقلت له تَسَلَّ فربَّ نجم ... هوى فى إثر شيطان رجيم

وقال فيمن خرج حاجاً فسقط عن الهجين فتخلف :

إذا ما ذُمّ فعل النوق يوما ... فإنى شاكر فعل النياق

أراد الله بالحُجَّاج خيراً ... فثبط عنهم أهل النفاق

وقال :

وراحل سِرْتُ فى ركب أودعه ... تبارك الله ما أحلى تلاجينا[1]

جئنا إلى بابه لاجِينَ نسأله ... فليتنا عاقنا موت ولاجينا

راجين نسأل مَيْتاً لا حراك به ... مثل النصارى إلى الأصنام لاجينا

وقال :

وصلت منك رقعة أسأمتنى ... صَيَّرَتْ صبرىَ الجميل قليلا

كنهار المصيف حَرًّا وكرباً ... وكليل الشتاء برداً وطولا

وأول « مقراض الأعراض » قولُه :

أضالع تنطوى على كَرْبِ ... ومقلة مستهلة الغَرْبِ[2]

شوقا إلى ساكنى دمشق فلا ... عَدَتْ رُبَاها مواطرُ السحب

مواطن مادعا توطنها ... إلا ولَبَّى نداءها لُبِّى[3]

ثم ذكر من الهجو ما تصم عنه الآذان .

وهو القائل فى دمشق :

---

(١) فى أصل ا « ما أشهى بلاجينا » وفى نسخة عندها « ما أشهى تناجينا » وتلاجينا : التجاء كل واحد منا للآخر

(٢) الغرب ـ بالفتح ـ عرق فى العين يفيض ولا ينقطع

(٣) وقع هذا البيت فى ا هكذا :

منازل ما دعا تذكرها ... إلا ولبى بذلها لبى

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة وظلُّكَ يا مُقْرَى على ظَليلُ

وهل أرَيَنِّى بعدماشطت النوى ولى فى ذَرَا روض هناك مَقِيلُ

ومنها :

دمشق بنا شوق إليكِ مبرِّح وإن لَجَّ واش أو ألَحَّ عذول

بلاد بها الحصباء در ، وتربها عبير ، وأنفاس الشَّمال شَمُول

تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيمُ الروض وهو عليل

وقد تقدم التمثيل بهذه الأبيات الثلاثة فى خطبة هذا الكتاب .

ومن هذه القصيدة :

وكيف أخاف الفقرأو أحْرَمُ الغنى ورأىُ ظهير الدين فىَّ جميل

من القوم أمّا أحنف فسفَهٌ لديهم ، وأما حاتم فبخيل

فتى المجد أما جاره فمُمَنَّعٌ عزيز ، وأما ضِدُّه فذليل

وأما عطايا كفه فمباحة حلال ، وأما ظله فظليل (١)

الملك العزيز ظهير الدين طغتكين الأيوبى

وظهير الدين الممدوح هو طَغْتِكِين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين ، وكان ملك اليمن ، وأحسن إلى ابن عنين إحساناً كثيرا وافرا ، وخرج ابن عنين من اليمن بمال جم ، وطغتكين : بضم الطاء المهملة ، و بعدها غين معجمة ، ثم تاء مثناة من فوقها مكسورة ، ثم كاف مكسورة أيضاً ، ثم ياء تحتية ، ثم نون ، وكان يلقب بالملك العزيز ، ولذلك قال ابن عنين لما رجع من عنده إلى مصر أيام العزيز عثمان بن صلاح الدين فألزم أرباب الديوان ابنَ عنين بدفع الزكاة من المتاجر التى وصلت صحبته :

ما كلٌّ من يَتَسَمَّى بالعزيز له أهلٌ وما كلُّ برقٍ سُحْبُهُ غَدِقَه (٢)

بين العزيزَيْنِ بَوْنٌ فى فعالهما هذاك يعطى وهذا يأخذ الصَّدَقَة

ومن هجو ابن عنين قولُه فى فقيهين يلقب أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس :

البغل والجاموسُ فى حالَيْهما قد أصبحا مثلا لكل مُناظِرِ

(١) فى ا « فمباحة إلينا » (٢) فى ا « وما كل بر سحبه غدقة »

قعـــدا عشية يومنا فتناظرا ـ هـــذا بقرنيهِ وَذَا بالحافر
ما أحكما غـير الصياح كأنما ـ لقيا جدال المرتضى بن عساكر
جِلفَانِ مالهما شبيه ثالث ـ إلا رَقَاعَةُ مَذْلَوَيه الشاعر[١]
لَفْظٌ طويل تحت معنى قاصر ـ كالعقل فى عبد اللطيف الناظر[٢]

رجع إلى دمشق .

وقال العز الموصلى :

إليك حياضَ حَمَّامات مصر ـ ولا تتكثرى عندى بمَيْنِ
حياض الشام أحلى منك ماء ـ وأطهر وهى دون القلتين

وهذان البيتان جوابٌ منه عن قول ابن نُبَاتة :

أحواض حمـــام الشآ ـ م ألا اسمعى لى كلمتين
لا تذكرى أحــواض مصـــر ـ فأنت دون القلتين

وأما قول النَّوَاجى سامحه الله تعالى :

مصر قالت دمشق لا ـ تفتخـــــر قط باسمها
لو رأت قوسَ روضـــتى ـ منـــه راحت بسهمها

فهو من باب تفضيل الوطن من حبه ، ومنه قول الوَدَاعى :

روِّ بمصرٍ وبسكانها ـ شوقى وجدد عهدىَ الخالى
وأُرو لنا يا سعـد عن نيلها ـ حديث صفوان بن عسال
فهو مرداى لا «يزيد» ولا ـ «ثور» وإن رقًّا ورقا لى

ومن ذلك النمط قولى الشهاب الحجازى :

قالوا دمشق قد زهت لزهرها ـ فامض وشاهد جوزها ولوزها[٣]

---

(١) فى ب « إلا أخادع مدلويه الشاعر »

(٢) فى ب « لغط طويل تحت معنى قاصر »

(٣) الواو عاطفة ، واللوز : نوع من النقل ، مضاف إلى ضمير دمشق

فقلت لا أبدل بلدتى بهـا ولست أرضى زهرها وَلَوْزَهَا[١]

[٢][وقول الخفاجى قاضى مصر، وإن لم يكن فى دمشق ، لكن فى السياق فى النظم :

قد فتن العاشقين حين بدا بطلعة كالهـلال أبرزها

طَرَّ له شاربٌ على شَفَةٍ كالورد فى الآس حين طرزها][٢]

وقول الآخر :

قد قال وادى جِلَّقٍ للنيل إذ كسروه أعْيُنُ جبهتى لك ترفع

فأجاب بحر النيل لما أن طغى عندى مقابل كل عين أصبع

وقد تذكرت هنا قول بعضهم :

ماذا يفيد المعـنَّى من الأذى المتتابع

بمصر ذات الأيادى ونيلها ذى الأصابع

وقد شاع الخلافُ قديماً وحديثاً فى المفاضلة بين مصر والشام ، وقد قال بعضهم :

فى حلبٍ وشـامِنا ومصرَ طال اللغطُ

فقلت قول منصف خـير الأمور الوسط

وأما قولُ بعضهم :

تجنَّبْ دِمَشْقَ ولا تأتها وإن راقك الجامع الجامع

فَسُوقُ الفُسُوقِ بها قائم وفجر الفجـور بها طالع

فلا يلتفت إليه ، ولا يعول عليه ، إذ هو مجرد دعوى خالية عن الدليل ، وهى من نزعات بعض الهجائين الذين يعمدون إلى تقبيح الحسن الجميل [الجليل] .

* ومازالت الأشراف تُهْجى وتمدح[٣] * ولا يقابل ألف مُثْنٍ عَدْل بفاسق يقدح :

وفى تعَبٍ من يَحْسُدُ الشمسَ نورَها ويأمل أن يأتى لها بضريب[٤]

(١) « ولوزها » مركبة من الواو ، ومن لو الشرطية ، و « زها » فعل ماض

(٢) مابين المعقوفين ساقط من ا

(٣) هذا عجز بيت ، وصدره قوله * هجوت زهيرا ، ثم إنى مدحته *

(٤) هذا بيت من قصيدة مستجادة لأبى الطيب المتنبى يعزى فيها سيف الدولة

وأخف من هذا قول بعض الأندلسيين ، وهو الكاتب أبو بكر محمد بن قاسم :

دِمَشْقُ جنة الدنيا حقيقاً ... ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد ... وصحبتهم تؤول إلى الحروب (١)
ترى أنهارهم ذات ابتسام ... وأوجههم تولّعُ بالقطوب
أقمت بدارهم ستين يوما ... فلم أظفر بها بفتى أديب

والجواب واحد ، ولا يضر الحقَّ الثابت إنكارُ الجاحد ، وأخف من الجميع قول العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه :

جِلَّق جَنَّةٌ من تاهَ وباهَى ... ورُبَاهَا أرَبِى لولا وَبَاهَا
قال غالٍ : بَرَدَى كوثرُهَا ... قلت : غالٍ بَرَدَاها بِرِدَاها (٢)
وطنى مصر وفيها وَطَرِى ... ولنفسى مشتهاها مشتهاها (٣)
ولعينى غيرها إن سكنت ... يا خليلىَّ سلاها ماسلاها

وأخفُّ منه قول ابن عبد الظاهر :

لا تلوموا دمَشْقَ إن جئتموها ... فهى قد أوْضَحَتْ لكم ما لديها
إنها فى الوجوه تضحك بالزَّهْرِ ... لمن جاء فى الربيع إليها
وتراها بالثلج تبصق فى لحية ... مَنْ مَرَّ فى الشتاء عليها

وقول ابن نُبَاتة وهو بالشام يتشوق إلى المقياس والنيل :

أرَقُ له بالشام نيل مدامع ... يجريه ذكر منازل المقياس
سَقْيًا لمصر منازلا معمورة ... بنجوم أفقٍ أو ظباء كِنَاسِ
وطنى سهرتُ له وشابت لِمَّتِى ... وَنَعَمْ على عينى هواه وراسى
من لى به والحالُ ليس بآنس ... كدر وعطف الدهر ليس بقاسى

---

(١) في ا « وصحبتهم تؤول إلى حروب »

(٢) غال في صدر البيت اسم فاعل من الغلو وهو فاعل قال ، وبردى : اسم نهر بدمشق ، وغال فى عجز البيت اسم فاعل من غلاء السعر و « برداها » مؤلف من الباء الجارة ، والردى : بمعنى الهلاك ، وضمير دمشق

(٣) المشتهى : متنزه بمصر

والطرف يستجلى غزالا آنساً بالنيل لم يَعْتَـدْ على باناس[١]

رجع إلى مدح دمشق .

وقال الناصر داود بن المعظم عيسى :

إذا عاينت عيناى أعلام جِلَّقٍ وبَانَ من القَصْر المشيد قبابه[٢]

تيقنت أن البين قد بان والنوى نَأَى شخصه والعيش عاد شبابه

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

يا راكبا من أعالى الشام يجذبه إلى العراقين إدلاج وإسحار

حدّثتنى عن ربوع طالما قُضِيت للنفس فيها لُبَانات وأوطار

لدى رياض سقاها المزن دِيمَتَهُ وزانها زهر غض ونوّار

شحَّ الندى أن يسقِّيها مُجَاجَتَهُ فجادها مُفْعَمُ الشؤبوب مِدْرار[٣]

بكت عليها الغوادى وهى ضاحكة وراحتِ الريحُ فيها وهى معطار

يا حسنها حين زانتها جواسقها وأينعت فى أعالى الدوح أثمار[٤]

فهى السماء اخضراراً فى جوانبها كواكبٌ زُهُرٌ تبدو وأقمار

حدثتنى وأنا الظامى إلى نبأٍ لا فُضَّ فوكَ فمِنِّى الرى تمتار

فهو الزلال الذى طابت مشاربه وفارقته غثاآت وأكدار

كرّر على نازح شَطَّ المزارُ به حديثك العذب لاشطت بك الدار

وعَلِّلِ النفس عنهم بالحديث بهم إن الحديث عن الأحباب أسمار

وهذا الملك الناصر له ترجمة كبيرة ، وهو ممن أدركته الحرفة الأدبية ، ومنع حقه بالحمية والعصبية ، وأنكرت حقوقه ، وأظهر عقوقه ، حتى قضى نحبه ، ولقى ربه .

(١) باناس : نهر من أنهار دمشق ، وفى نسخة عند ا « باباس »

(٢) فى ا « إذا عاينت عيناك أعلام جلق »

(٣) في ا « شح الندى أن يسقيها بحاجته » محرفا ، والمفعم: الممتلىء ، والشؤبوب الدفعة من المطر ، والمدرار : الهطال المتتابع .

(٤) الجواسق: جمع جوسق ، وهو القصر .

رجع :

وقال سيف الدين المشد رحمه الله تعالى :

بشرى لأهل الهَوَى عاشوا بهِ سُعَدَا … وإن يموتُوا فهم من جملة الشُّهَدَا

شعارهم رقة الشكوى ومذهبهم … أن الضلالَةَ فيهم فى الغرام هدى (١)

عيونهم فى ظلام الليل ساهرة … عَبْرَى وأنفاسُهم تحت الدجى صُعُدَا

تجرعوا كأس خمر الحب مُتْرَعَةً … ظلوا سكارى وظنوا غيهم رشدا

وعاسل القدِّ معسول مُقَبَّله … كالغصن لما انثنى والبدر حين بدا

رقيم عارضه كهف لعاشقه … يأوى إليه فكم فى حَيِّه شُهَدَا (٢)

نادمته وثغور البرق باسمة … والغيث ينزل منحلاًّ ومنعقدا

كأن جِلَّقَ حيا الله ساكنها … أهدت إلى الغور من أزهارها مددا

فاسترسَلَ الجوّ منهلاًّ يزيد على … « ثَوْرَى » ويعقد محلول الندى « بَرَدَا » (٣)

وقال أيضاً :

فؤادى إلى بانات جلق مائل … ودمعى على أنهارها يتحدّر

يُرَنِّحنى لوز ابن كَلَّابَ مزهراً … وتهتزنى أغصانه وهو مثمر

وإنى إلى زهر السفرجل شيق … إذا ما بدا مثل الدراهم ينثر

غِياض يفيض الماء فى عرصاتها … فتزهو جمالا عند ذاك وتزهر

ترى بَرَدَى فيها يجول كأنه … وحصباءه سيف صقيل مجوهر

وبى أحْوَرٌ لاح العذار بخدّه … يسامح قلبى فى هواه ويعذر

يحاورنى فيه على الصبر صاحبى … وكيف أطيق الصبر والطرف أحْوَرُ

إذا اشتقت وادى النيرَبَيْنِ لمحته … فأنظر معناهُ به وهو أنضر (٤)

حوى الشرف الأعلى من الحسن خده … على أن ميدان العوارض أخضر

---

(١) فى ا « أن الضلالة فيها فى الغرام هدى »

(٢) شهدا : جمع شهيد ، وأراد به قتيل الغرام ، وأصله شهداء ـ بالمد ـ فقصره ووقع فى ب « فكم فى حبه شهدا »

(٣) فى ا « فاسترسل الجود » والجود ـ بفتح الجيم ـ المطر .

(٤) فى ا « فانظر مغناها به وهو أنضر »

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

وادٍ به أهلُ الحبيب نُزُولُ حَيًّا معاهدهُ الحيا والنيل
واد يفوح المسك من جَنبَاته ويصحُّ فيه للنسيم عليل
يشتاقه ويودُّ لثم ترابه شوقا ولكن ما إليه سبيل
متقلقل الأحشاء مسلوب الكرى طَلْقُ الدموع فؤاده متبول
يصبو إلى الأَثلاتِ من وادى الغضى ويحن إن خطرت هناك شَمُولُ
قالوا تبدَّلْ قلت يا أهل الهوى والناس فيهم عاذر وجهول
هل بعد قطع الأربعين مسافة للعمر فيها يحسن التبديل
ولقد هفا بى فى دمشق مهفهف يسبى العقول رُضَابُهُ المعسول
يهتز إن مر النسيم بقَدِّه ويميلُ بى نحو الصِّبا فأميل (١)
أبدى لنا بَرَدًا تبسُّمُ ثغرهِ وإذا انثنى فقَوَامه المجدول (٢)
لزم التسلسل مدمعى وعذاره فانظر إلى المُهجَاتِ كيف تسيل
وسقمت من سقم الجفون لأنها هى علة وفؤادىَ المعلول
لا تعجبوا إن راعنى بذوائب فالليل هَوْلٌ والمحب ذليل
ما صح لى أن الذؤابة حية حتى سَعَتْ فى الأرض وهى تجول

وقال ناظر الجيش عون الدين بن العجمى :

يا سائقا يقطع البَيْدَاء معتسفا بضامرٍ لم يكن فى سيره وَانِى
إن جزت بالشام شِمْ تلك البروقَ ولا تعدل بلغت المنى عن دير مروان (٣)
واُقصد أعالى قَلَاليه فإن بها ماتشتهى النفسُ من حُورٍ وولدان
من كل بيضاء هيفاء القَوَام إذا ماست فوا خَجَلَ المران والبان (٤)

(١) وقع فى ا عجز هذا البيت «ويحن إن خطرت هناك شمول» وقد مضي هذا العجز فى البيت الخامس . (٢) فى ب « تبسم ثغرها » وفى ا « وإذا انثنى قوامه المجدول»
(٣) فى ا « دير مران » وهو بضم الميم وتشديد الراء دير كان بقرب دمشق
(٤) المران ـ بزنة الرمان ـ الرماح ، والبان : شجر معتدل الأغصان .

وكل أسمر قد دان الجمال له وكَمَّلَ الحسنَ فيه فرطُ إحسان
ورب صُدْغ بدا فى خد مرسله فى فترة فتنت من سحر أجفان
فليت ريقته وِرْدِى ووجنته وَرْدِى ومن صدغه آسى وريحانى
وعُجْ على دير مَتَّى ثم حى به الر بان بطرس فالربان ربانى
فهمت منه إشاراتٍ فهمتُ بها وصنت منشورها فى طى كتمان (١)
وأُدخل بدير حنين وانتهز فرص اللذات ما بين قسيس ومطران (٢)
واستجل راحًا بها تحيا النفوس إذا دارت براح شماميس ورهبان (٣)
حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت بشُهْبها من همومى كل شيطان
كم رحت فى الليل أسقيها وأشربها حتى انقضى ونديمى غير ندمان (٤)
سألت توماس عمن كان عاصرها أجاب رَمْزاً ولم يسمح بتبيان
وقال : أخبرنى شمعون ينقله عن ابن مريم عن موسى بن عمران
بأنها سفرت بالطور مشرقة أنوارها فكَنَوْا عنها بنيران
وهى المدام التى كانت مُعَتَّقة من عهد هُرْمُسَ من قبل ابن كنعان
وهى التى عبدتها فارس فكَنَى عنها بشمس الضحى فى قومه مانى
سكرت منها فلاصحو وَجَدْتُ بها على الندامى وليس الشح من شانى
وسوف أمنحها أهلا وأنشده ما قيل فيها بترجيع وألحان
حتى تميل لها أعطافه طربا وينثنى الكون من أوصاف نشوان

وهذه وإن لم تكن فى دمشق على الخصوص فلا تخرج عما نحن بصدده ، والأعمال بالنيات ، وديباجة هذه القصيدة على نسج طائفة من الصوفية ، وممن حاك هذه البرودَ الشيخُ الأكبر رحمه الله تعالى ، وقيل : إنه الشيخ شعبان النحوى .

(١) فهمت فى أول البيت ماض من الفهم ، وقوله « فهمت » مؤلف من ثلاث كلمات الأولى فاء العطف ، والثانية «هام» وهو ماض من الهيام ، والثالثة تاء المتكلم.
(٢) فى ا « واعبر بدير حنينا » . (٣) الشماميس : جمع شماس ، وهو من وظائف النصرانية ، والرهبان : جمع راهب (٤) ندمان : وصف من الندم

رجع :

وقال بعضهم :

شوقى يزيد وقلب الصبا ما بَرَدَا ... وبان يأسى من المعشوق حين غدا

ومدمعى قنوات، والعذول حكى ... ثَوْرَى، يلوم الفتى فى عشقه حسدا

على مغنية بالجنك جاوبها ... شَبَّابة كم بها من عاشق سَهِدَا

فالبدر جَبْهتها، والردف ربوتها، ... وخِلها مات فى خَلْخَالها كمدا

بعض مخاطبات دارت بين المؤلف وأهل الشام

ولنذكر نبذة مما خوطبتُ به من علماء الشام وأدبائه حفظ الله تعالى كمالهم، وبلغ آمالهم!.

فمن ذلك قول شيخ الإسلام، مفتى الأنام، سيدى الشيخ عبد الرحمن العِمادى الحنفى حفظه الله تعالى، وكتبه لى بخطه :

شمسُ هُدًى أطلعها المغرب ... وطار عنقاء بها مُغْرِبُ[(١)]

فأشرقت فى الشام أنوارُهَا ... وليتهَا فى الدهر لاتغرب

أعنى الإمام العالم المَقَّرِى ... أحمدَ من يكتب أو يخطب

شهاب علم ثاقب فضله ... ينظم عقدا وهو لا يثقب

فرع علوم بالهدى مثمر ... ورَوْض فضل بالندى مُعْشب

قدِ ارتدَى ثوب علا وامتطَى ... غارب مجد فزَهَا المركب

درسٌ غريبٌ كل يوم له ... يملى ولكن حِفْظُه أغرب

محاضرات مسكر لفظُها ... بكأس سمع راحها تشرب

رياض آداب سقاها الحيا ... ففاح مسكا نَشْرُها الأطيب

فضائل عمت وطَمَّتْ فقد ... قصر فيها كل من يطنب

قلوبنا قد جذبت نحوه ... والحب من عادته يجذب[(٢)]

(١) فى ا «شمس الهدى أطلعها المغرب»

(٢) فى ا «والحب من عاداته يجذب»

إن بعدت عن غربه شرقُنَا فالفضل فينا نسبٌ أقرب
كم طلبت تشريفه شامُنَا بشرى لها فليهنها المطلب (١)
قد سَبَقَتْ لى معه صحبة فى حرم يؤمِنُ من يرهب
أخوّة فى الله من زمزم رضاعها طاب لها المشرب
أنهلنى ثَمَّ ودادا فلى بالشام منه عَلَلٌ أعذب
أهديت ذا النظم امتثالا له وقد هجرْتُ الشعر مذ أحْقُبُ
نَشَّطَ قلبى لطفه فانثنى والقلب فى أهل الهوى قُلَّبُ
ضاء دجى العلم به للورى مالاح فى جنح الدجى كوكب (٢)

تحية الفقير الداعى ، عبد الرحمن العمادى ، انتهى .

وأجبته بما نصه :

ما تِبْرُ راح كأسُها مُذْهَبُ ما للنهى عن حسنها مَذْهَبُ
تستدفع الأكدار من صَفْوِها وتنهل الأفراح أو تنهب
تسعى بها هَيْفاء من ثغرها أو شعرها النورُ أو الغَيْهَبُ
فتانة الأعطاف نفاثة سحرا بألباب الورى يلعب (٣)
فى روضة قد كللت بالنَّدَى والزهر رأس الغصن إذ يعصب
بُرودها بالنَّوْر قد نمنمت كالوَشْى من صنعاء بل أعجب
والماء يجرى تحت جناتها والنار من نارنجها تلهب
والظِّل ضافٍ والنسيم انبرى والجوّ ذاكى العَرْف مستعذب
والطير للعشاق بالعود قد غَنَّتْ فهاجت شوقَ من يطرب
أبهى ولا أبهج فى منظر من نظم مَنْ تقديمه الأصوب

(١) فى ا « كم طلبت تشريقه شامنا »
(٢) فى ا « ما نار في جنح الدجى كوكب »
(٣) فى ا « سحرا بألباب الورى تلعب »

مفتي دمشق الشام صَدْر الورى مَنْ فى العلا تم به المطلب
علامة الدهر ولا مِرْيَة وملجأ الفضل ولا مهرب
لله ما امتاز به من حِلًى بغير منّ الله لا تكسب
أبدى به الرحمن فى عبده مظاهر المنح التى تحسب[1]
جُودٌ بلا منّ وعلم بلا دعوى به التحقيق يستجلب
و بيت مجد مسند ركنه إلى عماد الدين إذ ينسب
فبرقهُ الشامِيُّ من شامه نال مراما والسِّوَى خلب
وما عسى أبديه فى مدحه أو وصف أبناء له أنجبوا
تسابقوا للمجد حتى حَوَوْا سبقا لما فى مثله يرغب
أعيذهم بالله من شر ما يخشى من الأغيار أو يرهب
وأسأل الله لهم عزة بادية الأضواء لا تحجب

ولما حللتُ دِمَشْقَ المحروسة ، وطلبت موضعاً للسكنى يكون قريبا من الجامع الأموى الذى يعجز البليغ وصفه و إن ملأ طُروسه ، أرسل إلى أديبُ الشام فرد الموالى المدرسين ساحب أذيال الفخار المولى أحمد الشاهينى حفظه الله تعالى بمفتاح المدرسة الجَقمقية ، وكتب لى معه ما نصه :

كَنَفُ المَقَّرِيِّ شيخى مَقرِّى و إليه من الزمان مَفرِّى[2]
كَنَفٌ مثل صدره فى اتساع وعلوم كالدر فى ضمن بحر
أى بدر قد أطلع الغربُ منه ملأ الشرق نوره ؟ أى بدر ؟[3]
أحمد سيدى وشيخى وذخرى وسَمِيِّ وفوق ذاك وفخرى
لو بغير الأقدام يسعى مَشُوقٌ جئته زائرا على وجه شكرى

العبد الحقير المستعين ، المخلص أحمد بن شاهين ، انتهى .

---

(١) فى ا « أبدى بها الرحمن فى عبده »
(٢) فى ا « كنف المقرى شيخ مقرى » وليس بشىء
(٣) فى ا « ملأ الشوق نوره » محرفا

فأجبته بقولى :

أى نظم فى حسنه حار فكرى   وتحلَّى بُدرِّه صدرُ ذكرى
طائر الصِّيت لابن شاهين ينمى   مَنْ بروض الندى له خير وكر
أحمد المنتطين ذروة مجدٍ   لعَوَانٍ من المعالى وبِكْر
حل مفتاح فضله بابَ وصلٍ   من معانى تعريفه دون نكر
يا بديع الزمان دم فى ازديان   بالعلا وازدياد تجنيس شكر

وكتب إلى لما وقف على كتابى « فتح المتعال ، فى مدح النعال » بما نصه : لكاتبه الحقير أحمد بن شاهين الشامى فى تقريظ تأليف سيدى ومولاى وقبلتى ومعتقدى شيخ الدنيا والدين، وبركة الإسلام والمسلمين ، حفظ الله تعالى وجوده آمين :

أأحمد ، فخراً يا ابن شاهين سامياً   بأحمدَ ذاك المقَّرِىِّ المسدَّد
بمن راح خدّاما لنعل محمد   وناهيك فى العليا بأرفع سؤدَد
فإن أنا أخدم نعله فَلَطَالما   غدا خادماً نعل النبى الممجد
بتأليفه فى وصف نعل تكرمت   كتاباً حوى إجلال كل موحِّدِ
ويكفيك فخرا يا ابن شاهين أن تُرَى   خَدوما لخدّام لنعل محمد
فقلت له طوبى بخدمة أحمد   فقال كذا طوبى بخدمة أحمد
فلا زال يَرْقَى للمعالى مكرما   وينتعِل العيوق فى رغم فرقد(١)

فأجبته بقولى :

أأحمد وصف بالعوارف يرتدى   وأشرف مولى للمعارف يهتدى

(١) العيوق ـ بفتح العين وتشديد الياء مضمومة ـ نجم أحمر مضىء يقع فى طرف المجرة الأيمن ، وهو يتلو الثريا لايتقدمها ، والفرقد ـ بزنة جعفر ـ نجم قريب من القطب الشمالى ، وهو الذى يهتدى به السارون ، وهو كثير الورود فى الشعر ، وأحيانا يرد مثنى فيقال « الفرقدان » ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى :

فاسأل الفرقدين عمن أحسا   من قبيل وآنسا من بلاد

وذلك لأنهما فرقدان شديدا الاتصال فيظهران كنجم واحد ، وحقيقة الأمر أنهما اثنان

نُجُومك إذ أنت الخليل تَوَقَّدَتْ فأنِّى أجاريها بنحو المبرد
أتانى نظامٌ منك حَيَّر فكرتى على أنه أعلى مرامى ومقصدى
فأنت ابن شاهين الذى طارصيته بجو العلا والضد ضل بفرقد[(١)]
فبِرُّكَ موصول وشانيك منكر وقدرك مرفوع على رغم حسد
وعند حديث الفضل أسند عاليا بشام فهم يروون مسند أحمد
فوجهك عن بشر ويمناك عن عَطًا وفكرك يروى فى الهدى عن مُسَدَّد
فلا زلت ترقى أوْجَ سعد ورفعة ودمت بتوفيق وعز مخلد

ولما خاطبته بقولى :

يصيد ابنُ شاهين بجو بلاغة سوانِحَ فى وكر البدائع تفرخ
وما كان ديك الجن مدرك نيلها إذا صرصر البازى فلاديك يصرخ
ولو جاد فكر البحترى بمثلها لكان على الطائى بالأنف يَشْمَخُ
ولو أن نظم ابن الحسين أتيحها لفاز بسبق حكمه ليس ينسخ[(٢)]
فلا زال ملحوظا بعين عناية وكُتْبُ التهانى عن علاهُ تؤرخ

أجابنى بما نصه :

أأنفاس عيسى ما بروعىَ ينفخ أم الطرسُ أضحى بالعبير يُضَمَّخُ
وهذى قواف أم هى الشمس؟ إننى أراها على الجوزاء بالأنف تشمخ
بلى هى نَصٌّ من ودادك محكم تزول الرواسى وهى لم تك تنسخ
أتتنى بمدح مخجل فكأنها لفَرْطِ حيائى قد أتتنى توبخ
وهل أنا إلا خادمٌ نعلَ سيدى و بينى و بين المدح فى الحق برزخ
وما هى إلا غرة حزت فخرها و إنى بها بادى المحاسن أشدخ[(٣)]

(١) فى ا « بحق العلا ، والضد ضل بفرقد »

(٢) ابن الحسين : أراد به أبا الطيب أحمد بن الحسين المتنبى ، وهيهات أن يكون شعر المتنبى من قبيل هذا النظم المتكلف

(٣) فى ا « بادى المحاسن أشرخ » وفى نسخة عندها « أسرخ » وكلاهما تحريف

فلا دَرَّ دَرِّى وانحرفتُ عن العلا إذا كان ودى عن معاليك يفسخ
وحبك مهما طال شرقا ومغربا بوكر ابن شاهين الوفىِّ يُفَرِّخُ
وإنى وإن أرختُ مجدا لماجد فإنىَ باسم المقَّـرِى أؤرخ
سمي ومولاى الذى راح مدحه لرأس الأعادى بالمعاريض يرضخ(١)
ودم يا نظير البدر ترقى بأوْجِهِ ولا زلت فى طرْفى وقلبىَ ترسخ

وكنت يوما أروم الصعود لموضع عال فوقعت ، وانفكت رجلى ، وألمت ، فـكتب إلى :

لا ألمت رجلكُ يا سيدى وصانهـا الله من الشَّيْنِ
ما هى إلا قَدَمٌ للعـلا لا أُحتاج ذاك النصل للقين
زانت دمشق الشام فى حلها فلا رأت فيهـا سوى الزين
بانت عن الأهل لتشريفنا لاجمعت أينًـا إلى بين
عجبت من راسخةٍ فى العـلا والعلم إذ زاغت من العين
إنى أعاف المين بين الورى ولست والله أخامِيْنِ
للمقَّرى المجتبَى أحمـد دين الهوى والمدح كالدين
وأحمد الله على أننى رأيتـه حاز الفريقين
فلا أراه الله فى عمره بينًـا يُؤَدِّيه إلى أين

تعويذا لمحب العبد الحقير الداعى أحمد بن شاهين ، انتهى .

وأهديت إليه حفظه الله تعالى سبحة وخاتما ، وكتبت إليه :

يا نجل شاهين الذى أحيا المعالى والمعالم
يامن به رِيشَتْ من الـــمجد الخَوافى والقْوَادم

---

(١) المعاريض : جمع معراض ، ويطلق علي السهم الذى يرمى به بلا ريش ولا نصل ، ويطلق على التورية فى الكلام ، كما قيل « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » ويرضخ : مضارع رضخ رأسه بالحجر ، إذا كسره به .

يا من دمشق بطيب ما يُبْدِيه عاطرة النواسم
فالنهر منهـا ذو صفا والزهر مُفْتَرٌّ المباسم (١)
والغصن يثنى عِطْفَه طربا لتغريد الحمائم
يا أحمـد الأوصاف يا من حاز أنواع المكارم
أنت الذى طَوَّقتنى مِنَناً لهـا تعنو الأعاظم
فمتى أؤدى شكرها والعجز لى وصفٌ مُلاَزم
والعذر بادٍ إن بعثـت إليك من جنس الرتائم
بنتيجة الذكر التى جاءت بتصحيف ملائم
وبحائمٍ صـادٍ إلى فيض الندى من كف حاتم
فامدد على جهـد المقـلِّ رِوَاقَ صَفْح ذا دعائم
واقبل عقيلة فكر مَنْ هو فى بحار العِيِّ عائم
لا زلت سابق غاية بين الأعارب والأعاجم

فأجابنى بما صورته :

يا سيداً شعرى له ما إن يقاوى أو يقاوم
كلا ، ولا قدرى له يوما يساوى أو يساوم
يا من رأيت عُطَاردا منه بدا فى شخص عالم
يا من بنفْحَةِ خُلْقِهِ وبنظمه السامى الملائم
أضحى يرينى معجزيـن من النواسم والمباسم
ما زلت أبصر منهما حسن النُّعَامَى والنعائم (٢)
بهمـا زمانى حاسداً أضحى وبالتنغيص حاسم

---

(١) فى ا « مفتر البواسم » جمع باسم ، وأصله الثغر .

(٢) النعامى – بضم النون – ريح الجنوب ، والنعائم : منزلة من منازل القمر .

قَلَمى وقَلْبى بين ها   م فى الثنــاء له وهائم
حُبِّى لأحمـد سيدى   شيْخِ الورى فرضٌ ملازم
المقـرىِّ المعتلى   شرفَ المعالى والمعالم
مالى إليـه وسـيلة   إلا هوى فى القلب دائم
قد جاء ما شرفتنى   بخصوصه دون الأعاظم
من خاتم كفى به   ورثت سليمان العـزائم
وجعلتنى لا أحسب الـ   ـعيوق لى فى فص خاتم
وبسُبْحَة شبهتها   بالشهب فى أسلاك ناظم
فلتحسد الجوزاء ما   أحرزت من تلك المكارم
هى آلة للذكر لـ   ـكن ليس ذِكْرَى فى الحيازم (١)
فهواك فى قلبى وما   فى القلب جَلَّ عن الرتائم
ماذى رتائم سيدى   بل إنها عندى تمائم
لو أنها من جنس ما   يطوى غدت فوق العمائم
لكنها قد زيَّنَتْ   كفى وأزرت بالخواتم
يا من يريش إذا رمى   نسر السماء بلحظ حازم
إن ابن شاهين حوى   منك الخوافى والقوَادم
هـذى نوافل يا إما   م الدهر ليست باللوازم
العـذر عنها مخجل   عبدًا لنعلك جدَّ خادم
بل أنت فوق العذر قد   أصبحت للشعرى تنادم (٢)
لا زال دهرك سيدى   يلقاك منه ثغر باسم
يُهْدِى إليك من المرا   حم والمكارم والغنائم
مالا يساوم مثله   ذو الحظ فى أسنى المواسم

(١) الحيازم : جمع حيزوم ، وهو الصدر . (٢) الشعرى ـ بكسر الشين وسكون العين ـ كوكب يطلع فى الجوزاء ، وآخر يطلع في الذراع .

العبد الحقير الداعى لأستاذه مولاى الأجل بالتمكين، أحمد بن شاهين، حامدا مصلياً مسلما، انتهى.

وقال مستجيزا:

الشيخ يشرب ماء ونحن نشرب قَهْوَهْ

فقلت:

لأنه ذو قُصور فغطِّ بالعذر سَهْوَهْ

ولما أزمعت العَوْد[1] إلى مصر أوائل شوال سنة ١٠٣٧ خاطبنى بقوله ـ حفظه الله! ـ:

أبداً إليك تَشَوُّقِي وحنينى وإلى جَنَابك ما علمت سكونى
ولديك قلبى لا يزال رهينة غَلِقَتْ وتَعلم ذمّة المرهون
وعليك قد حُبِسَتْ شواردُ مدحتى لما رأيتك فوق كل قَرين
قلبى كقلبك فى المحبة والهوى إذ كان فى الأشواق دِينكَ دينى
ولّيته بهواك أرفع رتبة وغدوت تعزل عنه كل خَدينِ
وأطاع أمرك فى الوداد فلوأشا منه ـ وحاشا ـ سلوةً يعصينى
ما كنت أحسب قبل طبعك أن أرى يوما عُطَارد ناطقا بفنون
حتى رأيتك فاستبنْتُ بأنه يروى أحاديث العلا بشجون
ويفيد سمعى معجزاً بهر النهى ويُرِى عيونى آية التكوين
يامن غدا يحيي القلوب بلفظه ويردِّدُ الأنفاس عن جِبْرِينِ[2]
أحييتَ بالوَحْيِ المبينِ قلوبنَا وحْىٌ ـ لعَمر الله ـ جدٌّ مبين[3]
هذى دمشق، لعمرخُلْقِك، روضةٌ قد جاد طبعك دَوْحَهَا بمعين
قد زارها غيث الندى فبَهَارها أضحى يلوح بحُلّة النّسْرِين

(١) فى ا «أزمعت على العود».

(٢) جبرين: إحدى اللغات فى «جبريل» ملك الوحي، عليه السلام!

(٣) فى ا، ب «وحلي لعمر الله جد مبين» محرفا.

لو لم تكن بدراً لما أحرزت ما ... قد خص فى الأنوار بالتلوين
حققْتَ ما قد قيل حين حللتها ... إن المكان مُشَرَّفٌ بمَكِينِ (١)
هى غادة حَلَّيْتَهَا فتزينت ... ما كان أحْوَجَهَا إلى التزيين
مولاى أحمدُ يا سليلَ بنى العلا ... يا فوق مدحى فيك أو تحسينى
أغنى وجودك وهو عين الدِّين عن ... عَلَّامة الدنيا لسانِ الدين (٢)
أُنظره تستغنى به عن غيره ... و إلى العيان أُرغَبْ عن المظنون
تلقى علوم الناس فى أوراقهم ... وعلومه فى صدره المشحون
فبعلمه أُعبر كل بحر زاخر ... و بفهمه أُسبر غامض المخزون
و بحلمه أُرغب عن تحلم أحنف ... و بعزمه أُصحب بأس ليث عرين
لما رأيتك فاستقمت لقبلتى ... أدعو وأشكر واردات شؤنى
ألفيت قطرك يَمْنَتِى فأفادنى ... فضل اليمين على اليسار يقينى
فسقى الحيا للمقَّرِىِّ أخى العلا ... بلداً بأقصى الغرب جدّ هتون
بلداً تبينتُ الهلال بأفقه ... ورأيت منه قرة لعيونى
لولا هلال الغرب نوّر شرقنا ... بتنا بليل الحَدْسِ والتخمين
يا راحلا رحل الفؤاد بعزمه ... رفقاً بقلب للوفاء ضمين
أستودع الله العظيم ، وإننى ... مستودِعٌ منه أجلَّ أمين
إنى أودع يوم بينك مهجتى ... وشبيبتى وتصبرى وسكونى
وأعود من توديع وجهك عَوْدَةً ... خلطت يقينى فى الهوى بظنون
حتى كأنى قد فقدت تمائما ... تقضى على بحالة المجنون
وتود نفسى أنها لو حرمت ... أبدا سكونى للهوى وركونى

(١) حققت : أثبت ، والمكين - بفتح الميم وكسر الكاف - الساكن فى المكان المستقر به ، يريد أنك قد أثبت مايقوله الناس من أن المكان يشرف بساكنه .
(٢) أراد لسان الدين بن الخطيب ، وفى البيت تورية مليحة

أوشكت أقتل بين معترك الهوى ... نفسى ومعترك الهـــوى بيمينى
ولقـــد وددت بأننى متحمل ... تلك الخطا بمحاجرى وجفونى[(١)]
كيف السبيل إلى الحياة ومهجتى ... فى قبضة الأشواق كالمسجون
ما أنت إلا البـدر لاح بأفقنا ... شهراً وكان ضياؤه يهـدينى
وإليكها يا شيخ دهرى غادة ... غنيت عن التحسين والتزيين
جاءتك تعرض فى الوداد كمالها ... وإذا لحظت جمالها يكفينى
هى بنت لحظتك التى تؤوى النهى ... لا بنت ليلـتى التى تؤوينى
ما الفخر فى دعوى البديهة عندها ... الفخـــر قولك إنها ترضينى
حسبى أبا العباس منك إصاخة ... تقضى بموت عِدَاىَ أو تُحْيينى
يا لهف نفسى كيف أبلغ مدحة ... أضمرتها فى سِرِّىَ المكنون
فلسان حبى بالغ أقصى المـدى ... ولسان مدحى فى القصور يلينى
ما الشعر يستوفى حقوقكم ولو ... أهديت من نظمى عقود سنينى[(٢)]
حَلَّقْتُ أصطاد النجومَ ، وإنها ... تزهو بعِقْدٍ فى عــلاك ثمين[(٣)]
فرأيتُ فى العَيُّوق طبعك سيدى ... نَسْرًا أسَفَّ لعجزه شاهيـــنى
قد خف شعرى من قصورطبيعتى ... ولربما قد كان جِـدَّ ركين
يكفيك أحمد يا ابن شاهين بأن ... أحرزت خَصْلَ السبق دون الدون
وإذا عجزت عن الفرائض جاهداً ... فادأب عساك تفوز بالمسنون
هو قبلـتى فلأغتدى متمسكا ... منه بحبـــل فى النجاة متين
واسلم فديتك زائراً ومشرفاً ... أفدى مواطئ نعـلِهِ بجبينى
وكذلك عمرى فى هواك مُقَسَّم ... بين الدعاء الجـد والتأمين

(١) فى ا « بأننى متجمل » محرفا
(٢) فى ا « يستوفى حقوقك لى ولو * أهديت فى نظمى »
(٣) فى ا « تزهى بعقد »

وقال حفظه الله تعالى فى ذلك :

حنانيك إن الدمع بالود مُعْرِبُ ... وإنیَ فى شرق وأنت مغرب (١)
ورُحْماك بى إنى قتيـل صبابة ... بمن هو أوفى فى الفـؤاد وأنجب
ووعدك لى بالعَـوْد إنى معلل ... به مهجة قد أوشكت تتصوّب
وهبتك قلبى ما حييت ولم أقل ... (ولـكن من الأشياء ماليس يوهب) (٢)
فلو كنت شيخاً واحداً هدّ صده ... فـكيف بشيخ لم يكن مثله أب (٣)
وإنا بحمد الله لما خصصتنا ... بزورة ذى ودٍّ دعاه التحبب
فرشنا له منا الخـدود مواطئاً ... وعدنا به شـوقا نجىء ونذهب
وقلنا دمشق أنت فيها محكم ... وأشرافها ودوا وجدّوا وأوجبوا (٤)
وأنت لهـا روح ومولى ومفخـر ... وقد زنت شرقاً مثل ماازدان مغرب
وفخرا عظيما يا ابن شاهين إنه ... غدا وكرنا نسر السما فيه يرغب
فنحن ، ونحن الناس ، خدام نعله ... فلاغرو أن يقلى الغَضَنْفَرَ أكْلُبُ
وما نقموا منه سـوى أنه أمرؤ ... ليأكل فيما قدروه ويشرب
هو الشيخ شيخ الدهر أحمد من غدت ... دمشق ومن فيها بعلياه تخطب
هو المقَّرِىُّ العـالم العـلم الذى ... إليه تناهى الفضل والمجد ينسب
وما هو إلا الشمس أزمع رحـلة ... وإنا لفى ليـل إذا هى تغرب
أو الغيث قد وافى فأمرعَتِ النهى ... به وانثنى والصـدر بالود مُعْشِبُ
أو الطائر العنـقاء جاء مشرقاً ... فأغرب والعنقاء فى الطير مغرب (٥)
[وإنك لَلْخِـلُّ الوفىُّ وإنه ... هو الواحد المطلوب إن عز مطلب] (٦)

(١) في ا « حنانك إن الدمع » (٢) عجز هذا البيت عجز بيت من قصيدة للمتنبي يمدح فيها كافوراً ، وصدر البيت من شعر المتنبى قوله * ولو جاز أن يحووا علاك وهبتها *
(٣) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « فلو كنت شيخا واحداً مد صدره »
(٤) فى ا « ودوا وجدوا ورحبوا »
(٥) أخذ معنى هذا البيت من قولهم « عنقاء مغرب » (٦) سقط هذا البيت من ا

وإنك بالتحقيق فى كل حالة لأسنى وأندى ثم أوفى وأغرب
رعى الله وجهاً رُحْتَ ترغب نحوه وأى أخى جِدٍّ له أنت ترغب(١)
وحيّاً الحيا أرضاً وطئت ترابها فأصبح مسكا وهى بالمجد تخصب(٢)
ولا فارقت يوماً علاك كلاءة من الله أنّى كنتَ والله أغلب
مدى الدهر ما حنت جوانح والهٍ مشوق فأمسى للحقيقة يطرب

ولما قرأ على ــ أدام الله تعالى عزته ، وحرس حَوْزته !ــ عقيدتى المسماه « بإضاءة الدجنة ، فى عقائد أهل السنة » سألنى أن أجيزه فيها وفى غيرها ، فكتبت إليه(٣) بما نصه :

أحمد من أطار فى جوّ العلا صيت ابن شاهين الذى زان الحِلَى
وراش منه للمعالى أجنحَهْ نال بها فضلا غدا مستمنِحَه
وأسكن البيان من أوكار أفهامه بقُنَّة الأفكار(٤)
فاصطاد كل شارد بمِخْلَبِ أبحاثه ومن يُعارض يُغْلَب
والصقر لا يقاس بالبَغاث والحق ممتاز عن الأضغاث
نشكر من بلغه مُناه على نواله الذى سناه
ونتحِى نهج صلاة باديا لخير من جاء الأنام هاديا
مبيناً دلائلَ التوحيد ومُوضِحاً طرائق التسديد
محمدٍ خير البرايا المنتقى أجل من خاف الإله واتقى
صلى عليه الله مع أصحابه وآله الراوين عن سَحَابه
ما اعترف العبد الفقير ذو العدم للربِّ باستغنائه وبالقدم
وبعد ، فالعلوم والعوارف مَنْ أمَّها يأوى لظل وارف
وروضة أزهارها تضوَّعَتْ لأنها أفنانها تنوعَتْ
وليس يحتاط بها نبيل إذ ذاك أمر ماله سبيل

(١) فى « رعى الله وجها أنت ترغب نحوه » . (٢) فى ب « بالمجد تخضب »
(٣) فى ا « فكتبت له »
(٤) أصل القنة كالقلة أعلى الجبل ، وفى ا « بقبة الأفكار »

فلْيصرف القول إلى ما ينفعه ... دنيا وفى أوج الأجور يرفعه
وإن فى علم أصول الدين ... هدى وخيراً جُلَّ عن تبيين
لأنه أصل يعم النفعُ ... به وكلٌّ ما سواه فرع
وكيف يَعْبُدُ الإله من لا ... يعرفه وعن رشاد ضلا
فهو الذى لا تقبل الأعمال ... إلا به وتنجح الآمال
وإننى كنت نظمت فيه ... لطالب عقيدةً تكفيه
سميتها « إضاءة الدجنة » ... وقد رجوت أن تكون جُنَّة
وبعد أن أقرأتها بمصر ... ومكة بعضاً منَ أُهل العصر
درستها لما دخلت الشاما ... بجامع فى الحُسْنِ لا يُسَامى
وكان فى المجلس جمع وافر ... من جلة بُدورُهم سوافر
منهم فريد الدهر ذو المعالى ... فخر دمشق الطيب الفعال
أحمد من راح لعلم واغتدى ... وشام أنوار الفهوم فاهتدى(١)
العالم الصدر الأجل المولى ... مَنْ وصفه الممدوح يُعْيِي القولا
وهو ابن شاهين وما أدراكا ... من بذ جنس العرب والأتراكا
ورام من مثلى بحسن الظن ... إجازة فيما رواه عنى
فحرت فى أمرين قد تناقضا ... بالنفى والإثبات إذ تعارضا
ترك الإجابة لوصفى بالخطل ... وبالخطا والجِيدُ منى ذو عَطَلْ(٢)
وكم فرائض بعجزٍ تسقط ... فكيف غيرها وهذا أحوط
أو فعلها بحسب الإمكان ... رَعْياً لود محكم الأركان
منه وماله من الحقوق ... ولا يُجَازى البر بالعقوق

---

(١) فى ا « وشام أنوارا لفهم فاهتدي »
(٢) فى ا « والجيد من در عطل »

وبعد ما مر من الترداد أسعفته بمقتضى الوداد
وسرت فى طرق من التساهل معترفا بالجهل لا التجاهل
مع أنه الأهل لأن يجيزا لاأن يجاز إذ حوى التبريزا(١)
ومن رأى عيبى بعين للرضا لم يَقْفُ نَهْجَ من غدا معترضا
فليروعنى كل ما أسمعته إياه بالشرط وما جمعته
مع القصور راجيا للأجر من الفنون نَظْمِهاَ والنثر
كهذه القصيدة السديدة والنعل ذات المدح العديده
كذاك ما ألفت فى عمامه من خص بالإسراء والإمامه
والفقه والحديث والنحو وفى أسرار وَفْقٍ وهو بالقصد وفى
وغيرها مما به الوهاب مَنّْ على فقير عاجز فى غير فن
وما أخذت فى بلاد المغرب عن كل فَذٍّ فى العلوم مُغْرِبِ
ولى أسانيد إذا سردتها طالت وفى كتبىَ قد أوردتها
وقد أخذت الجامع الصحيحا وغيره عمن حوى الترجيحا
عمى سعيد عن سُقَين وهو عن الْقَلْقَشَنْدِى عن الواعى السنن
العسقلانى الشهاب بن حَجَرْ بماله من الروايات اشتهر
وقد أجزته بكل مالى يصحُّ من ذاك بلا احتمال
على شروط قرروها كافيه ليست على أفكاره بخافيه
وقال، هذا المقَّرِىُّ الخطَّا والعِىُّ عَمَّ لَفظَهُ والخَطَّا(٢)
عام ثلاثين وألف بعدها سبع أتمت فى السنين عدها

(١) فى ا « مع أنه أهل لأن يجيزا »
(٢) المقرى الخطا : صيغة مبالغة من الخطأ الذى هو ضد الصواب ، وأصله « الخطاء » فقصره حين اضطر ، وقوله « والخطا » فى آخر البيت معطوف على « لفظه » يريد أن خطه غير واضح بين

وكان ذا فى رمضان السامى — بحضرة السعد دمشق الشام
والله نرجو أن يتيح الختما — بالخير كى نُعْطَى القبول حتما
بجاه خير العالمين أحمدا — صلى عليه الله ما طال الْمَدَى
وآله وصحبه ومن زكا — فنال من حسن الختام مدركا

وتذكرت بهذه الإجازة نظيرتهَا التى سألنى فيها مولانا عينُ الأعيان ، مفتى الأنام فى مذهب النعمان، مولانا الشيخ عبدالرحمن العِماَدى مفتى الشام ـ حفظه الله تعالى! ـ لأولاده الثلاثة ، وكتب لى أصغرهم سنا استدعاء لذلك :

أحمد من شَيَّدَ بالإسناد — بيت العلوم السامىَ العماد
وعم من خصص بالروايه — بنورها النافى دجى الغوايه
وزان صدر النبها كل زمن — بجوهر الإجازة الغالى الثمن
نحمده سبحانه أن عرّفا — من الحديث ما به قد شرفا
ونسأل المزيد من صَلاَته — لمن أتيح القصد من صِلاَته
ملجؤنا المعصوم أعلى سند — لنا برغم جاحد مُفَنِّدِ
كهف الضعيف والقوى المرتجى — باب الهدايات وليس مُرْتَجاَ(١)
من جاءنا بالجامع الصحيح من — كلامه الهادى إلى نَهْجٍ أمن
مَنْ فضلُه ما شك فيه مسلم — من حبه بكل خير معلم
نبينا المرسل ذو الُخلق الحسن — والمعجز المفحم أرباب اللّسَنْ
محمد المرفوع قدره على — سائر خلق الله جل وعلا
صلى عليه ربنا وسلما — أزكى صلاة نتحيها معلما
مع آله وصحبه ومن روى — آثاره عن صحة وما غَوَى

---

(١) المرتجى فى صدر البيت اسم المفعول من الارتجاء بمعنى الرجاء أى المرجو المقصود ، والمرتج فى عجز البيت اسم المفعول من الإرتاج وهو الإغلاق

و بعد فالعلم عظيم القـدر وليس من يدرى كمن لا يدرى
ولم تزل همة أهل المجـد مَنُوطة بنيل علـم مُجْدِى
ومنه علم السنة الشريفهْ لأنه ظـلاله وَرِيفـهْ
فمن درى الأخبار والشمائل لم يك عن صَوْب الهدى بمائل
وكم سَمَيْدَع لأجله رفض أوطانَهُ وثوبَ ترحال نفض
وكيف لا وهو أجل ما طَلَبْ موفقٌ يروم حسنَ المنقلب
لأنه وسـيلة السعادة والعـز فى الإبداء والإعادة
وإننى لما انتحيت المشرقا ميمما بَدْرَ اهتـداء مشرقا
ألقيت فى مصر عصا التسيار بعـد بُلُوغِى أشرف الديار
و بعـد ذا جئت دمَشْقَ الشام مسكن من يزدان باحتشام
فشاهدت عيناى فيها ماملا قلبى سرورا إذ بلغت مأملا[1]
مدينـة فياضـة الأنهـار فضفاضة الأثواب بالأزهار
أرجاؤها زاكية العَبير ومدحها يجل عن تعبير
وجُلُّ أهليهـا بحبى دانوا مَعْ أن مثلى منهمُ يزدان
فلاحظوا بالأعين الكليلة عبداً غدا تقصـيره دليـله[2]
وقابلوا عَيْـبِى بمـا اقتضاه فضل لهم رَبُّ الورى ارتضاه
خصوصا المولى الكبير المعتبر قرة عينِ مَنْ رآه واختبر
مفتى الورى فى مذهب النعمان بهـا الوجيـه عابد الرحمن

---

(١) « ماملا » فى صدر البيت كلمتان أولاهما « ما » وهى موصولة بمعنى الذى وثانيتهما « ملا » وأصلها « ملأ » بالهمز فقلب الهمزة ألفا . و « مأملا » فى عجز البيت كلة واحدة ، وهى اسم مكان من الأمل

(٢) الأعين الكليلة : التى تغض عن العيوب ، أخذه من قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

ابن عماد الدين من تعيي القلم ... أوصافه اللاتى كنورٍ فى علم

حاوى طراف المجد والتِّلادِ ... نال المنى فى النفس والأولاد

وكنت فى مكة قد أبصرت ... منه علا عن مدحه قصرت

جـلالة ومحتداً وعلما ... ورفعـة وسودداً وحلما

مع التواضـع الذى قد زانه ... حسنُ اعتقاد مُثْقِـلٍ ميزانه

فحثَّ من فى الشام من أخيار ... لم يسلـكوا مناهج الأغيار

أن يأخذوا بعضَ الفنون عنى ... بمـا اقتضاه منه حسنُ الظن

مع أننى والله لست أهـلا ... لذاك ، والتصدير ليس سهلا

وكان من جملتهم أبناؤه ... عماد دين قد عـلا بناؤه

وصِنْوُه الشهاب من توقدا ... فهما و إبراهـيم سباق المدى

وهو الذى قد ابتغى الإجازة ... لهم بوَعْـدٍ طالباً إنجازه

وكَتَبَ القصيدة الطنانه ... فى ذاك لى مهتصرا أفنانه

و إنهـم لحلقة قد أفرغت ... دامت لهم آلاء فيض سوّغت

فلم أجـد بُدًّا من الإجابة ... مع كون جهلى سادلا حجابه

فقـد أجزتهم بما رويته ... طرا ، وما ارتجلت أَوْ روّيته

وكل ما صنفت فى الفنون ... مؤمّل التحقيق للظـنون

وما أخذت عن شيوخ المغرب ... وغيرهم من كل حَبْرٍ مُغْرِبِ

ولى أسانيـد يطول شرحها ... شِيدَ على تقوى الإله صرحها

ولو سَرَدْتُ كل مروياتى ... هنا لطال القول فى الأبيات

وكل طُولٍ غالباً ممـلول ... وحَدُّ من يُعْـنَى به مفلول(١)

فلنقتصر إذَنْ على القليل ... تبركا بالمطلب الجليل

وقد أخذت جامعَ البخارى ... عن عمى الحائز للفخار

---

(١) فى ا « وجد من يعنى به معلول »

المقرى سعيد الإمام عن ... محمد يدعى خروفاً حين عَنّ[١]
التونسىّ الطيب الأنفاس ... نزيل حضرة الملوك فاس
عن الكمال القادرىّ المرتضى ... عن الحجازىّ عن الحبر الرضا
نجل أبى المجد عن الحجارى ... عن الزبيدىّ بنقلٍ جارى
عن مسند الإسلام عبد الأول ... عن الشهير الداودى المعتلى
عن السرخسى عن الفِرَبْرِى ... عن البخارىّ الإمام الحبر
وفضله أظهر من أن يذكر ... وعلمه المعروف غير المنكر
ومسلم بِهِ إلى الكمال ... عن عَلَم الدين أخى الجلال
منسوب بَلْقِين عن التَّنُوخى ... عن ابن حمزة عن الشيوخ
كابن المقير عن ابن ناصر ... عن ابن مندةَ اللبيب القاصر
عن جَوْزَقىٍّ قد روى عن مكى ... عن مسلم نافِى دياجى الشك
فليخبروا عنى بذا والباقى ... من ستة حائزة السباق
كذا موطأ الإمام مالك ... إمامنا مُنِيرِ كل حالك
ومسند الفذ الرضا ابن حنبل ... والدارمىّ ذى الثناء الأجمل
والطبرانىّ وما أرويه ... من المعاجيم بما تحويه[٢]
وكلها تشمله الإجازة ... بشرطها عند الذى أجازه
فلتقبلوه فهى من جَهْد المُقِلّ ... إذ لست بالمطلوب منى أستقل
ومن أسانيدى عن القصَّار ... مفتى الأنام بهجة الأعصار
عن شيخه خروفٍ الراقى الدرج ... عن الشريف الطحطحانى فرج
قال : سمعت المصطفى فى النوم ... صلى عليه الله كل يوم

(١) كذا فى ا على الصواب ، ووقع فى ب « يدعي حريفا »
(٢) فى ا « من المعاجم » بغير ياء على أصل جمع معجم

يقول : مَنْ أصبح ، يعنى آمناً فى سربه، الحديثَ فاعرف كامنا
ولنمسك العنان فى هذا الأرب مصلياً على الذى زان العرب
وآله وصحبه الأعلام ومن تلا من أنجم الإسلام
وخط هذا المقَّرِىُّ العاصى أجير يوم الأخذ بالنواصى
سنة سبع وثلاثين تلت ألفاً لهجرة بياسين عَلَتْ
عليه أزكى صلوات تستتم نرجو بها الزلفى وحسن المختتم

ونص الاستدعاء المشار إليه هو :

فازت دمشق الشام بالمَقَّرِى الألمعىِّ اللوذعى العبقرى
علامة العصر بلا مفترى وواحد الدهر بلا ممترى
كم سَمِعَتْ أخبار أوصافه فقصر المخبر عن منظر
جامع علم بثَّ إملاءه بالشام ملء الجامع الأكبر
يقرى فتقرى السمع أنفاسه أنفس ما يقرى وما قد قرى
مولاى يا من دُرُّ ألفاظه صحاحها تزرى على الجوهر
إجازة نَرْفل من فضلها فى ثوب عز ورِدَا مَفْخَرِ (1)
مسبلة الذيل على أكبر وأوسط الإخوة والأصغر
أطل لنا إنشاءها بل أطب وانظم لنا من درها وانْثُرِ
لا زلت فى نفع الورى دائباً تجود جَوْدَ العارض الممطر

العبد الداعى إبراهيم العمادى ، انتهى .

ومن الإجازات التى قلتها بدمشق الشام ما كتبته للأديب الحسيب سيدى يحيى المحاسنى حفظه الله تعالى :

---

(١) نرفل : أراد نزهو بها على القرناء ، وأصل « رفل فلان فى ثوبه » بمعنى جره مختالا به . والردا ـ بكسر الراء ـ أصله الرداء ، بمعنى الثوب ، فقصره حين اضطر

أحمد من زين بالمحاسن دمشق ذات الماء غير الآسن
وأطلع النجوم من أعيان بأفقها السامى مدى الأحيان
فكل أيامهمُ مواسمُ من الصفا ثغورُها بَوَاسم
وذكرهم قد شاع بين الأحيا إذ قَطْرهم به الكمالُ يَحْيا
وبشرهم حديثه لا ينكر ومسند الجامع عنهم يذكر
وقد حكت جوارح الذى ارتحل إليهمُ صحيح ماله انتحل
فسمعه عن جابر، والعين عن قُرَّة تروى، واللسان عن حسن
فحل من أتاحهم آلاءه حتى أبان نورهم لألاءه
نحمده سبحانه أن أسدى من الأمان ما أنال القَصْدَا
ونتنحى صوب صلاة باهرهْ إلى الرسول ذى السجايا الطاهرهْ
أجلِّ من خاف الإله واتقى محمد الهادى الرسول المنتقى
صلى عليه الله طولَ الأبدِ مع آله وصحبه والمقتدى
وبعد، فالعلم أساس الخير وكيف لا وهو مُزِيحُ الضير
وهو مُوَصل إلى منهاج هُدًى ورشدٍ ماله من هاجى[1]
وما بغير العلم يبدو العلم وليس من يدرى كمن لا يعلم
خصوصاً الحديثَ عن خير البشر فإن فضله على الكل انتشر
ولم يزل يعنى به كلَّ زمن من الرواة كلُّ صدر مؤتمن
وإننى عند دخول الشام لقيت من بها من الأعلام
وشاهدت عيناى من إنصافهم ما حقق المحكى عن أوصافهم
وإن من جملتهم أوج الذكا والنير المزرى سناه بذكا[2]

(١) الهاجى : القادح الذم

(٢) فى ا «وإن من جلتهم» وهى أحسن ، والمزرى : المنتقص، وذكا : اسم الشمس وأصله ذكاء ، بالمد ، فقصره

ابن المحاسن الذى قد طابقا
منه مسمى الاسم إذ تسابقا
اللوذعىُّ الألمعىُّ يحيـــى
لا زال رسم المجد منـه يحيا
وهو الذى أغراه حسن الظن
على انتمائه لأخــذٍ عنى
وكان قارىء الحديث النبوى
لدىَّ فى الجامع ، أعنى الأموى
بمحضر الجمع الغزير الوافر
ممن وجوه فضلهم سوافر
و بعد ذاك استمطر الإجازة
من نوْء وعدى واقتضى إنجازه[(١)]
فلم أجد بدًّا من الإجابة
مع أننى لست بذى النجابه
و إن أكن أجَبْتُ أمراً يمتثل
منه ففى ذلك تصديق المثل
فيمن درى شيئا وغابت أشيا
عنه ومن أهدى لصَنْعاَ وَشْياَ[(٢)]
فليروعَنِّى كل ما يصح لى
بشرطه الذى يزين كالحلى
وقد أخذت جامع البخارى
عن عمِّىَ الإمامِ ذى الفخار
سعيد الذى نأى عن دَنَسِ
عن شيخه الحبر الشهير التَّنَسى
أعنى أبا عبد الإله وهو عن
والده محمــدٍ راوى السنن
عن ابن مرزوق محمد الرضا
عن جده الخطيب عن بدر أضا
الفارقىّ عن إمام يُدْعَى
بابن عساكر الجميل المسعى
بماله من الروايات التى
على علوّ قدره قد دَلّتِ
وليروعَنِّى ما انتمى للنووى
بذا إلى السابق ذى النهج السوى
أعنى ابنَ مرزوق الخطيب الراوى
عن شيخه يحيى الرضى المغراوى
وهو روَى عن صاحب التمكين
النووىِّ الشيخ محيى الدين
وخط هذا أحمد البادى الوجل
المقرى المالكى على خجل[(٣)]

(١) فى ا « واقتضى انتجازه »
(٢) يشير إلى قول أبى نواس * حفظت شيئا وغابت عنك أشياء * وإلى قولهم « كمهدى الوشى إلى صنعاء » وصنعاء من البلاد المشهورة بالنسج الدقيق
(٣) فى ا « المقرى المالكى الذى ارتجل »

في عام ألف وثلاثين خلت من هجرة الهادى وسبعة تلت
ألبسه الله البرود الضافية من مَنِّهِ وعفوه والعافيه
بجاه سيد البرايا طُرّا ملجأ مَنْ إلى الكروب اضطُرا
عليه أسنى صلوات تُسْدِى حسن الختام ببلوغ القصد

وسأل منى بعض ساكنى دمشق المحروسة أن أقرظ له على شرحه لرسالة العارف بالله تعالى سيدى الشيخ أرسلان ، فكتبت ماصورته :

أحمد من خصص بالأسرار قدما من الصوفية الأبرار
أتاحهم عوارف المعارف والحِكَم السابغة المطارف
فهم بهم تُسْتَمطر الأنواء وتظهر الأنوار والأضواء
ومن أجلِّهم سناء وسَنَى من ذاد عن عين المعالى الوسنا[1]
شيخ الشيوخ العارف الكبير الشيخ أرسلانٌ الشهيرُ
فكم إشارات له أبانا بها علوما من حُلاَها ازدانا
وكم عبارات تلا آياتها تَعيا الفحولُ عن مدى غاياتها
ومن رأى رسالة التوحيد له انتحى مناهجَ التسديد
فهى تنادى مَنْ أبى أن يسلكا يا معرضا شِرْكٌ خفيٌّ كلُّكا
ومن أضل القصد فى مَهَامِهِ هدته للخروج عن أوهامه
وكم بها من باب معنى مغلقْ عمن يقيد الوجودَ المطلقْ
فما بغير الفتح يُدْرَى الباطن وواردُ الفيضِ له مواطن
وقد رأيت فى دمشق الشام شرحا لها أنبأ عن إلهام
للكلشنيِّ ذى الوفا بالوعد شمس العلا محمد بن سعد

---

(١) السناء – بالمد – الشرف والرفعة ، والسنى – بالقصر – النور وفى التنزيل (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) والوسن : النوم

لازال فى أَوْجِ التجلى صاعدا وعون ربنا له مساعدا[1]
ومذ أجلت ناظرى فى حسنه ألفيته مستبدعا فى فنه
ودلَّ ما أبداه من معانى على شهود بالهدى مُعَانى
لأنه أجاد فى تقرير ما اعتاص بالإتقان والتحرير
وأبرز الأبكار من خدور أفكارِهِ حاليةَ الصدور
فالله يجزيه الجزاء الأوفى فى يوم تبدى الأنبياء الخوفا[2]
وخَطَّ هذا المقَّرِئُ من وجل مرتجيا من ربه عز وجل
كشف كروب عقدصبرحُلت منه وغفران ذنوب جلت
بجاه طه الهاشمى أحمدا عليه أزكى صلوات سرمدا
عاطرة النشر بلا اكتتام تأرجت بالمسك فى الختام

وخاطبنى السرى الحسيب الماجد فخر المدرسين الأعيان مولانا الشمس محمد بن الكبير الشهير مولانا يوسف بن كريم الدين الدمشقى حفظه الله تعالى بقوله :

شمسَ المحاسن شَرقِىٍ أو غربى سعدَتْ منازلنا بشمس المغرب
شمس لنا منها شموسُ فضائلٍ وسنى هدى قد راح غير مُحَجَّبِ
المقَّرِئُ العالم النَّدْب الذى لسوى اسمه دَرْجُ الحجا لم يكتب
بدر ولم تبد البدور بمشرق إلا بدت من قبل ذاك بمغرب
لسوى اكتساب سناه لم تغرب ذُكَا فَلَوَ أنها شعرت به لم تغرب
عَلاَّمة ملأ البلاد بفضله وأفاده لمشرِّقٍ ومغـرِّب
عمرى هو البحر المحيط فضائلا إن قيس بالعذب الذى لم يعذب
مولى له سَنَدٌ قوىٌّ فى العلا فعن الجدود روى العلا وعن الأب

---

(١) فى نسخة عند ا « أوج التحلى » بالحاء المهملة
(٢) فى أصل ا « تبدى الأنهياء » وأحسبه محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ب

نسب له المجد المؤثَّلُ فى الورى والمجد لم يكسب إذا لم يوهب
هو فى جبين الفضل أضحى غرةً يُجْلَى بها للجهل ظلمة غَيْهَبِ
آمالنا قَطَعَتْ ببشر جبينه أن لا ترى للدهر وجه مُقَطب(١)
بدر به زهيت دمشق وأهلها أحْبِبْ ببدر حيث حل مُحَبَّبِ
طَوْد الفضائل باكرت أرجاءه دِيَمُ الحجا فغدا كروض مُخْصِبِ(٢)
بحر الهدى والعلم إلا أنه صفو من الأكدار عذب المشرب
هو قطب دائرة الفضائل فى الورى فيكاد يخبرنا بكل مغيب
فى الفضل ما جاولت يوما مثله كَلاَّ ولا قست البدور بكوكب
أنى يُجَارَى فى الفضائل من له انـــقاد الزمان بأدهم وبأشهب(٣)
سنن لمدح الغير تسقط عندنا فله العلا تقضى بفرض أوجب
ما روضة حَلّى أزاهرها الحيا فافتر فيها كل ثغر أشنب
ومَشَتْ بها خود الصبا فتعطرت أذيالها من كل عَرْف طيب
للنور فيها جدول أخذت به شهب المجرة حيرة المتعجب
باتت تناشدنى بها ذكر الهوى وُرْقُ الأراك بكل صوت مطرب
تشكو إلىَّ بمثل ما أشكو لها شكوى المعذَّبِ فى الهوى لمعذب
فعلمت ما قد حل من وجد بها وجهلن، وهو الفرق، ماقدحَلَّ بى
لم تلق فيها من عليل يشتكى إلا النسيم وذا الهوى إن تطلب
بأغض حسنا مِنْ ربا آداب مَنْ حَيَّا رياض حِجَاه ألطفُ صيب
طبع أرق من النسيم ومنطق مستعذب ، وكذاك كل مهذب
لو جاد صوبُ حجاه قفرًا مجدبا لنعمت منه بكل روض مُعْشِبِ

(١) المقطب : اسم الفاعل من قولهم « قطب فلان وجهه » إذا عبس وكلح
(٢) الديم — بكسر الدال وفتح اليـاء — جمع ديمة ، وهى المطر الدائم من غير رعد ولا برق ، والحجا : العقل
(٣) أصل الأدهم الأسود وأراد به الليل ، وأصل الأشهب الذى يخالطه بياض ، وأراد به النهار

مولاى عذراً فالزمان يَعُوقنى ... عن مطلبى والآن مدحك مطلبى
عَفواً إذا أخَّرت مدحك سيدى ... فَعَوَائق الأيام عُذْرُ المذنب
وكذاك يفعل بالأديب زمانهُ ... فَلِذَا يطول على الزمان تعتُّبِى
لم ألق يوما من يديه مهربا ... إلا ثناك ، وحبذا من مهرب
لولاك ماجال القريضُ بخاطرى ... فالدهر يوجب للقريض تجنُّبِى
لولاك لم ينهض جواد قريحتى ... فى كل واد للضلالة متعب[1]
فاسمع ، ولست بآمر ، نظما غدا ... فى عقد مدحك لؤلؤا لم يُثْقَبِ
كالراح يلعب بالعقول للطفه ... لكن بغير مسامع لم يشرب
من كل قافية غدت من حسنها ... مَثَلاً لغيرك فى العلا لم يضرب
خود تَقَلَّدُ من ثناك قلائدا ... بكر لغيرك فى الورى لم تُخْطَب
غنيت بمدحك زينة ولربما ... يغنى الجمال عن الوشاح المذهب
هى بعض أوصافٍ لذاتك قد غدت ... كالبحر عَذْباً ماؤه لم ينضب
جاءتك تسألك القبول وحَسْبُها ... فخرا قبولك وهو جُلُّ المطلب
وتروم منك إجازة فاقت بما ... ترويه بالسند القوى عن النبى
حسبى الإجازة منك جائزة ولم ... أك قبل غير الفضل بالمتطلب
لا بدع والإيجاز إطنابا غدا ... فى مدحه إن لم أطل أو أسهب[2]
هيهات لا تحصى مآثر فضله ... بالمدح إن أطنب وإن لم أطنب

خدمة الداعى محمد بن يوسف الكريمى ، انتهى .

فأجزته بما [صورته و] نصه :

أحمد مَنْ أطلع شمس الدين ... فى أفق الرواية المبين

---

(١) فى ا « من كل واد للضلالة متعب »

(٢) فى ا « لابدع والإطناب إيجازاً غدا» وهى أحسن معنى .

وخص فضلا منه بالإسناد أمَّةَ طه مذهب العناد[١]

فلم يكن عصر من الأعصار إلا وفيه أهل الِاسْتِبْصَارِ

ينفون عن حَوْزة دين الله ما يروم مَنْ عليه رشد أبهما

وأنتحى سبل صلاة كامله على الذى له العطايا الشامله

محمد المرسل بالشرع الحسن ذو المعجز المفحم أربابَ اللسن

مع حزبه من صحبه وعِتْرَته ومن تلا مؤملا لأثرته

وبعد فالعلم أجل ما اعْتَمَدْ موفق من فيض مولاه استمد

خصوصا الحديثَ عن خير الورى صلى عليه الله ما زَنْدٌ وَرَى

ولم يزل ذوو النهى يسعون فى تحصيله إذ فضله غير خفى

وإن مولانا الشهير السامى الماجد المولى نبيهَ الشام

سالك نهج السنة القويم محمد بن يوسف الكريمى

لا زال فى عز وفى أمان مُبَلَّغاً من قصده الأمانى

وَجَّهَ لى لما حللت الشاما وبَرْقَ حسن الظن منى شاما[٢]

قصيدةً بليغة مستعذبه غريبة فى فنها مهذبه

يسأل من مثلى بها الإجازه بشرطها عند الذى أجازه

مستمسكا بعُرْوَة الصواب ولم أجد بدًّا من الجواب

فَلْيَرْوِ عنى ما سمعت كله وما جمعت فى الفنون جمله

على شروط قررت فى الفن مرتجياً حصولَ كل منّ

وصنوه الأكمل قد أبحته ذاك على الوجه الذى شرحته

وإن أكن فيما أبتغى مقصرا فذو الرضا ليس لعيب مبصرا

---

(١) فى ا « أمة طه منهب العناد »

(٢) شام : نظر ، ومفعوله « برق حسن الظن » تقدم عليه

ولى أسانيد أبى وقتىَ عن | تفصيلها لما من الرحلة عَنّْ
والعذر بادٍ والكريم يقْبَلُ | والصفح نَهْجٌ يقتفيه الأنبل
وخَطّ هـذا المقَّرِىُّ الجانى | أمنه الله من الأشجان
فى عام ألف وثلاثين قفا | سبعاً لهجرة النبى المصطفى
عليه أزكى صلوات تُغْتَنَمْ | يزكو بها مفتتح ومختتم (١)

الشيخ محمد المحاسنى يستجيز المؤلف

وكتب إلى الفاضل الخطيب ، الفهامة الأديب ، وارث الفضل عن الأعلام ذوى اللَّسَنِ ، سيدى الشمس محمد المحاسنى سبط شيخ الإسلام مولانا البوريني حسن ، حفظه الله تعالى [بقوله] :

ياسيدى ومَلاَذى | وعالم الثقلين
ومن غدا بمكان | علا على النَّيِّرَيْنِ (٢)
أجَزْتَ بالدرس قوما | فاقوا به الفرقدين
فزيِّنِ العبد أيضاً | من مثل ذاك بزين
وإن لم يكن فى ختام | فذاك قُرَّةُ عينى

جواب المؤلف

فأجزته بمانصه :

أحمد من أطلع من محاسن | دمشق ما أربَى على المحاسن
وزانها بالجِلَّةِ الأعيان | الرافلين فى حلى التبيان
الراغبين فى الحديث النبوى | السالكين فى الهُدَى النهجَ السوى
وبعد فالعلم أجل زينه | وسبله فى الرشد مستبينه
وإن علم السنة الشريفه | ظلاله ضافية وريفه
لذاك كان باعتناء أجدرا | من كل مايمليه من تصدرا (٣)

(١) فى « ا يزكو بها مبتدأ ومختتم »
(٢) فى ا « علا أعلى النيرين » ولا يستقيم عليه الوزن
(٣) فى ا « من كل ما يميل من تصدرا » وليس بشىء .

وإن ذا الفضل الأديب البارع سابق ميدان الذكا المسارع
الماجد المسدَّد السامى الحسب محمد مَنْ للمحاسن انتسب
ابن الشهير الصدر تاج الدين لازال فى عز وفى تمكين
وجده لأمه الشيخ الحسن وذاك بُورينيهم مُعْطَى اللسن
يسألنى إجازة بكل ما أرويه عنواناً بحالى معلما
وها أنا أجبته غير بطل مستغفراً من خطإٍ ومن خطل
فَلْيَرْوِ عنى كل مايصح على شروط غيثها يسح
وهى عن الشروط لن تريما وليس يخفى علمه الكريما
وكل ماألفت أو جمعت نظماً ونثراً مثل ما أسمعت
ولى أسانيد يضيق الوقتُ عن سَرْدِهاَ و بعضها قد سقت
فى غير هذا فَلْيُحَقِّقْ ذلك مقتفياً لأوضح المسالك
وقد أخذت جامع البخارى ومسلم عن حائز الفخار
عمى سعيد وهو عمن يدعى بالتَّنَسِيِّ قد أفاد الجمعا
عن حافظ الغرب الرضا أبيه عن ابن مرزوق عن النبيه
الحافظ المبجَّلِ العراقى وقد سما فى سلم المراقى
وما له من الروايات علم من كتبه التى حوت خَيْرَ الكلم
وخَطّ هذا المَقَّرِيُّ عن عجل مؤملا من ربه عز وجل
غفران ماجنى من الذنوب والصفحَ عن مَعَرَّةِ العيوب
بجاه خير العالمين أحمدا صلى عليه الله دأباً سرمدا
وآله وصحبه الأخيار ومن تلا لآخر الأعصار

ولما سألنى فى الإجازة الفاضل الأديب[1] سيدى محمد بن على بن مولانا عالم الشام

---

(١) فى ا « الأريب »

إجازته للشيخ محمد بن على القارى

الشهير الذكر شيخ الإسلام سيدى ومولاى الشيخ عمر القارى – حفظه الله تعالى! – وأنا مستوفز للسفر؛ كتبت له عن عجل ما صورته :

أحمد من زين بالآثار	جِيداً من الراوى النبيه القارى
وشاد للعلياء فى أوج السند	منازلا لم يُبْلِهَا طولُ الأمد
وميز الواعين للحديث	بالفضل فى القديم والحديث
وزان منهمُ سماء الدين	فأشرقت بالحفظ والتبيين
فَهُمْ بها للمهتدى نجوم	وإنها للمعتدى رُجُوم[(١)]
فكم أزاحوا عن حديث المجتبىَ	صلى عليه الله ما هبت صَبَا
تحريف ذى غل مضل غالى	شانٍ لمنهاج الرشاد قالى[(٢)]
وبعد فالإسناد للروايه	وسيلة تزحزح الغوايه
والله قد خصص هذى الأمّه	به امتنانا وأزاح الغُمَّهْ
هذا ولولا ذاك قال من شا	ما شاءه فهو بحق مَنْشَا
فلم يزل أهلُ النهى كل زمن	يسعون فى تحصيله عن مؤتمن
وإن من جملة من تحَرّى	لجملة من العلوم غَرّا[(٣)]
الفاضل المسدد النجيب	الواصل المجد الأريب
محمد سليل ذى المجد على	ابن الإمام العالم الحبر الولى
عمر الشيخ الشهير القارى	طود السكون هَضْبَة الوقار
شيخ الشيوخ فى دمشق الشام	لازال مَحْفوفاً بعز سامى
فكان من جملة من عَنِّى روى	بعض الصحيح ظافرا بما نوى

---

(١) فى ا « منهم بها للمهتدى نجوم »

(٢) شان : مبغض ، ومثله القالى ، وأصل « شان » شانىء اسم فاعل من شنئته أشنؤه ، أي أبغضته وكرهته .

(٣) فى ا « ومن بسبق للعلوم غرا »

وبعد ذاك اقترح الإجازة منى ووَعْدَهَا اقتضى إنجازه
فانعجمت نفسى عن الإجابة إذ لست فى ذا الأمر ذا نجابه
مع أننى مقصر ذوعىٍّ فى مثل هـذا المطلب المرعى
وخفت أن آتيها شنـعاء بحملىَ الوشى إلى صنعاء
وبعد ذا أجبت قصد الأجر مرتجياً بذاك ربح التَّجْر(١)
وقد أجبته وإنى أعلم أنى من خوف الخطا لا أسلم
فليروها ببالغ التمنى جميـع ما يصح لى وعنى
من ذلك الجامعُ للبخارى عن عمىَ الشهير ذى الفخار
سعيد الآخـذ عن سقين عن قلقشندىٍّ مزيح المين
عن حافظ الإسلام أعنى ابن حجر بمـاله من الروايات اشتهر
وبعضها فى صدر فتح البارى مُبَيَّنٌ لطالب الأخبار
ولى أسانيد يطول شرحها والروضة الغناء يكفى نَفْحُها(٢)
ومن رواياتى عن القَصَّار مفتى البرايا بهجة الأعصار
حدثنا خروف الذاكى الأرج عن الشريف الطحطحائى فرج
سمعت فى المنام طهَ يملى حديث من أصبح وفق النقل
أى آمنا فى سِرْبه معافى فى جسمه مع قوت يوم وافى
وكل ما أَلَّفْتُ فى الفنون أرجو به التحقيق للظنون
فليروه عنى بشرط معتبر وربما يصدّق الْخُبْرُ الْخَبَرْ
ولى تآليف على العشرينا زادت ثمانيا حوت تعنينا(٣)
فليروها إن شا بلا استثناء والله أرجو نيل قصدِنائى

---

(١) فى ا « وبعد ذا أجزت قصد الأجر » .

(٢) النفح : طيب الريح ، ووقع فى ا « والروضة الغناء يكفى نضحها »

(٣) فى ب « زادت ثمانيا حوت تفنينا » .

بجاه من شرف بالإدناء　　صلى عليه الله فى الآناء
أحمد خير المرسلين الهادى　　غوث البرايا ملجأ الأشهاد
عليه أسنى صلوات زاكيه　　مع صحبه ذوى المزايا الزاكيه
ومن تلا ممن أطاب عَمَلَهْ　　فنال من رجائه ما أمّله
وشم من عرف قبول أرَجَا　　فنال من حسن الختام مارجا

من الشيخ إبراهيم الأكرمى

وخاطبنى من أهلها أيضاً خادم الشيخ الأكبر بن عربى محيي الدين ، وهو الشيخ الأكرمى سيدى إبراهيم ، سلك الله بى و به سبل المهتدين ! بقوله :

فكرت فى فضل الإما　　م المقَّرِىِّ الحبر حينا
فوجدته بكر الزما　　ن وواحد الدنيا يقينا
ما إن رأيت ولا سمعــــتُ بمثله فى العالمينا
وافى دمشقاً زائراً　　ألوَ أُنه أضحى قطينا
وأتى عجيب الاتفا　　ق بفطر شهر الصائمينا
فكأن غُرَّتَه الهلا　　ل ونحن كنا ناذرينا
والعلم قال مؤرخاً　　أدى بها فضلا مبيناً

من الشيخ مصطفى بن محب الدين

وخاطبنى أيضاً منهم الفقيه النبيه سيدى مصطفى بن محب الدين حفظه الله تعالى بقوله:

فضائل قطب الغرب فى العلم والفضل　　هو المَقَّرِىُّ الأصل حائزة الخصل[1]
حوى كل علم كلَّ عن بعضه السِّوَى　　فلا غرو أن أضحى فريداً بلا مثل
وحازفنونا من ضروب معارف　　ومن فضل تحقيق ومن منطق فصل
توخَّى دمشق الشام فافْتَرَّ ثغرها　　سروراً به وازْيَّنَتْ من حلى الفضل
وشرف مصرا قبلها فاكتست به　　ملابسَ فخرٍ زانها كرم الأصل

---

(١) فى ا « حائزة الخضل »

لقد أشرقت من أفق غربٍ شموسُه ... وناهيك أفقاً نوره قدره يعلى(١)
نفاسَتُهُ فيها تنافَسَتِ الورى ... بما قد غدا من در ألفاظه يملى
ملىء من التحقيق إن عَنَّ مشكل ... تكفل بالتبيان والشرح والحل
إذا ما أدار الدر من كأس لفظه ... سقانا عقار الفضل عَلاًّ على نَهْلِ
نظام له يحكى قلائد عسجد ... وثغر مليح فائق الحسن والدل
وأسجاعه إن حاك وشى نسيجها ... حكت حِبَرًا حيكت نمارق من غزل
له القَلَمَ الأعلى بشرق ومغرب ... له الموضع الأسمى على الكل فى الكل(٢)
فيا سيداً حاز المفاخر والعلا ... وفاقت حِلَى الآداب منه على الحلى
إليك من العبد الحقير تحية ... لقد نشأت عن خالص الود من خل
مُوَالٍ يوالى الحب والقرب منكم ... بظاهر غَيْبٍ لا يحيد عن الوصل
فلا زلت محبوًّا بسابغ نعمة ... وفضل نعيم وافرٍ وارفِ الظل
ودمت لدى الأسفار فى نجح أوبة ... وجمع لشمل بالمواطن والأهل

من الشيخ محمد ابن سعد الكلشنى

وخاطبنى أيضاً الشيخُ سيدى محمد بن سعد الكلشنى بقوله :

شهر شعبان جاءنا ليهنى ... بقدوم الأستاذ كنز الفضائل
بهجة الكون روض علم وحلم ... وهو مغنى اللبيب إن جاء سائل
بمصابيح فضله قد أضاءت ... ساحة الجامع الكبير لآمل
وبمختار لفظه صار يحوى ... لحديث مسلسل عن أفاضل
ومن الغرب حين وافى لشرق ... فاق بدر التمام وسط المنازل
حل منى فى القلب والطرف لما ... لاح سعد السعود لى غير آفل
وغدا بالأمان والسعد أرخ ... أحمد المقرى فى الشام قائل(٣)

---

(١) فى ا « قدره معلى » .
(٢) فى ا « له العلم الأعلى » وأحسبه محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ب
(٣) فى ا « أحمد المقرى بالشام قائل » .

وقال أيضا شكرا لله تعالى نيته ، و بلغه أمنيته :

أتاكِ دمشقَ الشامِ أكرمُ وارد فقرى به عينا وللحسن شاهدى
وهُزِّى دلالا فى أزاهر روضه معاطف لين كالغصون الأمالد
لك البشر ياعينى ظفرت بأمجد رفيع الذرى من فوق فرق الفراقد
لقد شاع بين الناس واسع فضله فكم قاصد يسعى لنيل الفوائد
من العلم الفرد المفيد الذى له أيادٍ سَمَتْ بالجود تولى لقاصد(١)
وذاك أبو العباس أحمد مَنْ صفت مناهله دَوْمًا إلى كل وارد
تراه إذا وافيته متهللا ويبسم حُبًّا فى وجوه الأماجد
إمام سما قدرا على النجم رفعة أرى وصفه فى بيت نظم مشاهد
لديه ارتفاع المشترى وسعوده وسطوة بَهْرَام وظرف عُطَارِد
شهدت بأن الله أولاه منحة بنقل حديث فى جميع المساجد
ومذ حلّ فى وادى دمشق ركابه وسودده وافى بأعدل شاهد
حوى كل أفضال وكل فضيلة بها يهتدى حقا لنيل المقاصد(٢)
وماذا عسى فى مدحه أنا قائل ولو جئت فيه مطنبا بالقصائد
إذا رمت أن تلقى نظيرا لمثله عجزت ورب الناس عن عد واحد
فكم من معان حازها ببيانه وفكرته قد قَيَّدَتْ للشوارد
ومنطقهُ حاوى الشفا بجواهر صحاح بها يزدان عقد القلائد
من الغرب وافى نحو شرق فأشرقت شموس علوم أسفرت عن محامد
فناديته ياسيدى مَنْ بفضله تواترت الأخبار عن غير واحد
عسى عطفة منكم على بنظرة فأنت لموصول الجَدَا خير عائد

---

(١) فى ا « من العالم الفرد المفيد — إلخ »

(٢) فى ا « لنيل مقاصد »

وأنت على ريب الزمان مساعدى ... وأنت يمينى للحسود وساعدى
فلا زلت تولى كل من هو آمل ... لبغيته من صادر ثم وارد
وتبقى مدى الأيام فى المجد رافلا ... بثوب الهنا تُكْفَى شرور الحواسد
وهاك عروسا تجتلى فى حُلِيِّهَا ... إليك أتت فى زى عذراء ناهد
تهنى بعيد الفطر من بعد صومكم ... بخير جزيل من لذيذ الموائد
وترجو جميل الستر إن هى مثلت ... بحضرتك العلياء يا خير ماجد
وعش فى أمان الله بالعز دائما ... مدى الدهر ماسَحَّ الحيا فى الفدافد
ومادارت الأفلاكُ من نحو قطبها ... وما بزغت شمس الضحى للمشاهد

وقال أيضا زاده الله تعالى من فضله :

ظبى بوسط الفؤاد قائل ... أعجز بالوصف كل قائل[١]
ظبى بأجفانه سـبانى ... وسحرها ينتمى لبَابِلْ
يرمى بسهم اللحاظ لما ... يرنو فيُصْمِى الفؤاد عاجل
قد فتن العقل مذ تجَنَّى ... على حتى غدوت ذاهل[٢]
له قـوام كخُوط بانٍ ... أو كالقنا السَّمْهَرِى عادل
بدر بدا كامل المعانى ... فى القلب والطرف عاد نازل
قد أسَرَ القلبَ فى هواه ... بقيد حسن وفرع سابل
وما بقى منه لى خلاص ... سوى مديحى رضا الأفاضل
أعنى به المقَّرِىَّ من قد ... سما على البدر فى المنازل
أحمـد مولى له أيادٍ ... كالغيث يغنى لـكل سائل
علامة حاز كل فضل ... سبقا ومن بالعلوم عامل

(١) قائل فى آخر المصراع الأول اسم فاعل من القيلولة وهى النوم في وقت الظهيرة ، وقائل فى آخر المصراع الثانى اسم فاعل من القول .

(٢) فى ا « قد فتن العقل من تجن » .

من قد نشا فى العلوم طرّا وحاز علم البيان كامل
طويل باع بسيط فضل مديد جود لكل آمل
ووافر العقل راح يهدى سريع فضل لكل فاضل
وجامع العلم فى ابتهاج بمنطق فى الأصول حافل
وهكذا فى الكلام مهما أفاده فى الدروس شامل
يروى صحيح الحديث دأبا بالسند الواصل الدلائل
وكم علوم أفاد مَنْ قد أتاه فى مشكل المسائل
وحل إبهام كل شكل من فن وَفْقٍ إلى الوسائل
وغاص فى لجة المعانى واستخرج الدر فى المحافل
وفى فنون البديع أضحى جناسه قد حوى رسائل
وكم دليل أقام لما برهانه أَبْهَتَ المعازل
إن كان وافى لنا أخيرا فهو الذى فاخَرَ الأوائل
بحر محيط يفيض منه على رياض بكل ساحل
وافى من المغرب نحو شرق يجوب من فوق متن بازل(١)
فى مهمه صحصح مَهُول وحَزْنُهُ كم به غوائل(٢)
وحَثَّ فيه المسيرَ حتى خلفه من وراء كاهل
وجاء باليُمْنِ فى أمان وصحة الجسم والشمائل
وحل فى الشام عند قوم من أكرم الناس فى القبائل
ذاك ابن شاهين ذو المعالى رب الندى للألوف باذل
كأنه الشمس جاء يهدى للبدر نورا وليس آفل

---

(١) البازل : المسن القوى من الإبل .

(٢) المهمه : الصحراء ، والصحصح : المستوى من الأرض ، والمهول : المخيف ووقع فى ب « سهول » جمع سهل ، والحزن : الغليظ من الأرض ، والغوائل : جمع غائلة ، وهى المهلكة والداهية .

بل كان غيثاً لهم وكانوا ... روضا أريضا الشكر وابل[١]

فبجّلوه وعظموه ... وادخروا عاجلا لآجل

جزاهم الله كل خير ... وصانهم من جدال جاهل

وأحمد دام فى أمان ... المَقَّرِىُّ الرضا المعامل

لربه فى دُجَى الليالى ... ويرشد الناس فى الأصائل[٢]

لا زال فى نعمة وخير ... وفى أمان يعود عاجل

من الأديب أبى بكر العمري

وخاطبنى الأديب الفاضل، الشيخ أبو بكر العمرى شيخ الأدباء بدمشق، حفظه الله تعالى بقوله :

تاهت تِلِمْسَانُ على مدن الدنى ... بعالم فى العالمين يحمد

المقَّرِى أحمد رب الحجا ... الكامل البحر الخضم المزبد

مالك هذا العصر شافعيه ... أحمده نعمانه المسدد

مذ حل مصر أذعنت أعلامها ... لفضله وبَجَّلُوا ومجدوا

وفى دمشق الشام دام سعدها ... كان له بها المقام الأسعد

العلماء أجمعوا جميعهم ... على معاليه التى لا تجحد

أقام شهراً أو يزيد وانثنى ... وفى الحشا منه المُقِيمُ المُقْعِدُ

سالت على فراقه دموعُنَا ... وفى القلوب زَفْرة لا تخمد

لو قيل من يحمد فى تاريخه ... ما قلت إلا المقَّرِىُّ أحمد

لا برحت أوقاته مفيدة ... ما صاح فوق عودهِ مغرّد

قلت : وذكرى لكلام أعيان دمشق – حفظهم الله تعالى! – ومديحهم لى، ليس علم الله لاعتقادى فى نفسى فضلا، بل أتيت به دلالة على فضلهم الباهر، حيث عاملوا

(١) روض أريض : مونق معجب، والوابل : المطر الكثير.

(٢) فى ا « ومرشد الناس في الأصائل ».

مثلى من القاصرين بهذه المعاملة ، وكَسَوْهُ حلل تلك المجاملة ، مع كونى لست فى الحقيقة له بأهل ، لما أنا عليه من الخطأ والخطل والجهل .

ولقد خاطبت من مصر مفتى الشام صدر الأكابر ، وارث المجد كابراً عن كابر ، ساحب أذيال الكمال ، صاحب الخلال المبلغة الآمال ، مولانا شيخ الإسلام الشيخ عبد الرحمن العمادى الحنفى ، بكتاب لم يحضرنى منه الآن غير بيتين فى أوله ، وهما :

يا حادىَ الأظْعَانِ نحو الشَّآمِ ... بلغ تحياتى لتلك الفِئَام[١]

وابْدَأْ بِمُفْتِيها العِمَادِيِّ الرِّضَا ... دام به شَمْلُ الهنا فى التئام[٢]

فأجابنى بما نصه :

جواب المفتى العمادى على كتاب للمؤلف

إلى أهالى مِصْرَ أهْدِى السَّلام ... مبتدئاً بالمَقَّرِيِّ الهُمام

من ضاع نشرُ العلم من عَرْفِهِ ... ولم يضع منه الوفا للذِّمَام[٣]

أهدى تحف التحية ، إلى حضرته العلية ، وذاته ذات الفضائل السنية الأحمدية ، التى مَنْ صَحِبها لم يزل موصولا بطرائف الصِّلات والعوائد ، الأوحدية الجامعة التى لها منها عليها شواهد :

ولَيْسَ لله بمُسْتَنْكَرٍ ... أن يجمع العالم فى واحد[٤]

فيا من جذب قلوب أهل عصره إلى مصره ، وأعجز عن وصف فضله كلَّ بليغ ولو وصل إلى النثرة[٥] بنثره ، أو إلى الشِّعْرَى بشعره ، ومن زرع حَبَّ حُبِّه فى القلوب فاستوى على سُوقِه ، وكاد كل قلب يذوب بَعْدَ بُعْدِه من حر شوقه ، وظهرت شمس فضله من الجانب الغربى فبهرت بالشروق ، وأصبح كل صب وهو إلى بهجتها مَشُوقٌ ، زار الشام ثم ما سلَّم حتى وَدَّع ، بعد أن فرعَ بروضها أفنان الفنون فأبدع ، وأسهم لكل من أهلها نصيباً من وداده ، فكان أوفرهم سهماً هذا المحب الذى رفع

(١) فى ا « أبلغ تحياتى لتلك الخيام » والفئام : الجماعة من الناس .

(٢) فى ا « دام به شمل الهوى فى التئام » .

(٣) النشر – بالفتح – انتشار الطيب ، وضاع : تضوع ، ولم يضع : مضارع من الضياع

(٤) هذا البيت لأبى نواس . (٥) النثرة – بالفتح – اسم لكوكبين بينهما قدر شبر ، والشعري – بالكسر – كوكب يطلع فى الجوزاء ، وآخر يطلع فى الذراع

بصحبته سَمْكَ عماده ، وعلق بمحبته شغاف فؤاده ، فإنه دنا من قلبه فتدلّى ، وفاز من حبه بالسهم المُعَـلّى ، أدام الله تعالى لك البقا ، وأحسن لنا بك الملتقى ، ومَنَّ علينا منك بنعمة قرب اللقا ، آمين بمنه ويمنه ، هذا ، وقد وصل من ذلك الجناب[١] الوفى ، كتابٌ كريم هو اللطف الخفى ، بل هو من عزيز مصر القميصُ اليوسفى ، جاء به البشير ذو الفضل السنى ، الخل الأعز الأجـل التاج المحاسنى ، مشتملا على عقود الجواهر ، بل النجوم الزواهر ، بل الآيات البواهر ، تكاد تقطر البلاغة من حَوَاشيه[٢] ، ويشهد بالوصول إلى طرفها الأعلى لمُوَشّيه[٣] ، فليت شعرى بأى لسان ، أثنى على فصوله الحسان ، العالية الشان ، الغالية الأثمـان ، التى هى أنفس من قلائد العِقْيَان ، وأبدع من مقامات بديع الزمان ، فطفقت أرتَعُ من معانيها فى أمتع رياض ، وأقطع بأنَّ فى منشئها اعتياضاً لهذا العصر عن عياض :

لَيْتَ الـكواكِبَ تدنو لى فأنظِمَها عُقُودَ مَدْحٍ فلا أرضى لهَا كَلِمى[٤]

ولا سيما فصـل التعزية والتسلية ، المشتمل على عقد التخلية بل عقود التحلية ، لتلميذكم الولد إبراهيم ، فإنه كان له كرُقْية السليم ، بعد أن كاد يهيم ، فجاء ولله درهُ فى أحسن المحال ، ووقع الموقع حتى كأن الولد نشط ببركته من عِقَال :

وإذا الشىء أتى فى وَقْتِه زاد فى العـين جمالا لجمال

فجزاكم الله تعالى عنا أحسن الجزاء ، ثم أحسن لـكم جميل العزاء ، فيمن ذكرتم من كريمَتَيِ الأصل والفرع ، وأبقى منكم ما كنا فى الأرض مَنْ به للناس أعم النفع ، وأما من كان وليى وسميى ومنجدى ، الشهيد السعيد المرحوم الشيخ عبد الرحمن المرشدى ، فإنها وإن أصابت منا ومنكم الأخوين ، فقد عَمَّت الحرمين ، بل طمت الثقلين ، ولقد عُدَّ مصابه فى الإسلام ثُلمة ، وفقد به فى حرم الله تعالى من كان يدعى

---

(١) فى ا « وقد وصل من ذلك الخل الوفى » .

(٢) فى ا « حواتيه » محرفا (٣) فى ا « لمواشيه » محرفا

(٤) هذا البيت للفقيه عمارة اليمنى من قصيدة يمدح فيها الفائز بن الظافر ووزيره طلائع بن رزيك .

للملمة ، ولم يبق بعده إلا من يدعى إذا يُحَاس الحَيْسَ[١] ، واستحق أن ينشد فى حقه وإن لم يقس به قيس :

وما كان قيسٌ هُلْكُهُ هلكَ واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما[٢]

فالله تعالى يرفع درجاته فى عليين ، ويبقى وجودكم للاسلام والمسلمين ، وتلامذتكم الأولاد ، يرجون من بركات أدعيتكم أعظم الأمداد ، ويُهْدُون أكمل التحية ، إلى حضرتكم العلية ، ونبلغكم دعاء صاحب السعادة ، أدام الله تعالى إسعادكم وإسعاده ، ونحن من صحبته الشهية ، فى رياض فنون أدبية ، أبهاها لمعات محاضرة فى ذكر شمائلكم الجميلة ، تنورا لْمَجالس ، وأشهاها نَسَمات محاورة بنشر فضائلكم الجليلة ، تعطرا لْمُجَالس ، وسلام جملة الأصحاب من أهل الشام ، وعامة الخواص والعام ، والدعاء على الدوام ــ المخلص الداعى عبد الرحمن العمادى مفتى الحنفية ، بدمشق المحمية .

من الأديب يحيي المحاسنى

ووردت على مع المكتوب المذكور مكاتبات لجماعة من أعيان الشام حفظهم الله تعالى ؛ فمنها من الصديق الحميم ، الرافل فى حلل المجد الصميم ، الخطيب ، الأديب[٣] ، سيدى الشيخ المحاسنى يحيى ، أسمى الله تعالى قدره فى الدين والدنيا ، كتابان نص أولهما : باسمه سبحانه :

لئن حكمت أيدى النَّوَى أو تعرَّضَتْ ... عوارض بينٍ بيننا وتفَرُّقُ

فطرفى إلى رؤياكُمُ متشوِّفٌ ... وقلبى إلى لقياكُمُ مُتَشَوِّقُ

يقبل الأرض الشريفة لازالت مركز الدائرة التهانى ، وقطباً لفلك تجرى المجرة فى حُجْرَته[٤] على الدقائق والثوانى ، ولا برحت ألسن البلاغة عن تمييز براعة[٥] يراعة حامى حماها معربة ، وبلابل الآداب على الأغصان فى رياض فضله بمثانى[٦] الثناء صادحة وبألحان سجعها مطربة :

(١) أخذ هذه الفقرة من بيت ينسب إلى هنى بن أحمر الباهلى ، وإلى زرافة الباهلي ، وإلى غيرهما من الجاهليين ، وهو :

وإذا تكون كريهة أدعى لها ... وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

(٢) هذا بيت يقال فى رثاء قيس بن عاصم المنقرى (٣) فى ا «الأريب» .

(٤) حجرته : ناحيته وجهته (٥) اليراعة : القلم (٦) المثانى : من أوتار عود الغناء

أرْضٌ بها فلَكُ المعالى دائرٌ والشمسُ تُشْرِقُ والبدور تحُومُ
ولها من الزهر المُنَضّدِ أَنجُمٌ ولها على أفق السماء نجوم

عمر الله تعالى بالمسرات محلها ، وعم بالخيرات مَنْ حَلَّها ، و يبتدئ بسلام يخبر عن صحيح وده السالم ، ومزيد غرام يؤكد حبه الذى هو للولاء حازم ، و ينعت شوقاً يحرك ماسكن صميم الضمير ، من صدق حب سلم جمعه من التكسير ، و يؤكد السلام بتوابع المدح والثناء ، و يعرب عن محبة مشيدة البناء ، و يُنْهِي أن السبب فى تسطيرها ، والباعث على تحريرها ، أشواق أضرم نارها فى الفؤاد ، ومحبة لو تجسمت لملأت البلاد ، وأقول :

شوقى لذاتك شوق لاأزال أرى أجــدَّدُهُ يا إمام العصر أقدمَهُ
ولى فم كاد ذكر الشوق يَحْرِقُه لو كان من قال نار أحرقت فمه

هذا و إن تفضل المولى بالسؤال عن حال هذا العبد فهو باق على ماتشهد [به] الذات [اللطيفة] العلية ، من صدق المحبة ورِقّ العبودية ، ولم يزل يزين أفق المجالس بذكركم ، ولا يقتطف عند المحاضرة إلا من زهركم ، ولم ينس حلاوة العيش فى تلك الأوقات التى مضت فى خدمتكم المحروسة بعناية [الملك] المتعال ، وليالى الأنس التى قيل فيها ، وكانت بالعراق لنا ليال(١) :

واهًالها من ليال هل تعود كَمَا كانت ، وأىُّ ليالٍ عاد ماضِيها؟
لم أنْسَهَا مذ نأت عنى بِبَهْجَتِهَا وأى أنس من الأيام ينسيها؟

فنسأل الله تعالى أن يمن بالتلاق ، و يفصل مانعة الجمع(٢) بطىِّ شقة الفراق ، إن ذلك على الله يسير ، وهو على جَمْعهم إذا يشاء قدير ، و بعدُ ، فالمعروض على مسامع سيدى الكريمة ، لازالت من كل سوء سليمة ، أنه وصلنا مكتوبكم الكريم ، صحبة العم

---

(١) هذا صدر بيت ، وهو بكماله :

وكانت بالعراق لنا ليــال سرقنــاهن من طيب الزمان

(٢) هذا توجيه من اصطلاح علماء المنطق. ومانعة الجمع فقط: نوع من القضايا الشرطية المنفصلة ، لاتجوز اجتماع تاليها ومقدمها فى الوجود، ولكن تجوز خلو الوجود منهما جميعا

المحب القديم ، فحصل لهذا العبد به جَـبْرٌ عظيم ، وأنس جسيم ، كما شهد بذلك السميع العليم ، فعزمت على ترك الإجابة ، لعدم الإجادة ، ومتى تبلغ الألفاظ المذمومة مابلغته الألفاظ المقرَّبة المقرَّبة ؟ وأين يصل صاحب الزَّمْر كما قيـل إلى الدقات الخليلية ؟ ولـكننى خشيت من ترك الإجابة توهم نقض ما أبنيه من رق العبودية وصحة الوداد ، ومن انقطاع برق شيخى الذى هو لبيْتِ شرفى العُمْدة والعِماد ، فلزم من ذلك أن كتبت لجنابه الشريف الجواب ، و إن كان خطؤه أكثر من الصواب ، وأرسلته قبل ذلك بعشرة أيام ، ومكتوب هذا العبد صحبته مكتوبان : أحدهما من محبكم شيخ الإسلام المفتى العمادى ، والآخر من محبكم أحمد افندى الشاهينى ، وهما و بقية أكابر البلدة وأعيانها يبلغونكم السلام التام ، ولا تؤاخذونا فى هذا المـكتوب فإنى كتبته عَجِلا ، ومن جنابكم خَجِلا ، دام خيركم على الدوام ، إلى قيام الساعة وساعة القيام ، وحرره يوم الإثنين ١١ من جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ ، الفقير الداعى يحيى المحاسنى ، انتهى .

كتاب آخر من يحيى المحاسنى

ونص الـكتاب الثانى من المذكور أسماه الله باسمه سبحانه : مخلصك الذى مَحَضَ[(١)] لك وداده ، ومحبك الذى أسلم لحبنك قِيادَه ، بل عبدك الذى لا يروم الخروج عن رِقِّك ، وتلميذك الذى لم يزل مغترفاً من فيض علومك معترفاً بحقك ، مَنْ أسكنك لبه ، وأخلص لك حبه ، واتخذك من بين الأنام ذخراً نافعاً ، وكهفاً مانعاً ، ومولى رفيعاً ، وشهاباً ساطعاً ، وتشبَّثَ بأسباب علومك وتمسك ، يهدى إليك سلاماً كأنما تعطر بمسك ثنائك وتمسك[(٢)] ، واكتسب من لطف طبعك الرقة ، واستعار من سَنَى وجهك حلة مستحقة ، وتحية لم يكن مناه إلا أن تكون بالمواجهة ، والمحاضرة والمشافهة ، على أن فؤاده لم يبرح لك سكنا ، وأحشاءه لك موطناً ، و يبدى دعواتٍ يحقق

---

(١) محض وداده — بفتح الحاء مخففة ، من باب فتح — أى أخلص وأصفى ولم يشبه بشائبة من جفاء أو قطيعة أو نحوهما .

(٢) تمسك هنا : أى تعطر بالمسك وتضمخ به ، وتمسك فى الفقرة السابقة أى تعلق وتشبث .

الفضلُ أنها من القضايا المنتجة(١) ، وأن أبواب القَبول لها غير مُرْتجة(٢) ، مقبلا أياديك التى وكفتْ بوابل جودها(٣) ، وكفتِ المهمَّ بنتائج سعودها ، وحاكت الوشى المرقوم ، وسلكت الدُّرَّ المنظوم ، فهذا يرفل فى حللها ، وهذا يتحلى بعقودها :

فَهِىَ التى تعنو الرِّياضُ لِرَقْمِهَا ويَغار منها الدرُّ فى تنضيدها
ويَحار أربابُ البيان لنظمها فهمُ بحضرتها كبعض عبيدها

متمسكا من ولائك بوثيق العُرَا ، متمسكا من ثنائك الذى لايزال السكون منه معنبرَا ، متشوقاً للقائك الذى بالمهج يُسْتام وبالنفوس يشترى ، متشوقاً إلى مايرد من أنبائك التى تسرُّ خبراً ، وتحمد أثراً ، أعنى بذلك المولى الذى أقام بفناء الفسطاط مخيما ، وانتجع حماه رائد الفضل ميمماً ، وشُدَّت لفضائله الرِّحال ، ووقفت عندها بل دونها فحول الرجال ، وطلعت شموس علومه فى سماء القاهرة ، فاخْتَفَتْ نجومُ فضلائها والأشعة باهرة :

هو الشمس علماً والجميع كواكب إذا ظهرت لم يبد منهن كوكب(٤)

فهو العالم الذى سَرَى ذكره فى الآفاق ، مسير الصَّبا جاذب ذيلها النسيمُ الخفاق ، الذى أطلع شمس التحقيق من أفق بيانه ، وأظهر بَدْر التدقيق من تبيانه ، فلهذا عقدت عليه الخناصر بين علماء عصره ، وانقطعت إليه الأواصر من فضلاء مصره ، فلا يُضاهيه [فى ذلك] أحد فى زمانه ، وينسق ما نسقه من دره ومرجانه ، فهو المُعوَّل عليه فى مشكلات العلوم ، معقولها ومنقولها والمنطوق والمفهوم ، الذى لم تسمح بمثله الأزمان والعصور ، ولم يأت بنظيره تتابعُ الأعصار والدهور ، مَنْ عجز لسان القلم ، عن التصريح باسمه الشريف فى هذا الرقم ، لا زالت المدارسُ مشرقة بإلقائه فيها الدروس ، ولا برحت البقعُ عامرة بوجوده بعد الدُّروس ، ما سُطِّرت آيات

(١) هذا من اصطلاحات اهل المنطق والمنتجة من القضايا عندهم التى تصح نتيجتها باطراد
(٢) مرتجة : مغلقة ، موصدة ، مقفلة ، أرتجت الباب إرتاجا : أى أغلقته
(٣) وكيف يكف ، مثل وعد يعد ، أى سال ، والوابل : المطر الغزير .
(٤) عجز هذا البيت من عجز بيت للنابغة الذبيانى يقوله فى النعمان بن المنذر ، وهو:
فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

الأشواق فى الصحائف والطروس (١) ، وأرسلت من تلميذ إلى أستاذ بسبب نِسبته إليه فحصل على المطلوب من شرف النفوس ، هذا ، والذى يُبْدِى لحضرتكم ، وينهى لطلعتكم ، أن الراقم لهذه الصحيفة ، المشرفة ببعض أوصافكم اللطيفة ، المرسلة لساحة فضائلكم المنيفة (٢) ، هو تلميذ كم من تشرف بدرسكم ، وافتخر بإجازتكم ، يبدى لكم تلهفه لنيران أشواقه التى التهبت ، وتأسفه على الأيام السالفة مذهبة فى خدمتكم لاذهبت (٣) ، وتوجُّعه لهذه الأزمان التى استرجعت بالبعد عنه من ذمّته ماوهبت ، وتطلعه إلى مايُشَنِّفُ به الأسماعَ من فضائله التى سلبت العقول وانتهبت ، فلم يزل يسأل الرواة عنها ، ليلتقط منها ، وقد تحقق أن فرائدها لا يُلْفِى لها نظيرا ولايدركُ لهَا كُنْهًا ، وكيف لا ومنها يتعلم الفاضل اللبيب (٤) ، وإليها يفتقر السعيد ويتودد حَبيبٌ ، وعليها يعتمد ابن العميد ، ولم تنفك راقيةً فى دَرَج المزيد ، وعبدُ الحميد عبدُ الحميد ، وعِلْم شيخى محيط بصدق محبتى وإخلاصها ، وشدة حرصى على تحصيل فوائد مولانا واقتناصها ، وأننى لا أزال ذاكراً لمحاسنه التى ليست فى غيره مجموعة ، ومتطفلا على ثمار أفكاره التى هى لامقطوعة ولاممنوعة ، وخاطره الشريف على الحقيقة يشهد بذلك ، فلا يحتاج هذا العبد إلى بينة لدى مولانا الأستاذ المالك ، وحقيق على من فارق تلك الأخلاق الغُرّ ، والشمائل الزُّهْر ، والعِشْرة المعشوقة ، والسجايا المرموقة ، والفضائل الموفورة ، والمآثر المشهورة ، أن يشق جَيْبَ الصبر ، ويجعل النار حَشْوَ الصدر :

وإنى لتعرونى لذكراك هَــــزَّة كما انْتَفَضَ العصفورُ بلله القَطْرْ (٥)

---

(١) الطروس : جمع طرس ، بالكسر ، وهى الصحيفة .

(٢) المنيفة : العالية الرفيعة القدر (٣) فى ا « فى خدمته التى لاذهبت »

(٤) ورى بأسماء جماعة ممن اشتهروا بجودة النثر والنظم ، فورى بالفاضل اللبيب عن القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى ، وبالسعيد عن القاضى السعيد المعروف بابن سناء الملك ، وبحبيب عن أبى تمام حبيب بن أوس الطائى ، وبابن العميد عن الكاتب الأشهر أبى الفضل محمد بن الحسين ، وبعبد الحميد عن عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية (٥) البيت من قصيدة لأبى صخر الهذلى .

ولو ملكت مرادى ، لما اُخْضَرَّ إلا فى ذَرَاه مرادى ، بل لو دار الفلك على اختيارى ، لما نَضَوْتُ إلا عنده ليلى ونهارى :

ولو نُعْطَى الخيارُ لما افْتَرَقْنَا ولٰكِن لا خِيَارَ مَعَ الزَّمَانِ

* * *

وتَحْتَ ضلوعى لوعة لو كتمتها خِفْتُ على الأحشاء أن تتضرَّمَا

ولو بُحْتُ فى كتبى بما فى جَوَانحى لأنطقتُهَا ناراً وأبكيتها دَمَا

وأنا لا أقترح على الدهر إلا لقياه ، ولا أقطع حاضرَ الوقت إلا بذكراه ، وما أعد أيامى التى سَعِدْتُ فيها بلقائه إلا مفاتح السرور ، ومَطَالع السعود والحبور ، ولستُ أعيبها إلا بقلة البقاء ، وسرعة الانقضاء ، وكذلك عمر السرور قصير ، والدهر بتفريق الأحبة بصير ، وربما نَضَرَ العود[1] بعد الذبول ، وطلع النجم بعد الأفول ، وأُدِيلَ الوصال من الفراق ، وعاد العيش المرّ حُلْوَ المذاق :

وَمَا أنا من أن يَجْمَعَ اللهُ شَمْلَنَا كأحسن ما كُنَّا عليه بآيِسِ

فأما الآن فلا أزجِّى الوقت إلا بقلب شديد الاضطراب ، وجوانح لا تفيق من التوقد والالتهاب ، وكيف لا وحالِى حال مَنْ وَدَّعَ صفو الحياة يوم وَدَاعه ، وانقطع عنه الأنس ساعة انقطاعه ، وطوى الشوقُ جوانحَه على غليل ، وحل أضلاعه على كمد دخيل ، وأغرى بى فلزمنى ولزمته ، وألف بينى و بين الوجد فأَلِفَنِى وألفته ، فلا أسلكُ للعزاء طريقاً إلا وجدته مسدودا ، ولا أقصد للصبر باباً إلا ألفيته مردودا ، ولا أعد اليوم بعد فراق سيدى إلا شهرا ، والشهر دون لقائه إلا دَهْرا ، ولستُ بناسٍ أيامَنا التى هى تاريخ زمانى ، وعنوان الأمانى ، إذ ماء الاجتماع عذب ، وغصن الازديار رطب[2] ، وأَعْيُن الحواسد راقدة ، وأسواق صروف الدهر كاسدة ، فما كانت إلا لمحة الطرف ، ووثبة الطِّرف ، ولمعة البرق الخاطف ، وزَوْرَة الخيال الطائف ، وماتذَكَّرَ تلك الأيام فى أكناف فضائله ونَضْرَتها ، ورياض علومه

---

(١) فى ا « وربما اهتز العود بعد الذبول »

(٢) الازديار : الزيارة ، ووقع فى ا « وغصن الازدياد رطب »

فى ظله وخضرتها ، إلا أوجب على عينه أن تدمع ، وانثنى على كبده خَشْية أن تَصدَّع [١] ، ثم لما ورد على عبدكم مكتوبكم الكريم ، صحبة حضرة العم المحب القديم ، فكان كالعافية للصب السقيم ، كما يشهد بذلك السميع العليم ، فوقف له منتصباً ، وخفف عنه برؤيته وصَبَا ، وذكر أيام الجمع فهام وَجْدًا بها وصَبَا [٢] ، فاستخفه الإعجاب طرباً ، وشاهد صدوره فقال : هكذا تكون الرياض ، وعاين لطفه فقال : هكذا تكون الصبا ، وقبّل كل حرف منه ووضعه على الراس ، وحصل له بعد ترقبه غايةُ المجاورة [٣] والاستئناس ، فعند ذلك أنشد قول بعض الناس :

وَرَدَ الكتابُ فكان عند وروده عيداً ، ولكن هَيَّجَ الأشواقا
ألفاتُه قد عانقَتْ صاداتِهِ كعِناقِ مشتاق يخاف فراقا [٤]
فكأنما النُوناتُ فيه أهِلة وكأنما صاداته أحداقا
فعسى الإله كما قضى بفراقنا يَقْضِى لنا يوما بأن نتلاقى

فجعلته نصب عينى أتسلى به عند استيلاء الشوق على قلبى ، وأطفىء بتأمّله نيران وجدى إذا التهبت فى صدرى ، وسُررت به سرور من وجد ضالة عمره ، وأدرك جميع أمانيه من دهره ، وأنِسْت بتصفحه أنسَ الرياض بانهلال القطر ، والسارى بطلوع البدر ، والمسافر بتعريسة [٥] الفجر ، وكيف لا وقد أصبح فى وجه الأمانى خدّا ، بل فى خدّها وردا ، وصار حسنة من حسنات دهرى ، لا يمحو مرور الأيام موضعها من صدرى ، وطلعت طوالع السرور وكانت آفلة ، واهتزت غصون الفرح وكانت ذابلة ، لاسيما لما تضمن من البشارة السارة بصحة المولى وسلامته ، وحلوله فى منازل عزه وكرامته ، وموعده الكريم بعَوْدِهِ إلى دمشق الشام ، كساها ثوب الفخام [٦]

---

(١) أخذ هذه الفقرة من قول الصمة بن عبد الله القشيرى:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدعا

(٢) فى ا « فهام وجدا وبها صبا » وصبا فى هذه الفقرة ماض ، تقول : صبا يصبو صبوة ، أى عشق ومال وحن وعطف (٣) فى نسخة عندا « المجابرة » وفى أخرى «المجايزة» (٤) فى ب «نوناته قد عانقت صاداته» (٥) فى ا «بتعريس الفجر» (٦) فى ا « كساها صوب الغمام » .

مرة ثانية ، ويتم افتخارها على غيرها فلاتزال مفاخرة مباهية ، نسأل الله تعالى أن يحقق ذلك ، وأن يسلك بسيدى أحسن المسالك ، إنه سبحانه وتعالى سامع الأصوات ، ومجيبُ الدعوات ، فإن عَوْدَكم ياسيدى والله مرة أخرى هو الحياة الشهية ، والأمنية التى التى ترتجى النفسُ بلوغَها قبل المنية ، وما أنا من الله بآيس من أن يتيح سببا ، يعيد المزار مقتربا ، والشمل مجتمعا ، وحبلَ البَيْن منقطعا ، ثم ليعرض على مسامع سيدى الكريمة ، لا زالت من كل سوء سليمة ، أنا أوصلنا مكاتيبكم كما أمرتم لأربابها ، لاسيما مكتوب شيخ الإسلام سيدى عبد الرحمن أفندى المفتى بالشام ، ومكتوب المولى الأعظم ، والهمام الأفخم ، أحمد أفندى الشاهينى ، أعزه الله تعالى ! فإنه وقع عنده الموقع العظيم ، وحصل له به السرور المقيم ، كما يدل على ذلك جوابه الكريم ، المحفوف بالتعظيم والتكريم ، غير أنه قد ساءنا ما اتصل بمولانا من نفوذ قضاء الله تعالى الذى يعم ، فى البنت والأم ، فجعل الله تعالى فى عمر سيدى البركة ! وكان له فى السكون والحركة ! وماذا عسى أن يذكر لجنابكم فى أمر التعزية ويقرر ، ومنكم يستفاد مثله وعنكم يُحرَّر [1] ، والأستاذ أدرى بصروف الدهر وتفننها ، وأحوال الزمان وتلوّنها ، وأعرف بأن الدنيا دار لها بسكانها مَدَار ، وأن الحياة ثوب مستعار ، ونعيم الدنيا وبؤسها ما لواحد منهما فيها قَرَار ، وأن لكل طالع أفولا ، ولكل ناضر ذبولا ، ووراء كل ضياء ظلاماً ، ولكل عروة من عُرَا الدنيا انفصاما ، فهو محلٌّ لأن يقوى فى العزاء عزائمه ، ويصغر فى عينه نوائب الدهر وعظائمه ، ويغنيه عن عِظَة تجد له مقالا ، وتحلُّ عن عقله عِقالا ، وهو يتلقى المصائب ، بفكر ثاقب ، وفهم صائب ، وصبر يقصر عنه الطَّوْد الأشم [2] ، وعزم ينفلق دونه الصخر الأصم ، وحِلم يَرْجَحُ إذا طاشت الأحلام ، وقَدَمٍ تثبُت إذا زلّت الأقدام ، ومدّ المقال فى ضرب الأمثال ، إلى جنابكم الشريف نوعٌ من تجاوز حدّ الإجلال ، وأنا أسأل الله تعالى

---

(١) في ا «ومنكم يستفاد مثله ويحرر»

(٢) الطود — بالفتح — الجبل ، والأشم : العالى الشديد الارتفاع .

أن يجعل هذه المصيبه خاتمة ، ولا يُريه بعدها إلا دولة قائمة ونعمة دائمة ، وأن يحرسه من غِيَر الليل والنهار ، ويجعله وارث الأعمار بجاه نبينا محمد المختار ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الأطهار ، بمنه وكرمه . ثم أبلغ سيدى ـ أطال الله عمره ، وشرح صدره ، ونشر بالخير ذكره ! ـ السلامَ التام ، المقرون بألف تحية وإكرام ، من أهل البلدة جميعاً ، لاسيما من مفتيها العِمادى ، حرس الله ذاته التى هى منهل للصادى والغادى ، وأولاده الكرام ، المستحقين للإعزاز والإكرام ، ومن كبيرها ، ومدبِّرها ومشيرها ، أحمد أفندى الشاهينى ، أعزه الله تعالى بعزه ، وجعله تحت كَنَفه وحِرْزه ! ومن خطيبها مولانا الشيخ أحمد البهنسى ، ونقيب أشرافها مولانا السيد كمال الدين ، وجميع المحبين الداعين لذلكم الجناب ، والمتمسكين بتُرَاب تلكم الأعتاب ، ومن الوالد والعم ، والله يا سيدى إنه ناشرٌ لواءَ الثناء والمحامد ، وداعٍ لذلك الجناب الكاسب للمفاخر والمحامد ، وحضرة شيخنا شيخ الإسلام ، وبركة الشام ، مولانا وسيدنا الشيخ عمر القارى ، أبقى الله تعالى وُجُوده ! وضاعف علينا إحسانه وَجُوده ! وأولاده يسلمون عليكم السلام الوافر ، وينهون لكم الشوق المتكاثر ، وحُرِّر فى ٢ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ ، المحب الداعى يحيي المحاسنى [1] ، انتهى .

كتاب من تاج الدين المحاسنى

وكتب إلىَّ عمُّه الفاضل الأسمى ما صورته : باسمه سبحانه وتعالى :

وإنى لمشتاقٌ إلى وَجْهك الذى تَهَلُّله أهدى السناء إلى البدر [2]
وأخلاقك الغر اللواتى كأنها تساقط أنداء الغَمام على الزَّهْرِ

سيدى الذى عُبُوديتى إليه مَصْروفة ، ودواعى محبتى لديه موفورة وعليه موقوفة ، علم الله سبحانه أننى لا أزجِّى أوقاتى إلا بذكراه ، ولا أرجِّى اليمنَ من ساعاتى

---

(١) فى ا هنا « يحيى المحاسي » محرفا

(٢) تهلله : طلاقته وبشره وإشراقه ، والسناء هنا : الضوء والنور ، وأصله مقصور فمده

إلا باستنشاق نسيم رَيَّاه ، وأننى إلى طلعته أشوق من الصادى إلى ماء صَدّاء ، ومن كثير عزة إلى نوء تيماء .

يُرَنّحنى إليك الشوقُ حَتَّى أميلَ من اليمين إلى الشمال

ويأخذنى لذكراك اهْتِزاز كما نشط الأسيرُ من العِقَال

ولى على صدق هذه الدعوى من نَبَاهة لبه شاهد مُعَدَّل ، ومن نزاهة قلبه مُزَكٍّ غير ملوم ولا مُعَذل ، كيف لا ومطالع البيان مشرقها من أفلاك فهومه ، وجواهر التبيان مقذفها من بحار علومه ، وهو بحر العلم الذى لا يقتحم بسفن الأفكار ، وجَبَل الحلم الذى رسخ بالهيبة والوقار :

لو اقْتَسَمَتْ أخلاقه الغر لم تجد مَعيباً ولا خلقاً من الناس عائبا

وماذا عسى أصف به مولانا وقد عجز عن وصفه لسان كل واصف ، وحار فى بث فضائله أرباب المعارف والعوارف :

فلو نَظَمْتُ الثريَّا والشِّعْرَيَيْنِ قريضَا

وكاهل الأرض ضرباً وشَعْبَ رَضوَى عُرُوضاً

وَصَفْتُ للدرِّ ضدًّا وللهواء نقيضاً

ولكننى أقول : الثناء منجح أنى سلك ، والسخىُّ جودُه بما ملك ، وإن لم يكن خمر فخل[١] ، وإن لم يصبها وابل فطَل[٢] ، هذا ، وقد أوصلنا مكاتيبكم الشريفة لأربابها ، فكانت لديهم أكرم قادم ، وأشرف منادم ، وقد تداولها الأفاضل وشهدوا أنها من بنات الأفكار ، التى لم يكشف عنها لغير سيدى حُجُب الاستتار ، وقد وَجَدْنا كلا منهم ملتهبا بجمرات الشوق ، متجاوزاً حدّ الصبابة والتَّوْق ، ليس لهم شغل إلا ذكر أوصافكم الحميدة ، وبَثّ ما أبديتموه بدروسكم المفيدة ،

(١) هذا مثل يضرب للشىء الحقير يكتفى به عن العظيم الذى لا يقدر عليه

(٢) هذه آية من الكتاب الكريم تؤدى معنى المثل .

وما منهم إلا ويرجو بَلَّ الصدى ونَقْع الظما برؤية ذلك المحيا ، والتملِّى بتلك الطلعة العليا ، وإن سأل سيدى عن أخبار دمشق المحروسة ، دامت ربوعها المأنوسة ، فهى ولله الحمد منتظمة الأحوال ، أمنها الله من الشرور والأهوال ، ولم يتجدد من الأخبار ما نُعْلم به ذلكم الجناب ، لا زال ملحوظا بعين عناية رب الأرباب ، وأنا أسأل الله تعالى أن يصون جوهر تلك الذات من عوارض الحدثان ، وأن يحمى تلك الحضرة العلية من طوارق حكم الدوران .

آمين آمين لا أرْضَى بواحِدَةٍ حتى أضيفَ إليها ألف آمينا

وهذا دعاء للبرية شامل[1] ـ العبد الداعى ، بجميع البواعث والدواعى ، تاج الدين المحاسنى ، عفا الله تعالى عنه ! انتهى .

وبالهامش ما صورته : وكاتب الأحرف العبد الداعى محمد المحاسنى يقبل يدَكم الشريفة ، ويخصكم بالسلام الوافر ، ويبث لديكم الشوق المتكاثر ، غير أنه قد نازعته نفسه فى ترك المعاتبة ، لسيده الذى لم يُسْعِد عبدَه منه بالمكاتبة ، على أنها مكاتبة تُحْكِم عقدَ العبودية ، ولا تخرج رقبَتَه من طوق الرقِّيةِ ، والمطلوب أن يخصه سيدُه وشيخُه بدعواته المستطابة ، التى لا شك أنها مستجابة ، كما هو فى سائر أوقاته ، وحسبان ساعاته ، ودمتم ، وحرر فى رابع جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ ، انتهى .

أبيات من تاج الدين المحاسنى

وكتب سيدى التاج المذكور لى ضمن رسالة من بعض الأصحاب ما صورته :

يا فاضلَ العصرِ يا من للشَّرْق والغرب شَرَّفْ
يا أحْمَدَ الناس طُرًّا فى كل ما يتصرف
يُهْدِى إليك محبٌّ دموعُه تتذرف
شوقا وودًّا قديما مُنَكَّرًا يتعرف

---

(١) هذه الفقرة عجز بيت صدره * بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله *

رسالة من المولى أحمد الشاهينى

ولنختم مخاطبات أهل دمشق لى بما كتبه لى أوحد الموالى الكرام[١]، السرى، عين الأعيان، صدر أرباب البلاغة والبيان، مولانا أحمد الشاهينى السابق الذكر فى هذا التأليف مرات، ضاعف الله تعالى لديه أنواع المبرات والمسرات، آمين، ليكون مسكا للختام، إذ محاسنه ليس بها خفاء ولا لها اكتتام[٢]، ونص محل الحاجة منه هو الفياض:

ياسيداً أحرز خَصْلَ العُلاَ ... بالبأس والرأى الشديد السديد[٣]

ومَنْ على أهل النُّهَى قد عَلاَ ... بطَبْعِهِ السامى المجيد المجيد

ومن يَزِينُ الدهر منه حلى ... قول نظيم كالفريد النضيد

ومن صَدَا فكرى منه جَلاَ ... نظم له القلبُ عميد حميد[٤]

ومَنْ له من يومَ قالوا «بلى» ... فى مهجتى حُبٌّ جديد مزيد[٥]

ومَنْ غدا بين جميع المَلاَ ... بالعلم والحلم الوحيد الفريد

أفديك بالنفس مع الأهل لا ... بالمال، والمال عتيد عديد

أقسم بالله الذى علت كلمته، وعمت رحمته، وسحَرت القلوب والعقول رأفته ومحبته وجعل الأرواح جنوداً مُجَنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، أننى أشوق إلى تقبيل أقدام شيخى من الظمآن للماء، ومن السارى لطلعة ذُكاء[٦]، وليس تقبيل الأقدام، مما يدفع عن المشوق الأوام، وقد كانت الحال هذه وليس بينى و بينه حاجز إلا الجدار، إذ كان حفظه الله تعالى جارَ الدار، فكيف الآن بالغرام، وهو حفظه الله تعالى بمصر وأنا بالشام، وليس غيبة مولانا الأستاذ عنا، إلا غيبة العافية عن الجسم المضنى، بل غيبة الروح، عن الجسد البالى المطروح، ولا العيشة بعد فراقه، وهجر أحبابه ورفاقه، إلا ــ كما قال بديع الزمان ــ عيشة الحوت

(١) فى ا «أوحد الموالى الكبراء» (٢) فى ا «انكتام»

(٣) الخصل: ما يأخذه السابق فى ميدان الرهان، ووقع فى ا «والرأى السديد الشديد»

(٤) فى ا «ومن بصدق الفكر منه جلا» (٥) يشير إلى الوقت الذى أخذ الله تعالى فيه العهد على ذرية آدم، وقال لهم فيه: «ألست بربكم»؟ قالوا: بلى، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى الآية ١٧٢ من سورة الأعراف (٦) الأولى «ابن ذكاء»

فى البر ، والثلج فى الحر ، وليس الشوق إليه بشوق ، و إنما هو العظم الكسير ، والنزع العسير ، والسم يسرى و يسير ، وليس الصبر عنه بصبر ، و إنما هو الصاب والمصاب ، والكبد فى يد القصاب ، والنفس رهينة الأوصاب ، والحين الحائن وأين يصاب ، ولا أعرف كيف أصف شَرَف الوقت الذى وَرَد فيه كتابُ شيخى بخطه ، مزيناً بضبطه ، بلى ، قد كان شرف عُطارد ، حتى اجتمع من أنواع البلاغة عندى كل شارد ، وأما خطه فكما قال الصاحب ابن عباد : أهذا خط قابوس ، أم جناح الطاوس ؟ أو كما قال أبو الطيب :

من خطه فى كل قلب شَهْوَةٌ حتى كأن مداده الأهواء

وأنا أقول ماهو أبدع وأبرع ، وفى هذا الباب أنفع وأجمع : بل هو خط الأمان من الزمان ، والبراءة من طوارق الحدثان ، والحرز الحريز ، والكلام الحر الإبريز ، والجوهر النفيس العزيز ، وأما الكتاب نفسه فقد حسدنى عليه إخوانى ، واستبشر به أهلى وخِلَّانى ، وكان تقبيلى لأماليه ، أكثر من نظرى فيه ، شوقاً إلى تقبيل يد وَشَّته وحشته [1] ، واعتياداً للثم أنامل جسته ومَسَّته ، وأما اليراعة [2] ، فلا شك أنها ينبوع البراعة ، حتى جرى من سحر البلاغة منها ماجرى .

فجاء الكتاب كسحر العيون بما راح يسبى عقول الورى

ويُنَادى بإحراز خَصْل السبق [3] من الثريا إلى الثرى ، ولم أر كتاباً قبل تكون محاسنه متداخلة مترادفة ، ولطائفه و بدائعه متضاعفة متراصفة ، وذلك لأنه سرد من غرر درره الأحاسن ، وورد على يد رأس أحبابنا تاج بنى محاسن :

أولئك قوم أحرزوا الحسن كله فما منهمُ إلا فتى فاق فى الحسن

وكما قلت فيهم أيضاً :

---

(١) وشته : نقشته وزينته ، وأراد كتبته . وحشته : أراد كتبت فى حواشيه .

(٢) اليراعة : القلم .

(٣) فى ا « وينادى بإحراز خصل سحر البيان من الثريا إلى الثرى » وفى نسخة « وينادى بإحراز فضل السبق – إلخ »

فبنو المحاسن بيننا ‏ كبنى المُنَجِّم فى النجابه[١]

فهمُ القرابة إن عدمْت من الأنام هوى القرابه

فيهم محاسنُ جَمَّة ‏ منها الخطابة والكتابه

ثم لم يكتف سيدى وشيخى بما أنعم به ، وأحسن بكتبه ، من كتابه المزين بخطه ، المبين بضبطه ، المسمى بين أهل الوفاء ، بكتاب الأصفياء[٢] ، حتى أضاف إليه كتاب الشفاء ، فى بديع الاكتفاء ، كأنه لم يرض طبعه الشريف المفرد المستثنى إلا أن تكون حسناته لدى أحبابه مَثْنَى مَثْنَى ، حتى كأن مراده بتضعيف هذا الإكرام والإحسان ، تعجيز العبد عن أداء خدمة الحمد بحصر البيان وعقد اللسان ، إذ لست ذا لسانين ، حتى أؤدى شكر إحسانين ، وغايةُ البليغ فى هذا المضمار الخطير ، أن يعترف بالقصور و يلتزم بالتقصير .

ومن فصول هذا الكتاب مانصه : ومن باب إدخال السرور على سيدى وشيخى و بركتى خبر المدرسة الداخلية التى تصدى لها ذلك المولى العظيم ، والسيد الحكيم ، صدر الموالى ، ورَوْنَقُ الأيام والليالى ، سيدى وسندى ، وعمادى ومعتمدى ، الفهامة شيخى أفندى ، المعروف بالعلامة ، حفظه الله ، ووقاه وأبقاه ! الذى صدق عليه وعلى قول الأول :

ولى صديقٌ مامَسَّنِى عَدَمٌ ‏ مذ وَقَعَتْ عينهُ على عَدَمى

أغنى وأقنى فما يكلفنى ‏ تقبيل كف له ولا قدم

قام بأمرى لما قَعَدْتُ به ‏ ونمت عن حاجتى ولم ينم

وقول الثانى :

صديقٌ لى له أدبُ ‏ صداقة مِثْلِهِ نَسَبُ

---

(١) بنو المنجم : جماعة أبوهم أبو منصور المنجم ، واشتهر بالأدب والظرف ومنادمة الخلفاء ، وقد ذكرهم ابن النديم فى الفهرست (٢٠٥ مصر) على النسق ، ووقع فى ا « كبنى المحاسن فى النجابة » محرفا

(٢) هكذا فى ا ، ووقع فى ب « بكتاب الاكتفاء والاصطفاء »

رَعَى لى فوق مايُرْعَى وأوجَبَ فوق مايجب

فلو نُقِدَتْ خلائقه لَبَهْرَجَ عندها الذهب (١)

ولعمرى إنه كذلك قد تصدى لحاجتى فقضَاها ، ولحجتى فأمضاها ، ولم يكن لى فى الروم سواه وسواها ، وما أصنع بالروم ، إذا تخلف عنى ما أروم ، أبى الله إلا أن ينفعنى ذلك الحر الكريم بنهيه وأمره ، وأن يكون بيانى و بنانى مرتبطين بحمده وشكره ، وهذه حاجة فى نفسى قضيتها ، وأمنية رضيت بها وأرضيتها ، ولله الحمد . ولست أحصى ، ولا أستقصى ، ياسيدى ومولاى ، شوقَ أخيكم سيدى ومولاى المفتى العمادى ، حفظه الله تعالى و إياكم ! وقد بلغ به شوقه وغرامه ، وتعطشه [وهُيامه] وأوامه ، أن أفرد لجناب مولانا كتاباً ، يستجلب مفخراً وجواباً ، إذ الشام كما رأيتم عبارة عن وجوده الشريف والسلام ، وكذلك أولاده الكرام ، تلامذتكم يقبلون الأقدام ، وأما محبكم وصديقكم الشيخ البركة شيخ الإسلام مولانا عمر القارى فقد بلغته سلامَ سيدى ، فكان جوابه الدعاء والثناء ، مع العزيمة علىَّ بأن أبالغ لجنابكم الكريم فى تأدية سلامه ، وتبليغ مايتضمنه من المحبة الخالصة فصيح كلامه ، وأما الكريميَّان (٢) ولدكم محمد أفندى وأخوه سيدى أكمل الدين ، فهما لتقبيل أقدامكم من المستعدين ، وكذلك لاأحصى ماهما عليه من الدعاء والثناء لجنابكم الكريم العالى ، تلميذاكم بل عبداكم ولدنا الشيخ يحيى ابن سيدى أبى الصفاء ، وولدنا الشيخ محمد ابن سيدى تاج الدين المحاسنيان ، وأما عبداكم وتلميذاكم ولداى الشيخان الداعيان الأخَوَان الشيخ عبد السلام والقاضى نعمان ، فليس لهما وظيفة إلا الدعاء والثناء ، فى كل صبح ومساء ، لأن كلامنهما خليفتى ، والاشتغال بالدعاء لسيدى وظيفتى ، ولا يقنعان بتقبيل اليدين الكريمتين ، ولا بد من تقبيل القدمين المباركتين ،

---

(١) نقدت ــ بالبناء للمجهول ــ اختبرت ، وبهرج : ظهر زيفه وفساده

(٢) الكريميان : مثنى الكريمى ، بياء النسبة ، ووقع في ب « وأما الكريمان » وأثبتنا ما في ا

و بعد ، فلا ينقضى عجبى من بلاغة كتابكم الشريف الوارد لجناب أخيكم المفتى العمادى حفظكم الله تعالى و إياه! ولا كان من يَشْنَاك و يَشْنَاه [1] ! وعجبه به أعظم وأكبر ، إذ هو ـ حفظه الله! ـ بفهم كلام سيدى أحق وأجدر ، فلا عدمنا تلك الأنفاس الملكية الفلكية ، من كل منكما إذ هى والله البغية والأمنية ، كما قلت :

ليس فخرى ولا اعتدادى بدهر غير دهر أرَا كما من بنيه

اللهم اختم هذا الكلام ، للقبول التام ، بالصلاة على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين !.

ومن فصول هذا الكتاب ماصورته : أطال الله ياسيدى بقاءك ! ولا كان من يكره لقاءك ! ورعاك بعين عنايته ووقاك ! وأدامك وأبقاك ! وضمن لك جزاء الصبر ! وعوضك عن مصابك الخير والأجر ! ولقد كنت عزمت على أن أجعل فى مصاب سيدى بأمه ، متعه الله بعمره وعلمه ! ودفع عنه سَوْرَة همه وغمه ! قصيدة تكون مرثية ، تتضمن تعزية وتسلية ، فنظرت فى مرثية أبى الطيب المتنبى لأمه ، واكتفيت بنظمها ونثرها ، وعقدها وحلها ، وانتخبت قوله منها :

لكِ الله من مَفْجُوعة بحبيبها قتيلةِ شوقٍ غير مكسبها وَصْمَا

ومنها :

ولولم تكونى بنت أكرم والد لكان أباكِ الضخم كونُكِ لى أما

لئن لَذَّ يَوْمُ الشامتين بيومها لقد وَلَدَتْ منى لآنفهم رَغْما

فقلت : هذه حال مولانا الراغم لأنوف الأعدا ، المجدد لأسلافه حمداً ومَجْدَا ، القاتل بشوقه لاخطأ ولاعمدا ، ثم إنى لما رأيت قوله فى مرثية أخت سيف الدولة :

إن يكن صبر ذى الرزية فضلا تكن الأفضَلَ الأعز الأجَلاَّ

أنت يافوق أن تُعَزَّى عن الأحباب فوق الذى يُعَزِّيك عَقْلاَ

(١) يشناك : يبغضك ويكرهك ، وأصله «يشنأك» بالهمز ، تقول : شنئته أشنأه ، مثل كرهته أكرهه وزنا ومعنى ، ولكنه لما اضطر لتقفية الفقر قلب الهمزة ألفا .

و بألفاظك اهتـــدى فإذا عزّا ك قال الذى له قلت قبــــلا
قد بَلَوْتَ الخطوبَ حُلْوًا ومُرًّا وسلكت الأيام حَــزْنًا وسهلا
وقتلْتَ الزمانَ علماً فما يغـــرب قولا وما يجدِّد فعـــلا

قلت : هذه والله حِلَى مولانا الأستاذ الذى عرف للزمان فعله ، وفهم قوله ، قد استعارها أبو الطيب وحلّى بها مخدومه سيف الدولة ، وكيف أستطيع إرشاد شيخى لطريق الصبر ، وأذكره بالثواب والأجر ، وكيف وأنا الذى اسْتَقَيْتُ من دِيَمِه ، واهتديت إلى سبيل المعروف بشِيَمه ، وسلكت جادة البراعة بهداية ألفاظه ، وارتقيت إلى سماء البلاغة برعاية ألحاظه ، وهل يكون التلميذ معلماً ، وهل يرشد الفرخ قَشْعَما ، وكيف يعضد الشبل الأسد ، وهو ضعيف المُنَّة والمدد ، ومن يعلم الثغر الابتسام ، والصدرَ الالتزام ، ويختبر الحسام ، وهو مجرب صَمْصَام ، وهل تفتقر الشمس فى الهداية إلى مصباح ؟ وهل يحتاج البدر فى سُرَاه إلى دلالة الصباح ؟ ذلك مثل شيخى ومثل من يرشده إلى فَلَاح أو نجاح ، وإنما نأخذ عنه ماورد فى ذلك من الكتاب والسنة ، ونحذوحذوه فى الطريق الموصِّلة إلى الجنة ، ثم لما وصلت فى هذه القصيدة إلى قول أبى الطيب :

إن خير الدموع عيناً لَدَمْعٌ بَعَثَتْهُ رعايةٌ فاستـــهلا

رأيته قد أبدع فيه كل الإبداع ، ونظم ما كاد[1] يجرى الدمع من طريق السماع ، فقلت : إنا لله ! وأكثرت الاسترجاع[2] ، وقلت فى نفسى : إن ذلك الدمع الذى بعثته رعاية الحقوق ، هو دمع شيخى الذى حمى الله قلبـه الشفوق من العقوق ، للمصيبة فى الأم ، التى حزنها يغم ، ومصابها يعم ، وكيف لايعمنا مصابها ، وقد كمل للمصيبة كفاها الله بموتها نصابها ، هذا مع الفقد للسليلة الجليلة[3] ، والكريمة الخليلة

(١) فى ا «ونظم ما يكاد يجرى الدمع»
(٢) الاسترجاع : قول « إنا لله وإنا إليه راجعون »
(٣) السليلة : أراد بها ابنته

وأى دمع لم تبعثه تلك الرعاية ؟ وأى نفس لاتتمنى أن تكون لسيدنا من كل مايكره وقاية ؟ وأى كبد قاسية ، لم تكن لأحبابها مُوَاسية ؟ وأنى يَتَسَنَّى ، للعبد المُعَنَّى ، تسلية شيخه وهو الصبور الشكور ، العارف بالأمور ، العالم بتصاريف الدهور ؟ وما ظننت أن بنَانى ، يساعدنى على تحرير بيانى ، لتعزية شيخى حفظه الله تعالى فى أصله وفَرْعه ، وضَرْعه وزَرْعه ، وفرعه ونبته ، وأمه و بنته ، أما الوالدة الماجدة فإنى إن أمسكت عن بيان كرم أصلها ، يسمو بها كرم فرعها ونسلها ، فرحم الله تعالى سَلَفَهَا ، وأبقى خَلَفَهَا ، ولا حرم سيدى ثمرة رضاها ، ورضى عنها وأرضاها ! وأما المخدَّرة[1] الصغيرة ، فالمصيبة بها[2] كبيرة ، إذ العمومة مَقَّرِية ، والخؤلة وَفَائية ، فهى ذات النِّجارين[3] ، وحائزة الفخارين ، كأن سيدى ـ أعزه الله تعالى ! ـ لم يرض لها كفؤا ومهرا ، فاختار القبر أن يكون له صِهْرا[4] ، وخِطْبة الحمام لا يمكن ردها ، وسطوة الأيام لا يستطاع صدها ، كما قال أبو الطيب المتنبى أيضاً :

خِطْبَةٌ للحِمام ليسَ لها رَدٌّ ... و إن كانت المسَمَّاةَ ثُكْلاَ

و إذا لم تجد من الناس كفؤا ... ذاتُ خِدْرٍ أرادتِ الموتَ بَعْلاَ

أسأل الله تعالى أن تكون هذه الخِطْبة قافيةَ الخطوب ، وهذا النَّدْبُ المبرِّحُ آخِرَ الندوب[5] ، وأن يعوض سيدى عن حبيبه المبرقع المقنع ، حبيباً معمَّماً تتحرى النجابة منه المصنع ، وأن يبدله عن ذات الخمار والخضاب ، بمن يَصُول بالحِراب ، ويسطو باليراع و يشتغل بالكتاب :

وما التأنيث لاسم الشمس عَيْبٌ ... ولا التذكير فخــــر للهلال

[ولو كان النساء كمن فقَدْنا ... لفُضِّلَتِ النساء على الرجال]

اللهم يا أرحم الراحمين ، إنى أتوسَّل إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) المخدرة : ساكنة الخدر ، أو المحجوبة فيه .

(٢) فى ا « فالمصيبة فيها » (٣) النجار ـ بكسر النون ـ الأصل

(٤) هذا من حديث « نعم الصهر القبر » (٥) الندب : الجرح ، والندوب : جمع الندب

وآله الطيبين الطاهرين ، أن تأخذ بيد عبدك شيخى المقَّرِىِّ فى كل وقت وحين ، آمين .

ومن فصول هذا الكتاب ماصورته : ولما وصلنى سيدى بهديته التى أحسن بها من كتاب الاكتفاء ، داخَلَ طبعى الصفاء(١) ، ونشطت إلى نظم بيتين فيهما التزام عجيب لم أر مثله ، وهو أن يكون اللفظ المكتفى به بمعنى اللفظ المكتفى منه ، فإن الاحتفاء والاحتفال بمعنى الاعتناء ، كما أفاده شيخى ، فيكون على هذا الاكتفاء وعدمه على حدّ سواء ، إذ لو قطع النظر عن لفظ الاحتفال لأغنى عنه لفظ الاحتفاء ، مع تسمية النوع فيهما ، وهما :

إن احتفالَ المــرء بالمرء لا — أحِبُّــه إلا معَ الاكتفا

مبالَغَاتُ الناسِ مذمــومة — فاسلُكْ سبيلَ القصدفى الاحتفا

ولقد انقطع الثلج أيام الخريف ، وكانت الحاجة إليه شديدة بعد غيبة سيدى حفظه الله تعالى عن دمشق ، فتذكرت شغف شيخى به ، فزاد على فقده غرامى ، وفاض عليه تعطشى وأُوَامى(٢) ، فجعلت فى ذلك عـدة مقاطيع ، وأحببت عرضها على سيدى : أوّلها :

ثلج يا ثلج يا عظـيم الصفات — أنت عندى من أعظم الحسنات

ما بياضٌ بَدَا بوجهـك إلا — كبياض بدا بوجـه الحياة

ثانيها :

قد قلت لما ضَلّ عنى رشدى — وما رأيت الثلج يوما عندى

لا تقطع اللهم عن ذا العبد — أعظم أسباب الثنا والحمـــد

(١) الاكتفاء : نوع من أنواع البديع ، ووقع فى ا «داخل طلعى الصـفا» محرفا
(٢) الأوام ـ بضم الهمزة ـ شدة العطش .

ثالثها :

ثلج يا ثلج أنت ماء الحياة ضل من قال ضر ذاك لهَاتى
ما بياض بَدَا بوجْهك إلا كبياض قد لاح فى المرآة
قد رأى الناس وَجْهَهُمْ فى الْمَرَايَا وأنا فيك شِمْتُ وجهَ حياتى

وما علت سيدى هذا التعليل ، إلا لأشوقه إلى نسيم دمشقَ الذى خلفه سيدى حفظه الله عليلا[1] وهو على الصحة غير عليل ، ولم يشف أعزه الله تعالى منه الغليل[2] ، ولسيدى الدعاء بطول البقاء والارتقاء ، وهذه أبيات أحْدَثَها العبدُ فى وصف القهوة ، طالباً من سيدِّه أن يغفر خطأه فيها وسَهْوَه :

وقَهْوَة كالعَنْبَر السحيق سَوْدَاء مثل مقلة المعشوق
أتت كمسك فائح فَتِيقِ شبهتها فى الطعم بالرَّحيق
تدنى الصديق من هوى الصديق وتربط الود مع الرفيق
فلا عدمت مزْجهَا بِريقِ

وما زلت ألهج بما أفَادَنِيه شيخى من أماليه ، وأتصفح الدهر الذى[3] جمعته فيه ، من أسافله إلى أعاليه ، وأستشكل على الأحباب والأصحاب فى أثناء المسامرة ، ما أفادنيه سيدى من تسمية المرحوم القاضى التنوخى كتابه « نشوار المحاضرة » حتى ظفرت بأصلها فى القاموس فى مادة « نشر » ، فإذا هى عربية محضة ، فإنه قال : « ونَشْوَرَتِ الدابة نِشْواراً : أبقت من علفها » ولقد تعجبت من بلاغة هذه التسمية وعُذوبتها ، وحسن المجاز فيها مع سلاستها وسهولتها ، وأحببت عَرْضها على شيخى حفظه الله تعالى ليفرح لى بين تلامذته كما فرح طبعى به حفظه الله تعالى بين أساتذته ، وليعلم أنى لم أنس ما أفادنيه فى خلال المحاورة ، أيام المؤانسة والمجاورة ،

---

(١) فى قوله « عليلا » وقوله « على الصحة » تورية

(٢) الغليل ـ بفتح الغين المعجمة ـ العطش ، وحرارة الجوف

(٣) فى ا « الذى جمعته عنه ـ إلخ »

فوالله إنه سميرى ، فى ضميرى ، وكليمى ، ما بين عظمى وأديمى[(١)] :

يُدِيرُونَنِى عن سالم وأديرهم ... وجِلْدَةُ بين العينِ والأنفِ سالمُ[(٢)]

* * *

الطرس طما وما مضت قصتنا ... لاذنب لنا حديثنا لذ فطال

وحرر يوم السبت المبارك غرة جمادى الآخرة من شهور سنة ثمان وثلاثين بعد الألف ، أحسن الله ختامها بحرمة محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله وحده ، عبده الفقير الحقير المشتاق ، المذنب المقصر لسيده عن اللحاق ، الذى لم يبرح عن العهد المتين ، أحمد الشامى ابن شاهين ، انتهى .

كلمة عن ابن شاهين

ولو تتبعت ماله حفظه الله تعالى من النظم والنثر ، اللذين غلب فيهما بُلَغاءَ أهل العصر ، بالشام ومصر ، وغيرهما من الأقطار ، لازال مقامه مقضى الأوطار ، لاستوعبت الأسفار ، وفى الإشارات مايُغْنى عن الكلم ، وقد تقدم فى خطبة هذا التأليف[(٣)] ، ذكر شىء من نظمه ونثره وأنه هو السبب الداعى إلى جمع هذا التصنيف ، والله سبحانه يديم جنابه السرى الشريف ، ويُبَوِّئه من العز الظل الوَرِيف[(٤)] ، فلقد أولى من الحقوق ما لا نؤدى بعضه فضلا عن كله ، وناهيك بما جلبناه من كلامه دليلا على شرفه وفضله .

ورسالته هذه إلى كانت جواباً عن مكتوب كتبته إليه من جملته :

من المؤلف لابن شاهين

يامن له طائر صيت علا ... فى الجو فاصطاد الشريد الشديد

يانجل شاهين البديع الحِلَى ... تملَّ بالعز الطويل المديد

وفز بخَصْل السَّبْق بين الملا ... وسر بنهجٍ للمعالى سديد

ورِدْ مع الأحباب عذباً حلاَ ... منتظما من الأمانى البديد[(٥)]

---

(١) الأديم : الجلد (٢) البيت لزهير بن أبى سلمى المزنى

(٣) فى ا «التصنيف» وفى الفقرة بعدها «التأليف» عكس ماهنا عن ب

(٤) يبوئه : ينزله ويحله ويسكنه . والظل الوريف : الظليل الضافى الممتد

(٥) منتظما : جامعاً شاملا ، والبديد : المتبدد المتفرق المشتت

وارفل على طول المدى فى مَلاَ مسرة راقت وعز جـديد
والوالد المحـروس بالله ، لا بعُـدَّة الخلق ولا بالعـديد

ومن نثرها : سيدى الذى فى الأجياد من عَوَارفه أطْوَاق[١] ، وفى البلاد من معَارفه ماتشهد به الفِطَر[٢] السليمة والأذواق ، وتشتدُّ إلى مَجْده المطنب الذى لا يحطُّ له رِواقُ الأشواق ، وتعمر بفوائده وفرائده من الآداب الأسواق ، وتنقطع دون نداه السحب السواكب ، وتَقْصُر عن مَدَاه فى السُّمُو الكواكب ، والله سبحانه له واق ، المولى الذى ألقت إليه البلاغة أفلاذها، واتخذت البراعة طاعته عصمتها ومَلاَذها، إذ بذَّ[٣] أفرادَها وأفذاذها ، وأمطرت سماء أفكاره ، على كل محبٍّ أو كارهٍ ، طائر فى جو أو مستقر فى أوكاره ، صيبها ورذاذها ، وفاخرت دمشقُ بعُلاه وحلاه أقطار البسيطة و بغذاذها .

ومنها : أبقاه الله تعالى وحقيقة وعوده ينمقها النجاز ، وحقيقة سعوده لا يطرقها المجاز .

ومنها : فأنت الذى نَفَّسْت عنى مُخَنَّقا ، وأصفيت مشربى وكان مُرَنَّقَا[٤] ، وكاثرت بما به آثرت ، وما استأثرت رمْلَ النقا[٥] فلو رآك المأمون بن الرشيد ، لعلم أنك المتمنى ببيتَىِ الغناء الذى غنى به والنشيد :

و إنى لمشتاق إلى قرب صاحب يرُوق ويصفو إن كدرت لَدَيْه
عذيرى من الإنسان لا إن جَفَوْته صفالى ، ولا إن كنت طوع يديه

ولم يقل : أعطنى هذا الصديق وخُذ منى الخلافة ، وأنا أقول : قد ظفرنا به بحمد الله ولم أجد أحدا فى دهره وافقَ الغرضَ فلم نر خلافه .

---

(١) الأجياد : جمع جيد ، وهو العنق، والعوارف : جمع عارفة ، وهى المعروف ، والأطواق : جمع طوق ، وهو غل يجعل في العنق

(٢) فى ا «الفطرة السليمة»

(٣) بذ : فاق وغلب ، ووقع فى ا «بد» بالدال مهملة .

(٤) مرنقا : مكدراً .

(٥) رمل النقا : مفعول كاثرت .

ومنها: فهذه يا ابنَ شاهين أياديك البيض ، تُفْرِخ لك الشكر وتبيض ، فلا دليل على ولائى ، كإملائى ، ولا شاهد لما فى أحنائى ، كثنائى ، ولا حجة على ودادى ، كتكرارى ذكرك وترداد ى .

وهى طويلة ، لايحضرنى الآن منها سوى ماذكرته .

ولنقتصر من مكاتبات أعيان العصر من أهل دمشق المحروسة على هذا المقدار ، ونسأل الله تعالى أن يحفظهم جميعا فى الإيراد والإصدار .

رسائل إلى المؤلف من أهل المغرب

وفى تاريخ ورود هذه المكاتيب الشامية السابقة علىَّ ، اتفق ورودُ كتب من المغرب ، وجَّهها جماعة من أعيانه إلى .

خطاب من الشيخ محمد ابن يوسف التاملى

فمن ذلك كتاب كتبه لى الأستاذ المجوّد الأديب الفهامة مُعَلم الملوك سيدى الشيخ محمد بن يوسف المراكشى التاملىّ نصه : الحمد لله تعالى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد تتوالى ، من المحب المخلص المشتاق ، إلى السيد الذى وَقَع على محبته الاتفاق ، وطلعت شموس معارفه فى غاية الإشراق ، وصار له فى مَيْدَان الكمال حسنُ الاستباق ، الصدر الكامل ، والعالم العامل ، الفقيه الذى تهتدى الفقهاء بعلمه وعَمَله ، البليغ الذى تقتدى البلغاء بيَرَاعه[1] وقلمه ، ناشر ألوية المعارف ، ومُسْدِى أنواع العَوَارف ، العلامة إمام العصر ، بجميع أدوات الحصر ، سيدى أحمد بن محمد المَقّرى قدّس الله السلف ! كما بارك فى الخلف . سلامٌ من النسيم أرقُّ ، وألْطَف من الزهر إذا عَبِق[2] .

و بعد ، فإن أخباركم دائما تردُ علينا ، وتصل إلينا ، بما يسر الخاطر ، ويقرّ الناظر ، مع كل وارد وصادر ، والعبد يحمد الله تعالى على ذلك ، ويدعوالله بالاجتماع معكم هنالك .

* ويرحم الله عبدا قال آمينا *

---

(١) اليراع : القلم ، ووقع فى ا « بيراعة قلمه »

(٢) عبق الطيب : فاحت رائحته وانتشرت

كتبته إليكم أيها السيد من الحضرة المراكشية مع كثرة أشواق ، لاتسعها أوراق ، كتبكم الله سبحانه فيمن عنده ، كما جعلكم ممن أخلص فى مُوَالاة الحق قَصْدَه ، وودى إليكم غَضٌّ الحدائق ، مستَجْلٍ فى مطلع الوفاء بمنظر رائق ، لايحيله عن مركز الثبوت عائق ، وحقيق بمودة ارتبطت فى الحق وللحق مَعَاقِدُها[١] ، وأسست على المحبة فى الله قواعدُها ، أن يزيد عَقْدُها على مر الأيام شدة ، وعهدها وإن شط المزار جِدَّة ، وأن تدّخر للأخرى عُدَّة ، وإنى ويعلم الله تعالى لِمَنْ يعتقد محبتكم وموالاتكم عملا صالحا يقرب من الله تعالى ويُزْلف إليه ، ويعتمدها[٢] وزَرًا يعوّل فى الآخرة يوم لاظل إلاظله عليه ، فإنكم واليتم فأخلصتم فى الولاَ ، وعرفتم الله تعالى فقمتم بحقوق الصحبة على الولا ، معرضين فى تلكم الأُخُوَّة عن غرض الدنيا وعَرَضها ، موفين بشروط[٣] نفلها ومفترضها ، إلى أن قضى الله تعالى بافتراقنا ، وحقوقكم المتأكدة دين علينا ، والأيام تَمْطُل بقضائها عنا ، وتوجه الملام إلينا ، فآونةً أقف فأقرع السنّ على التقصير ندما ، وآونة أستنيم إلى فضلكم[٤] فأتقدم قُدُما ، وفى أثناء هذا لايخطر بالبال حق لكم سابق ، إلا وقد كر عليه منكم آخر له لاحق ، حتى وقفت موقف العجز ، وضاقت على العبارة عن حقيقة مقامكم فى النفس فكدت لا أتكلم إلا بالرمز ، إجلالا لحقكم الرفيع ، وإشفاقا من التقصير المضيع ، وقد كنت كتبت - أعزكم الله تعالى! - إليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة فيها عُجَالة قصائد كالعصائد ، لا كالثريد من الكلام ككلامكم السلس الكثير الفوائد ، فعذراً ممن كان أخرس من سمكة ، وأشد تخبطا من طائر فى شبكة ، فما عرفت أوصَلَ شيء من ذلك ، أم حصل فى أيدى المعاطب والمهالك ؟ وما رأيت غير رجل من صعاليك الحجاج التقيت به يوماً

---

(١) فى ا « معاهدها » (٢) الوزر : الملجأ ، ووقع فى ا « ويعلم وزرا » محرفا

(٣) فى ا « بشروطها نفلها ومفترضها »

(٤) فى ا « فضلهم »

بالحضرة المراكشية فقال لى : الشيخ الإمام المقرى يسأل عنك ، وقد أرسل معى كتابا إليك فوقع فى البحر مع جملة ماوقع ، فقلت له: لاغرابة فى ذلك فقد رجع إلى أصله ، ومن ظلمة البحار تستخرج الدرر ، وقد جاءنى كتاب من بعض الأخلاء الصديقين وهو الحاج الصالح السيد أبو بكر من مكة المكرمة شرفها الله تعالى ، وذكر لى فيه أنه متعه الله تعالى بلقائكم ، وأخبرنى بسؤالكم عنى كثيراً ، وإلى الآن يا نعم السيد إنما عرفتهُ بما كتبته لسيادتكم تعريف تذكر لا تعريفَ منة ، فأنصفونا فى الحكم عليكم فى عدم الجواب بما ألفته الأدباء شريعة وسنة ، وبالجملة ففؤادى لمجدكم صحيح لا سقيم ، واعتدادى بودكم مُنتج غير عَقيم ، والله تعالى يجعل الحب فى ذاته الكريمة ، ويقضى عن الأحبة دين المحبة[1] فيوفى كل غريم غريمه ، ويصلكم إن شاء الله تعالى هذا المرقوم ، وبه سؤال منظوم ، لتتفضلوا بالجواب عنه بعد حمد الله ، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم

إلى المقرِىِّ الحَبْرِ صدْر الأئمة ... من المخلص الوداد أزكى تحية
فذلك ياصَدْرَ الصدور عُجالة ... لتسمحَ بالجواب عمَّا أكنت
فتى قد رأى عند العذارَى فتية ... مُحرَّمة عند الزوال فحلَّتِ[2]
وعادت حَراماً عند عَصْرٍ فعندما ... عشاء أتى عادتْ حلالا تجلَّتِ
وفى صُبح ثانى اليوم عادت مُحرَّما ... وزالت زوالا منه فى غير مِرْيَةِ
وفى ظُهْره حلت فطابت قريرة ... وفى عَصْره مُحرَّماً قد تبدت
وعند العشاء بالضَّرورة حُلِّلت ... وذلك بعد غرم مال كفدية
وفى صُبْحِه عادت حَراماً ترى به ... بروقَ سيوفٍ لامعات بسنة
وكان يضيق حَسْرَةً وتأسُّفاً ... وحلت له وقت العشاء وتمت
وعن أمَةٍ أيضا يموت سريُّهَا ... قدَ اولدها فى ملكه بعد وطأة
وعادت لمملوك السرىِّ حليلة ... بعَقْدِ نكاحٍ بعدُ من غير شُبْهة

(١) فى ا « عن المحبة دين المحبة » (٢) فى ب ونسخة عند ا « عند العذالى »

فجاءت ببنت ، هل لها من تزوّج بنجل السرىّ ؟ بَيِّنوا لى قصتى

فإن السيورى مانع من تزوج له بابنةٍ منها بتلك القضية

وما الفرق بينها و بين التى أتى بها ابنُ أبى زيد بأوضح حجة

وعن مشترٍ مملوكةً غير محرم ومُسلمة شِراً صحيحاً بشرعة

وليس بملكه له وطؤها يرى جَوَازا على التأبيد من حين حلت[1]

وما طالق من عِدَّةٍ خرجت ولا يجوز على التأبيد فى خير ملة

نكاح لها من واحد ومُطَلق لها غير معصوم ترى فى الشريعة

وتمت بحمد الله مُبْدِية لكم سَلاماً كما أبدته فى صدر طلعة

وتقرير السؤال الثانى : أمَة أولدها سيدُها فصارت حرة ، فمات عنها السيد ، ثم تزوجها عبدُ سيدها ، فأتت ببنت ، أما لولد سيدها أن يتزوّج هذه البنت ؟ فإن الرجل له أن يتزوّج بنت زوجة أبيه من رجل غيره ، وهذه سُرِّيَّة أبيه ، فإن الإمام السيورى يمنع هذه المسألة ، وما الفرق بينهما ؟ وتصلكم أيضا إن شاء الله تعالى أُعُجَالة رجزية ، فى مآثركم السنية ، ضمنتها أشطاراً من الألفية ، فتفضلوا بالإغضاء ، وحسن الدعاء ، أن يجمع الله شملنا بكم فى تلك الأماكن المشرفة ، ثم المأمول من سيدنا ومولانا أن يتفضل علينا بكتاب « طبقات القراء » للامام الحافظ الدانى ، إذ ليس عندنا منه نسخة ، وأما تأليفكم الكثير الفوائد المسمى « بأزهار الرياض ، فى أخبار عياض ، وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض » فقد تنشر فى هذه[2] الأقطار المراكشية ، وانتسخت منه نسخ عديدة من نسخة المرحوم سيدى أحمد بن عبد العزيز بن الولى سيدى أبى عمرو ، وكسا الله سبحانه تأليفكم المذكور جلباب القبول ، فما رآه أحد إلا نسخه ، وعندى النسخة التى كتبها بخطه

(١) فى ا « على التأبيد ياخير جلة »

(٢) فى ا « انتشر بهذه الأقطار »

السيد أحمد المذكور بخط حسن ، وعلى هامشها فى بعض الأماكن خطكم الرائق ، و بعض التنبيهات من كلامكم الفائق ، وأعلمونا بتأليفكم الذى سميتموه « قطف المهتصر ، من أفنان المختصر (١) » هل خرج من المبيضة أم لا ؟ وودنا لو اتصلنا منه بنسخة ، وقد اشتاق فقهاء هذا الإقليم إليه غاية كالفقيه قاضى القضاة محبكم سيدى عيسى وغيره من أخلاء خليل ، فى كل محفل جليل ، إلى أن قال : وأنا أتمثل بكلام مولانا علىٍّ كرم الله وجهه حيث يقول ، تبركا به :

رضيت بما قسم الله لى   وفَوَّضْت أمرى إلى خالقى

كما أحْسَنَ الله فيما مضى   كذلك يُحْسِنُ فيما بقى

ولى حفظكم الله تعالى تخميس على البيتين ، وذلك أنه نزلت بى شدة لا يمكن الخلاص منها عادة ، فما فرغت من تخميسهما إلا وجاء الفرج فى الحين ، ونصه :

إذا أزمة نَزَلَتْ قِبَلى   وضِقْتُ وَضَاقَتْ بها حِيَلى

تذكرت بيت الإمام على   (رضيت بما قسم الله لى

وفَوَّضْتُ أمرى إلى خالقى)

لأن الإله اللطيف قَضَى   على خَلقه حكمه المرتضى

فسلِّم وَقُلْ قول من فوَّضا   (كما أحسن الله فيما مضى

كذلك يحسن فيما بقى)

فعذراً – أعزكم الله سبحانه ونفع بإخائكم ! – عن إغباب المراسلة بالمكاتبة عذراً ، وصبرا على بعد اللقاء صبراً ، فإن يقدر فى هذه الدار نلنا فيها ما نتمنى ، وإلا فلن نعدم بفضل الله جزاء الحسنى ، ولقاء لا يَبيدُ ولا يَفنَى ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً ، إيقاناً بالوعد وتحقيقاً ،

---

(١) قطف فلان الثمرة : اجتناها وقطعها . والمهتصر : اسم مفعول من « اهتصر فلان الغصن » إذا أماله ، وتقول : هصرته ، واهتصرته . والأفنان : جمع فنن — بفتح الفاء والنون الأولى — وهو الغصن .

فمن أوجب له محبته ، أدخله جنته ، وأحضره مأدبته ، وكَمَّلَ له أمنيته ، جعلنا الله من المتحابين فى جلاله ، بكرمه و إفضاله ! وكَتَبَهُ محبكم ومعظمكم ، الواصل حبل وده بودكم ، المشرف لعهدكم ، المنوه بفخركم ومجدكم ، العبد الفقير الحقير ، المشفق على نفسه من التقصير والذنب الكبير ، محمد بن يوسف التاملى ، غفر الله ذنبه ! وستر عيبه ! وجبر قلبه ! وجمعه بمن أحبه ! بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فى عاشوراء المحرم فاتح سنة ثمانية وثلاثين وألف ، انتهى .

وصحبة هذا المكتوب ورقة نصها : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قصيدة تتضمن أشطارا من ألفية ابن مالك كتبها للمؤلف محمد بن يوسف التاملي المغربى

لله در العالم الجَيَّانى ... كأنما ينظر بالعِيَان

للمقَّرِيِّ العالم المفضال ... مُنَظِّرا بأحسن المثال

وعالم بأننى من بعده ... أشير فى نظامنا لقصده

وها أنا بالله أستعين ... مضمناً وربُّنَا المعين

بالشطر من ألفية ابن مالك ... أيدنا الله لنسج ذلك

قال محمد عبيد المالك ... وسالك الأحسن من مسالك

نشير بالتضمين للنحرير ... المقرىِّ الفاضل الشهير

ذاك الإمام ذو العلاء والهمم ... (كَعَلَمِ الأشخاص لفظاً وهو عم)

فلن ترى فى علمه مثيلا ... (مستوجباً ثنائى الجميلا)

ومدحه عندى لازم أتى ... (فى النظم والنثر الصحيح مثبتا)

أوصاف سيدى بهذا الرجز ... (تقرب الأقصى بلفظ موجز)

فهو الذى له المعالى تعتزى ... (وتبسط البذل بوعد منجز)[1]

---

(١) فى ا « فهو الذى له المعانى تعتزى » وتعتزى : تنتسب .

رتبته فوق العلا يا من فهم	(كلامنا لفظ مفيد كاستقم)
وكم أفاد دهره من تحف	(مبدى تأولٍ بلا تكلف)
لقد رَقِى على المقام الطاهر	(كطاهر القلب جميل الظاهر)
وفضله للطالبين وجدا	(على الذى فى رفعه قد عهدا)
قد حصل العلم وحرر السير	(وما بإلا أو بإنما انحصر)
فى كل فن ماهر صفه ولا	(يكون إلا غاية الذى تلا)
سيرته جَرَتْ على نهج الهدى	(ولا يلى إلا اختياراً أبدا)
وعلمه وفضله لا ينكر	(مما به عنه مبيناً يخبر)
يقول دائما بصدر انشرح	(أُعرف بنا فإننا نلنا المنح)
يقول مرحباً لقاصديه مَنْ	(يَصِلْ إلينا يستعن بنا يُعَنْ)
صدق مقالتى وكن متبعا	(ولم يكن تصريفه ممتنعا)
وانهض إليه فهو بالمشاهده	(الخبر الجزء المتم الفائده)
والزم جنابه و إياك الملل	(إن يستطل وصل و إن لم يستطل)
واقصد جنابه ترى مآثره	(والله يقضى بهبات وافره)
وانسب له فإنه ابن مُعْطِى	(و يقتضى رضاً بغير سخط)
واجعله نُصْبَ العين والقلب ولا	(تعدل به فهو يضاهى المثلا)
قد طالما أفاد علم مالك	(أحمد ربى الله خير مالك)
وحاسد له ومبغض زمن	(وهالك ومَيِّت به قمن)
وليس يشفى مبغض له أعل	(عيناً وفى مثل هرَاوة جعل)
يقول عبد ربه محمد	(فى نحو خير القول إنى أحمد)

وهو بدهره عظيم الأمـل (مُرَوَّع القلب قليل الحيل)
فادع له وسادةٍ قد حضروا (وافعل أوافق نغتبط إذتشكر)
واجبره بالدعا عساه يغتنم (فجره وفتح عينه الـتزم)
أنشدت فيكم ذا وقال قائل (فى نحو نِعْمَ ما يقول الفاضل)
أدعو لـكم بالستر فى كل زمن (لـكونه بمضمر الرفع اقترن)
مآثر لـكم كثيرة سـوى (مامر فاقبل منه ماعَدْلٌ رَوَى)
قد انتهى تعريف ذا المعرف (وذو تمـام ما برفع يكتفى)
لأنتم تاج الأئمـة الأول (وما بجمعه عنيت قد كمل)
فالله يبقيكم لدينَا وكفى (مصلياً على الرسول المصطفى)
تَتْرَى عليـه دائمـا منعطفا (وآله المسـتكملين الشرفا)

رسالة من على ابن عبدالواحد الأنصارى

ومن ذلك ما كتبه لى بعض الأصحاب ممن كان يقرأ على بالمغرب ، وصورته : سيدنا وسيد أهل الإسلام ، حامل راية علوم الأمة الأحمدية ، على صاحبها الصلاة والسلام ، آية الله فى المعانى والمعالى ، وحسنة الأيام والليالى ، وواسطة عقود الجواهر واللآلى ، إمام مذهب مالك والأشعرى والبخارى ، والواقدى والخليل [١] ، العلامة القدوة السيد الـكبير الشهير الجليل ، ذو الأخلاق العذبة المَذَاق ، والشمائل المُفْصِحَة عن طيب الأصول والأعراق ، كبير زمانه دون منازع ، وعالم أوانه من غير منكر ولا مدافع ، شيخنا ومعلمنا ومفيدنا وحبيب قلوبنا مولانا شـيخ الشيوخ أبو العباس أحمد بن محمد المقَّرِىُّ المغربى التلمسانى نزيل فاس ثم الديار المصرية ، حفظه الله تعالى فى مواطن استقراره ! ورفع درجته بإشادة فخاره على مناره ! عن شوق يود له الـكاتب أن لو كان فى طى كتابه ، وتَوْقٍ إلى مشاهدتكم هو الغاية فى

(١) مالك : إمام أهل المدينة ، فقيه عظيم ، والأشعرى : إمام أهل السـنة ، متكلم . والبخارى : إمام أهل الحديث ، محـدث . والواقدى : مؤرخ كبير . والخليل : شيخ النحاة .

بابه ، بعد إهداء السلام المحفوف بأنواع التحيات والكرامات والبركات ، الدائم مادامت فى الوجود السكنات والحركات ، لمقامكم الأكبر ، ومَحْفِلكم الأشهر ، ومن تعلق بأذيالكم أو كان مستمطرا لنوالكم ، أو صبت عليه شآبيب أفضالكم ، من أهل ومحب وصاحب وخديم ، هذا وإنه ينهى إلى الوداد القديم ، أن أهل المغرب الأدنى والأقصى حاضرة وبادية ، كلهم يتفكهون بل يتقوتون بذكركم ، ويشتاقون لرؤية وجهكم[1] ، ويتلذذون بطيب أخباركم ، وإن كان المغرب الآن فى تفاقم أحوال ، وتراكم أهوال ، فى الغاية مدائن وبوادى ، لاسيما مدينة فاس فإنها فى شر عظيم ، وأميرها مولاى عبد الملك مات فى السنة السابعة والثلاثين بل فى ذى الحجة قبلها ، وفى المحرم من سنة سبع وثلاثين ، توفى ملك المغرب السلطان أبو المعالى زيدان وبويع من بعده ابنه مولاى عبد الملك ، وتقاتل مع أخويه الأميرين الوليد وأحمد وهزمهما ، وإلى الله عاقبة الأمور ، وأهل داركم بفاس بخير وعافية ، ونعم ضافية ، سوى ما أدركهم من طول الغيبة ، نسأل الله تعالى أن يملأ بقدومكم العَيْبة ، ومحبكم الأكبر ، ووليكم الأصغر ، سيد أهل المغرب اليوم وشيخ الطريقة ، والمربى[2] فى سلوك أهل الحقيقة ، العارف بالله الشيخ الربانى ، ذو المقامات والكرامات سيدى محمد ابن أبى بكر الدلائى[3] ، يُحَيِّيكم[4] ويعظم قدركم ، ولسانه لكم ذاكر ناشر شاكر ، وهو على خير ، وقد اجتمعت [علىَّ][5] من بركتكم فى مدينة سلا جماعة من طلاب العلم وفتح الله تعالى على بتآليف عديدة منها « كفاية الطالب النبيل ، فى حل ألفاظ مختصر خليل » ومنها شرحٌ على المنهج المنتخب للزَّقَّاق فى قواعد مالك ، ومنظومة فى أكثر من ألف بيت فى السير والشمائل ، ومنها فى رجال البخارى ولا كنسج الكلاباذى ، ومنها خطب ، وغير ذلك ، والكل من بركتكم ، ونسبته إليكم

---

(١) فى ا « وجوهكم » (٢) فى أصل ا « والمزنى »

(٣) منسوب إلى « زاوية الدلاء » بالمغرب (٤) فى ا « يحبكم ويعظم قدركم »

(٥) لاتوجد كلمة « على » فى ب ، يريد أنه قام بالتدريس لجمع كبير

فى صحيفتكم ، والسلام من ولدكم المقر بفضلكم تراب نعالكم على بن عبد الواحد الأنصارى ، لطف الله تعالى به ، وحامله كبير كبراء قومه ممن يحبكم ويعزكم[١] ، وما تفعلوا معه خير فلن تُكْفَرُوهُ ، والسلام ، انتهى .

ومنها كتاب وافانى من عَلَم قُسَنْطينة[٢] وصالحها وكبيرها ومُفْتيها سُلالة العلماء الأكابر ، ووارث المجد كابراً عن كابر ، المؤلف العلامة سيدى الشيخ عبد الكريم الفَكُّون حفظه الله ، نصه :

رسالة من الشيخ عبد الكريم الفكون مفتى قسنطينة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على من أنزل عليه فى القرآن (وإنك لعلى خلق عظيم) وآله وصحبه وسلم أفضل التسليم ، من مُدَنَّس الإزار ، المتسربل بسرابيل الخطايا والأوزار[٣] ، الراجى للتنصل منه رحمةَ العزيز الغفار ، عبد الله عبد الكريم بن محمد الفكون ، أصلح الله بالتقوى حاله ! وبلغه من متابعة السنة النبوية[٤] آماله ! إلى الشيخ الشهير ، الصدر النحرير ، ذى الفهم الثاقب والحفظ الغزير ، الأحبّ فى الله المؤاخى من أجله سيدى أبى العباس أحمد المقَّرِى ، أحمد الله عاقبتى وعاقبته ! وأسبل على الجميع عافيته ! أمّا بعد فإنى أحمد الله إليك ، وأصلى على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فإنى أحْوَجُ الناس إليه ، وأشدهم فى ظنى إلحاحا عليه ، لما تحققت من أحوال نفسى الأمّارة ، واستبطنت من دخيلائها المثابِرَة على حب الدنيا الغَرّارة ، كأنها عميت عن الأهوال ، التى أشابت رؤس الأطفال ، وقطعت أعناق كمل الرجال ، فتراها فى لُجج هواها خائضة ، وفى مَيْدَان شهواتها راكضة ، طغت فى غيها وما لانت ، وجَمَحَت فما انقادت ولا استقامت ، فوَيْلى ثم ويلى من يوم تَبْرُزُ فيه القبائح ، وتنشر الفضائح ، ومُنَادى العدل قائم بين العالمين ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ، فالله أسأل

---

(١) فى ا « يحبكم ويعرفكم » (٢) فى ا « قسمطينة »

(٣) الأوزار : الذنوب ، واحدها وزر - بكسر الواو وسكون الزاى

(٤) فى ا « السنة المصطفوية » ووقع فيها محرفا « المصطفية »

حسن الإلطاف ، والستر عما ارتكبناه من التعدى والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم ، وممن يُحْشَر تحت لواء خلاصته الكريم ، سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤف الرحيم ، ولنكفَّ من القلم عنانه ، لما أرجو من أجله ثواب الله سبحانه ، وقد اتصل بيدى جوابكم ، أطال الله فى العلم[١] بقاءكم ، فرأيت من عذوبة ألفاظكم ، و بلاغة خطابكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، و ينيلها لدى الجثوّ لسماعه سؤلها ومأمولها ، بيد ما فيه من أوصاف مَنْ أمره قاصر ، وعن الطاعة والاجتهاد فاتر ، وأصدق قول فيه عند مَخْبره ومَرْآه ، أن تسمع بالمُعَيْدى خير من أن تراه[٢] ، لكن يجازيكم المولى بحسن النية ، البلوغَ فى بحبوحة الجِنَان غاية الأمنية ، وقد ذيلتم ذلك بأبيات أنا أقل من أن أوصفَ بمثلها ، على أنى غير قائم بفَرْضها ونَفْلها ، فالله تعالى يُمِدُّكم بمعونته ، ويجعلكم من أهل مناجاته فى حضرته ، و يسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيذ مُنَادمته ، وقد ساعد البنان الجنان ، فى إجابتكم بوَزْنها وقافيتها ، والعُذرُ لى أننى لست من أهل هذا الشان ، والاعتراف بأننى جبان وأىُّ جبان ، والكمال لكم فى الرضا والقبول ، والكريم يُغْضِى عن عَوْرات الأحمق الجَهُول ، وظننا حققه الله تعالى أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعنى « إضاءة الدجُنَّة » تقييداً ، أرجو من الله توفيقاً وتسديداً ، بحسب قدرى لا على قدركم ، وعلى مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم ، و إن ساعد الأوان ، وقضى بتيسيره ربُّ الزمان ، فآتى به إن شاء الله الآجِلَ[٣] معى لأننى بالأشواق ، إلى حضرة راكب البراق ، ومخترق السبع الطباق ، وكنت عازماً على أن أبعث لكم من الأبيات أكثر من الواقع ، إلا أن الرفقة أعجلت ، وصادفتنى

---

(١) فى ا « أطال الله فى القلم بقاءكم »

(٢) مثل يضرب لمن يكون السماع عنه أفضل من منظره ، وقد اقتبسه الحريري فى قوله :

فاختر لنفسك غيرى إننى رجل ... مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

(٣) إن صحت كلمة « الآجل » فانتصابها على الظرفية ، وكأنه أصحبها معى فى العام القابل

أيام موت قعيدة البيت (١) ، فلم يتيسر عاجلا إلا ما ذكر وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبي ونعم الوكيل :

يا نُخْبة الدهر فى الدرايه علْماً تعاضده الروايه
لا زلت بحراً بكل فن يروى بهِ الطالبون غايه
لقد تصدّرت فى المعالى كما تعاليت فى العنايه
من فيك تستنظم المعانى بُلِّغْتَ فى حسنها النهايه
رَقَّاك مولاك كل مَرْقىً تحوى به القرب والولايه
أعجوبة مالها نظير فى الحفظ والفهم والهدايه
يا أحمد المقَّرِىُّ دامت بشراك تصحبها الرعايه
بجاه خير العباد طرا والآل والصحب والنُّقَايه
صلى عليه الإله تَتْرَى نُكْفَى بها الشر والغوايه

وأختم كتابى بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب بغاية عجلة يومَ السبت سابع أو ثامن رجب ، من عام ثمانية وثلاثين وألف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام ! انتهى .

كلمة عن الشيخ عبد الكريم ابن محمد القسنطيني وسلفه

والمذكور عالم المغرب الأوسط غير مدافع ، وله سلف علماء ذوو شهرة ، ولهم فى الأدب الباعُ المديد ، غير أن المذكور مائل إلى التصوّف ، ونعم ما فعل ، تقبل الله تعالى عملى وعمله ! وبلغ كلاًّ منا أمله ! ولأشهر أسلافه العلامة الشيخ حسن ابن على بن عمر الفكون القسنطينى (٢) أحد أشياخ العبدرى صاحب الرحلة قصيدة مشهورة عند العلماء بالمغرب ، وهى من در النظام ، وحُرِّ الكلام ، وقد ضمنها ذكر البلاد التى رآها فى ارتحاله من قسنطينة (٣) إلى مراكش ، وأوّلها :

---

(١) قعيدة البيت : أراد زوجته ، قال الشاعر ، وينسب إلى الحطيئة :

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى بيت قعيدته لكاع

(٢) فى ا « القسمطينى » (٣) فى ا « قسمطينة »

أَلاقُلْ للسَّرِيِّ ابْنِ السَّرِيِّ ... أبى البدر الجواد الأرْيَحِيِّ

ومنها :

وكنت أظنّ أن الناس طرا ... سوى زيد وعمرو غير شَيِّ
فلما جئت بَبْلَةَ خير دار ... أمالتنى بكل رشا أبِيِّ
وكم أورت ظباء بنى أوار ... أُوَارَ الشوق بالريق الشهى (١)
وجئت بجاية فَجَلَت بدورا ... يضيق بوصفها حرف الروىّ
وفى أرض الجزائر هام قلبى ... بمَعْسُول المراشف كوثرىّ
وفى مِلْيانة قد ذبت شوقاً ... بلين العِطْف والقَلْبِ القسىّ
وفى تَنَسٍ نسيت جميل صبرى ... وهِمْتُ بكل ذى وجه وضى
وفى مازونة ما زلت صَبًّا ... بوسنان المحاجر لوذعى
وفى وَهْرَانَ قد أمسيت رهناً ... بظامى الخصر ذى ردف رَوِيِّ
وأبدت لى تِلِمْسَانٌ بدوراً ... جلبن الشوق للقلب الخلى
ولما جئت وَجْدة هِمْتُ وجداً ... بمنخنث المعاطف معنوى
وحل رَشَا الرباط رِشَار باطى ... وتيمـــنى بطرفٍ بابلىِّ
وأطلع قطرفاس لى شموساً ... مغار بهنّ فى قلب الشجى
وما مكناسة إلّا كِناس ... لأحْوَى الطرف ذى حسن سنى
وإن تسأل عَنَ اُرض سلا ففيها ... ظباء كاسرات للكَمِيِّ
وفى مراكش ياويح قلبى ... أتى الوادى فطَمَّ على القَرِيِّ (٢)
بدور بل شموس بل صباح ... بَهِيٌّ فى بهى فى بهى

---

(١) فى أصل ا « وكم أورت ظباء بنى ورار »

(٢) عجز هذا البيت من مثل لفظه « جرى الوادى فطم على القرى » والقرى : مسيل الماء من التلاع ، ويضرب المثل للأمر العظيم يحدث فيغطى على صغائر الأمور

أبحن مصارع العشاق لما سعين به فكم مَيْتٍ وَحِيِّ(١)

بقامة كل أسمــر سَمْهرِيٍّ ومقلــة كل أبيض مشرفى

إذا أنسينــنى حسناً فإنى أنَسِّيهِمْ هوى غَيْلاَنِ مَيِّ

فها أنا قد تخذتُ الغرب داراً وأدعَى اليوم بالمراكشى

على أن اشتياقى نحو زيد كشوقك نحو عمرو بالسوى

تقسمنى الهوى شرقاً وغرباً فيا للمشرقى المغــربى

فلى قلب بأرض الشرق عانٍ وجسم حل بالغـرب القصى

فهذا بالغــدوّ يهيم غرباً وذاك يهــيم شرقاً بالعشى

فلولا الله مت هــوى وشوقاً وكم لله من لطف خفى

وقد خرجنا بالاستطراد إلى الطول ، وذلك منا استرسال مع جاذب الأدب ، فلنمسك العنان ، والله المستعان .

وما عددناه من القصائد والمقطوعات فى مدح دمشق الشام فهو غَيْض من فَيْض(٢) ، وفى نيتى أن أجمع فى ذلك كتاباً حافلا أسميه « نَشْق عَرْف دمشق » أو « مشق قلم المدح لدمشق » ولسان حالى الآن ينشد قول بعض الأكابر :

نحن فى مصر رَهْنُ شوق إليكم هل لديكم بالشام شوق إلينا

فعجزنا عن أن ترونا لديكم وأبيتم عن أن نراكم لدينا

حفظ الله عهد من حفظ العهــد ووفَّى به كما قد وَفَيْنــا

وقول ابن الصائغ :

وددت لو أن عيــنى مكان كتبى إليكم

حتى أراكم وأُمْلِي أخبار شـوقى عليكم

---

(١) وحى – على زنة فعيل – أى سريع ، وقرئ بواو العطف بعدها « حى » وصف من الحياة

(٢) يريد أنه قليل من كثير

عود إلى ترجمة ابن جبير الرحالة

رجع إلى ابن جبير رحمه الله تعالى .

ومن شعره قوله :

إياكَ والشهرة فى ملبس والبس من الأثواب أسمالها[(١)]

تواضُعُ الإنسان فى نفسه أشرف للنفس وأسْمَى لها

وقال :

تَنَزَّهْ عن العوراء مهما سمعتها صيانة نفس فهو بالحر أشبه

إذا أنت جاوبت السفيه مُشَاتَمًا فمن يتلقى الشتم بالشتم أسْفَهُ

وقال :

أقول وقد حان الوداع وأسلمت قلوب إلى حكم الأسى ومدامع :

أيارِبِّ أَهْلِي فى يديك وديعة وما عدمت صونا لديك الودائع

وقال أبو عبد الله بن الحجاج المعروف بمَدْغَلِيس صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكور :

لأبى الحسين مكارم لو أنها عُدَّتْ لما فرغت ليوم المحشر

وله على فضائل قد قصرت عن بعض نعماها عظام الأبحر

وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها :

يا وفود الله فزتم بالمنى فهنيئا لكم أهلَ مِنَى

قد عرفنا عرفات بعدكم فلهذا برّح الشوق بنا

نحن فى الغرب ويجرى ذكركم بغروب الدمع يجرى هُتَّنَا[(٢)]

ومنها :

فيناديه على شَحْطِ النَّوَى من لنا يوما فقلت مَلَّنَا

---

(١) فى ا « إياك والشهوة فى ملبس »

(٢) غروب الدمع : جمع غرب ـ بالفتح ـ وهو عرق فى العين يسقى ولا ينقطع والهتن : جمع هاتن ، وهو السائل المتقاطر ، وأصله قولهم « هتنت السماء » إذا هطلت بالمطر

سر بنا يا حادىَ الركب عسى أن نلاقى يوم جمع سِرْبنَا
ما دعا داعى النوى لما دعا غير صب شفه بَرْحُ العنا
شِمْ لنا البرق إذا لاح وقل جمع الله بجمع شَمْلَنَا
علنا نلقى خيالا منكم بلذيذ الذكر وَهْناً علنا
لو حنَا الدهر علينا لقضى باجتماع بكمُ بالمنحنى
لاح برق مَوْهِناً من نحوكم فلعمرى ما هَنَا العيش هُنَا
أنتمُ الأحباب نشكو بُعدكم هل شكوتم بُعْدَنا من بَعْدِنا

وله رحمه الله تعالى [من](١) قصيدة مطوّلة أوّلها :

لعل بشير الرضا والقبول يعلل بالوصل قلب الخليل

وله أخرى أنشدها عند استقباله المدينة المشرفة ، [على صاحبها الصلاة وأتم السلام!](١) وهى ثلاثة وثلاثون بيتا من الغر ، أولها :

أقول وآنست بالليل نارا لعل سراج الهدى قد أنارا
وإلا فما بال أفق الدجى كأن سنى البرق فيه استطارا(٢)
ونحن من الليل فى حِنْدِسٍ فما باله قد تجلَّى نهارا(٣)

وكان أبو الحسين بن جُبَير المترجم به قد نال بالأدب دنيا عريضة ، ثم رفضها وزهد فيها .

وَقال صاحب «الملتمس» فى حقه : الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جُبَير ، ممن لقيته وجالسته كثيراً ورويت عنه ، وأصله من شاطِبَة ، وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها ، ذكره ابنُ اليَسَع فى تاريخه ، ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه ، وتولع بغَرْناطه ، فسكن بها ، قال : ومما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب

---

(١) زيادة فى ا وحدها (٢) استطار : انتشر ، والسنى : الضوء
(٣) الحندس — بكسر الحاء والدال بينهما نون ساكنة — الظلام الشديد

أبا عمران الزاهد بإشبيلية :

أبا عمران قد خَلَّفْتُ قلبى لديك وأنت أهل للوديعه
صحبت بك الزمان أخا وفاء فها هو قد تَنَمَّرَ للقطيعه

قال : وكان من أهل المروآت ، عاشقا فى قضاء الحوائج ، والسعى فى حقوق الإخوان ، والمبادرة لإيناس الغرباء ، وفى ذلك يقول :

يحسب الناس بأنى متعب فى الشفاعات وتكليف الورى
والذى يتعبهم من ذاك لى راحة فى غيرها لن أفكرا
وبودى لو أقضِّى العمر فى خدمة الطلاب حتى فى الكَرَى

قال: ومن أبدع ما أنشده رحمه الله تعالى أول رحلته :

طال شوقى إلى بقاعٍ ثلاث لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إليها[1]
إن للنفس فى سماء الأمانى طائراً لا يَحُوم إلا عليها
قُصَّ منه الجناح فهو مَهِيضٌ كلَّ يوم يرجو الوقوع لديها

وقال :

إذا بلغ العبد أرض الحجاز فقد نال أفضل ما أمَّهُ[2]
فإن زار قبْرَ نبى الهدى فقد أكمل الله ما أمّله

وعاد رحمه الله تعالى إلى الأندلس بعد رحلته الأولى التى حلّ فيها دمشق والموصل وبغداد ، وركب إلى المغرب من عكا مع الإفرنج ، فعطب فى خليج صقلية الضيق ، وقاسى شدائد إلى أن وصل الأندلس سنة ٥٨١ ، ثم أعاد المسير إلى المشرق بعد مدة إلى أن مات بالإسكندرية كما تقدم .

ومن شعره أيضا :

---

(١) أخذ هذا من قوله صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، وبيت المقدس »

(٢) أم : قصد ، وفي هذا البيت مع البيت بعده جناس ظاهر

لى صديق خسرتُ فيه ودادى حين صارت سلامتى منه ربحا

حَسَنِ القول سيىء الفعل كالجـــزار سَمَّى وأتبـع القول ذَبْحـا

وحدّث رحمه الله تعالى بكتاب « الشفاء » عن أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى عن القاضى عياض ، ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى وأبو الحسين يحيى بن على القرشى .

وتوفى ابن جُبَير بالإسكندرية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ ، والدعاء عند قبره مستجاب ، قاله ابن الرقيق رحمه الله تعالى وقال ابن الرقيق : فى السنة بعدها .

وقال أبو الربيع بن سالم : أنشـدنى أبو محمد عبد الله بن التميمى البجائى ، ويعرف بابن الخطيب ، لأبى الحسين ابن جبير ، وقال : وهو مما كتب به إلىَّ من الديار المصرية فى رحلته الأخيرة لما بلغه ولايتى قضاء سِـبْتَةَ ، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك ، وتوفيت هنالك زوجته بنت أبى جعفر الوَقَّشِى فدفنها بها :

بسبتة لى سَكَنٌ فى الثَّرى وخِلٌّ كريم إليها أتى

فلو أستطيع ركبت الهوا فزرت بهـــا الحىَّ والميتا

وأنشد ابنُ جبير رحمه الله تعالى لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى إلى غَرْناطة ، أو فى طريقها قوله :

لى نحو أرض المنى من شرق أندلس شوق يؤلف بين المـاء والْقَبَس[1]

إلى آخرها .

ومن شعره قوله :

يا خَيْرَ مولى دعاه عَبْـدٌ أعمل فى الباطل اجتهاده

---

(١) القبس — بفتح القاف والباء جميعاً — القطعة من النار ، وفي الكتاب العزيز (لعلى آتيكم منها بقبس)

هَبْ لىَ ما قد علمت منى　　　يا عالم الغيب والشهادهْ

وقال رحمه الله تعالى :

وإنى لأوثر مَنْ أصطفى　　　وأغْضِى عَلَى زلة العاثر
وأهوى الزيارة ممن أحب　　　لأعتقد الفضل للزائر

وقال رحمه الله تعالى :

عجبت للمرء فى دنياه تطمعه　　　فى العيش والأجَلُ المحتوم يقطعه
يُمْسى ويصبح فى عَشْوَاء يخبطها　　　أعمى البصيرة والآمالُ تخدعه
يَغْتَر بالدهر مسرورا بصحبته　　　وقد تيقن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه　　　وقد درى أنه للغير يجمعه
تراه يُشْفِقُ من تضييع درهمه　　　وليس يشفق من دِينٍ يضيعه
وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبة　　　مَنْ أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال :

صبرت على غدر الزمان وحقده　　　وشاب لىَ السم الذُّعَافَ بشَهْده(١)
وجَرَّبت إخوان الزمان فلم أجد　　　صديقا جميل الغيب فى حال بعده
وكم صاحب عاشرته وألفته　　　فما دام لى يوما على حسن عَهْدِهِ
وكم غرنى تحسين ظنى به فلم　　　يضىء لى على طول اقتداحى لزنده
وأغرب من عَنْقاء فى الدهر مُغْرِب　　　أخو ثقة يسقيك صافى وده
بنفسك صادم كلَّ أمر تريده　　　فليس مضاء السيف إلا بحده
وعَزْمَكَ جَرِّدْ عند كل مهمة　　　فما نافع مُكْثُ الحسام بغِمْدِهِ
وشاهدت فى الأسفار كل عجيبة　　　فلم أر من قد نال جَدًّا بجِدّه

(١) شاب : خلط ، والسم الذعاف ـ بضم الذال ، بزنة الغراب ـ هو القاتل السريع القتل ، والشهد ـ بفتح الشين أو ضمها ـ هو العسل ، يريد أنه خلط لى الآمال بالمعاطب والمهالك حتى لا أبلغها .

فكن ذا اقتصاد فى أمورك كلها ... فأحْسَنُ أحوال الفتى حسن قصده

وما يحرم الإنسان رزقا لعجزه ... كما لا ينال الرزق يوما بكَدِّهِ

حظوظ الفتى من شقوة وسعادة ... جرت بقضاء لا سبيل لرده

وقال :

الناسُ مثل ُظروفٍ حَشْوُهَا صَبِرٌ ... وفوق أفواهها شىء من العسل

تَغُرُّ ذائقها حتى إذا كشفت ... له تبين ماتحويه من دَخَلِ

وقال :

تغير إخوان هذا الزمان ... وكل صديق عَرَاه الخلل

وكانوا قديما على صحة ... فقد داخَلَتْهُمْ حروف العلل[1]

قضيت التعجب من أمرهم ... فصرت أطالع باب البدل[2]

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور ، ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر ، وهو قوله :

ثَكِلْتُ أخِلاَّء هذا الزمان ... فعندىَ مما جَنَوْه خلل

قضيت التعجب من شأنهم ... فصرت أطالع باب البدل[2]

ولابن جبير رحمه الله تعالى :

من الله فاسأل كل أمر تريده ... فما يملك الإنسان نفعاً ولا ضرا

ولا تتواضع للولاة فإنهم ... من الكِبْرِ فى حالٍ تموج بهم سكرا

وإياك أن ترضى بتقبيل راحة ... فقد قيل عنها إنها السجدة الصغرى

وهو نحو قول القائل :

[قل لنصر والمرء فى دولة السلطان أعمى ما دام يدعى أميرا][3]

---

(١) هذا من اصطلاح علماء الصرف ، وأراد أنهم قد انطووا على فساد الدخيلة

(٢) وهذا من اصطلاح علماء النحو ، وأراد أنه يفكر فى الاستبدال بهم

(٣) سقط هذا البيت والذى بعده من ا

[فإذا زالت الولاية عنه   واستوى بالرجال عاد بصيرا]

[وقال ابن جبير، رحمه الله تعالى] (١) :

أيها المستطيل بالبغى أقصر   ربما طأطأ الزمان الرءوسا
وتذكر قول الإله تعالى   (إن قارون كان من قوم موسى)

وقال، وقد شهد العيد بطندتة من قرى مصر :

شهدنا صلاة العيد فى أرض غربة   بأحواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لخلى فى النوى جد بمدمع   فليس لنا إلا المدامع قربان

وقال :

قد أحدث الناس أموراً فلا   تعمل بها إنى امرؤ ناصح
فما جماع الخير إلا الذى   كان عليه السلف الصالح

وقال :

رب إن لم تؤتنى سعة   فاطو عنى فضلة العمر
لا أحب اللبث فى زمن   حاجتى فيه إلى البشر
فهم كسر لمنجبر   ماهم جبر لمنكسر

ولما وصل ابن جبير - رحمه الله تعالى! - إلى مكة فى (٢) ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ أنشد قصيدته التى أولها :

بلغت المنى وحللت الحرم   فعاد شبابك بعد الهرم
فأهلا بمكة أهلا بها   وشكراً لمن شكره يلتزم

وهى طويلة، وسيأتى بعضها .

وقال رحمه الله تعالى عند تحركه للرحلة الحجازية :

---

(١) سقطت هذه العبارة أيضاً من ا

(٢) هكذا فى ب ونسخة عندا، وفي أصل ا « ١٣ ربيع الآخر »

أقول وقد دعا للخير داع حننت له حنين المستهام
حرام أن يلذ لى اغتماض ولم أرحل إلى البيت الحرام
ولا طافت بى الآمال إن لم أطف مابين زمزم والمقام
ولا طابت حياة لى إذا لم أزر فى طيبة خَيْرَ الأنام
وأهديه السلام وأقتضيه رضاً يدنى إلى دار السلام

وقال :

هنيئاً لمن حَجَّ بيتَ الهدى وحَطَّ عن النفس أوزارها
و إن السعادة مضمونة لمن حج طيبة أوزارها

ولنختم ترجمته بقوله :

أحب النبى المصطفى وابن عمه عليا وسِبْطَيه وفاطمة الزهرا
همُ أهل بيت أذهب الرجسُ عنهمُ وأطلعهم أفْقُ الهدى أنجما زهرا
مُوَالاتهم فرض على كل مسلم وحبهمُ أسنى الذخائر للأخرى
وما أنا للصَّحْبِ الكرام بمبغض فإنى أرى البغضاء فى حقهم كفرا
هُمُ جاهدوا فى الله حق جهاده وهم نصروا دين الهدى بالظُّبَا نصرا (١)
عليهم سلام الله مادام ذكرهم لدى الملإ الأعلى وأكرم به ذكرا

وقوله فى آخر الميمية :

نبى شفاعته عصمة فيوم التنادى به يعتصم (٢)
عسى أن تجاب لنا دعوة لديه فنكفى بها ما أهم
ويرعى لزواره فى غد ذِمَاماً فمازال يرعى الذِّمَمْ
عليه السلام ، وطوبى لمن ألم بتربته فاستلم
أخى كم نُتَابع أهواءنا ونخبط عشواءها فى الظلم (٣)

(١) الظبا — بضم الظاء — جمع ظبة ، وهى حد السيف

(٢) يوم التناد : يوم القيامة ، وقد سمى بذلك فى القرآن ، ويعتصم : يتخذ عصمة وملجأ ووزراً

(٣) فى ب « ونخبط عشواءنا فى الظلم » وأثبتنا ما فى ا

رويدك جرت فَعُجْ واقتصد   أمامك نهج الطريق الأعم
وتُبْ قبل عض بنان الأسى   ومن قبل قَرْعِكَ سنَّ الندم

ومنها :

وقل رَبِّ هَبْ رحمة فى غد   لعبد بسيما العصاة اتسم[1]
جرى فى ميادين عصيانه   مسيئاً ودان بكفر النعم
فيارب صَفْحَكَ عما جنى   ويا رب عفوك عما اجترم

أبو عامر ابن عيشون

ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الأديب أبو عامر بن عيشون .

قال الفتح : رجل حَلَّ المشيَّدَات[2] والبلاقع ، وحكى النسرين الطائر والواقع ، واستدرَّ خِلْفَى البؤس والنعيم ، وقعد مَقْعَدَ البائس والزعيم ، فآونة فى سماط ، وأخرى بين درانك وأنماط ، ويوماً فى ناووس ، وأخرى فى مجلس مأنوس ، رحل إلى المشرق فلم يحمد رحلته ، ولم يعلق بأمل نحلته[3] ، فارتد على عقبه ، ورُدَّ من حبالة[4] الفوت إلى منتظره ومرتقبه ، ومع هذا فله تحقق بالأدب ، وتدفق طبع إذا مدح أو نسب ، وقد أثبتُّ له ما تعلم حقيقة نفاذه ، وترى سرعة وخده فى طريق الإحسان و إغذاذه[5] .

ثم قال : وأخبرنى أنه دخل مصر وهو سارٍ فى ظلم البوس ، عار من كل لبوس ، قد خلا من النقد كيسه ، وتخلى عنه إلا تعذيره وتنكيسه ، فنزل بأحد شوارعها لا يفترش إلا نكده ، ولا يتوسَّدَ إلا عضده ، وبات بليلة ابن عبدل[6] ، تهب عليه صرصر

---

(١) السيما ــ بكسر السين ــ العلامة ، واتسم : افتعل من الوسم وهو العلامة

(٢) المشيدات : الأبنية المرفوعات ، ووقع فى ا « المسيدات » بالسين مهملة ــ تحريف . والبلاقع : الخالية القفر ، واحدها بلقع ، بزنة جعفر

(٣) فى ب « ولم يعلق بأنامل نحلته » وأثبتنا ما فى ا والمطمح

(٤) فى ب « وارتد من حباله الفوت »   (٥) الوخد والإغذاذ : ضربان من السير السريع   (٦) ابن عبدل : هو الحكم بن عبدل الأسدى ، شاعر أموى أكثر من وصف سوء حاله بالليل كقوله :

قد بات همى قرنا أكابده   كأنما مضجعي على حجر

لا ينفح منها عنبر ولا مندل . فلما كان من السحر دخل عليه ابن الطوفان فأشفق لحاله ، وفرط إمحاله ، وأعلمه أن الأفضل بن أمير الجيوش استدعاه ، ولو ارتاد جوده بقطعة يغنيها له لأخْصَبَ مَرْعَاه ، فصنع له فى حينه :

قل للملوك وإن كانت لهم هِمَم تأوى إليها الأمانى غيرَ متَّئِدِ
إذا وصلت بشاهنْشَاه لى سَبَباً فلَنْ أبالى بمن منهم نَفَضْتُ يدى
مَنْ وَاجَهَ الشمسَ لم يَعْدِل بها قمرا يعشو إلى ضوئه لو كان ذا رَمَدِ

فلما كان من الغد وافاه فدفع إليه خمسين مثقالا مصرية وكسوة وأعلمه أنه غناه ، وجود الإظهار للفظه ومعناه ، وكرره ، حتى أثبته فى سَمْعه وقرره ، فسأله عن قائله فأعلمه بقلته ، وكلمه فى رفع خَلَّته (١) ، فأمر له بذلك .

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

قصَدْتُ على أن الزيارة سُنـــة يؤكِّدُهَا فَرْض من الود واجبُ
فألفَيْتُ باباً سَهَّــل الله إذْنَهُ ولـٰكِنْ عليه من عُبُوسك حاجبُ
مَرِضْتَ ومَرَّضْتَ الكلام تثاقلا إلىّ إلى أن خِلْتُ أنك عاتِبُ
فلا تتكلف للعبـــوس مشقة سأرضيك بالهجران إذ أنت غاضب
فلا الأرض تُدْمِيرٌ ولا أنت أهلها ولا الرزق إن أعْرَضْتَ عنِّىَ جانب

وله يستعتبنى :

كتبتُ ولو وَفَّيْتُ برك حقـــه لما اقتصرت كفى على رقم قرطاس
ونابَتْ عن الخط الخُطَا وتبادرت فطَوْرًا على عينى وطورًا على راسى
سلِ الكأسَ عنى هل أدِيرَتْ فلم أصُغْ مديحكَ ألحانا يسوغ بها كاسى
وهل نَافحَ الآس الندامى فلم أذع ثنائىَ أذكى من منافحة الآس

أبو مروان عبدالملك بن زيادة الله الطبنى

ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو مروان الطبُنِى ، وهو عبد الملك ابن زيادة الله .

(١) الخلة — بفتح الخاء — الفقر ، ومن أمثالهم « الخلة تدعو إلى السلة »

قال فى الذخيره : كان أبو مروان هذا أحَدَ حُماة سَرْح الكلام ، وحَمَلة ألوية الأقلام ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر ، اشتهار المنازل بالبَدْرِ ، أراهم طرؤا على قُرْطُبة قبل افتراق الجماعة ، وانتثار [(١)] شَمْل الطاعة ، وأناخوا فى ظلها ، ولحقوا بسَرَوَات أهلها ، وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمى الطُبْنِي هو أوّل من بنى بيت شرفهم ، ورفع فى الأندلس صوته بنباهة سلفهم .

قال ابنُ حيان [(٢)] : وكان أبو مُضَر نديم محمد بن أبى عامر أمتع الناس حديثا ومشاهدة ، وأنصفهم ظرفا ، وأحذقهم بأبواب الشَّحْذ والملاطفة ، وآخذهم بقلوب الملوك والجِلّة ، وأنظمهم لشمل إفادة ونُجْعة ، انتهى المقصود منه .

ثم قال فى الذخيرة : فأمّا ابنه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية ، ورحل المشرق ، وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز ، وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، انتهى .

وقد ذكر قصة قتله المستبشعة واتهم باغتياله ابنه .

ومن نظم أبى مروان الطُّبْنِي المذكور ماوجده صاحب الذخيرة فى بعض التعاليق بخط بعض أدباء قرطبة قال : لما عَدَا أبو عامر أحمد بن محمد بن أبى عامر على الحَذْلَمى فى مجلسه وضربه ضربا موجعا ، وأقرّ بذلك أعين مطالبيه ، قال أبو مروان الطُّبْنِي فيه :

شكرت للعامرىِّ ما صنعا ... ولم أقل للحُذَيْلمِيِّ لَعَا
ليث عَرِين عدا بعزته ... مفترسا فى وِجاره ضَبُعَا
لا برِحَتْ كفه ممكَّنة ... من الأمانى فنعم ما صنعا
وددت لو كنت شاهداً لهما ... حتى ترى العين ذُلَّ ما خضعا

---

(١) الانتثار : التفرق ، ووقع فى ا « وانتشار شمل الطاعة »
(٢) فى ب « قال أبو حيان »

إن طال منه سجوده فلقد طال لغير السجود ما ركعا

قال ابن بسام : وابن رشيق القائل قبله :

كم ركعة ركَعَ الصَّفْعانَ تحت يدى ولم يقل سمع الله لمن حمده(١)

ثم قال ابن بسام فى الذخيرة مانصه : والعَرَبُ تقول « فلان يركع لغير صلاة » إذا كنوا عن عَهْر الخلوة ، ومن مليح الكناية لبعض المتقدّمين يخاطب امرأته :

قلت:التشيُّعُ حُبُّ أصْلَعِ هاشم فترفَّضِى إن شئت أو فتشيعى

قالت:أصَيْلِعُ هاشم ، وتنفسَّتْ بأبى وأمى كل شىء أصلع

ولما صنت كتابى هذا من شين الهجاء ، وكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء ، أجريت ههنا طَلَقاً من مليح التعريض ، فى إيجاز القريض ، مما لأدب على قائليه ، ولا وَصْمَة عظمى على من قيل فيه ، والهجاء ينقسم قسمين : فقسم يسمونه هجو الأشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابا مُقْذِعا ، ولا هجواً مستبشعاً ، وهو طأطأ قديماً من الأوائل ، وثَلَّ عرش القبائل ، إنما هو توبيخ وتعيير ، وتقديم وتأخير ، كقول النجاشى فى بنى(٢) العَجْلان ، وشهرة شعره ، منعتنى عن ذكره ،واستعْدَوْا عليه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وأنشدوه قول النجاشى فيهم ، فدرأ الحد بالشبهات ، وفعل ذلك بالزبرقان حين شكا الحطيئة ، وسأله أن ينشد ماقاله فيه ، فأنشده قوله :

الهجاء على قسمين

دعِ المكارمَ لا تَرْحَل لبغيتها واقعُدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

فسأل عن ذلك كعبَ بن زهير ، فقال : والله ماأودُّ بماقال له حمر النعم ، وقال حسان : لم يَهْجُه ، ولكن سَلَحَ عليه بعد أن أكل الشُّبْرُمَ ، فهمَّ عمر رضى الله تعالى عنه بعقابه ، ثم استعطفه بشعره المشهور .

---

(١) فى ا « كم ركعة ركع الضبعان » والصفعان ــ بالفاء ــ الرجل الذى يصفع كثيراً : أى يضرب على قفاه

(٢) النجاشى : قيس بن عمرو الحارثى ، شاعر من شعراء صدر الإسلام ، ماجن خليع هجا بنى العجلان بكلمة قال فى آخرها :

وما سمى العجلان إلا لقوله : خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

وقال عبد الملك بن مروان يوما : أحسابكم يا بنى أمية ، فما أود أن يكون لى ماطلعت عليه الشمس وأن الأعشى قال فى .

تبيتون فى المَشْتَى مِلاَءً بطونكم   وجاراتكم غَرْثَى يبتن خمائصا[1]

ولما سمع علقمة بن عُلاَثه هذا البيت بكى ، وقال : أنحن نفعل هذا بجاراتنا ؟ ! ودعا عليه ، فماظنك بشىء يُبكى علاثة ، وقد كان عندهم لو ضرب بالسيف ماقال حَسْ .

وقد كان الراعى يقول : هجوت جماعة من الشعراء ، وما قلت فيهم ما تستحيي العذراء أن تنشده فى خدرها

ولما قال جرير :

فغضُّ الطّرْف إنك من نُمَير   فلا كَعْباً بلغت ولا كلابا[2]

أطفأ مصباحه ونام ، وقد كان بات ليلتَه يتململ ، لأنه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه .

قال الراعى : فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء مُن مياه العرب إلا وسمعنا البيت قد سبقنا إليه ، حتى أتينا حاضر بنى نمير فخرج إلينا النساء والصبيان يقولون : قبحكم الله وقبح ما جئتمونا به !

والقسم الثانى : هو السباب الذى أحدثه جرير أيضا وطبقته ، وكان يقول : إذا هجوتم فأضحكوا ، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ، ولا عُيرت به قبيلة ، وهو الذى صُنّاً هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه ، فإن أبا منصور الثعالبىّ كتب منه فى يتيمته ما شانَهُ اسْمُه ، و بقى عليه إثمه .

ومن مليح التعريض لأهل أفقنا قولُ بعضهم فى غلام كان يصحب رجلا يسمى بالبَعُوضة :

(١) خمائص : جمع خميص ، وهى الضامرة البطن ، وأراد الجوعانة التى لم تذق طعاما ، يرميهم بالبخل والأثرة والشره

(٢) هذا بيت من قصيدة طويلة أولها قوله :

أقـلى اللوم عاذل والعتابا   وقولى ، إن أصبت ، لقد أصابا

أقولُ لشادنكم قولة ولكنَّها رمزة غامضة
لزومُ البعوضِ له دائما يدل على أنها حامضة

وأنشدت فى مثله قول بعض أهل الوقت :

بَيْنى و بينك سرٌّ لا أبوحُ الكل يعلمه والله غافره

وحكى أبو عامر بن شُهَيد عن نفسه قال : عاتبت بعض الإخوان عتابا شديدا عن أمر أوجع فيه قلبى ، وكان آخر الشعر الذى خاطبته به هذا البيت :

و إنى على ماهاج صَدْرى وغاظنى ليأمَنُنى من كان عندى له سِرُّ

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد ، ولم يزل يقلق به حتى بكى إلى منه بالدموع ، وهذا الباب ممتدّ الأطناب ، و يكفى مامر و يمرّ منه فى أضعاف هذا الكتاب ، انتهى كلام ابن بسام فى الذخيرة بلفظه .

وصف كتاب « الذخيرة » لابن بسام وأنه عارض به يتيمة الثعالبى

ولا خفاء أنه عارض بالذخيرة يتيمةَ الثعالبى ، ولذا قال فى خطبة الذخيرةِ : أما بعد حمد الله ولى الحمد وأهله ، والصلاة على سيدنا محمد خاتم رُسْله ، فإن ثمرة هذا الأدب ، العالى الرتب ، رسالة تنثر وترسل ، وأبيات تنظم وتفصل ، تنثال تلك انثيال القِطَار[١] ، على صفحات الأزهار ، وتتصل هذه اتصال القلائد ، على نُحور الخرائد[٢] ، ومازال فى أفقنا هذا الأندلسى القصىِّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفَنَّين ، وأئمة النوعين ، قوم هم مَا هم طيب مَكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة مَوَارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدجُنِّ بجُفُون المؤرق ، وجدّوا بفنون السحر المنمق ، جدّ الأعشى ببنات المُحَلَّق[٣] ، فصبوا على قوالب النجوم ، غرائبَ المنثور والمنظوم ، وباهوا غرَر الضحى والأصائل ، بعجائب الأشعار والرسائل ، نثرلو رآه البديع[٤] لنسى اسمه ، أو اجتلاه ابنُ هلال لولاه حكمه[٥] ، ونظم

(١) تنثال : تتتابع ، والقطار : جمع قطرة ، وأراد المطر

(٢) الخرائد : جمع خريدة ، وأصلها اللؤلؤة التى لم تثقب ، ويستعيرونها للمرأة البكر الخفرة (٣) الأعشي : ميمون بن قيس ، صناجة العرب ، وله فى مدح بنات المحلق قصيدة اشتهرت منذ قيلت حتى تزوج بنات المحلق كلهن بسببها وكن لا يخطبهن أحد .

(٤) أراد بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات والرسائل والشعر البليغ

(٥) يريد أبا إسحاق الصابى صاحب الرسائل النادرة

لو سمعه كُثَيِّر (١) مانَسب ولامدح ، أو تتبعه جَرْوَل (٢) ما عوى ولا نبح ، إلا أن أهل هذا الأفق أبَوْا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المُعَادة ، رجوعَ الحديث إلى قتَادة (٣) ، حتى لو نعَق بتلك الآفاق غُراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجَثَوْا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتابا مُحْكما ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصيَّة ، ومناخ الرَّذِيَّةِ (٤) ، لايعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجَمْع ماوجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدورهُ أهلة ، وتصبح بحوره ثمادا مضحملة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديما ضيعوا العلم وأهله ، ورُبَّ محسن مات إحسانه قبله ، وليت شعرى مَنْ قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالإحسان ، وقد كتبت لأرباب هذا الشان ، من أهل الوقت والزمان ، محاسن تبهر الألباب ، وتسحر الشعراء والكتاب ، ولم أعرض لشىء من أشعار الدوله المروانية ، ولا المدائح العامرية ، إذ كان ابن فرج الجيَّانى قد رأى رأيى فى النَّصَفة ، وذهب مذهبى من الأنفة ، فأملى فى محاسن أهل زمانه كتابَ الحدائق معارضا لكتاب الزهرة للأصبهانى ، فأضربت أنا عما ألف ، ولم أعرض لشىء مما صنف ، ولا تعدَّيت أهل عصرى ، مما شاهدته بعمرى أو لحقه أهل دهرى ، إذ كل مُرَدَّدٍ ثقيل ، وكل متكرر مملول ، وقد مَجَّت الأسماع :

* يادارمية بالعلياء فالسند *

إلى أن قال بعد ذكره أنه يسوق جملة من المشارقة مثل الشريف المرتضى والقاضى عبد الوهاب والوزير ابن المغربى وغيرهم ممن يطول ، ماصورته : وإنما

---

(١) كثير : هو كثير بن عبد الرحمن ، المشهور بكثير عزة، وهو بضم الكاف وفتح الثاء وتشديد الياء المكسورة (٢) جرول : هو الحطيئة

(٣) قتادة : هو ابن دعامة السدوسى ، أحفظ أهل العراق .

(٤) الرذية : الناقة المجهودة التي أنهكها السير ، وفى ا «الردية» وفى ب «المزية»

ذكرت هؤلاء انتساء بأبى منصور ، فى تأليفه المشهور ، المترجم بيتيمة الدهر ، فى محاسن أهل العصر ، انتهى المقصود منه .

قلت : وتذكرت بما أنشده[١] فى الهجاء قول الباقعة الشاعر المشهور أبى العباس أحمد الغفجومى الشهير بالجُوَارى[٢] وعامة الغرب يقولون الجراوى يهجو قومه بنى غفجوم وهم بربر بتادلا متوصلا بذلك إلى هجو أصلاء فاس بنى الملجوم ، ومستطردا فى ذلك ما هو فى اطراده كالماء السجوم ، وهو [قوله] :

يا ابن السبيل إذا مررت بتادَلاَ ... لاتنزلَنَّ على بنى غفجوم

أرض أغار بها العدو فلن ترى ... إلا مجاوبة الصدى للبوم

قوم طووا ذكر السماحة بينهم ... لكنهم نشروا لواء اللومِ

لاحظ فى أموالهم ونوالهم ... للسائل العافى ولا المحروم

لايملكون إذا استبيح حريمهم ... إلا الصُّرَاخَ بدعوة المظلوم

ياليتنى من غيرهم ولو أنُنى ... من أرض فاس من بنى الملجوم

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن أحد بنى الملجوم قضاة فاس وأصلائها بيعت أوراق كتبه التى هى غير مجلدة بل متفرقة بستة آلاف دينار ، ويكفيك ذلك فى معرفة قدر القوم ، ومع ذلك هجاهم بهذا ، والله سبحانه يغفر الزلات .

رجع إلى ما كنا فيه من ذكر من ارتحل من علماء الأندلس إلى البلاد المشرقية المحروسة ، فنقول :

حبيب ابن الوليد ابن حبيب

ومنهم حبيب بن الوليد بن حبيب الداخل إلى الأندلس ابن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان .

من أهل قرطبة ، ويعرف بدَحُّون [رحل إلى المشرق[٣]، وكان فقيهاً عالما ،

---

(١) في ا « وتذكرت ما أنشده »

(٢) فى ب « بالجذامى » وفى نسخة عندنا « بالجورائى »

(٣) هكذا في ب بتكرار هذه الجملة ، وسقط من ا ما وضعناه بين المعقوفين

أديباً شاعراً محسناً ، و] رحل إلى المشرق أيام عبدالرحمن بن الحكم ، وحج ، ولقى أهل الحديث فكتب عنهم ، وقدم[1] بعلم كثير ، وكانت له حلقة بجامع قرطبة يسمع الناس فيها ، وهو يلبس الوشى الشامى ، إلى أن أوصى إليه الأمير عبد الرحمن بترك ذلك ، فتركه ، وتوفى بعد المائتين .

ومن شعره قوله :

قال العذول : وأين قلبك ؟ كلما ... رُمْتُ اهتداءك لم يزل متحيرا

قلت : اتئد فالقلب أول خائن ... لما تغير مَنْ هَوِيتُ تغيرا

ونأى فبان الصبر عنى جملة ... و بقيت مسلوب العزاء كما ترى

ومن ولده سعيد بن هشام ، وكان أديباً عالماً فقيهاً ، رحم الله تعالى الجميع ! .

ودخل دمشق وطنهم الأقدم وعاملها يومئذ للمعتصم بن الرشيد عمر بن فرج الرُّخَّجِى ، فوافق دخوله إياها غلاء شديدا ومجاعة أشكت أهلها ، فضجوا إلى الرخجى أن يخرج عنهم من عندهم من الغرباء القادمين عليهم من البلاد ، فأمر بالنداء فى المدينة على كل مَنْ بها من طارئ وابن سبيل ليخرجوا عنها ، وضرب لهم أجلا ثلاثة أيام أوعد من تخلف منهم بعدها بالعقاب ، فابتدر الغرباء[2] الخروجَ عنها ، وأقام دَحُّون لم يتحرك ، فجىء به إلى الرخَّجِى بعد الأجل ، فقال له : مابالك عصيت أمرى ؟ أو ماسمعت ندائى ؟ فقال له دَحُّون : ذلك النداء الذى وقفنى ، فقال له : وكيف ؟ فانتمى له ، فقال له الرخَّجِى : صدقت والله إنك لأحَقُّ بالإقامة فيهامنا ، فأقم ما أحببتَ ، وانصرف إذا شئت .

وكان لدحُّون هذا ابن يقال له بشر بن حبيب ، و يعرف بالحبيبى ، وهو من المشهورين بقرطبة ، وأمه المدنية الراوية عن مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه !

---

(١) فى أصل ا « وقفل بعلم كبير »

(٢) ابتدروا الخروج: أسرعوا إليه.

و بنته عَبْدَة بنت بشر مشهورة ، ولها رواية عنه ، رحم الله تعالى الجميع ! .

بهلول بن فتح الإقليشي

ومنهم بهلول بن فتح من أهل إقليش ، له رحلة حج فيها ، وكان رجلا صالحاً خيراً ، حكى عن نفسه أنه رأى فى منامه بعد قدومه من الحج كأنه بمكة وقائل يقول : انطلق بنا نصلِّ مع النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فكنت أقول لرجل من جيرانى بإقليش : ياأبا فلان انطلق بنا نصلِّ مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فيقول لى : لست أجد إلى ذلك سبيلا ، فكنت أتوجه وأصلى مع الناس والنبى صلى الله عليه وسلم إمامنا ، فلما سلم من الصلاة رجع إلى وقال لى : من أين أنت ؟ قلت له : من الأندلس ، فكان يقول : من أى موضع ؟ فكنت أقول : من مدينة إقليش ، فيقول لى : أتعرف أبا إسحاق البوَّانى ؟ فكنت أقول : هو جارى ، وكيف لا أعرفه ؟ فيقول لى : أقرئه منى السلام .

ثابت بن أحمد الشاطبي

ومنهم أبو الحسن ثابت بن أحمد بن عبد الولى(١) ، الشاطبى .

روى عن أبى زيد عبد الرحمن بن يعيش المهرى(٢) ، ورحل حاجا ، فسمع منه بالإسكندريه أبو الحسن بن المفضل المقدسى ، وحدث عنه بالحديث المسلسل فى الأخذ باليد عن ابن يعيش المذكور عن أبى محمد عبد العزيز بن عبد الله بن سعيد ابن خلف الأنصارى عن أبى الحسن طاهر بن مُفَوِّز ، وعليه مداره بالأندلس ، عن نصر السمرقندى بإسناده ، وفيه بعد ، قال الحافظ بن الأبار : وقد رويته مسلسلا من طرق بعضها عن ابن المفضل ، وأنبأنى به ابن أبى جَمْرة(٣) عن أبى بحر الأندلسى(٤) ، عن نصر السمرقندى ، فصار ابن المفضل بمنزلة من سمعه ممن سمعه منى ، والحمد لله تعالى ، انتهى .

---

(١) فى نسخة « بن عبد المولى »

(٢) كذا فى ا ، وفى ب « المهروى »

(٣) كذا فى ا ، وفى ب «ابن أبى حمزة » وفى نسخة عند ا « حمرة » .

(٤) فى ا « الأسدى » وكلاهما صحيح .

أبو أحمد جعفر ابن لب اليحصبي

ومنهم أبو أحمد جعفر بن لُبّ بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس بن ميمون ، اليحصبي .

سكن شاطبة ، وأصله من أنشيان عملها ، ويكنى أبا الفضل أيضاً ، حج وسمع أبا طاهر بن عوف والحافظ السِّلَفى وأبا عبد الله بن الحضرمى وأبا الثناء الحرانى وبدر بن عبد الله الحبشى وأبا الحسن[1] بن المفضل وغيرهم ، وكان من أهل العناية بالرواية مع الصلاح والعدالة ، حسن الخط ، جيد الضبط ، سماه التُّجِيبى فى معجم مشيخته وهو فى عداد أصحابه لاشتراكهما فى السماع بإسكندرية وتركه هنالك ، ثم قدم عليه تلمسان من شاطبة فى أضحى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وحكى مما أفاده عن ابن المفضل أن أبا عبد الله الكيزانى ــ وكان شاعرا مجيدا ــ أتته امرأة مات ولدها ، فسألته أن يرثيه ، فقال :

تبكى عليه بشَجْوٍ ... فقلت لا تَنْدُبِيهِ

هذا زمان عجيب ... قد عاش مَنْ مات فيه

وأخذ عنه الحافظ أبو الربيع بن سالم وقال : إنه توفى بعد التسعين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى ! .

أبو أحمد جعفر ابن عبد الله الخزاعى ، العابد

ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه ، الخزاعى ، العابد .

من أهل قسطنطانية عمل دانية ، أخذ القراآت عن ابن هذيل ، وسمع منه ومن ابن النعمة ببَلَنْسِية ، ورحل حاجا فأدى الفريضة ، ودخل الإسكندرية مرافقاً لمن سمع من السِّلَفى ، ولم يسمع منه هو شيئاً ، قال ابن الأبار : فيما علمت ، وقفل إلى بلده مائلا إلى الزهد والإعراض عن الدنيا ، وكان شيخ المتصوفة فى وقته ، وعلا ذكره ، وبعد صيته فى العبادة ، إلا أنه كانت فيه غفلة ، قال ابن الأبار : [و] رأيته

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب « والحسن بن المفضل »

إذ قدم بلنسبة لإحياء ليلة النصف من شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة ، وتوفى عن سن عالية تقارب المائة ، منتصف ذى القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة ، وشهد جنازته بشر كثير من جهات شتى ، وانتاب الناسُ قبره دهرا طويلا يتبركون بزيارته إلى حين إجلاء الروم مَنْ كان يشاركهم من المسلمين ببلاد شرق الأندلس التى تغلبوا عليها ، وذلك فى شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة .

أبو جعفر النحوى

ومنهم أبو جعفر النحوى .

أندلسى نزل مصر ، وكان من رؤساء أهل العلم بالنحو ، وممن له حال جليلة ذكره الطُّبْنى فيما حكاه ابن الأبار .

أبو الحسن جابر بن أحمد الخزرجى

ومنهم أبو الحسن جابر بن أحمد بن عبد الله ، الخزرجى ، القرطبى ، وكناه بعضهم أبا الفضل .

سمع ببلده من أبى محمد بن عتاب وغيره ، ورحل حاجا فأدى الفريضة ، وكان أديبا ناظما ، كتب عنه أبو محمد العثمانى بالإسكندرية بعض شعره .

أبو الحسن جهور بن خلف

ومنهم أبو الحسن جَهْوَر بن خلف بن أبى عمر بن قاسم بن ثابت المَعَافرى .

رحل حاجا إلى المشرق فأدى الفريضة ، وسمع بالإسكندرية من أبى طاهر السِّلَفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وسمع أيضا من غيره ، وطال مكثه هنالك ، وهو - فيما رجحه بعضهم - من أهل غرب الأندلس

أبو على الحسن ابن حفص البهرانى

ومنهم أبو على الحسن بن حَفْص بن الحسن ، البَهْرانى ، الأندلسى

رحل وتجول ببلاد المشرق ، فسمع أبا محمد عبد الله بن حَمُّوَيْه وأبا حامد أحمد ابن محمد بن رجاء بسَرَخْسَ ، وأبا محمد بن أبى شُرَيح بِهَرَاة ، وأبا عبد الله الحسين بن عبد الله المفلحى بالأهواز ، وأبا بكر أحمد بن جعفر البغدادى وأبا حامد أحمد بن الخليل وأبا حاتم حامد بن العباس وأبا محمد الحسن بن رشيق بمصر ، وقدم دمشق فروى

عنه من أهلها تمام بن محمد ، و بنيسابور أحمد بن منصور بن خلف المغربى وغيره .

ذكره ابن عساكر وقال : أخبرنا أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن على بن فطيمة وأبو القاسم زاهر بن طاهر قالا : أنا أبو بكر أحمد بن منصور أنا أبو على الحسن ابن جعفر القضاعى ، وأنا الحسن بن رشيق بمصر ، أنا المفضل بن محمد الجندى ، أنا أبو مصعب أحمد بن أبى بكر الزهرى ، قال : سمعت مالك بن أنس يقول : لا يُحْمَلُ العلم عن أهل البِدَع كلهم ، ولا يحمل العلم عمن لم يعرف بالطلب ومجالسة أهل العلم ، ولا يحمل عمن يكذب فى حديث الناس ، وإن كان فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا ؛ لأن الحديث والعلم إذا سمع من العالم فقد جعل حجة بين الذى سمعه و بين الله تبارك وتعالى ، و إنما قال فيه « القضاعى » لأن بَهْرَاء من قُضَاعة .

أبو على الحسن ابن خلف الأموى

ومنهم أبو على الحسن بن خلف بن يحيى بن إبراهيم بن محمد ، الأموى .

من أهل دانِيَةَ ، ويعرف بابن بَرَنْجَال ، سمع من أبى بكر بن صاحب الأحباس وأبى عثمان طاهر بن هشام وغيرهما ، وله رحلة حج فيها وسمع من أبى إسحاق إبراهيم بن صالح القروى ، و ببيت المقدس من أبى الفتح نصر بن إبراهيم سنة خمس وستين وأربعمائة ، و بعَسْقلَان من أبى عبد الله محمد بن الحسن بن سعيد التُّجِيبى ، وأخذ عنه كتاب الوقف والابتداء لابن الأنبارى بسماعه من عبد العزيز الشعيرى عن مؤلفه ، وكان فقيها على مذهب مالك ، وولى الأحكام ببلده ، وحدّث ، وأُخذ عنه ، وسمع الناسُ منه بالإسكندرية سنة تسع وستين ، ثم بدانِيَةَ سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ، وتوفى فى نحو الخمسمائة ، رحمه الله تعالى !

أبو على الحسن ابن إبراهيم ابن تقى

ومنهم أبو على الحسن بن إبراهيم بن محمد بن تقى[1] ، الجُذَامى ، المالقى .

---

(١) هكذا فى أصل ا ، وفى ب « بقى » وفى نسخة عند ا « تقى الدين » ومثل مافى أصل ا تجده فى تاريخ ابن عساكر .

روى بقُرْطُبة عن أبى محمد بن عَتَّاب[١] ، وعن أبى سُكّرة الصَّدَفى بمُرْسِية سنة ثمان وخمسمائة ، وصحب أبا مروان بن مَسَرَّة[٢] ، وكان من أهل الرواية والتقييد ، وكانت له رحلة سمع فيها من أبى طاهر السِّلَفى مجالسه التى أملاها بسَلَمَاس برجب سنة خمس عشرة وخمسمائة حسبما ألفى بخط السلفى ، وفى رحلته لقيه أبو على الحسن ابن على البَطَلْيَوْسى نزيل مكة ، وحدّث عنه أبو طالب أحمد بن مسلم المعروف بالتَّنُوخى من أهل الإسكندرية بكتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر ، وأجاز له إجازة عامة فى السنة السابقة ، وقال ابن عساكر فى تاريخه ، وذكر أبا ذر[٣] الْهَرَوى : سمعت أبا الحسن على بن سليمان المُرَادى الحافظ الأندلسى بنيسابور يقول: سمعت أبا على الحسن بن على الأنصارى البطليوسى ، قال ابن عساكر : وقد لقيته ، ولم أسمعها منه ، قال : سمعت أبا على الحسن بن إبراهيم بن تقى الجذامى المالَقِى يقول : سمعت بعضَ الشيوخ يقول : قيل لأبى ذر الهروى : أنت من هَرَاة ، فمن أين تمذهبت لمالك والأشعرى ؟ فقال : إنى قدمت بغداد أطلب الحديث ، فلزمت الدارقطنى ، فلما كان فى بعض الأيام كنت معه ، فاجتاز به القاضى أبو بكر ابن الطيب ، فأظهر الدارقطنى من إكرامه ما تعجبت منه ، فلما فارقه قلت : أيها الشيخ الإمام مَنْ هذا الذى أظهرت من إكرامه مارأيت ؟ فقال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا ، فقال : هذا سيف السنة أبو بكر الأشعرى ، فلزمت القاضى منذ ذلك ، واقتديت به فى مذهبه ، انتهى .

أبو علي الحسن ابن علي البطليوسي الأنصاري

ومنهم أبو على الحسن بن على بن الحسن بن عمر ، الأنصارى ، البَطَلْيَوْسى رحل إلى المشرق ، فأدى الفريضة ، وتجوّل هناك ، ولقى أبا الحسن بن المُفَرِّج الصقلى وأبا عبد الله الفراوى ، فسمع منهما الصحيحين بعلوّ ، وسمع من أبى الفتح ناصر بن أبى على الطوسى سنن أبى داود ، وحَدّث بالموطأ عن أبى بكر

(١) كذا فى ا ، وفى ب « بن عات » (٢) فى ب « بن مرة »
(٣) فى ا « وذكر أبوذر » وليس بشىء ، فإن جملة « وذكر أبا ذر » حالية معترضة بين فعل القول والمقول ، وفي « ذكر » ضمير مستتر يعود لابن عساكر

الطُّرْطوشى ، وله أيضا رواية عن زاهر بن طاهر الشَّحَّامى وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيرى وأبى محمد الحريرى سمع منه مقاماته الخمسين ببُسْتانه[١] من بغداد ، ونزل بمكة ، وجاور بها ، وحدث فيها وفى غيرها ، وأسن ، وكان ثقة مسندا يروى عنه أبو عبد الله بن أبى الصيف اليمنى وأبو حفص[٢] بن شراحيل الأندلسى وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الإرْبلى ، وسمع منه فى صفر سنة ست وستين وخمسمائة ، وقد لقيه أبو القاسم بن عساكر الحافظ وروى عنه .

أبو على الحسن ابن محمد الانصارى

ومنهم أبو على الحسن[٣] بن محمد بن الحسن الأنصارى

من أهل المَرِية عمل بَلَنْسِية ، ويعرف بابن الزَّهْبِيل ، سمع من أبى الحسن ابن النعمة كثيرا ، واختص به ، وعنه أخذ القراآت ، وسمع من ابن هذيل أيضا ، ثم رحل حاجا ، فلقى بالإسكندرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أبا طاهر السِّلَفى وأبا عبد الله بن الحَضْرَمى ، وسمع منهما ، وجاور بمكة ، وأخذ بها عن أبى الحسن على ابن حميد الطرابلسى صحيح البخارى ، وكان يرويه عن أبى مكتوم عيسى بن أبى ذر الهروى عن أبيه ، وسمع أيضا من أبى محمد المبارك بن الطباخ البغدادى ، وأجاز له أبو المفاخر سعيد بن الحسين الهاشمى وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلى ببجَايَةَ عند صدوره فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين ، وقفل إلى بلده فلزم الانقطاع والانقباض عن الناس والإقبال على ما يَعْنيه ، وكان قد خطب به قبل رحلته ، وحكى التجيبى أن طلبة الإسكندرية تزاحموا عليه لسماع « التيسير » لأبى عمرو المقرى منه بروايته[٤] عن ابن هُذيل سماعا فى سنة ثلاث وخمسين ، وصارت له بذلك عندهم وجاهة ، وبعد قُفوله أصابه خَدَر منعه من التصرف ، وكان الصلاح غالبا عليه ،

---

(١) كذا فى نسخة عند ا ، وفى أصل ا « يشتأنه » وفى ب « بستانة »

(٢) كذا فى ب ، وفي ا « وأبو جعفر بن شراحيل الأندلسى »

(٣) فى ا « أبو على الحسين بن محمد »

(٤) فى ا « بزاويته » محرفا

وتوفى غدوة الجمعة لثمان خلون من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وكانت جنازته مشهودة[1] ، رحمه الله تعالى ! .

الحسين بن أحمد التجيبي القرطبي

ومنهم الحسين بن أحمد بن الحسين بن حى ، التُّجِيبى ، القرطبى

أخذ علم العدد والهندسة عن أبى عبدالله محمد بن عمر المعروف بابن بُرْغُوث ، وكان كلفا بصناعة التعديل ، وله زيج مختصر ذكره القاضى صاعد ونسبه ، وحكى أنه خرج من الأندلس فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائه بعد أن نالته بها وبالبحر محَنٌ شداد ، ولحق بمصر ، ثم رحل عنها إلى اليمن ، واتصل بأميرها ، فحظى عنده ، وبعثه رسولا إلى القائم بأمر الله الخليفة ببغداد ، ونال هناك دنيا عريضة ، وتوفى باليمن بعد انصرافه من بغداد سنة ست وخمسين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى !

أبو يوسف حماد بن الوليد الكلاعى

ومنهم أبو يوسف حماد بن الوليد ، الكُلاَعى

أخذ بقرْطُبة عن أبى المطرف القنازعى وغيره ، ورحل إلى المشرق ، وحدث بالإسكندرية فسمع منه بها يحيى بن إبراهيم بن عثمان بن شبل شرح الاعتقاد من تأليفه ، ورسالة قمع الحِرص ، وقَصْر الأمل ، والحث على العمل ، وذلك فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، ولقيه هنالك أبو مروان الطُّبْنى ، فسمع منه بعض فوائده

أبو القاسم خلف بن فتح الطرطوشى (الجبيرى)

ومنهم أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد الله بن جُبَير

من أهل طُرْطُوشة ، يعرف بالجُبيرى ، وهو والد أبى عبيد القاسم بن خلف الجبيرى الفقيه ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، ومعه رَحَل ابنهُ وهو صغير ، وكان من أهل العلم والنزاهة ، وعليه نزل القاضى مُنْذِر بن سعيد بطرطوشة فى ولايته قضاء الثغور الشرقية ، قال أبو عبيد : نزل القاضى مُنْذِر بن سعيد على أبى بطُرْطوشة ، وهو يومئذ يتولى القضاء فى الثغور الشرقية قبل أن يلى قضاء الجماعة بقرطبة ، فأنزله فى بيته الذى كان يسكنه ، فكان إذا تفرغ نظر فى كتب أبى ، فمر على يديه كتاب فيه أرجوزة ابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاوية

(١) فى ا « مشهورة » محرفا

رابعهم ، ولم يذكر عليا فيهم ، ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بنى مَرْوَان إلى عبد الرحمن بن محمد ، فلما رأى ذلك منذر غضب وسَبَّ ابن عبد ربه ، وكتب فى حاشية الكتاب :

أوَمَا علىٌّ — لا برحت ملعنا يا ابن الخبيثة! — عندكم بإمام ؟

ربُّ الكساء وخير آل محمد دانى الولاء مُقدَّم الإسلام

قال أبو عبيد : والأبيات بخطه فى حاشية كتاب أبى إلى الساعة ، وكانت ولاية منذر للثغور مع الإشراف على العمال بها والنظر فى المختلفين من بلاد الإفرنج إليها سنة ثلاثين وثلثمائة .

أبو القاسم خلف بن محمد الغرناطى

ومنهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف ، الغَرْنَاطى .

له رحلة روى فيها بالإسكندرية عن مهدى بن يوسف الوراق ، وحدث عنه أبو العباس بن عيسى الدانى(١) بالتلقين للقاضى عبد الوهاب .

أبو القاسم خلف بن فرج القنطرى

ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن فحلون(٢)، القَنْطَرى من قنطرة السيف ، وسكن بطَلْيَوْسَ ويعرف بابن الروية ، رحل حاجا فأدى الفريضة ، ولقى بمكة رُزَيْن بن معاوية الأندلسى فحمل عنه كتابه فى تجريد الصحاح سنة خمس وخمسمائة ، وفيها حج وقَفَلَ إلى بلده بعد ذلك ، وكان فقيها مُشَاوَراً ، حدّث عنه ابن خير فى كتابه إليه من بَطَلْيَوْس فى نحو الثلاثين وخمسمائة

زرارة بن محمد ابن زرارة

ومنهم زرارة بن محمد بن زرارة الأندلسى

رحل حاجا إلى المشرق ، وسمع بمصر أبا محمد الحسن بن رشيق سنة سبع وستين وثلثمائة وأبا بكر مَسَرَّة بن مسلم الصدفى ، حدث ، وأخذ عنه .

أبو الحسن طاهر ، المالقى

ومنهم طاهر الأندلسى ، من أهل مالَقَة ، يكنى أبا الحسن(٣)

---

(١) فى ب « الدالى »
(٢) فى ا « ابن قلحوف »
(٣) فى أصل ا « يكنى أبا الحسن»

رحل إلى قرطبة ، وخرج منها لما دخلها البرابر عَنْوَة سنة ثلاث وأربعمائة ، فلم يزل بمكة إلى حدود الخمسين وأربعمائة ، وكان من أصحاب أبى عمر الطَّلَمَنْكى وملازميه لقراءة القرآن ، وطلب العلم مع أبى محمد الشَّنْتجَالى (١) وأبى أيوب الزاهد إمام مسجد الكوَّائين بقرطبة ، وجاور بمكة طويلا ، وأقرأ على مَقْرُبة من باب الصفا ، وكان الشَّيْبيون يكرمونه ويفرجون له لضعفه عند دخوله البيت الحرام ، ذكره الطبنى ، قال ابن الأبار : وأحسبه المذكور فى برنامج الخولانى ، والذى قرأ لهم أكثر المدونة على أبى عمر أحمد (٢) بن محمد الزيات ، انتهى .

أبو الطاهر اللبلى

ومنهم أبو الطاهر الأندلسى ، من أهل لَبْلَة

نزل مصر ، وكانت له حلقة بجامع عمرو بن العاص ، وكان — رحمه الله تعالى ! — نحويا له شعر وترسيل وتعلق بالملوك للتأديب بالنحو ، ثم ترك ذلك .

أبو محمد طارق ابن موسى المنصفى

ومنهم أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش ، المَنْصَفِى ، المخزومى

والمَنْصَفِى نسبة إلى قرية بغربى بَلَنْسية ، ويكنى أيضا أبا الحسن ، رحل قبل العشرين وخمسمائة ، فأدى الفريضة ، وجاور بمكة ، وسمع بها من أبى عبد الله الحسين ابن على الطبرى ، ومن الشريف أبى محمد عبد الباقى الزهرى المعروف بشُقْرَان أخذ عنه كتاب « الإحياء » للغزالى عن مؤلفه ، وسمع بالإسكندرية من أبى بكر الطرطوشى وأبى الحسن بن مشرف وأبى عبد الله الرازى وأبى طاهر السِّلَفى وغيرهم ثم قفل إلى بلده فحدث ، وأخذ الناس عنه ، وسمعوا منه ، وكان شيخاً صالحاً عالى الرواية ثقة ، قال ابن عياد : لم ألق أفضل منه ، وكان مُجاب الدعوة ، وحدث عنه بالسماع والإجازة جِلَّة (٣) منهم أبو الحسن بن هذيل وأبو محمد القُلْنِّى وأبو مروان بن الصَّيْقَل وأبو العباس الإقليشى وأبو بكر بن خير وابن سعد الخير وأبو محمد عبد الحق

---

(١) فى ب « الشنتجانى »
(٢) فى ا « على أبى أحمد بن محمد » وهو أبو عمر أحمد كما فى ب .
(٣) فى ب « جملة »

الإشبيلى وأبو بكر بن جُزَى وغيرهم ، ثم رحل ثانية إلى المشرق مع صهره أبى العباس الإقليشى وأبى الوليد بن خَيْرة الحافظ سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وقد نيف على السبعين ، فأقام بمكة مجاوراً إلى أن توفى بها عن سن عالية ــ رحمه الله تعالى ! ــ سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

محمد بن إبراهيم ابن مزين الأودى

ومنهم محمد بن إبراهيم بن مُزَيْنٍ الأودى .

من أهل أكشونية[1] غربى الأندلس ، يكنى أبا مضر ، ولاه عبد الرحمن بن معاوية قضاء الجماعة بقرطبة ، وذلك فى المحرم سنة سبعين ومائة ، وأقام أشهرا[2] ، ثم استعفى فأعفاه ، ورحل حاجا فأدى الفريضة ، وسمع فى رحلته إمامنا مالك بن أنس وانصرف ومات عن سن عالية سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وذكره ابن شعبان فى الرواة عن مالك ، وحكى أنه روى عنه : من قطع لسانه استُؤنى به عاما ، وأن مالكا قال له : قد بلغنى أن بالأندلس مَنْ نَبَتَ لسانه فإن لم ينبت أقيد ، انتهى .

أبو عبد الله محمد بن أحمد الشاطبى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد حيَّاز ، الشاطبى ، الأوسى .

قدم مصر ، وكان قد أخذ عن ابن بُرْطُلة وابن البراء وغيرهما ، وعمل فهرست شيوخه على حروف المعجم ، وحج وعاد إلى بلده ، ومات يوم الجمعة حادى عشر رجب سنة ثمانى عشرة وسبعمائة ، رحمه الله تعالى وغفرله !.

أبو مروان محمد بن أحمد (ابن سماعة) الإشبيلى القاضى

ومنهم القاضى أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن على بن شريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة ، اللّخمى ، الأندلسى ، الإشبيلى .

قال أبو شامة : هو من بيت كبير بالأندلس يعرف ببنى الباجى مشهور ، كثير العلماء والفضلاء ، وأصلهم من باجَة القيروان ، وليس منهم القاضى أبو الوليد الباجى

---

(١) فى ا « أكشونبة » بباء موحدة بعد النون

(٢) فى أصل ا « وأقام شهراً »

الفقيه ، فإنه من بيت آخر من باجة الأندلس ، وقدم أبو مروان حاجا من بلاده فى البحر إلى عكا من ساحل دمشق ، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة ، ونزل عندنا بالمدرسة العادلِيَّةِ ، وجَدُّه الأعلى أحمد بن عبد الله ابن محمد بن على قدم إلى الديار المصرية ، وحج منها ومعه ولده محمد أخو عبد الملك ويعرف بصاحب الوثائق ، وسمعا بها من جماعة من العلماء ، وذكر أبو عبد الله الحميدى أحمد بن عبد الله هذا فى «المقتبس» ، وكناه أباعمر، وذكر أنه سكن إشبيلية وأثنى عليه كثيرا ، وقال : مات فى حدود الأربعمائة ، وروى عنه ابن عبد البر وغيره .

وأبوه عبد الله بن محمد بن على يعرف بالرواية ، ذكره الحميدى أيضاً .

وذكر ابن بَشْكُوال فى « الصلة » عبد الملك بن عبد العزيز جد هذا الشيخ القادم وأثنى عليه ، وقال : توفى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة .

وكان هذا الشيخ أبو مروان حسن الأخلاق فاضلا متواضعاً محسناً ، وسمعته يقول ، وقد سئل إعارة شىء ، فبادر إليه ، ثم قال : عندى فى قوله تعالى (ويمنعون الماعون) هو كل شىء .

واستفدنا من هذا الشيخ فائدة جليلة ، وهى معاينة قدر مُدِّ النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو عندهم مُتَوَارَثٌ ، وَقد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم فى كتابه « المحلى » وعايرت بذلك المدِّ المدَّ الذى لنا بدمشق حينئذ ، وهو الكيل الكبير ، فوجدت مُدَّنا يسع صَاعَيْن إلا يسيرا ، ووجدته ممسوحا يسع صاعا ونصفاً وشيئاً فيكون مدان ممسوحان ثلاثة آصُعٍ[1] زائدة ، وقرأت فى كتاب «المحلى» لابن حزم قال أبو محمد : وخُرِط لى مُدٌّ على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن على الباجى ، وهو عند أكثرهم لايفارق داره ، أخرجه إلىَّ ثقتى الذى كلفته ذلك

---

(١) فى ا « ثلاثة أصوع »

على بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن على المذكور ، وذكر أنه مُدُّ أبيه ، وأن جده أخذه وخرطه[1] على مد أحمد بن خالد ، وأخبره أحمد بن خالد أنه خرطه[1] على مد يحيى بن يحيى ، على مد مالك ، قال أبو محمد : ولاشك[2] أن أحمد بن خالد صححه أيضاً على مد محمد بن وضاح الذى صححه ابن وضاح بالمدينة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ! قال أبو محمد : ثم كِلْتُه بالقمح الطيب ، ثم وزنته فوجدته رطلا ونصف رطل بالفلفلى لايزيد حبة ، وكلته بالشعير إلا أنه لم يكن بالطيب فوجدته رطلا واحداً ونصف أوقية ، وسألت عن الرطل الفلفلى ، فقيل لى : هو ست عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم ، وفى تقدير ابن حزم نظر .

وتوفى هذا الشيخ بالقاهرة سنة خمس وثلاثين وستمائة بعد رجوعه من الحج ، رحمه الله تعالى ! انتهى كلام أبى شامة ، و بعضه بالمعنى .

أبو العباس أحمد بن محمد الإشبيلى المصرى الواعظ

ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد ، الواعظ ، الإشبيلى ، ثم المصرى .

فاضل شَرَحَ الصدور بلفظه ، ومتكلم أحيا القلوب بوعظه ، أحواله مشهورة ، ومجالسه بالذكر معمورة ، وله معرفة بالأدب ، وخبرة بالشعر والخطب ، وكلام وجهه حسن ، ونظم يمتاز به على كثير من أرباب اللّسَن ، قاله ابن حبيب الحلبى ، قال : وهو القائل :

من أنت محبوبُهُ من ذا يُغَيِّره ... ومن صَفَوْتَ له من ذا يكدره
هيهات عنك مِلاَحُ الكون تَشْغَلنى ... والكل أعراض حسن أنت جوهره

وقال :

اكشفِ البرقع عن بكر العقار ... واخْلُ فى ليلك مع شمس النهار
وانهب العيش ودَعْهُ غلطا ... ينقضى مابين هتك واستتار
إن تكن شَيْخَ خلاعاتِ الصبا ... فالبس الصبوة فى خلع العذار

---

(١) فى ا « خرجه » (٢) فى ا « ولا أشك »

وارْضَ بالعار وقل : قد آن لى — فى هوى خَمَّار كاسى لُبْسُ عارى

وقال :

حُثُّوا إلى نَجْدٍ نِيَاقَ الهوى — فثَمَّ وَادٍ جَوُّهُ مُعْشِبُ[1]

وَانتَظِرُوا حتى يلوحَ الحمى — فالعيش فيه طيب طيب

وتوفى سنة أربع وثمانين وستمائة ، هكذا ذكر ترجمته ابن حبيب ، ثم بعد كتبها حصل لى شك : هل هو ممن ارتحل بنفسه من الأندلس أو ولد بمصر وإنما ارتحل إليها بعض سلفه ؟ والله تعالى أعلم .

وكذا ذكر آخرَ بقوله فى سنة سبع وثمانين وستمائة : وفيها توفى الإمام زكى الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن يحيى بن على الإشبيلى المالكى ، محدث ، عالم ، زاهد فيما ليس بدائم ، كثير الخير ، جزيل المير ، كان حسن المناهج ، قاضياً للحوائج ، محسناً إلى الصامت والمعرب ، مَقْصِداً لمن يَرِدُ من الحجاز والمغرب ، سمع بمصر ودمشق وحلب ، وأفتى ودرس ، مفيداً لذوى الطلب ، ولم يبرح يعين بأياديه ويغيث ، وهو أول من باشر بظاهرية دمشق مشيخة الحديث ، وكانت وفاته بدمشق عن نيف وسبعين سنة ، انتهى .

أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد الحافظ

ومنهم الأحق بالسبق والتقدم ، بَقِيُّ بن مَخْلد بن يزيد ، أبو عبد الرحمن ، القرطبى ، الأندلسى ، الحافظ ، أحد الأعلام ، وصاحب التفسير والمسند .

أخذ عن يحيى بن يحيى الليثى ومحمد بن عيسى الأعشى ، وارتحل إلى المشرق ، ولقى الكبار ، وسمع بالحجاز مُصْعَباً الزهرى وإبراهيم بن المنذر وطبقتهما ، وبمصر يحيى بن بُكَير وزهير بن عَبَّاد وطائفة ، وبدمشق إبراهيم بن هشام الغسانى[2] وصَفْوان ابن صالح وهشام بن عمار وجماعة ، وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته ، وبالكوفة

---

(١) حثوا النياق : أراد جدوا السير وأسرعوا فيه .

(٢) كذا فى ب ونسخة عندا ، وفي أصل ا « إبراهيم بن إبراهيم الغسانى »

يحيى بن عبد الحميد الحمانى ومحمد بن عبد الله بن نمير وأبا بكر بن أبى شيبة وطائفة ، وبالبصرة أصحاب حماد بن زيد ، وعُنى بالأثر عناية عظيمة لامزيد عليها ، وعدد شيوخه مائتان وأربعة وثلاثون رجلا ، وكان إماما ، زاهدا ، صَوَّاما ، صادقاً ، كثير التهجد ، مجاب الدعوة ، قليل المثل ، مجتهدا ، لايقلد ، بل يفتى بالأثر .

ولد فى رمضان سنة إحدى ومائتين ، وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين .

قال ابن حزم : أقطع أنه لم يؤلَّف فى الإسلام مثل تفسيره ، لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره ، وكان محمد بن عبد الرحمن الأموى صاحب الأندلس محبا للعلوم عارفا بها ، فلما دخل بقى بن مخلد الأندلس بمصنف ابن أبى شَيْبة وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأى مافيه من الخلاف واستبشعوه ، وقام جماعة من العامة عليه ، ومنعته[1] من قراءته ، فاستحضره الأمير محمد وإياهم ، وتصفح الكتاب جزأ جزأ حتى أتى على آخره ، ثم قال لخازن كتبه : هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنه ، فانظر فى نَسْخه لنا[2] ، وقال لبقى : انْشُرْ علمك ، وارو ماعندك ، ونهاهم أن يتعرضوا له

قال ابن حزم : مسند بقى روى فيه عن ألف وثلثمائة صاحب ونيف ، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مُسْنَد ومُصَنَّف[3] ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه و إتقانه واحتفاله فى الحديث ، وله مصنف فى فتاوى الصحابة والتابعين ممن ذكرهم أرْبَى فيه على مُصَنف أبى بكر بن أبى شَيْبة وعلى

---

(١) فى ا « ومنعوه من قراءته » (٢) في ا « فانظر فى نسخة لنا » .

(٣) المسند : كتاب الحديث الذى رتب على الصحابة بأن يضع بابا للأحاديث التى رويت عن أبى بكر ، وبابا للأحاديث المروية عن عمر ، وهكذا ، ومن أشهر هذا النوع مسند أحمد بن حنبل ، والمصنف : كتاب الحديث الذى رتب علي أبواب الفقه ، باب للأحاديث التى رويت فى مسائل الوضوء ، وباب للأحاديث التى رويت فى مسائل الصلاة ، وهكذا ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم والسنن ، والموطأ ، من هذا النوع

مصنف عبد الرزّاق وعلى مصنف سعيد بن منصور .

ثم ذكر تفسيره فقال : فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيرا لا يقلد أحدا ، وكان جاريا فى مِضْمَار البخارى ومسلم والنسائى .

وذكر القُشَيْرِى أن امرأة جاءته فقالت له : إن ابنى قد أسرته الفرنج ، وإنى لا أنام الليل من شوقى إليه ، ولى دُوَيرة أريد أن أبيعها لأفْتَكَّه بها ، فإن رأيت أن تشير إلى من يأخذها ويسعى فى فكاكه ، فليس لى ليل ولا نهار ، ولا صبر ولا قَرَار ، فقال : نعم ، انصرفى حتى ننظر فى ذلك إن شاء الله تعالى ، وأطرق الشيخ وحرك شفتيه يدعو الله عز وجل لولدها بالخلاص ، فذهبت ، فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها ، فقالت : اسمع خبره يرحمك الله تعالى ! فقال : كيف كان أمرك ؟ فقال : إنى كنت فيمن يخدم الملك ، ونحن فى القيود ، فبينا أنا ذات يوم أمشى إذ سقط القيدُ من رجلى ، فأقبل على الموكل بى فشتمنى ، وقال : فككْتَ القيد من رجليك ، فقلت : لا والله ولكن سقط ولم أشعر ، فجاؤا بالحدَّاد فأعاده ، وسَمَّر مسماره وأيده ، ثم قمت ، فسقط أيضا ، فسألوا رُهْبَانَهم ، فقالوا : ألك والدة ؟ فقلت : نعم، فقالوا : إنه قد استجيب دعاؤها له ، فأطلِقُوه[1] ، فأطلقونى وخفرونى إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام ، فسأله [بقىّ] عن الساعة التى سقط القيد من رجليه فيها ، فإذا هى الساعة التى دعا له فيها ، فرحمه الله تعالى! .

يوسف بن يحيى الأزدى ، المغامى

ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف [الأندلسى] الأزدى ، المعروف بالمَغَامى

من أهل قُرْطبة ، وأصله من طلَيْطلة ، وهو من ذرية أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ! .

سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان ، ورَوَى عن عبد الملك بن حبيب مصنفاته ، وارتحل إلى مصر ، وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسى ، وعاد إلى الأندلس ، وكان فقيها ، نبيلا ، فصيحا [بصيرا] بالعربية ، ثم بعد عَوْده من مصر

(١) فى ا « أطلقوه » بدون الفاء .

أقام بقرطبة أعواما ، ثم عاد إلى مصر ، وأقام بها ، وسمع الناس منه ، وعظم أمره بالبلاد المشرقية ، ثم إنه عاد إلى المغرب فتوفى بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين ، و بين بمصر[(١)] الواضحة لابن حبيب ، وصنف شيئا فى الرد على الشافعية فى عشرة أجزاء ، وألف كتاب فضائل مالك رضى الله تعالى عنه ، والذى يرتضى أن من قلد إماما من المجتهدين لاينبغى له أن يَغُضّ من قدر غيره ، و إن كان [و] لابد من الانتصار لمذهبه وتقوية حجته فليكن ذلك بحسن أدب مع الأئمة ، رضى الله تعالى عنهم ! فإنهم على هُدًى من ربهم ، وقد ضَلَّ بعض الناس فحمله التعصبُ لمذهبه على التصريح بمالايجوز فى حق العلماء الذين هم نجوم المِلَّة ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم ، وقد حكى أبوعبدالله الوادى آشى ـ حسمارأيته بخطه ـ أن القاضى عبد الوهاب بن نصر البغدادى المالكى ألف كتابا لنصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب فى مائة جزء ، وسماه «النصرة ، لمذهب إمام دارالهجرة » فوقع الكتابُ بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر ، فغرقه فى النيل ، فقضى الله تعالى أن السلطان فَرَجَ بن برقوق سافر إلى الشام ومعه القضاء الأربعة وغيرهم من الأعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد ، فلم يستطع شيئا[(٢)] ، وهزم إلى مصر ، وتفرقت العساكر ، وأخذ القضاة والعلماء أسارَى ومن جملتهم ذلك القاضى ، فبقى فى أسر تيمورلنك إلى أن ارتحل عن الشام ، فأخذه معه أسيرا إلى أن وصل إلى الفرات ، فغرق فيه ، أعنى القاضى ، فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تغريقه الكتاب المذكور ، والجزاء من جنس العمل ، والله تعالى أعلم .

ابن خلدون وتيمورلنك

وقد نجى الله تعالى من هذه الوَرْطَة قاضىَ القضاة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى المالكى صاحب كتاب « العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى تاريخ

(١) فى أصل ا « وبنى مصر الواضحة » محرفا . وكتاب « الواضحة فى إعراب القرآن » لعبد الملك بن حبيب السلمى كان المغامى هذا راويته عن مؤلفه .

(٢) فى ا « فلم يصنع شيئا » .

العرب والعجم والبربر ، ومَنْ عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » فإنه كان من جملة القضاة الحاضرين فى الهزيمة ، فلما أدخلوا على تيمورلنك قال لهم ابن خلدون : قدّمونى للكلام تنجوا إن شاء الله تعالى ، وإلا فأنتم أخبر ، فقدموه وعليه زى المغاربة ، فلما رآه تيمور لنك قال : ما أنت من هذه البلاد ؟ وتكلم معه فخلبه ابن خلدون بلسانه ، وكان آية الله الباهرة ، ثم قال لتيمورلنك : إنى ألفت كتابا فى تاريخ العالم ، وحليته بذكرك ، أو كما قال ، ويقال : إن تيمور لنك هو الذى قال له : بلغنى أنك ألفت كتاباً فى تاريخ العالم ، ثم قال له تيمورلنك : كيف ساغ لك أن تذكرنى فيه وتذكر بختنصر مع أننا خربنا العالم ؟ فقال له ابن خلدون : أفعالكما العظيمة ألحقتكما بالذكر مع ذوى المراتب الجسيمة ، أو نحو هذا من العبارات . فأعجبه ذلك ، وقيل : إنه لما أنس بابن خلدون قال له : ياخُوَنْدُ ، ما أسفى إلا على كتاب ألفته فى التاريخ ، وأنفقت فيه أيام عمرى ، وقد تركته بمصر ، وإن عمرى الماضى ذهب ضياعا حيث لم يكن فى خدمتك وتحت ظل دولتك ، والآن أذهب فآتى بهذا الكتاب وأرجع سريعا حتى أموت فى خدمتك ، ونحو هذا من الكلام ، فأذن له ، فذهب ولم يعد إليه ، وقال بعض العلماء : إنه لم ينج من يد ذلك الجبار أحد من العلماء غير ابن خلدون ورجل آخر ، وقد ذكر ذلك ابنُ عرب شاه فى « عجائب القدور »[1] وقد طال عهدى به فليراجع ، وحكى غير واحد أن تيمورلنك لما أخذ حلب على الوجه المشهور فى كتب التاريخ جمَعَ العلماء فقال لهم على عادته فى التعنت : قُتِلَ منا ومنكم جماعة ، فمن الذى فى الجنة قتلانا أو قتلاكم ؟ وكان مراده إبراز سبب لقتلهم ، لأنهم إن قالوا أحد الأمرين هلكوا ، فقال بعض العلماء ، وأظنه ابن الشِّحْنَة : دعونى أجبه[2] وإلا هلكتم ، فتركوه ، فقال له :

---

(١) كتاب « عجائب المقدور ، فى نوائب تيمور » تصنيف الشيخ أحمد بن محمد المعروف بابن عرب شاه ، وهو من كتب التاريخ التى صنفت فى القرن التاسع الهجرى مسجوعة متكلفة .

(٢) فى ا « دعونى أجيبه » .

ياخُوَنْدُ ، هذا السؤال أجاب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عنه ، فغضب [تيمورلنك] وقال : كيف يمكن أن يجيب عن هذا السؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن لم نكن فى زمانه ؟ أو كلاما هذا معناه ، فقال العالم المذكور : روينا فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حَمِية ويقاتل ليذْكَر ويُرى مكانه ، فمن الذى فى الجنة ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو [الذى] فى الجنة » أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، فتعجب تيمورلنك من هذا الجواب المفحم المسكت ، وحُقَّ له أن يتعجب منه ، فإن هذا من الأجوبة التى يقل نظيرها ، وفيها المَخلَص على كل حال بالإنصاف ، وقد وفق الله تعالى هذا العالم لهذا الجواب حتى يتخلص على يده أولئك الأقوام من الطاغية الجبار العنيد الذى جعل الله تعالى فتنته فى الإسلام وفتنة جَنْكِزْخَانَ وأولاده من أعظم الفتن التى وَهَى بها المسلمون .

وذكر بعض العلماء أن ابن خلدون لما أقبل على تيمورلنك قال له : دعنى أقبل يدك ، فقال : ولم ؟ فقال له : لأنها مفاتيح[1] الأقاليم ، يشير إلى أنه فتح خمسة أقاليم ، وأصابع يده خمسة : فلكل أصبع إقليم ، وهذا أيضاً من دهاء ابن خلدون .

وقد كدنا نخرج عن المقصود فى هذه الترجمة فلنصرف العنان ، والله سبحانه المستعان .

أبو بكر بن عطية

ومن الراحلين من الأندلس الإمام الحافظ أبو بكر بن عطية ، رحمه الله تعالى! قال الفتح : شيخ العلم ، وحامل لوائه ، وحافظ حديث النبى صلى الله عليه وسلم وكوكب سمائه ، شرح الله تعالى لحفظه صدره[2] ، وطاول به عمره ، مع كونه فى كل

(١) فى ا « لأنها مفتاح الأقاليم » .
(٢) فى ا « شرح الله لتحفظه صدره » .

علم وافر النصيب ، مياسرا بالمُعَلَّى والرقيب[(١)] ، رحل إلى المشرق لأداء الفرض ، لابسَ بُرْدٍ من العمر الغض ، فروى وقيد ، ولقى العلماء وأسند ، وأبقى تلك المآثر وخلد ، نشأ فى بيئةٍ كريمة[(٢)] ، وأُرُومَة من الشرف غير مَرُومَة ، لم يزل فيها على وجه الزمان أعلامُ عِلم ، وأرباب مجد ضخم ، قد قيدت مآثرهم الكتب ، وأطلعتهم التواريخ كالشهب ، وما برح الفقيه أبو بكر يتسنم كواهل المعارف وغواربها ، ويقيد شوارد المعانى وغرائبها ، لاستضلاعه بالأدب الذى أحكم أصوله وفروعه ، وعمر برهةً من شبيبته رُبُوعَه ، وبرز فيه تبريز الجواد المستولى على الأمد ، وجلَّى عن نفسه به كما جلى الصقال عن النصل الفَرَد[(٣)] ، وشاهد ذلك ما أثبته من نظمه الذى يروق جملة وتفصيلا ، ويقوم على قوة العارضة دليلا ، فمن ذلك قوله يحذر من خُلَطاء الزمان ، وينبه على التحفظ من الإنسان :

كن بذئبٍ صائد مستأنسا ... وإذا أبصرت إنسانا فَفِر[(٤)]
إنما الإنسان بحر ماله ... ساحل فاحذره إياك الغرر
واجعل الناس كشخص واحد ... ثم كن من ذلك الشخص حَذِرْ

وله فى الزهد :

أيها المطرود من باب الرضا ... كم يراك الله تلهو معرضا
كم إلى كم أنت فى جهل الصبا ... قد مضى عمر الصبا وانقرضا
قم إذا الليل دَجَتْ ظلمته ... واستلذَّ الجفن أن يغتمضا
فضع الخد على الأرض ونُحْ ... واقرع السِّنَّ على ما قد مضى

---

(١) المياسر : لاعب الميسر ، والمعلى : أعظم قداح الميسر نصيبا وأوفرها حظا ، والرقيب : ثالث قداحه درجة ، ووقع فى ا « بالعلى والرقيب » .

(٢) فى ا « نشأ فى بيتة كريمة » وفى ب « نشأ فى بنية كريمة » .

(٣) الفرد : الوحيد الذى لا مثيل له ، ووقع فى ب « البرد » وأثبتنا ما فى ا .

(٤) أخذ معنى هذا البيت من قول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى ... وصوت إنسان فكدت أطير

وله فى هذا المعنى :

قلبىَ يا قلبىَ المعنَّى كم أنا أدعى فلا أجيب
كم أتمادى على ضلال لا أرعوى لا ولا أنيب
ويلاه من سوء مادهانى يتوب غيرى ولا أتوب
وا أسفى كيف بُرْء دائى دأبى كما شاءه الطبيب
لو كنت أدنو لكنت أشكو ما أنا من بابه قريب
أبعدنى منه سوء فعلى وهكذا يبعد المريب
مالىَ قدر وأى قدر لمن أخلَّتْ به الذنوب

وله فى هذا المعنى أيضاً :

لا تجعلَنْ رمضان شهر فكاهة تلهيك فيه من القبيح فنونه
واعلم بأنك لا تنال قبوله حتى تكون تصومه وتصونه

وله فى مثل ذلك :

إذا لم يكن فى السمع منى تصاون وفى بصَرى غَضٌّ وفى مِقْولى صمت
فحظى إذاً من صومىَ الجوع والظما وإن قلت إنى صمت يوما فما صمت

وله فى المعنى الأول :

جفوت أناساً كنت آلَفُ وصلهم وما فى الجفا عند الضرورة من باس
بلوت فلم أحمد، وأصبحت آيساً ولا شىء أشفى للنفوس من الياس
فلا تعذلونى فى انقباضى فإننى رأيت جميع الشر فى خلطة الناس

وله يعاتب بعض إخوانه :

وكنت أظن أن جبال رَضْوَى تزول وأن ودك لا يزول
ولكنَّ الأمور لها اضطراب وأحوال ابن آدم تستحيل[1]
فإن يك بيننا وصل جميل وإلا فليكن هجر طويل

(١) تستحيل : تتغير ، وتنتقل من حال إلى حال آخر .

وأما شعره الذى اقتدحه من مَرْخ الشباب وعَفاره[١]، وكلامه الذى وشحه بمآرب الغَزَل وأوطاره ، فإنه نسى إلى ماتناساه ، وتركه حين كساه العلم والورع من ملابسه ما كساه ، فمما وقع من ذلك قوله :

كيف السلو ولى حبيب هاجر قاسى الفؤاد يسومنى تعـذيبا[٢]

لما درى أن الخيال مواصـلى جعل السهاد على الجفون رقيبا

وله أيضاً :

يامن عهودى لَدَيْكِ تُرْعَى أنا على عهـدك الوثيق[٣]

إن شئتِ أن تسمعى غرامى من مخبر عالم صـدوق

فاستخبرى قلبـك المعـنى يخـبرك عن قلبىَ المشوق

انتهى كلام الفتح .

وأبو بكر بن عطية المذكورهو والد الحافظ القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية صاحب التفسير الشهير ، رحم الله تعالى الجميع !.

عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى

قال فى الإحاطة فى حقه ماملخصه: [هو] الشيخ الإمام المفسر عبد الحق بن غالب ابن عطية المحاربى ، فقيه عالم بالتفسير والأحكام والحـديث والفقه والنحو واللغة والأدب ، حسن التقييد ،له نظم ونثر ، ولى قضاء الْمَرِية سنة تسع وعشرين وخمسمائة فى المحرم ، وكان غاية فى الذكاء والدهاء والتهمم بالعلم ، سَرِىَّ الهمة فى اقتناء الـكتب توخى الحق ، وعدل فى الحـكم ، وأعز الخطة ، روى عن أبيه وأبوى على الغسانى والصدفى وطبقتهما ، وألف كتابه « الوجيز » فى التفسيرفأحسن فيه وأبدع ، وطار بحسن نيته كلَّ مَطَار ، و برنامجا ضمنه مروياته وأسماء شيوخه فحرر وأجاد .

---

(١) المرخ ـ بفتح الميم وسكون الراء ـ شجر سريع الورى يتخذ للقدح به ، والعفار ـ بفتح العين والفاء جميعاً ـ شجر خوار يتخذ منه الزناد ، ونارهما أسرع نار وأعظمها ، وفى أمثالهم « فى كل شجر نار . واستمجد المرخ والعفار » .

(٢) فى ا « كيف السلوك ولى حبيب هاجر » .

(٣) فى ا «يا من عهودى لديه ترعى» والـكلام فى خطاب أنثى كما هو ظاهر .

ومن نظمه يندب عهد شبابه :

سَقياً لعهد شبابٍ ظَلْتُ أَمْرَحُ فى ... ريعانه وليالى العيش أسْحَارُ
أيام روض الصبا لم تَذْوِ أغصنهُ ... ورَوْنَقُ العمر غضٌّ والهوى جار
والنفس تركض فى تضمير شِرَّتها ... طِرْفاً له فى زمان اللهو إحضار[1]
عهداً كريماً لبسنا فيه أردية ... كانت عياناً ومَحَّتْ فهى آثار
مضى وأبقى بقلبى منه نار أسى ... كونى سلاماً وبرداً فيه يانار
أبعد أن نَعِمَتْ نفسى وأصبح فى ... ليل الشباب لصبح الشَّيْبِ إسفار
وقارَعَتْنِي الليالى فانثنت كِسَرا ... عن ضيغم ماله ناب وأظفار
إلا سلاح خلال أخلصت فلها ... فى منهل المجد إيراد وإصدار
أصبو إلى روض عيش روضُه خَضِلٌ ... أو ينثنى بى عن العلياء إقصار
إذاً فعطَّلْتُ كفى من شَباَ قلم ... آثاره فى رياض العلم أزهارُ

مولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وتوفى فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ست وأربعين وخمسمائة بِلُورَقَة ، قصد مَيُورقة يتولى قضاءَهَا فصُدَّ عن دخولها وصرف منها إلى لُورَقَة اعتداء عليه ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

وقال الفتح فى حقه مانصه : فتى العمر كهل العلاء ، حديث السن قديم السناء ، لبس الجلالة بُرْدًا ضافياً ، وورد ماء الأصالة صافيا ، وأوضح للفضل رَسْمًا عافياً ، وثنى من ذهنه للأغراض فنناً قصدًا ، وجعل فهمه شهابا رَصدًا ، سما إلى رُتَب الكهول صغيرا ، وشنَّ كتيبَة ذهنه على العلوم مُغيرا ، فسبَاها معنى وفَصْلا ، وحَوَاها فرعا وأصلا ، وله أدبٌ يسيل رَضْرَاضَا ، ويستحيل ألفاظا مبتدعة وأغراضا .

---

(١) فى ب « والنفس تركض فى تضمير شهرتها » وأثبتنا ما فى أصل ا ، والشرة ــ بكسر الشين وتشديد الراء ــ الحدة والقوة والنشاط ، والطرف فى الأصل الفرس ، والإحضار : ضرب من سريع السير .

وقال أيضاً فيه : نَبْعَةَ دَوْح العَلاء ، ومحرز ملابس الثناء ، فَذُّ الجلالة ، وواحد العصر والأصالة ، وقار كمارسا الهضب ، وأدب كما اطَّرد السَّلْسَلُ العذب ، وشيم تتضاءلُ لها قطع الرياض ، وتبادر الظن به إلى شريف الأغراض ، سابقَ الأمجاد فاستولى على الأمد بعبابه ، ولم ينض ثوب شبابه ، أدْمَن التعب فى السودد جاهداً ، فتى تناول الكواكب قاعداً ، وما اتكل على أوائله ، ولا سكن إلى راحات بُكَرِه وأصائله ، أثره فى كل معرفةٍ عَلَمٌ فى رأسه نار ، وطوالعه فى آفاقها صُبْح أو منار ، وقد أثبتُّ من نظمه المستبدع ماينفح عَبيرا ، ويتضح منيرا ، فمن ذلك قوله من قصيدة :

ولَيلةٍ جبت فيها الجزع مرتَدِياً بالسيف أسحب أذيالاً من الظلَم
والنجم حيران فى بحر الدجى غرق والبرق فى طيلسان الليل كالعلم
كأنما الليل زنجى بكاهله جرح فيثْعَبُ أحيانا له بدم[1]

انتهى المقصود منه

وهو — أعنى أبا بكر — أحدُ مشايخ عياض ، حسبما ألمعت به فى « أزهار الرياض »

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح اللخمى ، الإشبيلى

ومنهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فَرْح — بالحاء المهملة — بن أحمد بن محمد ، الإمام ، الحافظ ، الزاهد ، بقية السلف ، اللّخْمِى ، الإشبيلىّ ، الشافعى ، أسره الإفرنج سنة ست وأربعين وستمائة ، وخلص ، وقدم مصر سنة بضع وخمسين ، وقيل : إنه تمذهب للشافعى ، وتفقه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام قليلا ، وسمع من شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصارى الحموى ، والمعين أحمد بن زين الدين وإسماعيل بن عزون[2] والنجيب بن الصيقل وابن عَلاّن[3] ، وبدمشق من

---

(١) يثعب : مضارع « ثعب الماء والدم ونحوهما » من باب فتح — إذا تفجر وسال وجرى ، ووقع فى ا « فينعب » محرفا

(٢) فى ا « وإسماعيل بن عزوز » (٣) فى ا « وابن علاف »

ابن عبد الدائم وخلق ، وعنى بالحديث ، وأتقن ألفاظه ، وعرف رُوَاته وحفاظه ، وفهم معانيه ، وانتقى لُبَابه[1] ومبانيه

قال الصفدى : وكان من كبار أئمة هذا الشان ، وممن يجرى فيه وهو طَلْقُ اللسان ، هذا إلى ما فيه من ديانة ، وورع وصيانة ، وكانت له حلقة اشتغال بكرة بالجامع الأموى يلازمها ، ويَحُومُ عليه من الطلب حوائمها ، سمع عليه الشيخ شمس الدين الذهبى ، واستفاد منه ، وروى فى تصانيفه عنه ، وعرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية فأباها ، ولم يقبل حِبَاها[2] ، وكان بزىِّ الصوفية ، ومعه فقَاهة بالشافعية ، ولم يزل على حاله حتى أحزن الناس ابن فرح ، وتقدّم إلى الله وسرح ، وشيع الخلق جنازته ، وتولّوْا وضعه فى القبر وحيازته[3] ، وتوفى رحمه الله تعالى تاسع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة ، ومولده سنة خمس وعشرين وستمائة

وله قصيدة غزلية فى ألقاب الحديث سمعها منه الدُّمْيَاطى واليُونِينى ، وسمع منه البرزالى والمقاتلى والنابلسى وأبو محمد بن الوليد ، ومات بتربة أم الصالح بالإسهال

قصيدة (غرامى صحيح) المتضمنة ألقاب أنواع الحديث

والقصيدة المذكورة هى [هذه] :

غَرَامى صحيح والرَّجا فيك مُعْضَلُ ... وحزنى ودَمْعِى مُطْلَقَ ومسلسل

وصبرىَ عنكم يشهد العقلُ أنه ... ضعيف ومتروك ، وذُلِّىَ أجمل

ولا حَسَنٌ إلا سماع حديثكم ... مشافهة يُمْلَى على فأنقل

وأمرىَ موقوفٌ عليك ، وليس لى ... على أحدٍ إلا عليك المُعَوَّلُ

ولوكان مرفوعا إليك لكنتَ لى ... على رغم عذالى تَرِقُّ وتعدل

(١) فى ا « وانتقى لآليه »

(٢) الحباء ـ بكسر الحاء ، بزنة الكتاب ـ العطاء ، وقد قصره لإقامة السجع

(٣) فى ا « وتولوا وضعه فى القبر وجنازته » محرفا

وعـذل عذولى منكر لا أسيغه ... وزورٌ وتدليس يرد ويُهمَلُ
أقضِّى زمانى فيك متصل الأسى ... ومنقطعاً عما به أتوصَّلُ
وها أنا فى أكفان هَجْرِك مُدرج ... تُكَلِّفنى ما لا أطيق فأحملُ(1)
وأجْرَيْتُ دَمْعِى بالدماء مدبَّجًا ... وما هو إلا مهجتى تتحلّلُ
فمتفق سُهْدِى وَجَفنى وعَبْرَتى ... ومُفْتَرِقٌ صبرى وقلبى المُبَلْبَلُ
ومُؤْتلف شَجْوِى ووَجْدى ولَوْعَتى ... ومُخْتَلف حظى وما منك آمل
خُذِ الْوَجْدَ عنى مُسْنَدًا وَمُعَنْعَنًا ... فغيرىَ موضوعُ الهوى يتحيلُ
وذى نُبَذٌ من مبهم الحب فاعتبرْ ... وغامضه إن رمت شرحًا أحول
عزيز بكم صب ذليل لغيركم ... ومشهور أوصاف المحب التذلل
غريب يقاسى البعد عنك ، وماله ... وحَقِّ الهوى عن داره مُتَحَوَّلُ
فرفقاً بمقطوع الوسائل ، ماله ... إليك سبيلٌ لا ولا عنك مَعْدِلُ
فلازلتَ فى عز منيعٍ ورفعة ... وما زلتَ تعلو بالتجنى فأنزل
أُوَرِّى بسُعْدَى والرَّبابِ وزَيْنَب ... وأنْتَ الذى تُعْنَى وأنتَ المؤَمَّلُ
فخذ أوَّلاً من آخر ثم أولا ... من النِّصْف منه فهْوَ فيه مكمل
أبر إذا أقسمت أنى بحبه ... أهِيمُ وقَلْبى بالصبابة يُشْغَلُ

وقد ذكرت شرحها فى الجزء الثلاثين من تذكرتى ، انتهى كلام الصفدى

وظاهر كلامه أنه ابن فرح ـ بفتح الراء ـ والذى تلقيناه عن شيوخنا أنه بسكون الراء ، وقد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم ، وهى وحدها دالة على تمكن الرجل ، رحمه الله تعالى !

أبو الأصبغ عبدالعزيز بن عبدالملك

ومنهم عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر ، أبوالأصبغ ، الأموى ، الأندلسى

---

(1) فى ا « وها أنا فى أكناف هجرك » وأثبتنا ما فى ب لأنه أنسب ببقية البيت .

سمع بمكة و بدمشق ومصر وغيرها ، وحدث عن سليمان بن أحمد بن يحيي بسنده إلى جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لكل بنى أب عَصَبَةً ينتمون إليها ، إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عَصَبَتهم ، وهم عِتْرَتى ، خلقوا من طينتى ، ويل للمكذبين بفضلهم ، مَنْ أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله » وحدث عن أبى العباس أحمد بن محمد البرذعى[1] بسنده إلى عبد الله ابن المبارك قال : كنت عند مالك بن أنس وهو يحدثنا ، فجاءت عقرب فلدغته ست عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويتصبر ، ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس عنه قلت له : يا أبا عبد الله ، قد رأيت منك عجباً ، قال : نعم ، أنا صبرت إجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولد أبو الأصبغ المذكور بقُرْطُبة وتوفى ببخارى سنة ٣٦٥

قال الحاكم أبو عبد الله : رأيت أبا الأصبغ فى المنام فى بستان فيه خضرة ومياه جارية وفُرُش كثيرة ، وكأنى أقول : إنها له ، فقلت : يا أبا الأصبغ ، بماذا وصلت إليه ؟ أبالحديث ؟ فقال : إى والله ، وهل نجوت إلا بالحديث ؟ قال : ورأيته أيضاً وهو يمشى بزى أحسن ما يكون ، فقلت : أنت أبو الأصبغ ؟ فقال : نعم ، قلت : ادع الله تعالى أن يجمعنى و إياك فى الجنة ، فقال : إن أمام الجنة أهوالا ، ثم رفع يديه وقال : اللهم اجعله معى فى الجنة بعد عمر طويل ، انتهى

أبو البقاء خالد ابن عيسى البلوى ، القاضى

ومنهم القاضى أبو البقاء خالد ، البَلَوى ، الأندلسى ، رحمه الله تعالى !

وهو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد ، البلوى ، ووصفه الشاطبى بأنه الشيخ الفقيه القاضى الأعدل ، انتهى

---

(١) فى ا « البردعى » بالدال مهملة .

وهو صاحب الرحلة المسماة : « تاج المَفْرِق ، فى تحلية أهل المشرق » ، ومما أنشده رحمه الله تعالى فيها لنفسه :

ولقد جرى يومَ النوى دمعى دما حتى أشاع الناس أنك فانى

والله إن عاد الزمان بقربنا لكففت عن ذكر النوى وكفانى

وهذه الرحلة المسماة بتاج المفرق مشحونة بالفوائد والفرائد(١) ، وفيها من العلوم والآداب مالا يتجاوزه الرائد ، وقد قال رحمه الله تعالى فيها فى ترجمة الولى نجم الدين الحجازى رضى الله تعالى عنه ، مانصه : وذكر لى رضى الله تعالى عنه قال : مما وَصَّى به الجد الأكبر أبو الحجاج يوسف المذكور — يعنى سيدى أبا الحجاج يوسف ابن عبد الرحيم الأقصرى القطب الغوث رضى الله تعالى عنه ، وأعاد علينا من بركاته — خواصَّه وأصدقاءَه(٢) ، قال : إذا أدركتكم الضرورة والفاقة فقولوا : حسبى الله ، ربى الله يعلم أننى فى ضيق ، قال : وذكر لى أيضاً رضى الله تعالى عنه قال : رأى هذا الجد يوسف المذكور النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى النوم ، بعد أن سأل الله تعالى ذلك ، وقد كان أصابته فاقة ، فشكا إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قل يا ربُّ يارحيم(٣) ، ياربُّ يارحيم ، الطُفْ بى فى قضائك ، ولا تولِّ أمرى أحداً سواك ، حتى ألقاك » فلما قالها أذهب الله تعالى عنه فاقَتَه . قال : وكان رحمه الله تعالى يوصى بها أصحابه وأحبابه ، انتهى .

ونسب بعضُهم القاضىَ خالدا المذكور إلى انتحال كمال العماد فى « البرق الشامى » ، لأن خالدا أكثر فى رحلته من الأسجاع التى للعماد ، فلذا قال لسان الدين ابن الخطيب فيه :

---

(١) فى ا « مشحونة من القرائد والفرائد » محرفا

(٢) كذا فى ا ، وفى ب « وأعاد علينا من بركاته وخواصه وأصدقائه »

(٣) كذا فى ا ، وفى ب « قل يارب يارحيم يارب يارحيم »

خليلىَّ إن يُقْضَ اجتماع بخالد فقولا له قولا ولن تَعْدُوَا الحقَّا
سرقْتَ العماد الأصبهانى برقهُ وكيف ترَى فى شاعر سرَقَ البَرْقَا

وأظن أن لسان الدين كان منحرفاً عنه ، ولذلك قال فى كتابه « خطرة الطيف ، ورحلة الشتاء والصيف » عند ما جرى ذكر قَنْتُورية[1] وقاضيها خالد المذكور ما صورته : لم يتخلف ولد عن والد ، وركب قاضيها ابن أبى خالد ، وقد شهرته النزعة الحجازية ، ولبس من خشن الحجَازيَّةُ ، وأرخى من البياض طيلسانا ، وتَشَبَّه بالمشارقة شكلا ولسانا ، والبداوة تَسِمُه على الخرطوم ، وطبع الماء والهواء يقوده قودَ الجمل المخطوم ، انتهى .

ومن نظم أبى البقاء خالد البَلَوى المذكور قوله :

أتى العيدُ واعتاد الأحبةُ بعضهم ببعض وأحباب المتيم قد بانوا
وأضحى وقد ضحوا بقُرْبانهم وما لديه سوى خُمْرِ المدامع قربان

وقال فى رحلته : إنه قال هذين البيتين بديهةً بمصلّى تونس فى عيد النحر من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة

ومن نظمه أيضاً قوله رحمه الله تعالى :

ومستنكر شَيْبِى وما ذهب الصِّبا ولاجف إيناع الشبيبة من غصنى
فقلت فراق للأحبة مؤذن بشيبى وإن كنت ابنَ عشرين من سنى

ومحاسنه ــ رحمه الله تعالى ! ــ كثيرة ، وفى الرحلة منها جملة

برهان الدين أبو إسحاق النميرى الغرناطى

ومنهم برهان الدين أبو إسحق بن الحاج إبراهيم ، النميرى ، الغرَناطى وهو أيضا مذكور فى ترجمة ابن الخطيب بما يغنى عن تكرير اسمه[2] هنا وقال رحمه الله تعالى فى رحلته : أخبرنى شيخنا ــ يعنى الشيخ الإمام الصالح أبا عبدالله

(١) قنتورية : أحد حصون المغرب قرب القيروان

(٢) فى ا « بما يغنى عن تكرير ذكره هنا »

محمد المعروف بخليل التوزَرى إمام المالكية بالحرم الشريف رضى تعالى عنه — قال : اعتكفت بجامع عمرو بن العاص كَفًّا لشرّتى عن الناس ، خصوصا أذى الغيبة ، نحو خمسين ليلة ، أردت أن أدعو لطائفة من أصحابى بمطالب مختلفة ، كل بحسب ظنى فيه يومئذ ، فأدركتنى حيرة فى التميز والتخصيص ، فألهمت أن قلت بديهة :

شَهِدْنا بتقصير ألبابنا فَحُسْنُ اختيارك أولى بنا

وأنتَ البصيرُ بأعدائنا وأنتَ البصير بأحبابنا

قال : ثم أردفتها بدعاء ، وهو : اللهم يامن لايعلم خيره إلا هو ، أنت أعلم بأعدائنا وأوِدّائنا ، فافعل بكل منهم مايناسب حسن اختيارك لنا ، حسبما علمته منا ، وكفى بك عليما ، وكفى بك قديرا ، وكفى بك بصيرا ، وكفى بك لطيفا ، وكفى بك خبيرا ، وكفى بك نصيراً[١] ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كثيرا كثيرا .

وقال ابن الحاج المذكور فى الرحلة المذكورة : إذا التقى الرجل بعدوه وهو على خوف منه فليقرأ هذه الحروف (كهيعص ، حمعسق) وليعقد بكل حرف منها أصبعاً ، يبدأ بإبهام يده اليمنى ويختم بإبهام يده اليسرى ، فإذا قرب من عدوه فليقرأ فى نفسه سورة الفيل ، فإذا وصل إلى قوله (ترميهم) فليكررها ، وكلما كررها[٢] فتح أصبعاً من أصابعه المعقودة تجاه العدو ، فيكررها عشر مرات ، و يفتح جميع أصابعه ، فإذا فعل ذلك أمن من شره إن شاء الله تعالى وهو مجرب ، انتهى

ومن بديع نظم أبى إسحاق بن الحاج النميرى المذكور قوله :

يارب كاس لم يَسِحَّ شَمُولُهَا فاعْجَبْ لها جسماً بغير مِزاج[٣]

---

(١) وقع في ا قوله « وكفى بك نصيراً » بعد قوله « وكفى بك قديرا »

(٢) فى ا « فليفتح » (٣) لم يسح : لم يسل ، والشمول — بفتح الشين — أصله الخمر مطلقا ، أو خاص بالباردة منها .

لما رأينا السحر من أشكالها جملا نسبناه إلى الزجاج[١]

وله فيما أظن :

له شَفَةٌ أضاعوا النَّشْرفيها بلثم حين سَدَّتْ ثغر بدر

فما أشهى لقلبى ما أضاعوا (ليوم كريهة وسداد ثغر)[٢]

وهو تضمين حسن .

أثير الدين أبو حيان محمد ابن يوسف النفزى الأثرى الغرناطى النحوى

ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق إمام النحاة أثير الدين أبو حيان محمد ابن يوسف بن على بن يوسف بن حيان ، النَّفْزِى ، الأثرى ، الغَرْنَاطى .

قال ابن مرزوق الخطيب فى حقه : هو شيخ النحاة بالديار المصرية ، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية ، انتهت إليه رياسة التبريز فى علم العربية واللغة والحديث سمعت عليه وقرأت ، وأنشدنى الكثير ، وإذا أنشدنى شيئا ولم أقيده استعاده منى ، فلم أحفظه ، فأنشدنى وكنت أظنه لنفسه ارتجالا إلى أن أخبرنى أحد أصحابنا عنه أنه أخبره أنهما لأبى الحسن التِّجَانى أنشدهما له ببيته بالمدرسة الصالحية رحمه الله تعالى :

إن الذى يَرْوِى ولكنه يَحْفَظُ ما يروى ولا يكتب

كصخرة تنبع أمواجُهَا تسقى الأراضى وَهْىَ لا تشرب

قال : ورويت عنه تآليف ابن أبى الأحوص : منها « التبيان ، فى أحكام القرآن » و « المعرب المفهم ، فى شرح مسلم » ولم أقف عليه ، و « الوسامة ، فى أحكام القَسَامة » و « والمشرع السلسل ، فى الحديث المسلسل » وغير ذلك .

وحدثنى بسنن أبى داود عن ابن خطيب المِزَّة عن أبى حفص بن طَبَرْزَدٍ عن أبى البدر الكرخى[٣] ومفلح الرومى عن أبى بكر بن ثابت الخطيب عن أبى عمر الهاشمى عن اللؤلؤى عن أبى داود ، و بسنن النسائى عن جماعة عن ابن باقا عن أبى

---

(١) فى هذا البيت تورية بكتاب « الجمل » لأبى القاسم الزجاجى .

(٢) عجز هذا البيت عجز بيت للعرجى ، وهو بتمامه :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

(٣) فى ا ، ب « عن أبى البدر الكروخى » .

زرعة عن أبي حميد(١) الدَّوْسى عن أبى نصر الكسار عن ابن السنى عن النسائى، وبالموطأ عن أبى جعفر بن الطباع بسنده .

وشكوت إليه يوما مايلقاه الغريب من أذاةِ العُدَاة ، فأنشدنى لنفسه :

عُدَاتى لهم فضل على ومنة فلاأذهَبَ الرحمن عنى الأعاديا

هُمُ بَحثُوا عن زلَّتى فاجْتَنَبْتُهَا وهم نافَسُونى فا كتَسَبْتُ المعاليا

وأنشدنى أيضاً من مُدَاعباته ، وله فى ذلك النظم الكثير مع طهارته وفضله :

علقته سَبَجِىَّ اللونِ قادحَهُ ما ابيض منه سوى ثغر حكى الدررا

قد صاغه من سواد العين خالقه فكل عين إليه تُدْمِنُ النظرا

وأنشدنى فى جاهل لبس صُوفاً وزُهى فيه :

أيا كاسياً من جيِّدِ الصوف نَفْسَهُ و ياعار ياًمن كل فَضْلٍ ومن كَيْسِ

أتزهى بصوفٍ وهو بالأمس مصبحٌ على نعجةٍ واليوم أمسى على تَيْسِ

انتهى مااختصرته من كلام الخطيب بن مرزوق

وأنشد الرحالة بن جابر الوادى آشى لأبى حَيَّان قوله :

وقَصَّر آمالى مَآلى إلى الردى وأنِّى و إن طال المدى سوف أهْلِكُ

فصُنْتُ بماء الوجهِ نفساً أبيةً وجادت يمينى بالذى كنت أملك(٢)

ترجمة لأبى حيان عن الصفدى

ووقفت على « أعيان العصر ، وأعوان النصر » للصفدى ، فوجدت فيه ترجمة أبى حيان واسعة فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد ، وهى :

الشيخ ، الإمام ، العالم ، العلامة ، الفريد ، الكامل ، حجة العرب ، مالك أزِمَّة الأدب ، أثير الدين ، أبو حيان الأندلسى الجيَّانى ـ بالجيم ، والياء آخر الحروف مشدّدة ، و بعد الألف نون ـ وكان أمير المؤمنين فى النحو ، والشمس السافرة

---

(١) فى ا « عن ابن حميد الدوسى » .

(٢) فى ا « فضنت بماء الوجه نفس أبية »

شتاء فى يوم الصَّحْو ، والمتصرف فى هذا العلم فإليه الإثبات والمحو ، لو عاصر أئمة البصرة لبصَّرهم ، أو أهل الكوفة لكف عنهم أتباعهم السواد وحذرهم ، نزل منه كتاب سيبويه فى وطنه بعد أن كان طريداً ، وأصبح به التسهيل بعد تعقيده مفيداً ، وجعل سَرْحَة شرحِه وَجنة راقت النواظر توريداً[١] ، ملأ الزمان تصانيف ، وأمال عُنُقَ الأيام بالتآليف ، تخرج به أئمة فى هذا الفنّ ، وروّق لهم فى عصره منه سُلافة الدَّن ، فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضا غير مُجِيب[٢] ، أو عيسى بن عمر لأصبح من تقصيره وهو محذَّر[٣] ، أو الخليل لكان بعينه قذَاه ، أو سِيبوَيْه لما تردى من مسألته الزنبورية بِرِدَاه ، أو الكسائى لأعراه حلة جاهه عند الرشيد وأناسه ، أو الفرَّاء لفرَّ منه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مَدَاسِه ، أو اليزيدى لما ظهر نقصه من مكامنه ، أو الأخفش لأخفى جملةً من محاسنه ، أو أبو عُبَيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية ، أو أبو عَمْرٍو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلق بعربية ، أو السكرى لما راق كلامه فى المعانى ولا حلا ، أو المازنى لما زانه قوله « إن مُصَابكم رجلا » أو قطرب لمادبَّ فى العربية ولا دَرَج ، أو ثعلب لاستكن بمكره فى وَكْره ولما خرج ، أو المبرد لأصبحت كُوَاه مقترة[٤] ، أو الزجاج لأمست قواريره مكسرة ، أو ابن الوزان لعدم نقده ، أو الثمانينى لما تجاوز حدّه ، أو ابن باب لعلم أن قياسه ما اطرد ، أو ابن دُرَيد مابلع ريقه ولا ازْدَرَدَ ، أو ابن قتيبة لأضاع رَحْله ، أو ابن السراج لمشى[٥] إذ رأى وَحْله ، أو ابن الخشاب لأضرم فيه نارا ، ولم يجد معه نوراً ، أو ابن الخباز لماسَجَّر له تنورا ، أو ابن القوّاس لما أغرق فى نَزْعه ، أو ابن يعيش لأوقعه فى نزعه ، أو ابن خروف لماوجد له مرعى ، أو ابن إياز لما وجد لأوزاره وقعا ، أو ابن الطراوة لم يكن نحوه طريا ، أو الدباج[٦] لكان من جلته الرائعة[٧] عرِياً ، وعلى

---

(١) الوجنة : الخد ، ووقع فى ب « جنة راقت النواظر توريداً » وكلاهما صحيح

(٢) كذا فى ا ، وفى ب « بغيضا غير محبب » (٣) كذا فى ا ، وفى ب « وهو محدب »

(٤) فى ا « لأصبحت قواه مقترة » (٥) فى ا « لمشاه إذ رأى وحله »

(٦) فى ا « أو ابن الدباج » (٧) فى ا « الرائقة »

الجملة فكان إمام النحاه فى عصره شرقاً وغرباً ، وفريد هذا الفن الفذ بعداً وقرباً ، وفيه قلت :

سلطان علم النحو أستاذنا الـــشيخ أثير الدين حَبْر الأنام

فلا تقل زيد وعمرو ، فما فى النحو معه لسواه كلام

خدم هذا العلم مدّة تقارب الثمانين ، وسلك من غَرائبه وغوامضه طرقاً متشعبة الأفانين ، ولم يزل على حاله إلى أن دخل فى خبر كان ، وتبدّلت حركاته بالإسكان ، وتوفى رحمه الله تعالى بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة فى يوم السبت بعد العصر الثامن والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر ، وصلى عليه بالجامع الأموى بدمشق صلاة الغائب فى شهر ربيع الآخر ، ومولده بمدينة مَطَخْشَارَش[1] فى أخريات شوال سنة أربع وخمسين وستمائة .

وقلت أنا أرثيه رحمه الله تعالى :

مات أثير الدين شيخُ الورى فاستعر البارق واستعبرا[2]

ورق من حزن نسيمُ الصبا واعتل فى الأسحار لمَّا سرى

وصادحات الأيك فى نوحها رثته فى السجع على حرف را

ياعين جودى بالدموع التى يروى بها ما ضمه من ثرى

واجرى دما فالخطبُ فى شأنه قد اقتضى أكثر مما جرى

مات إمام كان فى فنه يرى إماما والورى من ورا

أمسى منادًى للبلى مفردا فضمه القبر على ما ترى

يا أسفا كان هُدًى ظاهرا فعاد فى تربته مضمرا

---

(١) مطخشارش : بلدة قرب غرناطة ، أو ضاحية لها .

(٢) استعر : اشتعلت ناره ، واستعبر : أجرى العبرة ، وهى الدمعة

وكان جَمْعُ الفضل فى عصره ... صح فلما أن قضى كُسِّرَا
وعُرِّف الفضل به برهة ... والآن لما أن مضى نكرا
وكان ممنوعا من الصرف لا ... يطرق من وافاه خطبٌ عَرَا
لا أفعل التفضيل مابينه ... وبين من أعرفه فى الورى
لابدل عن نعته بالتقى ... ففعلُه كان له مصدرا
لم يدّغم فى اللحد إلا وقد ... فك من الصبر وثيق العُرا
بكى له زيد وعمرو فمن ... أمثلة النحو وممن قرا
ماأعقد التسهيل من بعده ... فكم له من عسرة يَسَّرَا
وجسر الناس على خوضه ... إذ كان فى النحو قد استبْحَرَا
من بعده قد حال تمييزه ... وحظه قد رجع القهقرى
شارك من قد ساد فى فنه ... وكم له فنّ به استأثرا
دأب بنى الآداب أن يغسلوا ... بدمعهم فيه بقَايا الكَرَى
والنحو قد سار الردى نحوه ... والصرف للتصريف قد غيرا
واللغة الفصحى غدت بعده ... يلغى الذى فى ضبطها قررا
تفسيره البحر المحيط الذى ... يهدى إلى وراده الجوهرا
فوائد من فضله جمة ... عليه فيها نعقد الِخنْصَرَا
وكان ثَبْتاً نقله حجة ... مثل ضياء الصبح إن أسفرا
ورحلة فى سُنَّة المصطفى ... أصدق من يسمع إن أحبرا
له الأسانيد التى قد علت ... فاسْتَفَلَتْ عنها سوامى الذرا(١)
ساوى بها الأحفاد أجدادهم ... فاعجب لماض فاته مَنْ طَرَا

---

(١) استفلت : نزلت إلى سفل ، ووقع فى ا « فاستغلت » بالغين مكان الفاء ـ محرفا . والسوامى: جمع سام ، وهو المرتفع، والذرى: جمع ذروة ، وهى أعلى الشىء .

وشاعرا فى نظمه مفلقـــا كم حَرَّرَ اللفظ وكم حَبَّرَا
لها معان كلمـــا خطها تستر ما يرقم فى تســترا
أفديه من ماضٍ لأمر الردى مستقبَلاً من ربه بالقِــرَى
مابات فى أبيض أكفانه إلا وأضحى سُنْدُساً أخضرا
تصافحُ الحــورُ له راحةً كم تعبت فى كل ما سطرا
إن مات فالذكر له خالد يحيا به من قبل أن ينشرا
جاد ثَرًى وافاه غيث إذا مساه بالسَّقْى له بَكَّرَا
وخصه من ربه رحمة توردُه فى حشره الكوثرا

وكان قد قرأ القراآت على الخطيب أبى محمد عبد الحق بن على بن عبد الله نحواً من عشرين ختمة إفراداً وجمعاً ، ثم على الخطيب الحافظ أبى جعفر أحمد الغَرْناطى المعروف بالطباع بغرناطة ، ثم قرأ السبعة إلى آخر سورة الحجر على الخطيب الحافظ أبى على الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبى الأحوص بمَالَقَةَ ، ثم إنه قدم الإسكندرية ، وقرأ القراآت على عبد النصير بن على بن يحيى المريوطى[1] ، ثم قدم مصر فقرأ بها القراآت على أبى الطاهر إسماعيل بن هبة الله المليحى ، وسمع الكثير على الجم الغفير بجزيرة الأندلس و بلاد إفريقية والإسكندرية وديار مصر والحجاز ، وحَصَّل الإجازات من الشام والعراق وغير ذلك ، واجتهد فى طلب التحصيل والتقييد والكتابة ، ولم أر فى أشياخى أكثر اشتغالا منه ، لأنى لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب ، ولم أره على غير ذلك ، وله إقبال على الطلبة الأذكياء ، وعنده تعظيم لهم ، ونظم ونثر ، وله الموشحات البديعة ، وهو ثَبْت فيما ينقله ، محرر لما يقوله ، عارف باللغة ، ضابط لألفاظها ، وأما النحو والصرف[2] فهو إمام الناس كلهم فيهما ،

(١) المريوطى : نسبة إلى مريوط إحدى البلاد المصرية ، ووقع فى ب ونسخة عند ا «المربوطى» وفى أصل ا «المربوبطى» تحريف

(٢) فى ا «وأما النحو والتصريف»

لم يذكر معه فى أقطار الأرض غيره فى حياته ، وله اليد الطُّولَى فى التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم ، خصوصاً المغاربة ، وتقييد أسمائهم على مايتلفظون به من إمالة وترقيق وتفخيم ، لأنهم يجاورون بلاد الإفرنج وأسماؤهم قريبة من لغاتهم ، وألقابهم كذلك ، وقيده وحرره ، وسأله شيخنا الذهبى أسئلة فيما يتعلق بذلك ، وأجابه عنها .

وله التصانيف التى سارت وطارت ، وانتشرت ومانتثرت ، وقرئت ودريت ونسخت ومافسخت ، أخملَتْ كتب الأقدمين ، وألهت المقيمين بمصر والقادمين ، وقرأ الناس عليه ، وصاروا أئمة وأشياخا فى حياته ، وهو الذى جَسَّر الناس على مصنفات ابن مالك رحمه الله تعالى ، ورغبهم فى قراءتها[1] ، وشرح لهم غامضها ، وخاض بهم لججها ، وفتح لهم مقفلها ، وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب : هذه نحو الفقهاء ، وكان التزم أن لا يقرئ أحداً إلا إن كان فى كتاب سيبويه أو فى التسهيل لابن مالك أو فى تصانيفه ، ولما قدم من بلاده لازم الشيخ بهاء الدين رحمه الله تعالى كثيراً ، وأخذ عنه كتب الأدب ، وكان شيخاً حسن العمة ، مليح الوجه ، ظاهر اللون ، مُشْرَب الحمرة[2] ، منور الشيبة ، كبير اللحية ، مسترسل الشعر فيها لم تكن كَثَّة ، عبارته فصيحة بلغة الأندلس يعقد حرف القاف قريباً من الكاف ، على أنه لا ينطق بها فى القرآن إلا فصيحة ، وسمعته يقول : مافى هذه البلاد من يعقد حرف القاف .

وكانت له خصوصية بالأمير سيف الدين أرغون كافل الممالك ، ينبسط معه ، ويبيت عنده فى قلعة الجبل ، ولما توفيت ابنته نُضَار طلع إلى السلطان الملك الناصر محمد ، وسأل منه أن يدفنها فى بيته داخل القاهرة فى البرقوقية[3] ، فأذن له فى ذلك ،

---

(١) فى ا « ورغبهم فيها وفى قراءتها »
(٢) فى ا « مشربا حمرة »
(٣) فى ا « فى البرقية »

وكان أولا يرى رأى الظاهرية ، ثم إنه تمذهب للشافعى رضى الله تعالى عنه ، بحث على الشيخ علم الدين العراقى « المحرر » للرافعى ، و « مختصر المنهاج » للنووى ، وحفظ « المنهاج » إلا يسيرا ، وقرأ أصول الفقه على أستاذه أبى جعفر بن الزبير ، بحث عليه من الإشارة للباجى ، ومن المستصفى للغزالى ، وعلى الخطيب أبى الحسن ابن فَضِيلة ، وعلى الشيخ علم الدين العراقى ، وعلى الشيخ شمس الدين الأصبهانى ، وعلى الشيخ علاء الدين الباجى ، وقرأ شيئاً[1] من أصول الدين على شيخه ابن الزبير ، وقرأ عليه شيئاً من المنطق ، وقرأ أشياء[2] من المنطق على بدر الدين محمد بن سلطان البغدادى ، وقرأ عليه شيئاً من « الإرشاد » للعميدى فى الخلاف ، ولكنه برع فى النحو ، وانتهت إليه الرياسة والمشيخة فيه ، وكان خالياً من الفلسفة والاعتزال والتَّجْسيم[3] ، وكان أولا يعتقد فى الشيخ تقى الدين بن تيمية وامتدحه بقصيدة ، ثم إنه انحرف عنه لما وقف على كتاب « العرش » له ، قال الفاضل كمال الدين الأدفوى : وجرى على مذهب كثير من النحويين فى تعصبه للإمام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه التعصب المتين ، قال : حكى لى أنه قال لقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة : إن عليا رضى الله تعالى عنه عهد إليه النبى صلى الله عليه وسلم أن لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق ، أتراه ما صدق فى هذا ! فقال : صدق ، قال فقلت له : فالذين سَلُّوا السيوف فى وجهه يبغضونه أو يحبونه أو غير ذلك؟ قال : وكان يسىء[4] الظن بالناس كافة ، فإذا نقل له عن أحد خبر[5] لا يتكيف به و ينثنى عنه حتى عمن[6] هو عنده مجروح ، فيقع فى ذم من هو بألسنة العالم ممدوح ، و بسبب ذلك وقع فى نفس جمع كبير ، منه ألم كثير ، انتهى .

قلت : أنا لم أسمع منه فى حق أحد من الأحياء والأموات إلا خيرا ، وما

---

(١) فى ا « وقرأ أشياء من أصول الدين » (٢) فى ا « وقرأ شيئا من المنطق »

(٣) فى ب « والتنجيم » وأثبتنا ما فى ا لأنه أوفق بما قبله وبما يأتى بعده .

(٤) فى ا « وكان سىء الظن بالناس كافة »

(٥) فى ا « خير » (٦) فى ا « حتى ممن هو عنده مجروح »

كنت أنقم عليه شيئاً إلا ما كان يبلغنى عنه من الحط على الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، على أننى [أنا] ماسمعت فى حقه شيئاً ، نعم كان لا يثق بهؤلاء الذين يدعون الصلاح حتى قلت له يوماً : ياسيدى ، فكيف تعمل فى الشيخ أبى مَدْيَن ؟ فقال : هو رجل مسلم دين ، وإلا ما كان يطير فى الهواء ، ولا يصلى الصلوات الخمس فى مكة كما يدعى فيه هؤلاء الأغمار .

وكان فيه ـ رحمه الله تعالى ! ـ خشوع يبكى إذا سمع القرآن ، ويجرى دمعه عند سماع الأشعار الغزلية ، وقال كمال الدين المذكور : قال لى : إذا قرأتُ أشعار العشق أميل إليها ، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلنى ، وغيرهما ، إلا أشعار الكرم ماتؤثر فى ، انتهى .

قلت : كان يفتخر بالبخل ، كما يفتخر غيره بالكرم ، وكان يقول لى : أوصيك احفظ دراهمك و يقال عنك بخيل ، ولا تحتج إلى السفل .

وأنشدنى من لفظه لنفسه :

رجاؤك فلساً قد غدا فى حَبَائلى ... قنيصاً رجاءٌ للنِّتاج من العُقم
أأتعب فى تحصيله وأضيعه ... إذن كنت معتاضاً من البرء بالسقم (١)

قلت : والذى أراه فيه أنه طال عمره ، وتغرب ، وورد البلاد ولا شىء معه ، وتعب حتى حصل المناصب تعباً كثيرا ، وكان قد جرب الناس ، وحلب أشْطُرَ الدهر (٢) ومرت به حوادث ، فاستعمل الحزم ، وسمعته غير مرة يقول : يكفى الفقير فى مصر أربعة أفلس : يشترى له بائتة بفلسين ، و بفلس زبيباً ، و بفلس كوزماء ، ويشترى ثانى يوم ليموناً بفلس يأكل به الخبز ، وكان يعيب على مشترى الكتب ويقول : الله يرزقك عَقْلاً تعيش به ، أنا أى كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف ،

---

(١) فى ا « إذن كنت معتاضا عن البرء بالسقم »
(٢) فى ا « وحصل أشطر الدهر » محرفا

وإذا أردت من أحد أن يعيرنى دراهم ما أجد ذلك ، وأنشدنى له إجازة :

إن الدراهم والنساء كلاهما لاتأمــنَنَّ عليهما إنسانا
ينزع عن ذا اللب المتين عن التقى فترى إساءة فعله إحسانا

وأنشدنى له من أبيات :

أتى بشـفيع ليس يمكن رده دراهم بيض للجـروح مراهم
تُصَيِّر صعب الأمر أهون مايرى وتقضى لبانات الفتى وهو نائم

ومن حزمه قوله * عِدَاتى لهم فضل ــ البيتين *

وقد مدحه كثير من الشعراء ، والـكبار الفضلاء ، فمنهم القاضى محيي الدين ابن عبد الظاهر بقوله :

قد قلت لما أن سمعت مباحثاً فى الذات قَرَّرَها أجلُّ مفيـدِ
هذا أبوحيان قلت صـــدقتم وبررتم هذا هو التوحيــدى[1]

وكان قد جاء يوما إلى بيت الشيخ صدر الدين بن الوكيل فلم يجده ، فكتب بالجص على مصراع الباب ، فلما رأى ابن الوكيل ذلك قال :

قالوا أبو حيان غـير مدافع ملك النحاة فقلت بالإجماع
اسم الملوك على النقود و إننى شاهدت كنيته على المصراع

ومدحه شرف الدين بن الوحيد بقصيدة مطولة أولها :

إليــك أبا حيان أعْمَلْتُ أنيُقِى وملت إلى حيث الركائب تلتقى
دعانى إليك الفضل فانقدْتُ طائعا ولبيت أحـدوها بلفظى المصدق

ومدحه نجم الدين إسحاق بن الْمَنِّى[2] التركى ، وسأله تكملة شرح التسهيل بقصيدة ، وأرسلها إليه من دمشق ، وأولها :

---

(١) التوحيدى : المنسوب إلى التوحيد ، وهو الاعتراف لله بالوحـدانية ، وهو أيضا علم الـكلام ، وفى البيت تورية بأبى حيان التوحيدى الصوفى واسمه على بن محمد وله كتاب « المقابسات » وكتاب « إمتاع الأسماع » وغيرهما من نفائس المؤلفات.

(٢) فى أصل ا « ألمى » وفى نسخة عندها « المسى » .

تبدّى فقلنا وجْهُه فَلَقُ الصبح   وكله باليمن فيه وبالنجح
وسهلت تسهيل الفوائد محسنا   فكن شارحاً صدرى بتكملة الشرح

ومدحه مجير الدين عمر بن اللَّمْطى (١) بقصيدة أولها :

ياشيئ أهل الأدب الباهر   من ناظم يُلْفَى ومن ناثر

ومدحه نجم الدين يحيى الإسكندرى بقصيدة أولها :

ضَيْفٌ ألَمَّ بنا من أبرع الناس   لا ناقض عهد أيامى ولا ناسى
عارمن الكِبْرِ والأدناس ذوشرف   لكنه من سَرَابيلِ العُلاَ كاسى

ومدحه نجم الدين الطوفى بقصيدتين أول الأولى :

أتراه بعد هجران يصل   ويُرَى فى ثوب وصل مبتذل
قمر جار على أحلامنا   إذ تولاها بقدّ معتدل

وأول الثانية :

اعذروه فكريم من عذر   قَمَرَتْهُ ذاتُ وجه كالقمر (٢)

ومدحه بهاء الدين محمد بن شهاب الدين الخيمى بقصيدة أولها :

[إن الأثير أباحيان أحيانا (٣)   بنشره طى علم مات أحيانا

ومدحه القاضى ناصر الدين شافع بقصيدة أولها] (٣) :

فضضت عن العذب النمير ختامها   وفَتَّحْتُ عن زهر الرياض كمامها

ومدحه جماعة آخرون يطول ذكرهم ، وكتبت أنا إليه من الرحبة سنة ٧٢٩ :

لو كنت أملك من دهرى جَنَاحَيْنِ   لطرت لكنه فيكم جنى حَيْنِي
يا سادة نلت فى مصر بهم شرفا   أرقى به شرفاً ينأى عن العين
وإن جرى لسَما كيوان ذكرُ عُلاً   أحلنى فضلُهم فوق السماكين

---

(١) فى ب « ابن الملطى »
(٢) قمرته : غلبته فى المقامرة
(٣) مابين المعقوفين ساقط من ا

وليس غـــير أثير الدين أثَّلَهُ فشاد ما شادلى حقاً بلامين
حـــبر ولو قلت إن الباء رتبتها من قبل صدّقك الأقوام فى ذين
أحيا علوما أمات الدهر أكثرها مذ جُلِّدت خُلِّدت ما بين دفين
يا واحد العصر ما قولى بمتهـــم ولا أحاشى امرأ بين الفـــريقين
هذى العلوم بدت من سيبويه كما قالوا وفيك انتهت يا ثانىَ اثنين
قدم لهـا و بودى لو أكون فِدًى لمـا ينالك فى الأيام من شين
ياسِيبويه الورى فى الدهر لاعَجَبٌ إذا الخليل غدا يفـديك بالعين

يقبل الأرض وينهى ما هو عليه من الأشواق التى بَرَّحَتْ[1] بألمها، وأجرت الدموع دما ، وهذا الطرس الأحمر يشهد بدمها ، وأربت بسَحِّها[2] على السحائب ، وأين دوام هذه من دِيَمها ، وفرقت الأوصال[3] على السقم لوجود عدمها :

فياشوقُ ماأبقى ، و يالى من النوى و يادمع ماأجرى ، و ياقلب ماأصْبَى[4]

ويذكر ولاءه الذى تسجع به فى الأرض الحمائم ، ويسير تحت لوائه مسير الرياح بين الغمائم ، وثناءه الذى يتضوّع كالزهر بين الكمائم ، ويتنسّم تنسُّمَ هامات الربا إذا لبست من الربيع ملوّنات العمائم ، ويشهد الله على ماقد قلته والله سبحانه نعم الشهيد .

فكتب هو الجواب عن ذلك ولكنه عدم منى .

وأنشدته يوما لنفسى[5] :

قلت للكاتب الذى ماأراه قط إلا ونَقَّطَ الدمع شكله
إن تخط الدموع فى الخد شيئا مايسمى؟ فقال خَطٌّ ابن مُقْلَه

وأنشدنى هو من لفظه لنفسه :

---

(١) برحت : آلمت وأوجعت (٢) السح : توالى الأمطار

(٣) الأوصال : جمع وصل ــ بالكسر ــ وهو كل مفصل بين عضوين

(٤) البيت لأبى الطيب المتنبي ، ووقع فى ا « ويا قلب ما أقسى » محرفا

(٥) فى ا « وأنشدته يوما لنفسه » وليس بشىء .

سبق الدمع بالمسير المطايا إذ نوى من أحبُّ عنى نُقْلَهْ
وأجاد الخطوط فى صفحة الخـد ولِمْ لا يُجيد وهو ابن مُقْلَهْ

وأنشدنى فى مليح نوتى :

كلفت بنوتىّ كأن قوامه إذا ينثنى خُوطٌ من البان ناعم
مجاذفهُ فى كلِّ قلبٍ مجاذب وهزاته للعاشقين هزائم

وأنشدته أنا لنفسى :

إنَّ نوتىَّ مركبٍ نحن فيه هام فيه صَبُّ الفؤاد جريحُهْ
أقلع القلب عن سلوّىَ لما أن بدا ثغره وقد طاب ريحه

وأنشدته لنفسى أيضاً :

نوتِيُّنَا حسـنه بديع وفيه بدر السماء مُغْـرَى
ما حك بَرًّا إلا وقلنا ياليت أنا نحـك بَرًّا

فأعجباه رحمه الله تعالى ، وزهزه لهما[1]

وأنشدنى هو لنفسه فى مليح أحدب :

تعشقته أحـدبا كيسا يحاكى نحيبا حنينَ النعَّام
إذا كدت أسقط من فوقه تعلقت من ظهره بالسَّنَام

فأنشدته لنفسى :

وأحدب رحت به مغرما إذ لم تشاهد مثله عينى
لا غرو إن هام فؤادى به وخصره ما بين دفين

وأنشدنى من لفظه لنفسه فى أعمى :

ماضرَّ حسنَ الذى أهواه أنَّ سنى كريمتيه بلا شـين قد احتجبا

---

(١) زهزه : أبدى السرور بقوله « زه ، زه » وهى كلمة استحسـان ، ووقع فى ا « وتهزهز لهما » .

قد كانتا زهرتى روض وقد ذوتا لـكنَّ حسنهما الفتان ما ذهبا[١]
كالسيف قد زال عنه صَقْله فغدا أنـكى وآلم فى قلب الذى ضربا

وأنشدته لنفسى فى ذلك :

ورب أعمى وجهه روضة تَنَزُّهِى فيها كثير الديون
وخَدُّه ورد غنينا به عن نرجس مافتحته العيون[٢]

وأنشدته أيضاً لنفسى فى ذلك :

فياحسن أعمى لم يخف حَدَّ طرفه محبٌّ غدا سَكْرانَ فيهِ وَماصحا
إذا صادَ خِلٌّ باتَ يَرْعَى خُدُودَهُ غدا آمنا من مقلتيه الجوارحا

وكتبت إليه استدعاءً ، وهو : المسئول من إحسان سيدنا الإمام العالم العلامة ، لسان العـرب ، ترجمان الأدب ، جامع الفضائل ، عمدة وسائل السائل ، حجة المقلِّدين ، زين المقلَّدين ، قطب المؤملين ، أفضل الآخرين ، وارث علوم الأولين ، صاحب اليد الطولى فى كل مكان ضيق ، والتصانيف التى تأخذ بمجامع القلب فكل ذى لُبٍّ إليها شيِّقٌ ، والمباحث التى أثارت الأدلة الراجحة من مكامن أماكنها ، وقنصت أوابدها الجامحة من مواطئ مواطنها ، كشاف معضلات الأوائل ، سَبَّاق غايات قصر عن شأوها سحبان وائل ، فارع هَضَبات البلاغة فى اجتلاء اجتلابها وهى فى مرقى مرقدها ، سالب تيجان الفصاحة فى اقتضاء اقتضابها من فوق فرْقَدها ، حتى أبرز كلامه جِنَانٌ فكلٌّ جَنَّانٍ من بعده عن الدخول إليها جَبَان ، وأتى ببراهين وجوه حورها لم يَطْمِثهن إنس قبله ولا جان ، وأبدع خمائل نظم ونثر لا تصل إلى أفنان فنونها يدُ جانٍ ، أثير الدين أبى حيان ، لازال ميت العلم يُحْييه وهل عجيب ذلك من أبى حيان :

حتى ينال بنى العُلوم مَرامهم ويحلهم دار المنى بأمان[٣]

---

(١) فى ا « لـكن حسنهما الفتان قد ذهبا »

(٢) كذا فى ا ، وفى ب « فى خده ورد غنينا به »

(٣) فى ا ، ب « حتى ينال بنو العلم مرامهم » والوزن به غير مستقيم .

إجازة كاتب هذه الأحرف مارواه فسح الله تعالى فى مدته من المسانيد والمصنفات والسنن والمجاميع الحديثية ، والتصانيف الأدبية ، نظماً ونثراً ، إلى غير ذلك من أصناف العلوم على اختلاف أوضاعها ، وتباين أجناسها وأنواعها ، مما تلقاه ببلاد الأندلس وإفريقية والإسكندرية والديار المصرية والبلاد الحجازية وغيرها من البلدان ، بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة خاصة أو عامة ، كيفما تأدّى ذلك إليه ، وإجازة ماله أدام الله إفادته من التصانيف فى تفسير القرآن العظيم والعلوم الحديثية والأدبية وغيرها ، وماله من نظم ونثر إجازة خاصة ، وأن يثبت بخطه تصانيفه إلى حين هذا التاريخ ، وأن يجيزه إجازة عامة لما يتجدّد له من بعد ذلك على رأى من يراه ويجوّزه ، منعما متفضلا إن شاء الله تعالى .

فكتب الجواب رحمه الله تعالى : أعزك الله ! ظننت بإنسان[1] جميلا فغاليت ، وأبديت من الإحسان جزيلا وماباليت ، وصَفْتَ من هو القتَام يظنه الناس سماء ، والسراب يحسبه الظمآن ماء ، ياابن الكرام وأنت أبصر من يَشيم[2] ، أمع الروض النضير يُرْعى الهشيم ، أما أغنتك فضائلك ، وفواضلك ، ومعارفك ، وعوارفك ، عن نُغبة من دأماء[3] ، وتربة من يَهماء[4] ، لقد تبلجتِ المهارقُ من نور صفحاتك ، وتأرجت الأكوان من أريج نفحاتك ، ولأنت أعرف مَنْ يُقْصد للدراية ، وأنقد من يعتمد عليه فى الرواية ، لكنك أردت أن تكسو من مطارفك ، وتتفضل من تالدك وطارفك ، وتجلو الخامل فى منصة النباهة ، وتنقذه من لكن الفهَاهة[5] ، فتشيد له ذكرا ، وتعلى له قدرا ، ولم يمكنه إلا إسعافك فيما طلبت ، وإجابتك فيما إليه ندبت ، فإن المالك لا يُعْصَى ، والمتفضل المحسن لا يقصى ، وقد أجزت لك ـ أيدك الله تعالى ! ـ جميعَ مارويته عن أشياخى بجزيرة الأندلس وبلاد

(١) فى ا « ظننت بالإنسان » (٢) يشيم : ينظر

(٣) النغبة ـ بالضم ـ الجرعة ، والدأماء : البحر .

(٤) اليهماء : الصحراء الواسعة ، ووقع فى ا « بهماء »

(٥) الفهاهة : العى ، ووقع فى ا « الفكاهة » محرفا

إفريقية وديار مصر والحجاز وغير ذلك ، بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة بمشافهة وكتابة ووجادة ، وجميعَ ما أجيز لى أن أرويه بالشام والعراق وغير ذلك ، وجميعَ ماصنفته واختصرته وجمعته وأنشأته نظماً ونثراً ، وجميعَ ماسألت فى هذا الاستدعاء : فمن مروياتى الكتاب العزيز قرأته بقراءة السبعة على جماعة من أعلاهم الشيخ المسنِد المعمَّر فخر الدين أبو الطاهر إسماعيل بن هبة الله بن على بن هبة الله المصرى ابن المليحى ، آخر من روى القرآن بالتلاوة على أبى الجود[1] ، والكتب الستة والموطأ ومسند عَبْدِ بن حُمَيْد ومسند الدارمىّ ومسند الشافعى ومسند الطَّيَالسى والمعجم الكبير للطَّبَرانى والمعجم الصغير له وسنن الدارقطنى وغير ذلك .

وأما الأجزاء فكثيرة جدا ، ومن كتب النحو والآداب فأروى بالقراءة كتاب سيبويه ، والإيضاح ، والتكملة ، والمفصل ، وجمل الزجاجى ، وغير ذلك ، والأشعار الستة والحماسة وديوان حبيب والمتنبى والمعرى ، وأما شيوخى الذين رويت عنهم بالسماع أو القراءة فهم كثير[2] ، وأذكر الآن منهم جماعة : فمنهم القاضى أبو على الحسن بن عبد العزيز بن أبى الأحوص القرشى ، والمقرى أبو جعفر أحمد بن سعيد[3] بن أحمد ابن بشير الأنصارى ، وإسحاق بن عبد الرحيم بن محمد بن عبد الملك بن دِرْبَاس ، وأبو بكر بن عباس بن يحيى بن غريب القوَّاس البغدادى ، وصفى الدين الحسين ابن أبى منصور[4] بن ظافر الخزرجى ، وأبو الحسين محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى ، ووجيه الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الأزدى بن الدهَّان ، وقطب الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد [بن] القسطلانى ، ورضى الدين محمد بن على ابن يوسف الأنصارى الشاطبى اللغوى ، ونجيب الدين محمد بن أحمد [بن محمد] بن المؤيد الهمذانى[5] ، ومكى بن محمد بن أبى القاسم بن حامد الأصبهانى الصَّفَّار ، ومحمد

---

(١) فى ا « عن أبي الجود » (٢) فى ا « فمنهم كثير »
(٣) فى ا « أحمد بن سعيد بن أحمد » (٤) فى ا « ابن أبى المنصور »
(٥) فى ا « الهمدانى » بالدال مهملة

ابن عمر بن محمد بن على السعدى الضرير بن الفارض ، وزين الدين أبو بكر محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن الأنماطى ، ومحمد بن إبراهيم بن ترجم [١] بن حازم المازنى ، ومحمد بن الحسين بن الحسن بن إبراهيم الدارى [٢] بن الخليلى ، ومحمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوسف الأنصارى بن الخيمى ، ومحمد بن عبد الله بن محمد ابن عمر العنسى عُرِف بابن النِّنِّ [٣] ، وعبد الله بن محمد بن هرون بن عبد العزيز الطائى القرطبى ، وعبد الله بن نصر الله بن أحمد بن رسلان بن فتيان بن كامل الخزمى ، وعبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن فارس التميمى ، وعبد الرحمن ابن يوسف بن يحيى بن يوسف بن خطيب المزة ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلى المصرى السكرى ، وعبد العزيز بن عبد المنعم بن على بن نصر بن الصيقل الحرانى ، وعبد العزيز بن عبد القادر بن إسماعيل الفيالى الصالحى الكَتَّانى ، وعبد المعطى بن عبد الكريم بن أبى المكارم بن مَنْجَى الخزرجى ، وعلى بن صالح بن أبى على بن يحيى بن إسماعيل الحسنى البهنسى المجاور ، وغازى بن أبى الفضل ابن عبد الوهاب الحلاَوى ، والفضل بن على بن نصر بن عبد الله بن الحسين بن رواحة الخزرجى ، ويوسف بن إسحاق بن أبى بكر الطبرى المكى ، واليسر بن عبد الله بن محمد بن خلف بن اليسر القُشَيرى ، ومؤنسة بنت الملك العادل أبى بكر ابن أيوب بن شادى ، وشامية بنت الحافظ أبى على الحسن بن محمد بن محمد التيمية ، وزينب بنت عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على البغدادى

وممن كتبت عنه من مشاهير الأدباء أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن على بن الفرج المالقِى بن المرحل [٤] ، وأبو الحسن بن حازم بن محمد بن حازم الأنصارى القرطاجنى ، وأبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الله الهذلى التطيلى ، وأبو عبد الله محمد

---

(١) فى أصل ا «بن يزحم» وفى ب ونسخة عند ا «بن ترحم» وفى أخرى «برحم»
(٢) فى ب «الدارمى» وأثبتنا ما فى أصل ا (٣) فى ب «عرف بابن التين»
(٤) فى ا «أبو المرحل» محرفا.

ابن محمد بن محمد بن زنُّون المالَقِي ، وأبو عبد الله محمد بن عمر بن جبير الجلياني العكى المالَقِي ، وأبو الحسين يحيي بن عبد العظيم بن يحيي الأنصارى الجزار ، وأبو عمرو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن تُولُو القرشى ، وأبو حفص عمر [(١)] بن محمد بن أبى على الحسن [(٢)] المصرى الوراق ، وأبو الربيع سليمان بن على بن عبد الله بن ياسين الكومى [(٣)] التلمسانى ، وأبو العباس أحمد بن أبى الفتح نصر الله بن باتكين القاهرى ، وأبو عبد الله محمد بن سعيد [بن محمد] بن حماد بن محسن الصنهاجى البوصيرى ، وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم الغرازى [(٤)]

وممن أخذت عنه من النحاة أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخشنى الأبَّدِى ، وأبو الحسن على بن محمد بن على بن يوسف الكتامى بن الضائع [(٥)] ، وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن الزبير الثقفى ، وأبو جعفر أحمد بن يوسف ابن على بن يوسف الفِهْرِى اللَّبْلى ، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن نصر الحلبى ابن النحاس

وممن لقيته من الظاهرية أبو العباس أحمد بن على بن خالص الأنصارى الإشبيلى الزاهد ، وأبو الفضل محمد بن محمد بن سعدون الفهرى الشَّنْتَمَرِى

وجملة الذين سمعت منهم نحو من أربعمائة شخص وخمسين . وأما الذين أجازونى فعالم كثير جدا من أهل غَرْنَاطة ومالَقَة وسَبْتَة وديار إفريقية وديار مصر والحجاز والعراق والشام ، وأما ماصنفته فمن ذلك « البحر المحيط » فى تفسير القرآن العظيم « إتحاف الأديب ، بما فى القرآن من الغريب » كتاب « الأسفار ، الملخص من كتاب الصَّفَّار » شرحا لكتاب سيبويه ، كتاب « التجريد لأحكام سيبويه » كتاب « التذييل والتكميل ، فى شرح التسهيل » كتاب « التنخيل ، الملخص من شرح التسهيل » كتاب « التذكرة » كتاب « المبدع » فى التصريف ، كتاب

---

(١) فى ب ونسخة عندا « وأبو حفص عمرو » (٢) فى أصل ا « الحسين »

(٣) فى أصل ا « الكوفى » وفى نسخة عندها « الكرمى » .

(٤) فى ب « الغرزى » وفي نسخة عند ا « العزازى » .

(٥) فى ا « بن الصائغ » وفى نسخة عندها « بن الصابغ » .

« الموفور » كتاب « التقريب » كتاب « التدريب » كتاب « غاية الإحسان » كتاب « النكت الحسان » كتاب « الشذا ، فى مسألة كذا » كتاب « الفضل ، فى أحكام الفصل » كتاب « اللمحة » كتاب « الشذرة » كتاب « الارتضاء ، فى الفرق بين الضاد والظاء » كتاب « عقد اللآلى » كتاب « نكت الأمالى » كتاب « النافع ، فى قراءة نافع » « الأثير ، فى قراءة ابن كثير » « المَورِد الغَمْر ، فى قراءة أبى عمرو » « الروض الباسم ، فى قراءة عاصم » « المزن الهامر ، فى قراءة ابن عامر » « الرمزة ، فى قراءة حمزة » « تقريب النائى ، فى قراءة الكسائى » « غاية المطلوب ، فى قراءة يعقوب » قصيدة « النيرالجلى ، فى قراءة زيد بن على » « الوهاج ، فى اختصار المنهاج » « الأنور الأجلى ، فى اختصار المحلى » « الحلل الحالية ، فى أسانيد القرآن العالية » كتاب « الإعلام ، بأركان الاسلام » « نثر الزهر ، ونظم الزهر » « قَطْر الحَبِىّ[1] ، فى جواب أسئلة الذهبى » فهرست مسموعاتى « نوافث السحر ، فى دمائث الشعر »[2] « تحفة النَّدُس ، فى نحاة الأندلس » « الأبيات الوافية ، فى علم القافية » جزء فى الحديث ، مشيخة ابن أبى المنصور ، كتاب « الإدراك ، للسان الأتراك » « زهو الملك ، فى نحو الترك » « نفحة المسك ، فى سيرة الترك » كتاب « الأفعال ، فى لسان الترك » « منطق الخرس ، فى لسان الفرس » ومما لم يكمل تصنيفه كتاب « مسلك الرشد ، فى تجريد مسائل نهاية ابن رشد » كتاب « منهج السالك ، فى الكلام على ألفية ابن مالك » « نهاية الإغراب[3] ، فى علمى التصريف والإعراب » رجز « مجانى الهصر ، فى آداب وتواريخ لأهل العصر » « خلاصة التبيان ، فى علمى البديع والبيان » رجز « نور الغبش ،

---

(١) فى ب « نظر الحسبي » محرفا ، وأثبتنا ما فى أصل ا ، والحبي — بفتح الحاء وكسر الباء وتشديد الياء — السحاب الذى يشرف من الأفق على الأرض .

(٢) فى ا « فى دميات الشعر »

(٣) فى ب « نهاية الإعراب »

فى لسان الحبش » « المخبور ، فى لسان اليخمور » قاله وكتبه أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان .

وأنشدنى الشيخ أثير الدين من لفظه لنفسه فى صفات الحروف :

أناهاوٍ لمستطيل أغن ... كلما اشتد صارت النفس رخوه[1]

أهمس القول وهو يجهر سَبِّى ... وإذا ماانخفضْتُ أظهر علوه

فتح الوصل ثم أطبق هجرا ... بصفير والقلب قَلقَلَ شجوه

لان دهرا ثم اغتدى ذا انحراف ... وفشا السر مذ تكررت نحوه

وأنشدنى أيضاً لنفسه :

يقول لى العذول ولم أطعه ... تسلَّ فقد بدا للحِبِّ لحيَهْ

تخيل أنها شانت حبيبى ... وعندى أنها زين وحليه

وأنشدنى لنفسه أيضاً :

شوقى لذاك المحيا الزاهر الزاهى ... شوق شديد وجسمى الواهنُ الواهى

أسهرت طرفى وولَّهت الفؤاد هوى ... فالطرف والقلب منى الساهر الساهى[2]

نهبت قلبى وتنهى أن أبوح بما ... يلقاه واشَوْقَهُ للناهب الناهى

بهرت كل مليح بالبهاء فما ... فى النَّيِّرين شبيه الباهر الباهى

لَهِجْتَ بالحب لما أن لهوت به ... عن كل شىء فويح اللاهج اللاهى

وأنشدنى من لفظه لنفسه[3] :

راض حبيبى عارض قد بدا ... ياحسنه من عارض رائض

وظن قوم أن قلبى سلا ... والأصل لايعتدُّ بالعارض

وأنشدنى من لفظه لنفسه :

---

(١) فى ا « لنا هاء ولمستطيل أغن » محرفا

(٢) فى ا « أسهرت طرفى ودلهت الفؤاد هوى »

(٣) فى ا « وأنشدنى من نفسه لنفسه »

تعشقته شيخا كأن مشيبه — على وجنتيه ياسمين على ورد
أخا العقل يدرى مايراد من الهوى — أمنت عليه من رقيب ومن صدّ
وقالوا الورى قسمان فى شِرْعةِ الهوى — لسود اللحى ناس وناس إلى المرد
ألا إننى لو كنت أصبو لأمرد — صبوت إلى هيفاء مائسة القدّ
وسود اللحى أبصرت فيهم مشاركا — فأحببت أن أبقى بأبيضهم وحدى

وأنشدنى من لفظه لنفسه :

ألا إن ألحاظا بقلبى عوابثا — أظنّ بها هَارُوتَ أصبح نافثا[1]
إذا رام ذو وجد سلوّا منعنه — وكنّ على دين التصابى بواعثا
وقيدن مَنْ أضحى عن الحب مطلقا — وأسرعن للبلوى بمن كان رائثا
بروحى رَشًا من آل خاقان راحل — وإن كان ما بين الجوانح لابثا
غدا واحداً فى الحسن للفضل ثانيا — وللبدر والشمس المنيرة ثالثا

وأنشدنى لنفسه ، ومن خطة نقلت :

أسحر لتلك العين فى القلب أم وخز — ولين لذاك الجسم فى اللمس أم خز
وأملود ذاك القدّ أم أسمر غدا — له أبداً فى قلب عاشقه هز
فتاة كساها الحسن أفخر حلة — فصار عليها من محاسنها طَرْزُ
وأهدى إليها الغصنُ لينَ قوامِهِ — فماسَ كأن الغصن خامَرَه العز
يضوع أديم الأرض من نَشْر طيبها — ويخضرُّ من آثار تُرْبَتِها الْجُرْزُ[2]
وتختال فى برد الشباب إذا مضت — فينهضها قدّ ويقعدها عجز
أصابت فؤاد الصب منها بنظرة — فلا رُقْية تجدى المصاب ولا حِرْز

وأنشدنى إجازة فى مليح أبرص ، ومن خطه نقلت :

---

(١) فى ا « ألا يالها لحظا بقلبى عوابثا »

(٢) فى ا « من نشر طيها » محرفا ، وفي ب « من آثارها تربه الجرز »

وقالوا الذى قد صرت طوع جماله ونفسك لاقت فى هواه نزاعها
به وَضَحٌ تأباه نفس أولى النهى وأفظع داء ما ينافى طباعها
فقلت لهم لا عيب فيه يَشِينُهُ ولا علة فيه يروم دفاعها
ولكنها شمس الضحى حين قابلت محاسنَهُ ألقت عليه شعاعها

وأنشدنى من لفظه لنفسه فى فحام

وعُلِّقته مسود عين ووفرة وثوب يعانى صنعة الفحم عن قصد(١)
كأن خطوط الفحم فى وجناته لطاخةُ مسكٍ فى جَنِيٍّ من الورد

وأنشدنى إجازة ، ومن خطه نقلت :

سأل البدر هل تبدّى أخوه قلت يا بدر لن تطيق طلوعا
كيف يبدو وأنت يابدر بادٍ أوَ بَدْرَانِ يطلعان جميعا

موشحة لأبى حيان

وأنشدنى من لفظه لنفسه موشحة عارض بها شمس الدين محمد بن التلمسانى

عَاذلى فى الأهيف الآنس لو رآه الآن قد عَذَّرَا
رَشَأٌ قد زانه الحور
غُصُنٌ من فوقه قمر
قمر من سُحْبه الشعر
ثَغَر من فيه أم درر(٢)
حال بين الدر واللَّعَسِ خمرة مَنْ ذَاقَهَا سكرَا
رجة بالردْف أم كسل
ريقة بالثغر أم عسل
وردة بالخد أم خجل

---

(١) في أصل ا « يعانى صبغة الفحم » محرفا ، وما أثبتناه فى ب ونسخة عند ا
(٢) فى ا « ثغر فى فيه أم درر »

كَحَل بالعين أم كُحُل (١)

يا لها من أعين نُعُسِ جلبت للنـاظر السهرا

مذ نأى عن مقلتىَّ سَنِى

ما أذيقا لذة الوسنِ

طال ما ألقاه من شَجَنِ

عجباً ضِدَّانِ فى بدن

بفؤادى جـذوة القبس وبعـينى المـاء منفجرا

قد أتانى الله بالفرج

إذ دنا منى أبو الفرج

قمر قد حل فى المهج

كيف لا يخشى من الوهج

غـيره لو صابه نفَسِى ظنه من حره شَرَرَا

نصب العينين لى شَرَكَا

فانثنى والقلب قد ملكا

قمر أضحى له فلكا

قال لى يوماً وقد ضحكا

أتَجِى من أرض أندلس نحو مصر تعشق القمرا

موشحة لابن التلمسانى

وأما موشحة ابن التلمسانى فهى :

قمـر يجلو دُجَى الغَلَسِ بَهَـرَ الأبصار مذ ظهرا

آمن من شَيْنَةِ الكلف (٢)

---

(١) فى نسخة «كحل بالعين أم حور» ونظام الموشحة على اتفاق أربعة الأنصاف فى القافية ، وأثبتنا ما فى ب وأصل ا

(٢) في ا « آمن من شبهة الكلف »

ذبت من حُبِّيه بالكلف (١)

لم يزل يسعى إلى تَلَفِي

بركاب الدَّلِّ والصَّلَفِ

آه لولا أعين الحرس نلت منه الوصل مقتدرا

يا أميراً جار مذ وليا

كيف لاترثى لمن بليا

فبثغر منك قد جُليا

قد حلا طَعْماً وقد حليا

وبما أوتيت من كَيَسِ جُدْ فما أبقيت مصطبرا

بدر تم فى الجمال سَنِي

ولهذا لقبوه سَنِي

قد سبانى لذة الوسن

بمحيًّا باهرٍ حَسَنِ

هو خِشْفِي وهو مفترسى فارو عن أعجوبتى خبرا

لك خدٌّ يا أبا الفرج

زِينَ بالتوريد والضَّرَجِ

وحديث عاطر الأرج

كم سبى قلبا بلا حَرَجِ

لو رآك الغصن لم يَمِسِ أو رآك البدر لاستترا

يا مذيباً مهجتى كمداً

---

(١) فى أصل ا « ذبت من عينيه بالكلف » وفى نسخة « ذبت من حسنه »

فُقْتَ فى الحسن البدورَ مَدَى

يا كحيلا كحله اعتمدا

عجبا أن تبرئ الرمدا

وبسقم الناظرين كُسِى   جَفْنُكَ السحارُ وانكسرا

موشحة أخرى لأبى حيان

وأنشدنى من لفظه لنفسه أيضا :

إن كان ليل داج وخاننا الإصباح   فنورها الوهاج يغنى عن المصباح

سلافة تبدو   كالكوكب الأزهر

مزاجها شهد   وَعَرْفُها عنبر

وحبذا الورد   منها وإن أسكر

قلبى بها قد هاج فما ترانى صاح   عن ذلك المنهاج وعن هَوًى يا صاح

وبى رَشأً أهيف   قد لج فى بُعْدِى

بدر فلا يخسف   منه سنى الخدّ

بلحظه المرهف   يسطو على الأسْدِ

كسطوة الحجاج فى الناس والسفاح   فما ترى من ناج من لحظه السفاح

علل بالمسك   قلب رشا أحور

منعم المسك   ذى مبسم أعطر

ريَّاه كالمسك   وريقه كوثر

غصن على رَجْرَاج طاعت له الأرواح   فحبذا الآراج إن هبت الأرواح

مهلا أبا القاسم   على أبى حيان

ما إن له عاصم   من لحظك الفتان

وهجـــرك الدائم قد طال بالهـيمان

فدمعـــه أمواج وسره قــد باح لكنه ما عاج ولا أطاع اللاح

يا رب ذى بُهْتَان يعـــذل فى الراح

وفى هوى غزلان دافعت بالراح

وقلت لا سُلْوَان عن ذاك يا لاح

سَبْعُ الوجوه والتاج هى مُنْيَةُ الأفراح فاخترلى يازَجَّاج قَمْصَال وزَوجْ أقداح(١)

وأنشدنى من لفظه لنفسه القصيدة الدالية التى نظمها فى مدح النحو والخليل وسيبويه ، ثم خرج منها إلى مديح صاحب غَرْنَاطة وغيره من أشياخه ، وأولها :

هو العلم لا كالعلم شىء تراوده لقد فاز باغيه وأنجح قاصـده

وهى قصيده جيدة تزيد على مائة بيت .

وحكى لى أن الشيخ أثير الدين رحمه الله تعالى ضعف فتوجه إليـــه جماعة يعودونه ، وفيهم شمس الدين بن دانيال ، فأنشدهم الشيخ رحمه الله تعالى القصيدة المذكورة ، فلما فرغت قال ابن دانيال : ياجماعة أخبركم أن الشيخ قد عوفى ، وما بقى عليه بأس ، لأنه لم يبق عنده فضلة ، قوموا باسم الله .

وأنشدنى من لفظه لنفسه رحمه الله تعالى قصيدته السينية التى أولها :

أهاجَكَ ربع حائلُ الرسمِ دارسُهْ كوَحْىِ كتاب أضعَفَ الخط دارسُهْ

انتهى نص الصفدى ، وما ذكره رحمه الله تعالى فى موضع ولادة أبى حيان غير مخالف لما ذكره فى الوافى أنه ولد بغَرْنَاطَةَ ، إلا أن قوله « بمدينة مَطَخْشَارَشَ » فيه نظر ، لأنه يقتضى أنها مدينة ، وليس كذلك ، و إنما هى موضع بغرناطة ، ولذا قال الرعينى : إن مولد أبى حيان بمَطَخْشَارَشَ من غرناطة ، ونحوه لابن جماعة ،

---

(١) لعله يريد بقصمال خابية الخمر أودنها أو شيئاً من هذا القبيل ، وليست هذه الكلمة عربية ، ووقع فى ب « قمعال » وأثبتنا ما فى ا .

انتهى ، وهو صريح فى المراد ، وصاحب البيت أدرى [بالذى فيه] على أنه يمكن أن يرد كلام الصفدى لذلك ، والله تعالى أعلم .

وذكر فى الوافى أنه تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية ، والإقراء بالجامع الأقمر ، قال الصفدى : وقال لى : لم أر بعدَ ابنِ دقيق العيد أفصحَ من قراءتك ، وكان ذلك حين قرأت عليه المقامات الحريرية بمصر جماعة ، انتهى .

وما وقع فى كلام كثير من أهل المغرب أن أباحيان توفى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة غير ظاهر ، لأن أهل المشرق أعرف بذلك ، إذ توفى عندهم ، وقد تقدم أنه توفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فعلى كلام أهل المشرق فى هذا المعول ، والله أعلم .

نضار بنت أبى حيان

وكانت نُضَار بنت أبى حيان حجت ، وسمعت بقراءة العَلَم البرزالى على بعض الشيوخ ، وحدثت بشىء من مروياتها ، وحضرت على الدمياطى ، وسمعت على جماعة ، وهى بضم النون وتخفيف الضاد ، وأجازها من المغرب أبو جعفر بن الزبير ، وحفظت مقدمة فى النحو ، ولما توفيت عمل والدها فيها كتاباً سماه « النُّضَار[1] ، فى المَسْلَاة عن نُضَار » وكان والدها يثنى عليها كثيراً ، وكانت تكتب وتقرأ ، قال الصفدى : قال لى والدها : إنها خَرَّجَتْ جزءا لنفسها ، وإنها تعرب جيدا ، وأظنه قال لى : إنها تنظم الشعر ، وكان يقول دائما : ليت أخاها حيان كان مثلها ، وتوفيت رحمها الله تعالى فى جمادى الآخرة سنة ٧٣٠ ، فى حياة والدها ، فوجد[2] عليها وجداً عظيما ولم يثبت ، وانقطع عند قبرها بالبرقية[3] ، ولازمه سنة ، ومولدها فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٢ ، قال الصفدى : وكنت بالرحبة لما توفيت ، فكتبت لوالدها بقصيدة أولها :

---

(١) النضار ـ بضم النون ـ الذهب .

(٢) وجد عليها : حزن .

(٣) كذا فى ا مطابقا لما تقدم ، ووقع فى ب « بالبرقوقية » .

بكينا باللجين على نُضَار فسَيْلُ الدمع فى الخدين جارى
فيـــالله جارية تولّتْ فنبكيها بأدمعنا الجـوارى (١)

وقال الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعينى الأندلسى فى برنامجه ، عند ذكره شيخَه أبا حيان زيادةً على ماقدمناه ، ماملخصه : إن أبا حيان قال : سمعت بغرناطة ومالقة و بلش والمرية و بجاية وتونس والاسكندرية ومصر والقاهرة ودمياط والمحلة وطهرمس والجيزة ومنية ابن خصيب (٢) ودشنا وقنا وقوص و بلبيس و بعيذاب من بلاد السودان و ينبع ومكة شرفها الله تعالى وجدة وأيلة ، ثم فَصَّل من لقيه فى كل بلد إلى أن قال : [و بمكة أبا اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن عبد الله بن عساكر ، إلى أن قال :] (٣) فهذه نبذة من شيوخى ، وجملة من سمعت منهم [نحو] خمسمائة ، والمجيزون أكثر من ألف ، وعد من كتب القراءات التى أخذ تسعة عشر كتاباً ، وقال فى حق ابن المليحى : إنه أعلى شيوخى فى القراآت و إن آخر من روى عنه السبع أبو الجود غيات بن فارس المنذرى اللَّخْمى ، و إجازته منه سنة ٦٠٤ ، قال : وقرأت البخارى على جماعة أقدمهم إسناداً فيه أبو العز الحرانى قرأته عليه بلفظى إلا بعض كتاب التفسير من قوله تعالى (و يسألونك عن المحيض) إلى قوله سبحانه (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) فى سورة النور ، فسمعته بقراءة غيرى ، قال : أنبأنا به أبو المعالى أحمد بن يحيى بن عبيد الله الخازن البيع سماعا عليه سنة ستمائة ببغداد ، أنبأنا أبو الوقت بسنده ، وكمل له رحمه الله تعالى جامع الترمذى بين قراءة وسماع على ابن الزبير بغَرْناطة ، وسمعه على محمد بن ترجم (٤) أنبأنا ابن البناء أنبأنا الـكرخى (٥) بسنده ، وقرأ السنن لأبى داود بغرناطة على أبى زيد عبد الرحمن

(١) انتهت عند هذا الموضع القطعة التى نشرت بمعرفة « دار المأمون » فى تسعة أجزاء ، وعلق عليها صديقنا الأستاذ أحمد يوسف نجاتى تعليقات ذات بال .

(٢) فى ا « ومنية بنى خصيب » . (٣) سقط مابين المعقوفين من أصل ا .

(٤) فى ب « ابن ترحم » وانظر ص ٣٠٥ من هذا الجزء .

(٥) فى ا ، ب « الـكروخى » وانظر ص ٢٨٩ من هذا الجزء .

الربعى ، عرف بالتونسى ، أنبأنا به سهل بن مالك ، وقرأه بالقاهرة على أبى الفضل عبدالرحيم بن خطيب المزة عن أبى حفص بن طبرزد عن أبى بدر الكرخى [١] ومفلح الرومى عن أبى بكر بن ثابت الخطيب أنبأنا أبو عمر الهاشمى أنبأنا اللؤلؤى أنبأنا أبوداود ، وقرأ الموطأ على أبى حفص [٢] بن الطباع عن أبى القاسم بن بقى عن ابن عبد الحق عن ابن الطلاع بسنده ، وهذا أعلى سند يوجد عن يونس بن مغيث فى عصره ، وسمع أبو حيان الأجزاء الخلعيات والغيلانيات والقطيعيات والنهروانيات والمحامليات والثقفيات وسداسيات الرازى بعلو ، قرأها على صفى الدين عبدالوهاب ابن الفرات عن أبى الطاهر إسماعيل بن ياسين الجيلى ، وهو آخر من حدث عنه ، عن أبى عبدالله الرازى سماعا ، وقرأ جزء الأنصارى على أبى بكر بن الأنماطى بسماعه حضورا فى الرابعة على أبى اليمن زيد بن الحسن الكندى ، أنبأنا أبو بكر محمد ابن عبد الباقى البزار سنة ٥٣٢ ، أنبأنا إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكى قراءة عليه فى رجب سنة ٤٤٥ ، أنبأنا عبد الله بن إبراهيم بن ماس ، أنبأنا أبو مسلم الكشى البصرى ، أنبأنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، وقرأ جميع كتاب سيبويه على البهاء بن النحاس المشهور بالنحو فى مصر والشام ، بقراءته على علم الدين أبى محمد القاسم بن أحمد بن الموفق ، بقراءته على التاج أبى اليمن الكندى ، أنبأنا أبو محمد عبدالله بن على بن أحمد البغدادى مؤلف كتاب المبهج ، أنبأنا أبو الكرم المبارك بن فاخر بن محمد بن يعقوب عرف بابن الدبّاس ، أنبأنا أبو القاسم عبد الواحد بن على بن عمر بن برهان الأسدى ، أنبأنا القاسم [٣] على بن عبيد الله الرقيقى ، أنبأنا على بن عيسى بن عبد الله الرمانى ، أنبأنا أبو بكر بن السراج ، أنبأنا أبو العباس المبرد ، أنبأ أبو عمر الجرمى وأبو عثمان المازنى ، قالا : أنبأنا أبو الحسن الأخفش ، أنبأنا سيبويه ، قال الشيخ أبو حيان: ولا أعلم راويا له بمصر والشام والعراق واليمن والمشرق غيرى ، وروينه عن الأساتيذ أبوى

(١) فى ا « الكروخى »

(٢) فى ب ونسخة عند ا « أبى جعفر بن الطباع » وأثبتنا ما فى أصل ا .

(٣) كذا ، ولعله « أبو القاسم على » .

على بن الضائع وابن أبى الأحوص وأبى جعفر اللَّبلى عن أبى على الشلوبين ، وسنده مشهور بالمغرب ، ووقع لأبى حيان تساعيات كثيرة ، وأغرب ماوقع له ثلاثة أحاديث بينه و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ثمانية ، أخبره المحدث نجيب محمد بن أحمد ابن محمد بن المؤيد الهمدانى بقراءته عليه والجليلة السلطانية مؤنسة بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى قراءةً عليها[1] وهو يسمع قالا : أنبأنا أبو الفخر أسعد بن سعيد بن روح فى كتابه ، أخبرتنا فاطمة بنت عبدالله بن أحمد الجوزدانية[2] ، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن ريدة[3] الضبى الأصبهانى ، أنبأنا الحافظ أبو القاسم سليمان ابن أحمد بن أيوب بن مطر اللخمى الطبرانى ، أنبأنا عبيد الله بن رماحس القيسى برمادة الرملة سنة ٢٧٤ ، أنبأنا أبو عمر زياد بن طارق وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة ، قال : سمعت أبو جَرْوَل زهير بن صرد الجشمى يقول : لما أسَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوم هوازن أتيته فقلت :

امنن علينا رسولَ الله فى كرم … فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضةٍ قد عاقها قدر … مشتَّت شملُها فى دهرها غير
أبقت لنا الدهر هَتَّافاً على حزن … علا قلوبهم الغماء والغمر[4]
إن لم تداركهم نعماء تنشرها … يا أرجح الناس حلماً حين يختبر
امنن على نسوة قد كنتَ ترضعها … إذ فُوكَ تملؤه من مَحْضها الدرر
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها … وإذ يريبك ماتأتى وما تذر
لا تجعلنَّا كمن شالت نعامَتُهُ … واستبق منا فإنا معشر زُهُر
إنا لنشكر للنعماء إذ كُفِرَتْ … وعندنا بعد هذا اليوم مُدَّخَرُ
فألبِسِ العفو مَنْ قد كنت ترضعه … من أمهاتك إن العفو مشتهر

---

(١) فى ب « قراءة عليه » (٢) فى ب « الجوزوانية » .
(٣) فى ب «ابن رندة » (٤) فى ا « أبقت لنا الدهر هتافا على حزن» .

يا خير من مرحت كُمْتُ الجياد به ... عنـد الهياج إذا ما استوقد الشرر
إنا نؤمل عفوا منـــك تلبسه ... هـــذى البرية إذ تعفو وتنتصر
فَاعْفُ عفا الله عما أنت راهبـه ... يوم القيامة إذ يهـدى لك الظفر

فلما سمع صلى الله عليه وسلم هذا الشعر قال : «ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم» فقالت قريش : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، قال أبو القاسم الطبرانى : لا يُرْوَى عن زهير إلا بهذا الإسناد ، وتفرد به عبيد الله بن رماحس ، و بالإسناد إلى الطبرانى : أنبأنا جعفر بن حميد بن عبد الكريم ابن فرُّوخ بن دَيْزَج بن بلال بن سعد بن بلال بن سعد الأنصارى الدمشقى ، قال : حدثنى جدى لأمى عمر بن أبان بن مفضل بن أبان المدنى ، قال : أرانى أنس ابن مالك الوضوء : أخذ رَكْوَة(1) فوضعها عن يساره ، وصبَّ على يده اليمنى فغسلها ثلاثا ، ثم أدار الركوة عن يده(2) اليمنى [وصَبَّ على يساره] فغسلها ثلاثا وثلاثا ، ومسح برأسه [ثلاثا] وأخذ ماء جديداً لصِمَاخَيْه [فمسح صِمَاخَيْه] ، فقلت له : قد مسحت أذنيك ، فقال : ياغلام ، هل رأيت وفهمت أو أعيد عليك ؟ فقلت : قد كفانى ، وقد فهمت ، قال : فـكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ، قال الطبرانى : لم يرو عمر بن أبان عن أنس حديثاً غير هذا ، و بالإسناد إلى الطبرانى : حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد القصاص البصرى ، أنبأنا دينار بن عبد الله مولى أنس بن مالك ، حدثنى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن رآنى وآمن بى ، ومن رأى من رآنى وآمن بى ، ومن رأى من رأى من رآنى »

ثم قال الرعينى : و تصانيف أبى حيان تزيد على خمسين ما بين طويل وقصير ، ثم قال الرعينى : وخرج أبو حيان من الأندلس مفتتح سنة ٦٧٩ ، واستوطن القاهرة بعد حجه ، وأنشد لشيخه أبى الحسن الزَّجَّاج(3) :

---

(1) الركوة - بتثليث الراء - شبه دلو صغير ، ويقال : « ملأت الركوة من الركية» والركية - بزنة الهدية - البئر (2) فى ب «ثم أدار الركوة على يده اليمنى» (3) كذا فى أصل ا ، وفى ب ونسخة عندنا «الدباج» وفى نسخة أخرى «الدجاج»

رضيت كفافى رتبة ومعيشة فلست أسامى مُوسِراً ووجيها
ومن جرَّ أثواب الزمان طويلةً فلا بد يوماً أن سيعثر فيها

وأنشد بإسناده لموسى بن أبى تليد :

حالى مع الدهر فى تَقَلُّبه كطائر ضم رِجْلَه شَرَكُ
فهمه فى خلاص مُهْجَته يروم تخليصها فتشتبك

ثم أورد الرعينى جملة من نظم [الإمام] أبى حيان ، منها قوله :

أريد من الدنيا ثلاثا وإنها لَغَايَةُ مطلوبٍ لمن هو طالب
تلاوة قرآن ، ونفس عفيفة ، وإكثار أعمال عليها أواظب

وقوله :

أَرَحْتُ روحى من الإيناس بالناس لما غنيت عن الأكياس باليأس
وصرت فى البيت وحدى لا أرى أحدا بناتُ فكرى وكتبى هُنَّ جُلاسى

وقوله :

وزهدنى فى جمعىَ المالَ أنه إذا ما انتهى عند الفتى فارق العمرا
فلا رُوحُهُ يوما أراح من الْعَنَا ولم يكتسب حمداً ولم يدخر أجرا (١)

وقوله :

يظن الغمر أن الكتب تجدى أخا ذِهْنٍ لإدراك العلوم
وما يدرى الْجَهُولُ بأن فيها غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رمت العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى تصير أضل من تُومَا الحكيم (٢)

---

(١) فى ا « ولم يكتسب جهدا » وأثبتنا ما في ب لأن ما فى ا غير ذى معنى مستقيم ولو كان « ولم يدخر جهدا » لتم به معنى .

(٢) توما الحكيم : هو الذى ضرب مثلا للجهل المركب ، وقيل فيه :

قال حمار الحكيم توما لو أنصف الدهر كنت أركب
لأننى جاهل بسيط وصاحبى جهله مركب

وله لغز فى قيراط زاعما أنه لا يفك :

وما اسم خماسى إذا ما فككته يصير لنا فعلين أمراً وماضيا
بعكس وهو كل وجزء وجمعه بإبدال عين حاز فيه التناهيا[1]
ومع كونه فردا وجمعا فأول وآخره أضحى لشخص معاديا
وفى عكسه صوت فتبنيه صيغة وتبنى بمعناه وما أنت بانيا
فكم فيه من معنى خفى وإنما عنيت بذكرى للذى ليس خافيا

ثم قال الرعينى : وهو شيخ فاضل ، ما رأيت مثله ، كثير الضحك والانبساط ، بعيد عن الانقباض ، جيد الكلام ، حسن اللقاء ، جميل المؤانسة ، فصيح الكلام ، طلق اللسان ، ذو لمة وافرة ، وهمة فاخرة ، له وجه مستدير ، وقامته معتدلة التقدير ، ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، انتهى ما لخصته من كلام الرعينى .

وصية أبى حيان لأهله عند قدومه إلى مصر

ولما قدم الأستاذ أبو حيان إلى مصر أوصى أهله بقوله : ينبغى للعاقل أن يعامل كل أحد فى الظاهر معاملة الصديق ، وفى الباطن معاملة العدو فى التحفظ منه والتحرز ، وليكن فى التحرز من صديقه أشد فى التحرز[2] من عدوه ، وأن يعتقد أن إحسان شخص إلى آخر وتودده [إليه] إنما هو لغرض قام له فيه يتعلق به يبعثه على ذلك لا لذات ذلك الشخص ، وينبغى أن يترك الإنسان الكلام فى ستة أشياء : فى ذات الله تعالى ، وما يتعلق بصفاته ، وما يتعلق بأحوال أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ! وفى التعرض لما جرى بين الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين ! وفى التعرض [أيضاً] لأئمة المذاهب رحمهم الله تعالى ورضى عنهم ! وفى الطعن على صالحى الأمة نفع الله بهم ! وعلى أرباب المناصب والرتب من أهل زمانه ، وأن لا يقصد أذى أحد من خلق الله سبحانه وتعالى إلا على حسب الدَّفْع عن نفسه ، وأن يعذر

---

(١) فى ا « حار فيه التناهيا »

(٢) فى ا « أشد من التحرز من عدوه »

الناس فى مباحثهم و إدراكاتهم ، فإن ذلك على حسب عقولهم ، وأن يضبط نفسه عن المراء والاستزراء والاستخفاف بأبناء زمانه ، وأن لايبحث إلا مع من اجتمعت فيه شرائط الديانة والفهم والمزاولة لما يبحث ، وأن لايغضب على مَنْ لايفهم[1] مراده ومن لم يدرك ما يدركه ، وأن يلتمس مَخْرَجًا لمن ظاهر كلامه الفساد ، وأن لا يقدم على تخطئة أحد ببادى الرأى ، وأن يترك الخوض فى علوم الأوائل ، وأن يجعل اشتغاله بعلوم الشريعة ، و[أن]لا ينكر على الفقراء ، وليسلم لهم أحوالهم ، و ينبغى للعاقل أن يُلْزِمِ نفسه التواضع لعبيد الله سبحانه وتعالى ، وأن يجعل نُصْبَ عينيه أنه عاجز مفتقر ، وأن لايتكبر على أحد ، وأن يقلَّ من الضحك والمزاح والخوض فيما لايعنيه ، وأن يتظاهر لكل بما يوافقه فيما لامعصية لله تعالى فيه ولا خَرْمَ مروءة ، وأن يأخذ نفسه باجتناب ماهو قبيح عند الجمهور ، وأن لايظهر الشكوى لأحد من خلق الله تعالى ، وأن لايعرض بذكر أهله ، ولايجرى ذكر حرمه بحضرة جليسه ، وأن لايطلع أحدا على عمل خير يعمله لوجه الله تعالى ، وأن يأخذ نفسه بحسن المعاملة من حسن اللفظ وجميل التغاضى ، وأن لايركن إلى أحد إلا إلى الله تعالى ، وأن يكثر من مطالعة التواريخ فإنها تلقح عقلاجديداً ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، انتهت وصية أبى حيان الجامعة النافعة ، وقد نقلتها من خط الشيخ العلامة أبى الطيب بن علوان التونسى المالكى الشهير بالمصرى ، وهو ممن أخذ عن تلامذة الشيخ أبى حيان ، رحمه الله تعالى! .

قلت : و بما فى هذه الوصية من نَهْيه عن الطعن فى صالحى الأمة نفع الله تعالى بهم وأمره بالتسليم لأحوالهم وعدم الإنكار عليهم ؛ تعلم أن ما نقله الصفدى عنه فيما تقدم من قوله « إن الشيخ أبا مدين إلى آخره » كلام فيه نظر ، لأن أبا حيان

---

(١) فى ا « على من لم يفهم » .

رضى الله تعالى عنه لاينكر كرامات الأولياء ، كيف وقد ذكر رحمه الله تعالى منها كثيرا ، فمن ذلك ما حكى عنه تلميذه الرعينى بسنده إلى الفقيه المقرى الصالح أبى تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيد بونة الخزاعى ، حدث أنه زار قبر أبى الحسن ابن جالوت ، ولم يكن زاره قبلُ ، فاشتبه عليه فتركه ، فسمع النداء من قبر معين : يا غالب أتمشى وما زرتنى ، فزار ذلك القبر ، وقعد عنده ، ثم جاء ابن أبى الحسن المذكور ، فسأله عن القبر ، فقال : هو الذى قعدت عنده ، وغالب هذا وابن جالوت هما من أصحاب الشيخ أبى أحمد [جعفر[1]] بن سيد بونة الخزاعى ، وهو من أصحاب الشيخ أبى مَدْين ، انتهى ، فكيف ينكر أبو حيان كرامات الصالحين وهو[2] ينهى عن الطعن فيهم ، ويحكى كراماتهم ، نعم قول الصفدى قبل ذلك الكلام « إنه كان ينكر على فقراء الوقت » كلامٌ صحيح فى الجملة ، لكثرة الدعاوى الباطلة ممن ليس من أهل الصلاح ، وأما إنكار الكرامات مطلقا فمقام أبى حيان يجل عن ذلك[3] ، والله تعالى أعلم .

وقد أورد ابن جَمَاعة له من قطعة قوله فى أهل عصره :

ومن يك يَدَّعِى منهم صلاحا ... فزنديق تغلغل فى الضلال

وأول هذه القطعة :

حلبتُ الدهرَ أشْطُرَهُ زمانا ... وأغنانى العِيانُ عن السؤال
فما أبصرتُ من خِلٍّ وفى ... ولا ألفيت مشكور الخلال
ذئاب فى ثياب قد تبدَّتْ ... لرائيها بأشكال الرجال
ومن يك يدعى منهم صلاحا ... فزنديق تغلغل فى الضلال
ترى الجهال تَتْبَعه وترضى ... مشاركة بأهل أو بمال

(١) هذا الاسم لا يوجد فى ب
(٢) فى ا « وهو يوصى على ينهى عن الطعن »
(٣) فى ا « يجل عن إنكارها »

فينهب مالهم ويصيب منهم نساءهُم بمقبوح الفعال
ويأخذ حاله زورا فيرمى عمامته ويهرب فى الرمال(١)
ويجرون التيوس وراء رجس تقرمط فى العقيدة والمقال

أى اعتقدوا رأى القرامطة ، ومذهبهم مشهور ، فلا نطيل به(٢) ، فظهر بما ذكر أن أبا حيان إنما أنكر على أهل الدعاوى ، لا على غيرهم ، والله تعالى أعلم .

وقد أورد قاضى القضاة ابن جماعة للشيخ أبى حيان من النظم غيرَ ما قدمنا ذكره [وهو] قوله :

أما إنه لولا ثلاث أحِبُّهَا تمنَّيْتُ أنى لا أعَدُّ مِنَ الأحْيَا
فمنها رجائى أن أفوز بتوبة تُكَفِّرُ لِى ذنباً وتُنجِحُ لِى سعيا
ومنهن صَوْنى النفسَ عن كل جاهل لئيم فلا أمشى إلى بابه مشيا
ومنهن أخذى بالحديث إذا الورى نَسُوا سنة المختار واتَّبعوا الرأيا
أتترك نَصًّا للرسول وتَقْتَدِى بشخصٍ ؟ لقد بُدِّلْتَ بالرشَدِ الغيَّا

وقوله :

سالَ فى الخد للحبيب عِذارٌ وَهْو لَا شَكَّ سائلٌ مرحوم
وسألتُ التِثامَه فتجنَّى فأنا اليوم سائل محروم

وقوله :

أمُدَّعيا علما ولستَ بقارىء كتاباً على شيخ به يسهل الحزْنُ
أتزعم أن الذهن يوضح مشكلا بلا موضح ؟ كلا لقد كذب الذهن
وإن الذى تبغيه دون معلم كمُوقِدِ مصباح وليس له دُهْنُ

وقوله « عداتى ــ البيتين » قال : وأخذ هذا المعنى من قول الطغرائى :

---

(١) فى ا « وتأخذ حاله زورا »
(٢) فى ا « فلا نطيل بذكره »

من خص بالود الصحاب فإننى | أحبو بخالص وُدِّىَ الأعداء
جعلوا التنافس فى المعالى دَيْدَنِى | حتى وطئت بأخمصى الجوزاء
وَنعَوْا إلىَّ مثالبى لحذرتها | ونفيت عن أخلاقىَ الأقذاء
ولربما انتفع الفتى بعدوّه | كالسم أحياناً يكون دواء

ومن نظم أبى حيان :

يامُنْضِىَ الطِّرف فى ميدان لذته | وناضى الطرف بين الراح والرود(١)
ستشرب الروحُ راحَ الوقت كارهة | ويذهب الجسم بين الترب فى الدود

وله رحمه الله تعالى قصيدة سماها « بالمورد العذب ، فى معارضة قصيدة كعب »

وقصيدة فى مدح الإمام الشافعى مطلعها :

* غذيت بعلم النحو إذ دَرَّ لى ثَدْيَا *

وله رحمه الله تعالى من قصيدة فى مدح أم ولده حَيَّان :

جننت بها سوداء لونٍ وناظرٍ | ويا طالما كان الجنون بسوداء
وجدت بها بَرْدَ النعيم وإن يكن | فؤادىَ منها فى جحيم ولأواء
وشاهدت معنى الحسن فيها مجسدا | فأعجب لمعنى صار جوهر أشياء
أطاعنة من قدها بمثقف | أصبت وما أغنى الفتى لُبْسُ حصداء(٢)
لقد طعَنَتْ والقلب ساهٍ فما درى | أبالقَدِّ منها أم بصَعْدَةِ سمراء

ثم غير البيت الأول ، وأنشد :

جننت بها سوداء شعر وناظر | وسمراء لون تزدرى كل بيضاء

وقال يهنئ ، قال ابن جماعة : خاطبنى به ارتجالا عند ولادة ابنى عمر بعد بنتين(٣) :

حييت بريحانَتَىْ روضة | وبعدهما جاء نجلٌ أغر

---

(١) منضى : متعب ومعيى ، والطرف – بالكسر – أصله الفرس الجواد ، والطرف – بالفتح – العين ، والراح : الخمر ، والرود – بضم الراء – الفتاة الشابة.

(٢) المثقف : أصله الرمح ، شبه به قدها ، والحصداء : أراد الدرع .

(٣) فى ا « بعد بيتين » والأبيات تنادى بصحة ما أثبتناه موافقا لما فى ب .

وسميته اسم إمام إذا ... رآه أبو مُرَّةٍ منــه فر[١]

ولا عجب منك عبد العزيز ... إذا كان نجلك سمى عمر[٢]

تفرَّعتما من إمام الهـدى ... وبدر الدجى ورئيس البشر

فلا زال يوضح سبل الهدى ... ولا زلتما تقفُوانِ الأثر

وقال :

لقد زادنى بالناس علما تجَارِبِى ... ومن جَرَّبَ الأيام مثلى تعلما

وإنى وتَطْلاَبى من الناس راحة ... لـكالمبتغى وَسْطَ الجحيم تنعما

سأزهَدُ حتى لا أرى لى صاحباً ... وأنجــد حتى لا ألاقى مُتْهِمَا

قال ابن جماعة : وقال فى إملاك[٣] على بن قاضى القضاة شمس الدين السروجى الحنفى ، وكان جميل الصورة ، على أختى شقيقتى فاطمة :

هنيئاً بتأليف غريب نظامه ... لقد حار فى أوصافه نظم عارف[٤]

غدَتْ شمسَ حسن بنت بدر سيادة ... تزفُّ لبدر نجل شمس معارف[٥]

سميان للزهرا البتُول وللرضا ... على ونجلا الأكرمين الغطارف[٦]

فدام علىٌّ عالىَ الجد سـيدا ... ولازال فى ظل من العيش وَارِفِ

وقال يخاطب شيخَه ابن النحاس وقد أغبَّ زيارته :

أعـــين حياتى والذى ببقائه ... بقائى لقد أصبحت نحوك شيِّقَا

أقمت بقلبى غـــير أنَّ لمقلتى ... برؤيتك الحظ الذى يُذْهِبُ الشقا

وما كان ظنى أنك الدهر تاركى ... ولو أننى أصبحت بين الورى لَقَا

لطائف معنًى فى العِيان ولم تـكن ... لتــدرك إلا بالتزاور واللِّقا

---

(١) أبو مرة : كنية إبليس ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين !.

(٢) فى ا «يسمى عمر» ولا يستقيم عليه الوزن.

(٣) الإملاك : الوليمة تصنع للعرس.

(٤) فى ا «لقد حاز فى أوصافه» محرفا

(٥) فى ا « شمس المعارف ».

(٦) الزهراء : فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال يخاطب قاضى القضاة شمس الدين السروجى الحنفى ، وقد أعيد إلى منصب القضاء ، وكان يتطلع إليه رجل يدعى نجم الدين :

ذَوُو العلم فى الدنيا نجومٌ زواهر ... وإنك فيها الشمس حقا بلا لبس
إذا لُحْت أخفى نوركم كل نير ... ألم تر أن النجم يخفى مع الشمس

وقال :

لم أؤخر عمن أحب كتابى ... لِقِلًى فيه أو لترك هواه[1]
غير أنى إذا كتبت كتابا ... غلب الدمعُ مُقْلَتِي فمحاه

وقال :

تذكرى للبلى فى قعر مظلمة ... أصارنى زاهداً فى المال والرتب
أَنِّى أُسَرُّ بحال سوف أسلبها ... عما قريب وأبقى رمّة الترب ؟

وقال :

أتيت وما أدعى وأقبلت سامعاً ... فوائد مولى سيدٍ ماجدٍ نَدْبِ
وأحضر جمعاً أنت فيه جمالُهُ ... أشنف سمعى منك باللؤلؤ الرطب

وقال :

لنا غرام شديد فى هوى السُّودِ ... نختارهن على بيض الطلا الغِيدِ
لون به أشرقت أبصارنا وحكى ... فى اللون والعَرْفِ نفحَ المسك والعود
لا شىء أحسن من آس تركّبه ... فى آبنوسٍ ولا أشفى لمبرود
لاتهو بيضاء لون الجص واسْمُ إلى ... سوداء حسناء لون الأعين السود
فى جيدها غَيَد ، فى قدها مَيَد ... فى خدّها صَيَد ، من سادة صِيدِ
من آل حام ٍحمت قلبى بنار جوًى ... من هجرها وابتلت عينى بتسهيد

---

(١) فى ا « لو أؤخر » محرفا ، والقلي ـ بكسر القاف ـ البغض والكراهية .

وقال فى عكسه :

إذا مال الفتى للسود يوماً | فلا رأى لديه ولا رَشَادُ
أتَهْوَى خُنْفُساء كأن زفتاً | كسا جلداً لها وهو السَّوَادُ
وما السودَاء إلا قِدْرُ فرنٍ | وكانونٍ وفحمٌ أو مدادُ
وما البيضاء إلا الشمس لاحت | تنير العين منها والفؤاد
سبيكة فضة حُشيت بورد | يلذ السهد معها والرقاد
و بين البيض والسودان فَرْقٌ | لدى عقل به اتضح المراد
وجوه المؤمنين بها ابيضاض | ووجه الكافرين به اسوداد

وقال رحمه الله تعالى :

أعاذلَ ذَرْنِى وانفرادى عن الورى | فلست أرى فيهم صديقاً مصافياَ
نداماى كُتْبٌ أستفيد علومَهَا | أحِبَّاىَ تغنى عن لقائى الأعاديا
وآنَسُها القرآن فهو الذى به | نجاتى إذا فكرت أو كنت تاليا
لقد جُلْتُ فى غرب البلاد وشرقها | أنقب عمن كان لله داعيا
فلم أر إلا طالبا لرياسة | وَجمَّاع أموال وشيخا مرائيا
قبضت يدى عنهم وآثرت عُزْلة | عن الناس واستغنيتُ بالله كافياً

قال العز بن جماعة : وخاطَبَ والدى وقد أبلَّ من ضعف أشيع فيه موته مهنئاً له :

أدام الإله لك العافيه | وصَيَّرَ دور العِدَا عافيه
إذا لاح من بَدْركم نوره | فكل النجوم به خافيه
تخذت كلام الإله الدوا | فآياتُهُ كانت الشافيه
تشوّف ناسٌ لمنصبكم | ورتبتهم للعلا نافيه (١)

(١) تشوف : تطلع ، ووقع فى ا «تشوق» بالقاف – من الشوق .

فأين العلوم وأين الحلوم وخُلْقٌ موارده صافيه ؟
هُمُ عصبة لا تنال العلا ولو أنها قد سعت حافيه
إذا كان خرق تداركْتَهُ وليست لما مزقت رافيَهْ(١)
فإن عنّ خطب ثبتّ له وآراؤهم عنده هافيه
سجاياك لين ورفق بنا وأخلاقهم كلها جافيه
تصلى على سبعة منهم وثامنهم نفسه طافيه
يقيمون فى تُرْبهم هُمَّدا وتَسْفِى على قبرهم سافيه
فلا زلت فى صحة دائما تجر ذيول السنى ضافيه
ويوردك الله عين الحياة فتحيا بها مائة وافيه
فإن زاد عشراً فذاك المنى وعشرون أيضا هى الكافيه
وهٰذِى القوافى أتت كُمّلاً فلم تبقَ لى بعدها قافيه

وقال رحمه الله تعالى أيضا :

خُلق الإنسان فى كبد بوجود الأهل والولد
كل عضو فيه نافعه غير عضو ضر للأبد
منتج ذلا وفقدَ غِنًى وفراخاً جمة العدد
من يمت منهم يذقه أسى أو يعش ألقاه فى نكد
عاش فى أمنٍ فتى عَزَبٌ مستريح الفكر والجسد

وقال رحمه الله تعالى أيضا :

جُنَّ غيرى بعارضٍ فترجَّى أهلُه أن يفيق عما قريب
وفؤادى بعارضين مصاب فهو داء أعيا دواء الطبيب

---

(١) رفا الثوب يرفيه : أصلح ما فسد منه ، بأن خاط ما تمزق منه

وقال :

سعت حيةٌ من شَعره نحو صُدْغه ... وما انفصلت من خده ، إن ذا عجب
وأعجب من ذا أنَّ سلسال ريقه ... بَرُودٌ ولكن شبَّ فى قلبىَ اللهب [1]

وقال :

طالع تواريخ مَنْ فى الدهر قد وجدوا ... تجد خطوباً تسلِّى عنك ما تجد
تجد أكابرهم قد جرعوا غصصاً ... من الرزايا بها كم فتتت كبد
عزل ونهب وضرب بالسياط وحبــس ... ثم قتل وتشريد لمن ولدوا
وإنْ وقيتَ بحمد الله شرَّ تَهُمْ ... فلتحمد الله فالْعُقْبَى لمن حَمِدُوا [2]

وقال رحمه الله تعالى يمدح البخارى ، وكتابه الصحيح :

أسامِعَ أخبار الرسول لك البشرى ... لقد سُدْتَ فى الدنيا وقد فزت فى الأخرى
تشنف آذانا بعقــد جواهر ... تَوَد الغوانى لو تُقَلِّده النحرا
جواهر كم حَلَّتْ نفوساً نفيسة ... فحلت بها صدراً وحَلَّتْ بها قدرا [3]
هل الدين إلا ما روته أكابر ... لنا نقلوا الأخبار عن طيب خبرا
وأدوا أحاديث الرسول مصــونةً ... عن الزَّيْفِ والتصحيف فاستوجبوا الشكرا
وإن البخارىَّ الإمام لجامع ... بجامعه منها اليواقيت والدرا
على مفرق الإسلام تاج مرصع ... أضاء به شمساً ونار به بدرا
وبحر علوم يلفظ الدر لا الحْصاَ ... فأنفِسْ بها دراً وأعظِمْ به بحرا
تصانيفه نَوْر ونُور لنـــاظر ... فقد أشرقت زُهْراً وقد أينعت زَهْراً
محا سنة المختار ينظم شَتّهَا ... يلخصها جمعاً ويخلصها تبراً

(١) برود — بفتح الباء ، بزنة صبور — بارد ، وشب : أضرم ، واللهب : النار

(٢) فى ب «فلتحمد الله فى العقبى كمن حمدوا » وما أثبتناه عن ا أرق وأحسن

(٣) فى ا « تحلت بها صدراً وجلت بها قدرا »

وكم بَذَلَ النفس المصونة جاهدا فجاز لها بحرا وجَابَ لها برا[١]

فطوراً عراقياً وطوراً يمانيـاً وطورا حجازياً وطوراً أتى مصرا

إلى أن حوى منها الصحيح صحيفة فوافى كتاباً قد غدا الآيَةَ الكبرى

كتاب له من شَرْع أحمدَ شِرْعَة مُطَهرة تعلو السماكين والنسرا

اتصال المؤلف فى السند بأبى حيان

قلت : وتتصل روايتى عن الإمام أبى حَيَّان من طُرق عديدة : منها عن عمى ولىِّ الله العارف به شيخ الإسلام مفتى الأنام الخطيب الإمام مُلْحِق الأحفاد بالأجداد سيدى سعيد بن أحمد المقَّرِى التِّلِمْسَانى ، عن شيخه العالم أبى عبد الله التَّنَسِى ، عن والده حافظ عصره سيدى محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التَّنَسى ثم التلمسانى الأموى ، عن عالم الدنيا أبى عبد الله بن مرزوق ، عن جده الرئيس الخطيب سيدى أبى عبد الله محمد بن مرزوق ، عن الأثير أبى حيان بكل مروياته : فمنها أن أبا حيان قال : حدثنا ابن أبى الأحوص عن قاضى الجماعة أبى القاسم أحمد بن يزيد ابن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقى ابن مخلد بن يزيد القرطبى عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه الإمام بقى بن مخلد عن أبى بكر المقدمى عن عمر بن على وعبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد الله ابن عمر[١] أن النبى صلى الله عليه وسلم « مر بمجلسين أحدهما يدعون الله ويدعون إليه ، والآخر يتعلمون العلم ويعلمونه ، فقال : كل المجلسين خير ، وأحدهما أفضل من الآخر ، أما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل فهم أفضل ، وأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأنا بُعِثت معلماً ، ثم جلس معهم » .

---

(١) فى ا « عن عبد الله بن عمرو » .

رواية الأبناء عن الآباء بأكبر عدد

قال أبو حيان : قلت : لا أعرف حديثاً اجتمعت فيه رواية الأبناء عن الآباء بعدد ما اجتمع فى هذا إلا ما أخبرنا به أبو الحسن محمد بن محمد بن الحسن ابن مامة بقراءتى عليه ، أنبأنا أبو المعالى الأبرموى أنبأنا أبو بكر بن عبدالله بن محمد ابن سابور القلنسى [1] ، أنبأنا أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازى ، أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب التميمىّ ، قال : سمعت أبى أبا الفرج عبد الوهاب يقول : سمعت أبى أبا الحسن عبد العزيز يقول : سمعت أبى أبا بكر الحارث يقول : سمعت أبى أسداً [2] يقول : سمعت أبى الليثَ يقول : سمعت أبى سليمان يقول : سمعت أبى الأسود [3] يقول : سمعت أبى سفيان يقول : سمعت أبى يزيد يقول : سمعت أبى أكيمة يقول : سمعت أبى الهيثم [4] يقول : سمعت أبى عبدَ الله يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما اجتمع قوم على ذكر إلا حَفَّتهم الملائكة وعمتهم الرحمة » انتهى .

قلت : قال الحافظ ابن حَجَر فى فوائده : ما اجتمع حديث فيه من عدد الآباء أكثر من هذا ، انتهى .

ورأيت بخط بعض الحفاظ على قول أبى أكيمة ما صورته : صوابه أكينة ، انتهى ، فليحرر .

ومنها أن أبا حيان قال : أنبأنا الأستاذ أبو جعفر الزبير صاحب الصلة ، أنبأنا القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الأزدى ، أنبأنا عبدُ الله بن محمد ابن حسن بن عطية ، ح قال أبو حيان : وأنبأنا الأصولى أبو الحسين بن القاضى أبى عامر بن ربيع الأشعرى ، عن أبى الحسن أحمد بن على الغافقى ، قال : أنبأنا عياض ، ح وكتب لنا الخطيبُ أبو الحجاج يوسف بن أبى ركانة ، عن القاضى

---

(١) فى ا « القلانسي » . (٢) فى ا « سمعت أبى الأسد »
(٣) في ب « سمعت أبى أبا الأسود » (٤) فى ا « سمعت أبى الهشيم »

أبى القاسم أحمد بن عبد الودود بن سمحون عن عبد الله[1] بن عطية قال هو وعياض : أنبأنا القاضى أبو بكر بن العربى ، أنبأنا أبو محمد هبة الله الأكفانى ، أنبأنا الحافظ عبد العزيز الكنانى الدمشقى ، أنبأنا أبو عصمة نوح بن الفرغانى قال : سمعت أبا المظفر عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن قَتٍّ الخزرجى وأبا بكر محمد بن عيسى البخارى قالا : سمعنا أبا ذر عمار بن محمد بن مخلد التميمى يقول : سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد ابن حامد بن الفضل البخارى يقول : لما عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم ابن يزيد الهمدانى عن قضاء الرى وَرَدَ بخارى سنة ٣١٨ لتجديد مودة كانت بينه و بين أبى الفضل البلعمى ، فنزل فى جوارنا ، فحملنى معلمى أبو إبراهيم إسحاق ابن إبراهيم الْخُتُلِّى إليه فقال له : أسألك أن تحدث هذا الصبى ما سمعته من مشايخك فقال : مالى سماع ، فقال : وكيف وأنت فقيه ؟ فما هذا ؟ قال : لأنى لما بلغت مبلغَ الرجال تاقت نفسى إلى طلب الحديث ورواية الأخبار وسماعها ، فقصدت محمد ابن إسماعيل البخارى ببخارى صاحب التاريخ والمنظور إليه فى علم الحديث ، وأعلمته مرادى ، وسألته الإقبال على ذلك ، فقال لى : يا بنى ، لا تدخل فى أمر إلا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره ، فقلت . عَرِّفنى ــ رحمك الله تعالى ! ــ حدود ما قصدتك له ، ومقادير ما سألتك عنه ، فقال لى : اعلم أن الرجل لا يصير محدِّثا كاملا فى حديثه إلا بعد أن يكتب أربعا مع أربع كأربع مثل أربع فى أربع عند أربع بأربع على أربع عن أربع لأربع ، وكل هذه الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع ، فإذا تمت له كلها هان عليه أربع ، وابتلى بأربع ، فإذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى فى الدنيا بأربع ، وأثابه فى الآخرة بأربع ، قلت له : فسِّر لى ــ رحمك الله تعالى[2] ! ــ ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب

---

(١) فى ب « بن سمحون بن عبد الله بن عطيه » .

(٢) فى ا « فسر رحمك الله ما ذكرت » .

صافٍ بشرح كاف و بيان شاف طلباً للأجر الواف ، فقال : نعم، أما الأربع التى تحتاج إلى كتبها فهى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وشرائعه، والصحابة رضى الله تعالى عنهم ومقاديرهم ، والتابعين وأحوالهم ، وسائر العلماء وتواريخهم ، مع أسماء رجالهم وكُناهم وأمكنتهم وأزمانهم ، كالتحميد مع الخطب، والدعاء مع التوسُّل والبسملة مع السورة ، والتكبير مع الصلوات، مثل المسندات والمرسلات ، والموقوفات والمقطوعات، فى صغره وفى إدراكه ، وفى شبابه وفى كهولته ، عند فراغه وعند شغله ، وعند فقره وعند غناه ، بالجبال والبحار ، والبلدان والبرَارى ، على الأحجار والأخزاف ، والجلود والأكتاف ، إلى الوقت الذى يمكنه نقلها إلى الأوراق ، عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه ، وعن كتاب أبيه يتيقن أنه بخط أبيه دون غيره ، لوجه الله تعالى طلباً لمرضاته ، والعمل بما وافق كتاب الله عز وجل منها ، ونشرها بين طالبيها ، ومحبيها ، والتأليف فى إحياء ذكره بعده ، ثم لا تتم له هذه الأشياء إلا بأربع، هى من كَسْب العبد ، أعنى معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو ، مع أربع هى من إعطاء الله تعالى ، أعنى القدرة والصحة والحرص والحفظ ، فإذا صحت له هذه الأشياء كلها هان عليه أربع : الأهل ، والولد ، والمال ، والوطن . وابتلى بأربع : بشماتة الأعداء ، وملامة الأصدقاء ، وطعن الجهلاء ، وحَسَد العلماء ، فإذا صبر على هذه المحن أكرمه الله جل وعلا فى الدنيا بأربع : بعز القناعة ، وبهَيْبة النفس ، و بلذّة العلم ، و بحياة الأبد ، وأثابه فى الآخرة بأربع : بالشفاعة لمن أراد من إخوانه ، و بظل العَرْش حيث لا ظل إلا ظله، وسَقى (١) من أراد من حَوْض نبيه صلى الله عليه وسلم ، و بجوار النبيين فى أعلى عليين فى الجنة ، فقد أعلمتك يا بنى بمُجْمَلات جميع ما سمعت من مشايخى متفرقا فى هذا الباب ، فأقبل

---

(١) فى ا «وبسقى من أراد»

الآن على ما قصدتنى (١) له أودَع ، فهالنى قوله ، فسكتُّ متفكراً ، وأطرقت متأدباً ، فلما رأى ذاك منى قال : و إن لم تطق حمل هذه المشاق كلها فعليك بالفقه ، يمكنك تعلمه وأنت فى بيتك قارٌّ ساكنٌ لا تحتاج إلى بُعْد الأسفار ، ووطء الديار ، وركوب البحار ، وهو ذا ثمرة الحديث ، وليس ثواب الفقيه دون ثواب المحدّث فى الآخرة ، ولا عزه بأقلَّ من عز المحدث ، فلما سمعت ذلك نقصَ عزمى (٢) فى طلب الحديث ، وأقبلت على دراسة الفقه وتعلمه إلى أن صرت فيه متقدما ، ووقفت منه على معرفة ما أمكننى من علمه بتوفيق الله تعالى ومنته ، فلذلك لم يكن عندى ما أمليه لهذا الصبى يا أبا إبراهيم ، فقال له أبو إبراهيم : إن هذا الحديث الواحد الذى لا يوجد عند غيرك خيرٌ للصبى من ألف حديث يجده عند غيرك ، انتهى .

أبو حيان يمدح ابن تيمية

وجاء أبو حيان إلى ابن تَيْمية والمجلس غاصٌّ فقال يمدحه ارتجالا :

لما أتينا تقيَّ الدين لاحَ لَنَا ... داعٍ إلى الله فَرْدٌ ماله وَزَرُ

على محياه من سِيمَا الألى صحبوا ... خيرَ البرية نور دونه القمر

حبر تسربل منه دهره حِبَرَاً ... بحر تقاذفُ من أمواجه الدرر

قام ابن تيمية فى نصر شرعتنا ... مقام سيد تَيْمٍ إذ عَصَتْ مضر (٣)

فأظهر الحقَّ إذ آثاره درست ... وأخمد الشر إذ طارت له الشرر

كنا نحدَّثُ عن حبر يجىء فها ... أنت الإمام الذى قد كان يُنْتَظر

ثم انحرف أبو حيان فيما بعد عن ابن تمية ، ومات وهو على انحرافه ، ولذلك أسباب : منها أنه قال له يوماً : كذا قال سيبويه ، فقال : يكذب سيبويه ، فانحرف عنه ، رحم الله تعالى الجميع !

---

(١) فى ا « فأقبل الآن إلى ماقصدتنى له أودع » .

(٢) في ا « نقض عزمى » بالضاد المعجمة ، ويقرأ مبنيا للمجهول .

(٣) سيدتيم : هو أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه !.

وحضر الشيخ أبو حيان مع ابن بنْتِ الأعز فى الروضة فكتب إلى أبى حيان ووجَّهه مع بعض غلمانه :

حَيَّيْتُ أثيرَ الدين شيخَ الأدبا   أقضى له حقاً كما قد وجبا

حييت فتى بطاق آس نضر   كالقدّ بدا ملئت منه طربا

قال : فأنشدته :

أهدى لنا غصنا مِنْ ناضر الآس   أقْضَى القُضَاةِ حليفُ الجود والباس

لما رأى سقَمى أهـداه مَعْ رشإ   حلو التثنى فكان الشافىَ الآسى

ولما أنشد الشيخ أبو حيان قول نور الدين القَصْرى فى روضة مصر :

ذات وجهين فيهما قسم الحسـن فأضحت بها القلوب تهيم

ذا يَلِى مصر فهو مصر وهذا   يتولى وسيم فهو وسيم

قد أعادت عصر التصابى صباها   وأبادت فيها الغمومَ الغيومُ

زاد فيها بيتاً ، وهو :

فَبِلُجِّ البحار يسبح نُونٌ   وبِفَجِّ القفَارِ يسفح رِيمُ

قال أبو حيان : وكنت ماشياً بين القصرين مع ابن النحاس ، فعبر علينا صبى يدعى بجمال ، وكان مصارعا ، فقال البهاء : لينظم كل منا فيه ، ثم قال :

مصارع تصرع الآساد شمرته   تيها فكل مليح دونه سمج(١)

لما غدا راجحاً فى الحسن قلت لهم   عن حسنه حدثوا عنه ولا حرج

فنظمت أنا :

سبانى جمال من مليح مُصَارع   عليه دليل للملاحـة واضح

لئن عَزَّ منـه المثل فالـكل دونه   وإن خفَّ منه الخصر فالرِّدْفُ راجح

(١) في ب « مصارع تصرع الآساد شهرته » وفى ا « فكل مليح دونه همج »

وسمع العزازى نظمنا فقال ، وأنشدنيه :

هل حَكَمٌ ينصفنى فى هَـوَى مُصارع يصرع أسْـدَ الشرى

مذ فرّ عنى الصـبر فى حبه حكى عليه مدمعى ما جـرى

أباح قتلى فى الهـوى عامداً وقال كم لى عاشق فى الورى

رميته فى أسر حـبى ومن أجفان عينيه أخـذت الـكرى

ترجمة أبى حيان عن الإحاطة

وقال لسان الدين فى الإحاطة : كان أثير الدين أبو حيان نسيجَ وَحْدِهِ فى ثقوب الذهن ، وصحة الإدراك ، والاضطلاع بعلم العربية والتفسير وطريق الرواية ، إمام النحاة فى زمانه غيرَ مُدَافع ، نشأ فى بلدهِ غَرْنَاطة مشاراً إليه فى التبريز بميدان الإدراك ، وتغبير السوابق فى مضمار التحصيل ، ونالته نَبْوَه[1] لحق بسببها بالمشرق ، واستقر بمصر ، فنال بها ما شاء من عز وشهرة وتأثل وافر وحُظْوة ، وأضحى لمن حل بساحته من المغاربة ملجأ وعُدَّة ، وكان شديد البسط مهيباً جهوريا ، مع الدُّعَابة والغزل وطرح التَّسَمُّتِ ، شاعراً ، مكثراً ، مليح الحديث ، لا يمل و إن أطال ، وأسن جدّا فانتفع به ، قال لى بعضُ أصحابنا : دخلت عليه وهو يتوضأ ، وقد استقر على إحدى رجليه لغسل الأخرى كما تفعل البرك والأوز ، فقال لى : لو كنت اليوم جار شلير ما تركنى لهذا العمل فى هذا السن ، ثم قال لى بعد كلام حدثنا عنه الجملة الكثيرة من أصحابنا كالحاج أبى يزيد خالد بن عيسى والمقرى الخطيب أبى جعفر الشَّقُورى والشريف أبى عبد الله بن راجح وشيخنا الخطيب أبى عبد الله بن مرزوق قال : حدّثنا شيخنا أبو حيان فى الجملة سنة ٧٣٥ بالمدرسة الصالحية بين القَصْرَين بمنزله ، حدّثنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير سماعا من لفظه وكتبه من خطه بغرناطة ، عن الكاتب أبى إسحاق بن عامر الهمدانى الطَّوْسى

(١) فى أصل ا « ونالته بنوة » محرفا ، واقرأ ما ذكره بعد ذلك فى (ص٣٣٨) عن الخلاف الذى وقع بين أبى حيان وجماعة من أساتذته ورفع أمره للسلطان ثم انظر بعد ذلك (ص٣٤١) فقد أعيد فيها ذكر ذلك .

ـ بفتح الطاء ـ حدّثنا أبو عبد الله بن محمد العنسى القرطبى ، وهو آخر من حدّث عنه ، أنبأنا أبو على الحسن بن محمد الحافظ الجَيَّانى ، أنبأنا حكم بن محمد ، أنبأنا أبو بكر بن المهندس ، أنبأنا عبد الله بن محمد ، أنبأنا طالوت بن عباد بن نصال ابن جعفر ، سمعت أبا أمامة الباهلى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ، إذا حدَّث أحدكم فلا يكذب ، وإذا ائتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » .

ثم قال ابن الخطيب : إن أبا حيان حملته حِدّة الشبيبة على التعرض للأستاذ أبى جعفر الطباع ، وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير الوحشة ، فنال منه ، وتصَدَّى للتأليف فى الرد عليه وتكذيب روايته ، فرفع أمره للسلطان ، فامتعض له ، ونفذ الأمر بتنكيله ، فاختفى ، ثم أجاز البحر مختفياً ، ولحق بالمشرق يلتفت خلفه

ثم قال : وشعره كثير يتصف بالإجادة وضدها ، فمن مطوّلاته قوله :

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول ... العقل مختبل والقلب متبول

هزت له أسمراً من خُوطِ قامتها ... فما انثنى الصلب إلا وهو مقتول

جميلة فُصِّلَ الحسن البديع لها ... فكم لها جمل منه وتفصيل

فالنحر مرمرة ، والنشر عنبرة ، ... والثغر جوهرة ، والريق معسول

والطرف ذو غَنَج ، والعرف ذو أرج ، ... والخصر مختطف ، والمتن مجدول

هيفاء يستنّ فى الخصر الوشاح لها ... درماء تخرس فى الساق الخلاخيل (١)

من اللواتى غذاهُنَّ النعيم فما ... يشقين ، آباؤها الصِّيدُ البهَالِيلُ

---

(١) فى أصل ا « هيفاء ينطق فى الخصر الوشاح لها » وفى نسخة عندها « هيفاء ينسن » وأثبتنا مافى ب ، وفى ا أيضا « وذماء تخرس ـ إلخ » .

إلى أن قال : [وقوله] :

نورٌ بخدّك أم توقّدُ نارِ … وضَنًى بجَفْنِك أم فُتُور عُقَار
وشَذًا برِيقك أم تأرُّجُ مسكة … وسَنًى بثغرك أم شعاع درارى
جمعت معانى الحسن فيك فقد غدت … قَيْدَ القلوب وفتنة الأبصار
مُتَصَاوِن خفراً إذا ناطقته … أغضى حياء فى سكون وقار
فى وجهه زهرات روض تجتلى … من نرجس مع وردة و بهَارِ
خاف اقتطاف الورد من وجناتها … فأدار من آس سِيَاجَ عِذار
وتسللت نمل العذار بخده … لِيَرِدْنَ شهدة ريقه المعطار
و بخده نار حمته وِرْدَهَا … فوقفن بين الورد والإصدار(١)
كم ذا أدارى فى هَوَاه مَحبتى … ولقد وَشَى بى فيه فَرْطُ أُوَارِى

وقال ابن رشيد : حدثنا أبو حيان قال : حدثنا التاجر أبو عبد الله البرجونى بمدينة عَيْذَاب من بلاد السودان ، وبَرْجونة قرية من قرى دار السلام ، قال : كنت بجامع لَوْلُمَ من بلاد الهند ومعنا رجل مغربى اسمه يونس ، فقال لى : اذكر لنا شيئا ، فقلت له : قال على رضى الله تعالى عنه « إذا وضع الإحسان فى الكريم أثمر خيرا ، و إذا وضع فى اللئيم أثمر شرا ، كالغيث يقع فى الأصداف فيثمر الدر ، و يقع فى فم الأفاعى فيثمر السم » فما راعنا إلا و يونس المغربى قد أنشد لنفسه :

صنائع المعروف إن أودعت … عند كريم زَكَّتِ النَّعْمَا
و إن تكن عند لئيم غدت … مكفورة موجبة إثما
كالغيث فى الأصداف در، وفى … فم الأفاعى يثمر السما

قال أبو حيان : فلما سمعت هذه الأبيات نظمت معناها فى بيتين ، وهما :

إذا وضع الإحسان فى الخبِّ لم يفِدْ … سوى كفرهِ ، والحر يجزِى به شكْرَا

---

(١) فى ا « وبخده نار حمتها وردها »

كَغَيْث سقى أفعى فجاءت بسمها وصاحَبَ أصدافا فأثمرت الدرَّا

قال أبوحيان : وأنشدنا الأمير بدرالدين أبو المحاسن يوسف بن سيف الدولة أبى المعالى ابن زمّاخ[1] الهمدانى لنفسه بالقاهرة :

فلا تعجب لحسن المدح منى صفاتُكَ أظهرت حكم البوادى

وقد تبدى لك المرآة شخصا ويسمعك الصَّدَى ماقد تنادى

وبعد كَتْبي مانقله ابن رشيد عن أبى حيان رأيت لبعضهم أن أبا حيان هذا الذى ذكره ابن رشيد ليس هو أبو حيان النحوى الأندلسى ، وإنما هو شخص آخر ، وفيه عندى نظر لايخفى ، والذى أعتقده ولا أرتاب فيه أنه أبوحيان النحوى .

وقال ابن رشيد : وأنشدنى أبو حيان لنفسه :

إذا غاب عن عينى أقول سلوته وإن لاح حَالَ اللونُ فاضطرب القلب

يُهيِّجُنى عيناه والمبسِمُ الذى به المِسْك منظومٌ به اللؤلؤ الرطب

وقال الشريف بن راجح : رأيت أن ماوضعه الشيخ أبو حيان فى تقديم لسان الأتراك تضييع لعمره ، وقلت :

نفائسُ الأعمار أنفَقْتَهَا أنا وأمْثالى على غير شَىْ

شيوخ سوءٍ ليس يرضى بما ترضى به من المخازى صَبِى[2]

ومن نظم أبى حيان قوله :

إن علماً تعبتُ فيه زمانى باذلا فيه طارفى وتِلاَدِى

لجَديرٌ بأن يكون عزيزا ومَصُوناً إلا على الأجواد

وقوله :

ومالك والإتعابَ نفساً شريفة وتكليفهَا فى الدهر ماليس يَعْذُبُ

---

(١) فى ب « بن رماح » براء وحاء مهملتين.

(٢) في ا « ليس ترضى بما يرضى به من المخازى صبي » .

أرحها فعن قربٍ تلاقى حِمَامَهَا فتنعم فى دار البقا أو تعذب

واستشكل هذان البيتان بأن ظاهرهما خلاف الشرع ، وأجيب بأن مراده أمر الرزق ، لا أمر التكليف .

وأفاد غيرُ واحد أن سبب رحلة الشيخ أبى حيان عن الأندلس أنه نشأ شر بينه و بين شيخه أحمد بن على بن الطباع فألف أبو حيان كتاباً سماه « الإلماع ، فى إفساد إجازة [ابن] الطباع» فرفع ابنُ الطباع أمره للأمير محمد بن نصر المدعوّ بالفقيه ، وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه ، فنشأ شر عن ذلك ، وذكر أبو حيان أنه لم يُقِمْ بفاس إلا ثلاثة أيام ، وأدرك فيها أبا القاسم المزياتى ، وخرج أبو حيان من الأندلس سنة تسع وسبعين وستمائة .

ممن رحل إلى العدوة أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى

وكان جماعة من أعلام الأندلس رَحلوا منها ، فلما وصلوا إلى العُدْوَة أقاموا بها ، ولم يذهبوا إلى البلاد المشرقية ، منهم الشيخ النحوى الناظم الناثر أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجَنِّى ، وهو القائل يمدح أمير المؤمنين المستنصر بالله صاحب تونس:

أمن بارق أورى بجنح الدجى سقطا تذكرتَ من حَلَّ الأجَارِع فالسقطا

وبان ولكن لم يبن عنك ذكره وشَطَّ ولكن طيفه عنك ما شطا

حبيب لَوَ انّ البدر جاراه فى مدى من الحسن لاستدنى مَدَى البدر واستبطا

إذا انتجعت مرعى خصيباً ركابه غدا لَحْظُ عينى يشتكى الجدب والقحطا

لقد أسرعت عنى المطىُّ بشادن تسرع فى قتل النفوس وما أبطا(١)

ظننت الفلا دارا ابن ذى يَزَنٍ بها وخِلْتُ المحاريبَ الهوادجَ والغبطا

فكم دمية للحسن فيها وصورة تَروقُ وتمثال من الحسن قد خطا

حمائل لاحت كالخمائل بهجة سقيطُ الحيا فيهن لا يسأم السقطا

(١) فى ا « لقد أسرعت عينى المطى بشادن » محرفا

توسَّدُ غزلانُ الأوانس والمَهَا ... به الوشى والديباج لا السِّدْرَ والأرْطَى
ولم يَسْبِ قلبى غير أبهرها سنى ... وأطولها جيداً وأخفقها قرطا
أيا ربة الأحداج سيرى فتعلمى ... ، ومابك جهل، أن سهمك ما أخطا[(١)]
فنى تستبينى ما بعينيك من ضَنًى ... لجسمى وعنوان الهوى فيه مختطا[(٢)]
فلم أر أعدى منك لحظا وناظراً ... لقلبى ولا أعدى عليه ولا أسطى
سقى الله عيشاً قد سقانا من الهوى ... كؤوسا بمعسول اللَّمَى خُلطت خلطا
وكم جنة قد رُدْتُ فى ظل كافر ... فلم أجز ما أولاه كفراً ولا غَمْطَا
وكم ليلة قاسيتها نابِغيَّةٍ ... إلى أن بدت شيبا ذوائبها شُمْطَا
وبت أظن الشهب مثلى لها هَوًى ... وأغبطها فى طول ألفتها غبطا
على أنها مثلى عزيزة مطلب ... ومن ذا الذى ماشاء من دهره يُعْطَى
كأن الثريا كاعبٌ أزمعت نوًى ... وأمّت بأقصى الغرب منزلةً تخطى
كأن نجوم الهقعة الزُّهْرَ هَوْدَج ... لها عن ذرا الحَرْفِ المُنَاخَةِ قد حُطّا
كأن رشاء الدلو رشوة خاطب ... لها جعل الأشراط فى مهرها شرطا
كأن السها قد دق من فرط شوقه ... إليها كما قد دقق الكاتبُ النَّقْطَا
كأن سهيلا إذ تناءت وأنجدت ... غدا يائساً منها فأتْهَمَ وانحطا
كأن خفوق القلب قلب متيم ... تعدى عليه الدهر فى البين واشتطا
كأن كلا النسرين قد رِيعَ إذ رأى ... هلال الدجى يهوى له مخلبا سلطا
كأن الذى ضَمَّ القوادم منهما ... هَوًى واقعاً للأرض أو قص أو قطا[(٣)]
كأن أخاه رام فَوْتاً أمامه ... فلم يَعْدُ أنْ مد الجناح وأن مطا
كأن بياض الصبح مِعْصَمُ غادة ... جنت يدها أزهار زهر الدجى لقطا

---

(١) فى ا « أيا ربة الأحداج سيرى فنقلي » محرفا
(٢) فى ب « مابعينيك من عنا » وأثبتنا ما فى ا
(٣) في ا « هوى واقع للأرض أو قص أو قطا » .

كأن ضياء الشمس وجه إمامنا ... إذا ازداد بشراً فى الوغى و إذا أعطى

محمدٌ الهادى الذى أنطق الورى ... ثناء بما أسدى إليهم وما أنطى (١)

إمام غدا شمس المعالى و بدرها ... وقد أصبحت زُهْرُ النجوم له رَهْطَا

جميل المحيا مجمل طِيبُ ذكره ... يعاطى سرورا كالحميا ويستعطى

إذا ما الزمان الجعد أبدى تجهما ... أرانا الحياء الطلق والخلق السَّبْطا (٢)

كلا أبوى حَفْصٍ نماه إلى العلا ... فأصبح عن مرقاته النجمُ منحطا

بسيماه تدرى أَن كعبا جدوده ... وإن هو لم يذكر رزاحاً ولا قرطا

إذا قبض الروعُ الوجوهَ فوجهه ... يزيد لكون النصر نصلاله بسطا

به تترك الأبطال صَرْعى لدى الوغى ... كأنْ قد سقوا من خمر بابل إسفنطا

تراه إذا يعطى الرغائبَ باسما ... له جَذَل يربِى على جَذَل المعطَى

وكم عنق قد قُلِّدت بنواله ... فريداً وقد كانت قلادتها لطا

متى ماتقِسْ جودَ الكرام بجوده ... فبالبحر قايستَ الوقيعة والوقطا

يشف له عن كل غيب حجابه ... فتحسبه دون المحجَّب مالطا

تطيع الليالى أمره فى عصاته ... وتردى أعاديه أساوِدُها نشطا

وتمضى عليهم سيفه وسنانه ... فتبرى الكُلَى طعنا وتفرى الطُّلَى قَطّا

فكيف ترجت غرةً منه فرقةٌ ... غدا عزها ذلا ورفعتها هبطا (٣)

وكم بالنهى والحلم غطى عليهم ... إلى أن جَنَوْا ذنبا على العلم قد غَطَّى

فأمطاهم دُهْمَ الحديد وطالما ... أنالهمُ دهم الجياد وما أمطى

ورام لهم هدياً ولكنهم أبَوْا ... بِغَيِّهِمُ إلا الضلالة والخبطا

وكان لهم يبغى المَثُوبَةَ والرضا ... ولكن أبوا إلا العقوبة والسخطا

---

(١) أنطى ــ بالنون ــ لغة فى أعطى ــ بالعين المهملة ــ وقرىء بها فى قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) وهى لغة أهل بغداد إلى اليوم .

(٢) فى ب « إذا ما الزمان الجهد » محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ا . ويدل على صحته ذكر الطلاقة والسبوطة فى المصراع الثانى ليقابل بهما الجعودة والتجهم .

(٣) فى ا « فكيف ترجت عزة منه » .

ولو قوبلت بالشكر منه مآرب ... لما اعتاض منها أهلها الأَثْلَ والخَمْطَا(١)
هو الناصر المنصور والملك الذى ... أعاد شباب الدهر من بعدما اشْمَطَّا
أصاخت له الأيام سمعاً وطاعة ... وأحكمت الدنيا له عهدها ربطا
فلابد من أن يملك الأرض كلّها ... وأن تملأ الدنيا أيالته قسطا
ويغزو وفى آفاق أندلس العِدَا ... بجيش يخط الأرض من قبله خطا(٢)
وكل جواد خف سنبكه فما ... يمس الثرى إلا مخالسةً فرطا(٣)
يؤم بها الأعداء ملك أمامه ... من الرعب جيش يُسْرِع السير إن أبطا
ويرمى جبال الفتح من شط سبتة ... بها فتوافى سُبَّقاً ذلك الشطا
بحيث الْتقَى بالخضر موسى وطارق ... وموسى به رَحْلاً لغزو العدا حطا
وسَعْيُكَ ينسى ذكر سعيهما به ... ويوسع سعى المشركين به حبْطا
ويوقع فى الأعداء أعظم وقعة ... بها تملأ الأسماع طير الملا لغطا
تجاوب سُحْمُ الطير فيه وشهبها ... كما راطَنَ الزنجُ النبيطَ أو القبطا
وتنكر فيها الجو والأرض أعين ... ترى الجو ناراً والصعيد دَمًا عبطا
فتخضب منهم من أشابت بخَوْفِهَا ... نصول ترى منها بفَوْد الدجى وخطا
ويحسم أدواء العدا كل صارم ... حسام إذا لاقى الطلَى حَدُّهُ قَطَّا
وكل كمىٍّ كلما خط صفحة ... بسيف غدا بالرمح ينقط ماخطا
شجاع إذا التفّ الرماحان مثل ما ... تقلقل فى أسنان مشط يد مشطا
إذا مارجَتْ منه أعاديه غرة ... رأت دون ماترجو القَتادة والخَرْطَا
فيجدع آناف العداة بسيفه ... وينشقها بالرمح ريح الردى قسطا(٤)
يبيدُ الأعادى سطوةً ومكيدة ... فيحكى الأسود الغلب والأذؤبَ الملطا(٥)

---

(١) فى ا « لما اعتاض منها أهيل الأثل والخمطا » .

(٢) فى ا « بجيش تخط الأرض ذبله خطا » والذبل : جمع ذابل وهو الرمح .

(٣) فى ا « إلا مخالسة قرطا » (٤) فى ا « وينشقها بالرمح ريح الردى بسطا »

(٥) فى ا « والأذؤب المعطا » .

سرى فى طلاب المعلوات فلم يزل ... يمد يدا مبسوطة وندى بسطا

ولونازعت يمناه جذباً شماله ... لبوساً من الماذىّ لانعق وانعطا[١]

يصول بخطىٍّ فكل مرشة ... به أثر يعزوه للحية الرَّقْطا[٢]

فتى تبصر الآكام فرعاً كواسيا ... بهنّ وقد أبصرن عارية مرطا

إذا نسبت للخطّ أو لرُدَيْنَةٍ ... نسبن إلى العَلْيا ردينةَ والخطَّا

كماة حماة مايزال إلى الوغى ... حنينٌ لهم ماحَنَّ نِضْو وما أطّا

عليهم نسيجُ السابغات كأنها ... جلود عن الحيات قد كشطت كشطا

إذا لُمَعٌ للشمس لاحت عليهمُ ... رأيت صِلالا ألبست حللا رُقْطَا

تَرَجْرَجُ كالزاروق ليناً ومثله ... ترى نقطة من بعد ماطرحت خطا[٣]

جيوش إذا غطى البلاد عبابها ... وأمواجها غطت نفوسَ العدا غطا

فكم قد حكت فى حَصْرِ حِصْنٍ ومعقل ... وشاحا على خصر فآسَفْنَهُ ضغطا[٤]

وخيل كأمثال النَّعام تخالها ... لإفراط لوك اللجم تبغى لها سرطا

تخيلها فَتَخْاً إذا ارتفعت وإن ... سبحن بماء خلتها خفة بطا[٥]

فينعق منها مرط كل عجاجة ... موادِع لايسأمن مرا ولا مرطا[٦]

وكم خالطت سمر الرماح وأوردت ... مياهاً غدت حمر الدماء لها خلطا

يجرونها ليل السرى فإذا دعوا ... نَزَالِ امتطوا منهن أفضل مايمطى[٧]

فكم جنبوها خلف معتادة السرى ... عوارف لم تسمع لها أذن نحطا

وقد وسمت أعناقهن أزمة ... بطول السرى حتى تظن لها علطا[٨]

---

(١) فى ب « لانفق وانعطا »
(٢) فى ب « يصول بخطى لكل مرشة »
(٣) فى ب « تزحزح كالزاروق »
(٤) فى ب « فأسعفه ضغطا »
(٥) فى ب « تخيلها فتخا إذا ارتعت »
(٦) فى ب « موارع لايسأمن »
(٧) فى ا « يحمونها ليل السرى » وفيها « امتطوا منهن أشرف مايمطى »
(٨) فى ا « وقد سمعت أعناقهن أزمة » وفيها « حتى تظن بها غلطا »

إذا أوقدت ناراً بقَذْف الحصا حكت ... وبَحْر الدجى طام سفيناً رمت نفطا(١)
إمام الهدى أعليت للدين معلما ... وسمت العدا من بعد رفعتهم حطا
وألحفتهم عقم المنى عن حيالها ... فما ولدت عقما ولا نتجت سقطا(٢)
وصيرتم فى عقلة سارح العدا ... وسرحْتمُ الآمالَ من عقلها نشطا
ومن كان يشكو سطوة الدهر قد غدا ... بعدلك لا يُعْدَى عليه ولا يُسْطَى
ففى كل حال تؤثر القسط جاريا ... على سنن التقوى وتجتنب القسطا
فبوركت سبطا جدُّه عُمَرُ الرضا ... وبورك من جد غدوت له سبطا
تلوت الإمام العدل يحيى فلم تزل ... تزيدُ أمورَ الخلق من بعده ضبطا
فزدتمْ وضوحا بعده واستقامة ... وتوطئة نهج السبيل الذى وَطَّا
وما كان أبقى غاية غير أنه ... حبيت بما لم يُحْبَ خلقٌ ولم يعطا
إذا درر الأملاك فى الفخر نُظِّمت ... على نَسَق عقدا فدولتك الوسطى

وله أيضاً فيه :

فى كل أفق من صباح دجاكم ... نور جلا خيطَ الظلام بخيطه
راقت محاسن مجدكم فَبهَرْنَ ما ... كسيتَهُ من حِبَر المديح ورَيْطِهِ

وله ـ رحمه الله تعالى ! ـ عدة تآليف ، وولد سنة ٦٠٨ ، وتوفى ليلة السبت ٢٤ رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس ، وممن أخذ عنه الحافظ ابن رشيد الفهرى ، وذكره فى رحلته وأثنى عليه ، كما أثنى عليه العبدرى فى رحلته ، فقال : حازم ، وما أدراك ما حازم ، وقد عرَّفْتُ به فى «أزهار الرياض» مما يغنى عن الإعادة ، وكان هو والحافظ أبو عبد الله بن الأبار فَرَسَىْ رِهان ، غير أن ابن الأبار كان أكثر منه رواية

ابن الأبار

وهو الإمام الحافظ الكاتب الناظم الناثر المؤلف الراوية أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن أبى بكر بن عبد الله بن أبى بكر ، القضاعى ، الأندلسى ، البَلَنْسى ، كتب ببلنسية عن السيد أبى عبد الله بن السيد أبى حفص بن أمير المؤمنين

(١) فى ا « وبحر الدجى طامست نقطا » محرفا أشنع تحريف .
(٢) فى ب « عقم المنى عن خيالها »

عبدالمؤمن بن على ، ثم عن ابنه السيد أبى زيد ، ثم كتب عن الأمير ابن مردنيش (١) ولما نازل الطاغية بَلَنْسِية بعثه الأمير زيان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة للسلطان أبى زكريا يحيى بن عبدالواحد بن أبى حَفْص وفى ضمن ذلك استصرخه (٢) لدفع عادية العدو ، فأنشد السلطان قصيدته السينية التى مطلعها :

أدرك بخيلكَ خيلِ الله أندلُسَا ... إن السبيل إلى مَنْجَاتها دَرَسَا

وقد ذكرناها فى غير هذا الموضع ، ثم لما كان من أمر بلنسية ما كان رجع بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه ، فنزل منه بخير مكان ، ورشّحه لكَتْب علامته فى صدور مكاتباته ، فكتبها مدة ، ثم أراد السلطان صرفها لأبى العباس الغسانى لكونه يحسن كتابتها ، فكتبها مدة بالخط المشرقى ، وكان آثر عند السلطان من المغربى ، فسخط ابن الأبار أنفَةً من إيثار غيره عليه ، وأُفتات على السلطان فى وضعها فى كتاب أمر بإنشائه ، لقصور الترسيل يومئذ فى الحضرة عليه ، وأن يبقى موضع العلامة منه لكاتبها (٣) ، فجاهر بالرد ، ووضعها (٤) استبداداً وأنفة ، وعوتب على ذلك ، فاستشاط غضباً ، ورمى بالقلم ، وأنشد متمثلا :

اطْلُبِ العز فى لَظَى وذَرِ الذلّ ولو كان فى جنان الخلود

فنُمى ذلك إلى السلطان ، فأمر بلزومه بيته ، ثم استعتب السلطان بتأليفٍ رفَعَه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب ، وأعتبه ، وسماه « إعتاب الكتاب » واستشفع فيه بابنه المستنصر ، فغفر السلطان له ، وأقال عثرته ، وأعاده إلى الكتابة ، ولما توفى السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضور مجلسه ، ثم حصلت له أمور معه كان آخرها أنه تقبض عليه ، و بُعث إلى داره ، فرفعت إليه كتبه أجمع ، وألفى (٥) أثناءها ، فيما زعموا ، رقعةً بأبيات أولها :

---

(١) فى ب « أبى مردنيش » (٢) فى ا « استصراخه »

(٣) فى ا « لكتابتها » (٤) فى ا « ووضعهما »

(٥) فى ا « وألغى » محرفا ، ومعنى ألفى وجد .

طغى بتونس خَلْفٌ سمـــوه ظلماً خَلِيفَهْ(١)

فاستشاط السلطان لها ، وأمر بامتحانه ، ثم بقتله ، فقُتل قَعْصاً بالرماح وسط محرم سنة ٦٥٨ ، ثم أحرق شِلْوُه ، وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه ، وكان مولده ببَلَنْسية سنة ٥٩٥ .

ترجمة لابن الأبار عن ابن سعيد فى «المغرب»

وقال فى حقه ابن سـعيد فى « المغرب » ماملخصه : حامل راية الإحسان ، المشار إليه فى هذا الأوان ، ومن شعره قوله يصف الياسمين :

حـديقة ياسمين لا تهيم بغيرها الحَدَقُ
إذا جَفْنُ الغمام بكى تبسَّم ثغـــرُها اليَقَقُ
فأطرافُ الأهـلة سا ل فى أثنائها الشـفق

وكتب إلى الوزير أبى عبد الله بن أبى الحسين بن سعيد يستدعى منه منثوراً(٢) :

لك الخير أتحفنى بخيرىٍّ روضةٍ لأنفاسه عنـــد الهجوم هبوبُ
أليس أديبُ الروض يجعل ليلَهُ نهاراً فيذكو تحتـــه ويطيب
ويطوى مع الإصباح منشورَ نَشْرِهِ كما بان عن ربع المحب حبيب
أهيم به عن نســـبة أدبية ولا غرو أن يهوَى الأديبَ أديبُ

وقوله فى الخسوف :

نَظَرْتُ إلى البدر عند الخسوف وقد شين منظره الأزْيَنُ
كما سَفَرَتْ صفحـــةٌ للحبيــب يَحْجُبها برقُع أدكن

وقوله فى المعنى :

ألم تر للخسوف وكيف أبدى ببدر التم لماع الضيـــاء
كمرآة جَلَاها القَيْن حتى أنارت ثم ردت فى غشـــاء(٣)

---

(١) فى ا « طغى بتونس خلق » محرفا ، والخلف ــ بالفتح ــ ذو الشر من الأعقاب

(٢) فى ب « منشورا » (٣) فى ا « فمرآة جلاها القين » محرفا

وقوله :

والثريَّا بجانب البدر تَحْكى راحة أومأت لتلطم خدا

وقوله :

مَنْ عاذرى من بابلى طرفه ولعمره ماحلَّ يوما بابلا
أعتده خُوطاً لعيشى ناعماً فيعود خَطِّيًّا لقتلى ذابلا

وهو حافظ متقن ، له فى الحديث والأدب تصانيف ، وله كتاب فى متخير الأشعار سماه « قطع الرياض » وتكملة الصِّلة لابن بَشْكُوال ، و « هداية المعترف ، فى المؤتلف والمختلف » وكتاب التاريخ ، و بسببه قتله صاحبُ إفريقية ، وأحرقت كتبه على ما بلغنا ، رحمه الله تعالى ! وله « تحفة القادم ، فى شعر الأندلس » و « الحلة السيراء ، فى أشعار الأمراء » .

ومن شعره قوله :

أمرى عجيبٌ فى الأمور بين التوارى والظهور
مستعمل عند المغيب ومُهْمَلٌ عند الحضور

وسبب هذا أن ملك تونس كان إذا أشكل عليه شىء أو ورد عليه لغز أو مُعَمًّى أو مترجم(١) بعث به إليه ، فيحله ، و إذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتفت إليه ، ووجد فى تعاليقه ما يَشين دولَه صاحب تونس ، فأمر بضربه ، فضرب حتى مات ، وأحرقت كتبه ، رحمه الله تعالى ! وكان أعداؤه يلقبونه بالفار ، وحصلت بينه و بين أبى الحسن على بن شلبون المَعَافرى البَلَنْسى مُهَاجاةٌ ، فقال فيه :

لا تَعْجَبُوا لمضرةٍ نالت جميع الناسِ صادرةٍ عن الأبار
أو لَيْسَ فاراً خِلْقَةً وخَليقةً والفار مجبول على الإضرار

---

(١) فى ا « أو مرجم بعث له إليه »

فأجابه ابن الأبار :

قل لابن شلبون مقال تنزه غيرى يجاريك الهجاء فَجَارِ
(إنا اقْتَسَمْنَا خُطَّتَيْنَا بيننا فحملتُ بَرَّةَ واحتملت فَجَارِ)[١]

وهذا مضمن من شعر النابغة الذبيانى، انتهى ما لخصناه من كلام ابن سعيد[٢] فى حقه.

ومن شعر ابن الأبار أيضاً :

لو عنَّ لى عون من المقدار لهجرت للدار الكريمة دارى
وحللت أطيب طيبة من طيبة جاراً لمن أوصى بحفظ الجار
حيث استبان الحق للأبصار لما استثار حفائظ الأنصار[٣]
يا زائرين القبرَ قبرَ محمدٍ بشرى لكم بالسبق فى الزوّار
أوضَعْتمُ لنجاتكم فوضعتم ما آدكم من فادح الأوزار[٤]
فوزُوا بسبقكمُ وفوهوا بالذى حملتم شوقاً إلى المختار
أدوا السلام سلمتم وبرده أرجو الإجارة من ورود النارِ

اللهم أجرنا منها يا رحيم يا رحمٰن يا كريم !.

ولنختم ترجمته بقوله :

رجوت الله فى اللّأْواء لما بلوتُ الناس من ساه ولاهى
فمن يك سائلا عنى فإنى غنيت بالِافتقار إلى إلٰهى

وقد جوّدت[٥] ترجمته فى « أزهار الرياض ، فى أخبار عياض » فليراجع ذلك فيه من شاء.

رجع إلى ما كنا فيه من ذكر المرتحلين من الأندلس إلى المشرق :

---

(١) هذا البيت من كلام النابغة الذبيانى ، وبرة : علم على المبرة ، وفجار : علم على الفجرة و « فجار » فى البيت الأول مؤلفة من فاء العطف ، وجار : أمر من المجاراة وفى البيتين جناس ظاهر (٢) فى ب « أبى سعيد » محرفا

(٣) فى ا « لما استشار حفائظ الأنصار » (٤) فى ب « ماقادكم من فادح » وآدكم : أثقلكم وبهظكم. (٥) فى ا « جردت ترجمته »

أبو المكارم جمال الدين محمد بن مسدى

ومنهم الحافظ أبو المكارم جمال الدين بن مُسَدِّى .

وهو أبو بكر محمد ، ويقال : أبو المكارم ، ابن أبى أحمد يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى بن مُسَدِّى ، المهلبى ، الأزدى ، الأندلسى .

شيخ السنة ، وحامل راياتها ، وفريد الفنون ، ومحكم آياتها ، عرف الأحاديث ، وميز بين شهرتها وغرابتها ، وكان المتلقِّى لراية السنة بيمين عَرَابتها[١] ، طلع بمغربه شمسا قبل بزوغه بأفق المشرق ، وملأ جزيرته الخضراء من بحر علومه[٢] المتدفق ، وأفعمها بنوره المُشْرِق[٣] ، وطاف البلاد الإسلامية ، المغربية والمشرقية ، فعُقِدَت على كماله الخَنَاصر ، وجعله أربابُ الدراية مُقلة الدين الباصِرَ ، ولقى أعيان الشيوخ فى القُطْرَيْن ، وأخذ عنهم ما تقربه العين ، ويدفع به عن القلب الرَّيْن ، مع فصاحة لسان ، وطلاقة[٤] بيان و بنان ، وخلال حِسان ، و بلاغة سحبته على سَحْبان ، وظهر أزهار بان ، وفُوِّضت إليه خطابة الحرم الشريف بمكة فكان كما يقال : هذا السِّوار لمثل هذا المعصم ، فكم وَشَّى بها من مَطَارفَ للبلاغة وكم عَنَّم ، حتى يظن الرائى عودَ منبره من وعظه مائساً ، ولئن مال من سجع الحمام رطباً فقد مال من سجع هذا الإمام يابساً ، وترجم على من لقى من الأعيان بسحر البيان ، وفَصَّل أحوالَهم بأحسن تبيان ، وعدّتهم أربعة آلاف شيخ وناهيك بهذه مزية تقاد لها الفضائل فى أرسان ، وأرى تحقيق قول القائل : جمع الله تعالى العالم فى إنسان ، وله موضوعات مفيدة من حديث وفقه ونظم ونثر ، وله مُسْنَد غريب جمع فيه مذاهب العلماء المتقدّمين والمتأخرين[٥] ، وهو أشهر من نارٍ على عَلَم ، وكان يكتب بالقلمين المغربى والمشرقى ، وكلاهما فى غاية الجودة ، ومثل هذا يعدّ نادرا ، توفى شهيداً مطعوماً من أناس كانوا يحسدونه ، فختم الله تعالى له بالشهادة ، و بُوِّئ

---

(١) أخذ هذه الفقرة من قول الشماخ بن ضرار يمدح عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

ووقع فى ا « بيمين غرابتها » محرفا (٢) فى ا « من بحر علمه » (٣) فى ب « وأفعمها بنوئه المشرق » (٤) فى ب « وطلاوة بيان وبنان » (٥) فى ا « المتقدمين والمتقدمين » وتقرأ إحداهما بزنة اسم الفاعل والأخرى بزنة اسم المفعول .

بها دار السعادة ، وتوفى سنة ٦٦٣ بمكة ، ومولده سنة ٥٩٨ ، رحمه الله تعالى [ورضى عنه] ونفعنا بأمثاله !

أبو القاسم خلف بن عبد العزيز القبتورى الإشبيلي الغافقى

ومنهم الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقى القَبْتَوْرِى ـ بفتح القاف ، وسكون الباء الموحدة ، وفتح التاء ثالثة الحروف ، وسكون الواو ، و بعدها راء ـ الإشبيلى المولد والمنشأ .

ولد فى شوال سنة ٦١٥ ، وقرأ على الأستاذ الدباج كتابَ سيبويه والسبع ، وله باع مَديد فى الترسُّل مع التقوى والخير ، وله إجازة من الرضى بن برهان والنجيب بن الصيقل ، وكتب لأمير سَبْتَة ، وحدث بتونس عن العراقى(١) ، وجاور زمانا ، وتوفى بالمدينة سنة ٧٠٤ ، وحج مرتين ، قال أبو حيان : قدم القاهرة مرتين ، وحج فى الأولى ، وأنشدنى من لفظه لنفسه :

أسِيلِى الدمعَ يا عينى ولكن ... دمًا ، و يقلُّ ذلك لى، أسيلى
فكم فى التِّرْبِ من طرف كحيل ... لِتِرْبٍ لى ومن خَدٍّ أسِيلِ (٢)

وقال :

ماذا جَنَيْتُ على نَفْسى بما كتبت ... كَفِّى ، فياوَيْحَ نفسى من أذى كَفِّى
ولو يشاء الذى أجرى علىَّ بذا ... قضاءه الكف عنه كنت ذا كف

وقال :

واحسرتا لأمور ليس يبلغها ... مالى وهُنَّ مُنَى نفسى وآمالى
أصبحت كالآل لا جَدْوَى لدىَّ وما ... ألَوْتُ جهداً ولكن جَدِّىَ الآلى (٣)

وقال العلامة فتح الدين بن سيد الناس : إنه أنشده لنفسه بالحرم الشريف النبوى سنة ثلاث وسبعمائة :

---

(١) فى ا « وحدث بتونس عن الغرافى »

(٢) الترب ـ بكسر التاء ـ الذى يساوى سنه سنك .

(٣) الآل فى أول البيت السراب ، والجدوى ـ بفتح الجيم ـ المنفعة ، وما ألوت جهداً : أى ماقصرت ، والآل فى آخر البيت اسم فاعل من هذا الفعل ، ومعناه المقصر ، والجد ـ بفتح الجيم ـ الحظ والبخت .

رجوتك يارحمن إنك خير من رجاه لغفران الجرائم مُرْتَجِي[١]

فرحمتك العظمى التى ليس بابها وحاشاك فى وجه المسىء بِمُرْتَجِ[٢]

وقد أنشد له أبو حيان كثيراً من نظمه ، رحمه الله تعالى! .

أبو العباس أحمد بن محمد (ابن الرومية) الإشبيلى

ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبى الخليل ، الأموى ، الإشبيلى ، النباتى ، المعروف بابن الرومية .

كان عارفاً بالعُشْب والنبات ، صنف كتاباً حسناً كثير الفائدة فى الحشائش ، ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم ، ورحل إلى البلاد ، ودخل حلب ، وسمع الحديث بالأندلس وغيرها .

وقال البرزالى فى حقه : إنه كان يعرف الحشائش معرفة جيدة ، وسمع الحديث بدمشق من ابن الحَرَسْتانى ، وابن ملاعب ، وابن العطار ، وغيرهم ، وقال بعضهم : اجتمعت به ، وتفاوضت معه فى ذكر الحشائش ، فقلت له : قصب الذريرة قد ذكر فى كتب الطب ، وذكروا أنه يستعمل منه شىء كثير ، وهذا يدل على أنه كان موجوداً كثيراً ، وأما الآن فلا يوجد ، ولا يخبر عنه بخبر[٣] ، فقال : هو موجود ، وإنما لا يعلمون أين يطلبونه ، فقلت له : وأين هو؟ فقال : بالأهواز منه شىء كثير ، انتهى .

وأجاز البحر بعد سنة ٥٨٠ للقاء ابن عبيد الله بسَبْتَة فلم يتهيأ له ذلك ، وحج – رحمه الله تعالى! – فى رحلته الأولى ، ولقى كثيراً ، وروى عن عدد من الرجال والنساء ضمنهم التذكرة له ، وله مختصر كتاب « الكامل » لأحمد بن عدى فى رجال الحديث ، وله كتاب « المعلم ، بما زاده البخارى على كتاب مسلم » ويعرف بالنباتى لمعرفته بالنبات ، ومولده فى نحو سنة ٥٦١ ، وتوفى رحمه الله تعالى بإشبيلية مُنْسَلخ ربيع الثانى[٤] سنة ٦٣٧ ، وقد رثاه أناس من تلامذته ، وألف

(١) مرتجى : اسم فاعل فعله ارتجى ، بمعنى رجا ، من الرجاء .

(٢) مرتج : اسم مفعول فعله « أرتج فلان بابه إرتاجا » أى أغلقه .

(٣) فى ا « ولا يخبر عنه مخبر » (٤) فى ا « منسلخ ربيع النبوى »

بعضهم فى التعريف به ، وسمع من ابن زرقون وابن الجد وابن عفير وغير واحد كأبى ذر الحبشى ، وسمع ببغداد من جماعة ، وحدث بمصر أحاديث[١] من حفظه ، ويقال له « الحَزْمى » بفتح الحاء ـ نسبة إلى مذهب ابن حَزْم لأنه كان ظاهرى المذهب ، وكان زاهداً صالحاً ، وحكى بعضهم عنه أنه كان جالساً فى دكانه بإشْبِيلِيَةَ يبيع الحشائش وينسخ ، فاجتاز به الأمير أبو عبد الله بن هُودٍ سلطان الأندلس، فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، واشتغل بنسخه ، ولم يرفع إليه رأسه ، فبقى واقفاً منتظراً أن يرفع إليه رأسه ساعة [طويلة][٢] فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى، وله كتابان حسنان فى علم الحديث : أحدهما يقال له « الحافل ، فى تكملة الكامل لابن عدى » وهو كتاب كبير . قال ابن الأبار : سمعت شيخنا أبا الخطاب بن واجب يثنى عليه ويستحسنه ، والثانى اختصر فيه الكامل لأبى أحمد بن عدى كما سبق فى مجلدين ، وسمع بدمشق والموصل وغيرهما جماعة من أصحاب الحافظ أبى الوقت السجزى وأبى الفتح بن البطى وأبى عبد الله الغراوى وغيرهم من الأئمة ، وله فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالأندلس من روايته بالمشرق ، وكان متعصباً لابن حَزْم بعد أن تفقه فى المذهب المالكى على ابن زرقون أبى الحسين ، وطالت صحبته له ، وكان بصيراً بالحديث ورجاله ، كثير العناية به ، واختصر كتاب الدارقطنى فى غريب حديث مالك ، وغيره أضبط منه ، وفاق أهل زمانه فى معرفة النبات ، وقعد فى دكان لبيعه ، قال ابن الأبار : وهنالك رأيته ولقيته غير مرة ، ولم آخذ عنه ، ولم أستجزه ، وسمع منه جُلُّ أصحابنا ، ومولده فى شهر المحرم سنة ٥٦٧ ، وتوفى بإشبيلية ليلة الإثنين مستهلَّ ربيع الآخر سنة ٦٣٧[٣] ، وقال ابن زرقون : منسلخ شهر ربيع الأوّل ، وحكى ذلك عن ولده أبى النور[٤] محمد بن أحمد ، انتهى .

---

(١) فى ا « الأحاديث » (٢) زيادة فى ا وحدها

(٣) فى ب « سنة ٦٣٨ » (٤) فى ب « عن والده أبى النور »

أبو العباس أحمد بن عبد السلام الإشبيلي ، المسيلي

ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام ، الغافقى ، الإشبيلى ، الشهير بالمسيلى رحل حاجًّا ، وقفل إلى بلده ، وحدث عنه أبو بكر بن خير بوفاة القاضى ابن أبى حبيب ، وروى عن أبى محمد بن أبى السعادات المروزى[1] الخراسانى ، وأنه أنشده بثغر الإسكندرية عند وَدَاعه إياه ، قال : أنشدنى أبو تراب جندل عند الوداع لبعضهم :

السم من أَلْسُنِ الأفاعى أعذب من قُبْـلَة الوداع

وَدَّعتهم والدموع تجـرى لمـــا دعا للوداع داعى

أبو العباس أحمد بن معد (ابن الإقليشى) التجيبي، الزاهد

ومنهم أبو العباس ـ ويقال : أبو جعفر ـ أحمد بن معدّ بن عيسى بن وكيل ، التجيبى ، الزاهد ، ويعرف بابن الإقليشى

صاحب كتاب « النجم ، من كلام سيد العرب والعجم » صلى الله عليه وسلم عارض به كتاب القضاعى[2] ، وأصل أبيه من أُقليش ، وضبطها بعضهم بضم الهمزة ، وسكن دانِيَة ، وبها ولد ونشأ ، سمع أباه وأبا بكر[3] وأبا العباس بن عيسى ، وتلمذله ، ورحل إلى بَلَنْسِية فأخذ العربية والآداب عن أبى محمد البَطَلْيَوْسى ، وسمع الحديث من صهره أبى الحسن طارق بن يعيش والحافظ أبى بكر بن العربى وأبى الوليد[4] بن خيرة وابن الدباغ ، ولقى بالمَرِيّة أبا القاسم بن ورد وأبا محمد عبد الحق ابن عطية وولى الله سيدى أبا العباس بن العريف ، ورحل إلى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وجاور بمكة سنين ، وسمع [بها] من أبى الفتح الكروخى جامع الترمذى برباط أم الخليفة العباسى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، ثم كر راجعاً إلى الغرب ، فقبض فى طريقه ، وحدث بالأندلس والمشرق ، وكان عالما ، عاملا ، متصوّفا ، شاعراً مجوّداً ، مع التقدم فى الصلاح والزهد والعزوف عن الدنيا وأهلها ، والإقبال

---

(١) فى ا « المروروذى »

(٢) فى ا « شهاب القضاعي »

(٣) في ا « سمع أباه أبا بكر »

(٤) فى ا « وأبوى الوليد ـ إلخ »

على العلم والعبادة ، وله تصانيف : منها كتاب « الغُرَر ، من كلام سيد البشر » وكتاب « ضياء الأولياء » وهو أسفار عدة ، وحمل الناس عنه مُعَشَّراته فى الزهد ، وكتبها الناس ، وكان يضع يده على وجهه إذا قرأ القارئ فيبكى حتى يعجب الناس من بكائه ، وكان الناس يدخلون عليه بيته والكتب عن يمينه وشماله ، وقد وصف غير واحد إمامته وعلمه وورَعه وزهده ، وروى عنه أبو الحسن[1] بن كوثر وابن بيبش[2] وغيرهما .

ومن شعره قوله :

أسير الخطايا عند بابك واقف ... له عن طريق الحق قلب مخالف

قديماً عَصَى عمداً وجهلا وغرّة ... ولم ينهه قلبٌ من الله خائف

تزيد سِنُوهُ وهو يزداد ضلة ... فها هو فى ليل الضلالة عاكف

تطلّع صبح الشيب والقلب مظلم ... فما طاف منه من سَنَى الحق طائف

ثلاثون عاما قد تولت كأنها ... حلوم تقَضَّتْ أو بروق خواطف

وجاء المشيب المنذر المرءَ أنه ... إذا رحلت عنه الشبيبة تالف

فيا أحمد الخوّان قد أدبر الصبا ... وناداك من سن الكهولة هاتف

فهل أرّق الطرف الزمان الذى مضى ... وأبكاه ذنب قد تقدم سالف

فَجُدْ بالدموع الحمر حزناً وحسرة ... فدمعك ينبى أن قلبك آسف

وقد وافق فى أول هذه القطعة قول أبى الوليد بن الفرَضى ، أو أخذه منه نقلا ، وتوفى فى صدوره عن المشرق بمدينة قُوصَ من صعيد مصر فى عشر الخمسين وخمسمائة ، ودفن عند الجميزة التى فى المقبرة التالية لسوق العرب ، وقال ابنُ عباد : إنه توفى سنة خمسين أو إحدى وخمسين بعدها ــ رحمه الله تعالى ! ــ وقد نيف عن الستين .

---

(١) فى ا « أبو الحسين بن كوثر »

(٢) فى أصل ا « وابن بيبش »

أبو العباس أحمد بن عمر المعافرى المرسى

ومنهم أبو العباس أحمد بن عمر ، المعافرى ، المُرْسى

وأصله من طَلْبِيرَة ، ويعرف بابن إفرند ، روى عن أبى الحسين الصفدى وغيره كالقاضى الحافظ أبى بكر بن العربى وأبى محمد الرشاطى وأبى إسحاق بن حبيش وغيرهم ، وله رحلة حج فيها ، ولقى أبا الفتح بن الرندانقانى بلدٍ بين سَرْخَس ومَرْو من أصحاب[1] أبى حامد الغزالى ، وأنشد عنه مما قاله فى وداع إخوانه بالبيت المقدس :

لئن كان لى من بَعْدُ عَوْدٌ إليكمُ قضيت لُبَانَاتِ الفؤاد لديكمُ
وإن تَكُنِ الأخرى ولم تك أوبَةٌ وحان حِمَامى فالسلام عليكم

وقد روى هذين البيتين أبو عمر بن عباد[2] وابنه محمد عن ابن إفرند هذا ، وكان صالحا زاهداً متصوفاً ، رحمه الله تعالى ! .

أبو جعفر أحمد ابن عبد الملك الضبى

ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن عميرة بن يحيى ، الضبى .

من أهل لُورَقَة ، رحل حاجا ، وكان منقبضاً زاهداً صواماً قواماً ، وأقرأ القرآن ، وأسمع الحديث ، وممن حدث عنه الحافظان أبو سليمان وأبو محمد بن حَوْط الله ، ولقيه أبو سليمان بلورقة سنة ٥٧٥ ، وتوفى رحمه الله تعالى سنة ٥٧٧ ، وقد قارب المائة .

أبو عمر أحمد بن هرون (ابن عات)

ومنهم أبو عمر بن عات ، وهو أحمد بن هرون بن أحمد بن جعفر بن عات ، النفزى[3] .

من أهل شاطبة ، سمع أباه وأبا الحسن بن هذيل ، وأبا عبد الله بن سعادة وابن حبيش وغير واحد وطائفة كثيرة ، ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، وسمع أبا الطاهر السِّلَفى وأبا الطاهر بن عوف وغيرهما ممن يطول ذكره ، وأجازله أبو الفرج ابن الجوزى وغيره ممن أخذ عنه وسمع منه ، وقد ضمن ذكر أشياخه وجملة صالحة

---

(١) فى ا « ومن أصحاب أبى حامد »
(٢) فى ب « ابن عياد »
(٣) فى ب « النقرى » محرفا

من مَرْوِياته عنهم برنامجيه اللذين سمى أحدهما « بالنزهة ، فى التعريف بشيوخ الوجهة » وهو كتاب حافل جامع ، والآخر « بريحانة النفس ، وراحة الأنفس ، فى ذكر شيوخ الأندلس » قال ابن عبد الملك المراكشى فى الصلة : حدثنا عنه شيخنا أبو محمد حسن بن على بن القطان ، وكان من أكابر المحدثين ، وجلة[1] الحفاظ المسندين للحديث والآداب بلا مدافعة ، يسرد الأسانيد والمتون ظاهرا فلا يخل بحفظ شىء منها ، متوسط الطبقة فى حفظ فروع الفقه ومعرفة المسائل ، إذ لم يُعْنَ بذلك عنايته بغيره ، فكان أهل شاطبة يفاخرون بأبوى عمر ابن عبد البر وابن عات ، وكان على سَنَن السلف الصالح فى الانقباض ، ونزارة الكلام ، ومتانة الدين ، وأكل الحشف[2] ، ولزوم التقشف ، والتقلل من الدنيا ، والزهد فيها ، والمثابرة على كثير من أفعال البر كالأذان والإمامة وبذل المعروف والتوسع بالصدقات على الضعفاء والمساكين .

وحكى أنه حضر فى جماعة من طلبة العلم لسماع السير على بعض شيوخهم ، فغاب الكتاب أو القارئ بكتابه ، فقال أبو عمر : أنا أقرأ لكم ، فقرأ لهم من حفظه ، وقال أبو عمر عامر بن نذير : لازمته مدة ستة أشهر ، فلم أر أحفظ منه ، وحضرت إسماع الموطأ وصحيح البخارى منه ، فكان يقرأ من كل واحد من الكتابين نحو عشر أوراق عرضاً بلفظه كل يوم عقب صلاة الصبح ، لا يتوقف فى شىء من ذلك ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين : إنه كان آخر الحفاظ للحديث ، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً لا يخل بحفظ شىء منها ، موصوفاً بالدراية والرواية ، غالباً عليه الورع والزهد ، على منهاج السلف ، يلبس الخَشِنَ ، ويأكل الحشف[2] ، وربما أذن فى المساجد ، وله تآليف دالة على سعة حفظه ، مع حظ من النظم والنثر ، وشهد وقعة العقاب[3] التى

---

(١) فى ا « وجملة الحفاظ » .

(٢) الحشف ـ بفتح الحاء والشين جميعاً ـ نوع من التمر ردىء .

(٣) فى ا « وقيعة العقاب »

أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى فى تَحَيُّفِ الروم[١] بلادَهَا حتى استولت عليها ، ففقد حينئذ ولم يوجد حيا ولا ميتاً ، وذلك يوم الإثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة ، ومولده سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، قاله ابن الأبار : وهو ممن أجاز له المذكور فيما رواه أو ألفه ، رحمه الله تعالى ! .

أبو العباس أحمد بن تميم البهراني

ومنهم أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن حَنون ، البهرانى .

من ساكنى إشبيلية ، وأصله من لَبْلَة ، روى عن أبيه وابن الجد وابن زرقون وابن جهور وغيرهم من أعلام الأندلس ، ثم رحل إلى المشرق ، فسمع ببغداد من أبى حفص عمر بن طبرزد ، و بخراسان من المؤيد الطوسى ، و بهَرَاةَ من أبى روح عبد المعز ، و بمرو من عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعانى ، ومن جماعة غير هؤلاء وسمع أيضاً بدمشق من أبى الفضل الحَرَسْتانى وسواه ، و بها توفى قبل العشرين وستمائة ، فيما نقل ابن الأبار عن ابن نقطة ، وقال غيره : إنه مات سنة خمس وعشرين وستمائة .

أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المخزومى

ومنهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد ، المخزومى .

من أهل قُرْطُبة ، و يعرف أبوه بكوزان ، روى عن أبيه وغيره من مشيخة بلده ، ورحل حاجا فلقى بالإسكندرية أبا الحسن بن المقدسى وسمع منه ، وأنشد من لفظه بعض أصحاب ابن الأبار[٢] ، قال : أنشدنى شرف الدين أبو الحسن على بن الفضل[٣] المقدسى ، قال : أنشدتنى تقية[٤] بنت غيث بن على الأرمنازى[٥] لنفسها :

لا خير فى الخمر ، على أنها ... مذكورة فى صفة الجَنَّهْ

لأنها إن خامرت عاقلا ... خامرهُ فى عقله جِنَّه

---

(١) تحيف الروم بلادها : أى انتقاصهم إياها بلداً بعد بلد بالاستيلاء عليها . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(٢) فى ب « بعض أصحاب الآثار »

(٣) فى ا « ابن المفضل »

(٤) فى ا « بقية »

(٥) فى نسخة عند ب « الأرمناوى »

يخاف أن تقذفه من عُـلاً فلا تقى مهجته جُنَّـــه

أبو جعفر أحمد بن محمد الكنانى المرسى

ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن عياش ، الكنانى ، المُرْسِى .

سمع من ابن بَشْكُوال موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى والقعنبى وابن بكير بقراءة محمد بن حَوْط الله ، ورحل إلى المشرق سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، فحج سنة ثمانين بعدها ، وأقام بالحجاز والشام مدة ، ولقى أبا الطاهر الخشوعى بدمشق فسمع منه مقامات الحريرى وأخذها الناس عنه ، ومما أفاد وزاد فى قول الحريرى .

* إذا ماحويت جنى نخلة *

الأبيات ـ قوله :

ولا تأسفنّ على خارج إذا مالحت سنى الداخـل

ولا تكثر الصمت فى معشر وإن زدت عِيًّا على باقِلِ (١)

وسمع من أبى القاسم ابن عساكر السنن للبيهقى ، ومن أبى حفص الميانشى جامع الترمذى ، وقفل إلى الأندلس فى سنة سبع وتسعين ، وحدث بيسير ، وكان يحسن عبارة الرؤيا ، وكُفَّ بصره سنة ثمان وعشرين وستمائة أو نحوها ، وتوفى على إثر ذلك ، ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى !

أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله، الغافقى

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله بن حصن بن أحمد بن حَزْم ، الغافقى .

ويقال فيه : إبراهيم بن حصن بن عبد الله بن حصن .

أندلسى ، سكن دمشق ، وولى الحِسْبَةَ بها ، ويكنى أبا إسحاق ، سمع ببغداد من أبى بكر بن مالك القطيعى وطبقته ، وبدمشق من عبدالوهاب الكلابى ويوسف ابن القاسم الميانجى ، وبمصر من أبى طاهر الذُّهْلى وأبى أحمد الغطريفى ، وله أيضاً سماع بالرملة وأطرابلس والدينور وغيرها من البلدان ، وحدث بيسير ، روى عنه

---

(١) باقل : رجل يضرب به المثل فى العى والفهاهة واللكن . كان بيده غزال ، فسئل : بكم اشتراه ؟ فترك الغزال ، وفتح أصابع يديه جميعاً وأخرج لسانه ، يشير إلى أحد عشر ، فانفلت الغزال .

أبو نصر عبدالوهاب [بن عبدالوهاب][1] بن عبدالله الجيانى[2] من شيوخ عبدالعزيز ابن أحمد الكنانى ، وكان مالكيا ، وقيل : إنه يذهب إلى الاعتزال ، وكان صارما فى الحِسْبَة ، ووليها سنة خمس وتسعين وثلثمائة فى أيام الحاكم العُبَيدى ، وتوفى بدمشق فى ذى الحجة سنة أربع وأربعمائة ، قيل : ثانى عيد الأضحى ، وقيل غير ذلك ، ذكره ابن عساكر ، رحمه الله تعالى !.

قلت : ماسمعت بمالكى معتزلى غير هذا ، ولعله كان مالكيا بالمغرب ، فلما دخل فى خدمة الشيعة حصل منه ماحصل من نسبته لمذهب الاعتزال ، فالله تعالى أعلم .

أبو أمية إبراهيم بن منبه الغافقى

ومنهم أبو أمية إبراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد ، الغافقى .

من أهل المَرِية ، ونزل مُرْسِيَة ، سمع ببلده من ابن شفيع ، وأخذ عنه القراءات ، ومن الحافظ ابن سُكرة وابن رغيبة[3] وعبدالقادر بن الحناط ، وبقُرْطبة من ابن عتاب وابن طريف وأبى بحر الأسدى وأبى مغيث[4] وغيرهم ، ورحل حاجا ، فسمع بمكة من أبى علىّ بن العرجاء أحاديثَ جعفر بن نسطور وغيرها فى شعبان سنة ست وعشرين ، وسمع أيضاً من أبى الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسى ، وقَفَل إلى بلده ، وانتقل بعد الحادثة عليه إلى مُرْسِية ، وولى القضاء والخُطْبة هنالك ، وحَدَّث ، وأخِذَ عنه ، وكان فقيهاً مُشَاوَرا ، وقيل : إن ابن حبيش سمع منه الأحاديث النسطورية ، وأسمع صحيح البخارى آخر الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وكان يحدّث به عن سلطان بن إبراهيم عن كريمة المروزية ، وحكى رحمه الله تعالى عن أبى ذرّ الهروى أنه قال عند موته : عليكم بكريمة فإنها تحمل كتاب البخارى من طريق أبى الهيثم ، رحم الله تعالى الجميع !

---

(١) هذا الاسم لايوجد فى ا
(٢) فى ا « الجبان »
(٣) فى ا « وابن زغبية »
(٤) فى ا « وابن مغيث »

أبو القاسم إسماعيل بن يحيى (بن فورتش) السرقسطى

ومنهم أبو القاسم بن فورتش ، وهو إسماعيل بن يحيى بن عبد الرحمن ، السَّرَقُسْطِى ، وأخوه القاضى محمد بن يحيى ، وكانا جميعاً زاهدين ، لهما رحلة سمعا فيها من أبى ذر الهروى بمكة ، وعادا إلى بلدهما ، وولى محمد منهما القضاء ، وقد لقيهما القاضى الحافظ أبو على بن سُكّرة ولم يسمع منهما ، ويرويان عن أبى عمر الطلمنكى وأبى الحزم بن أبى درهم[1] ، وتوفى أبو القاسم فى نحو الخمسمائة .

أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد القرشى ، العلوى الإشبيلى

ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر ، القرَشى ، العلوى ، الإشبيلى . رحل حاجا ، ودخل العراق والموصل ، وقيد الكثير ورواه ، وسمع من أبى حَفْص المَيَانشى بمكة سنة ٥٧٠ ، وحدث بالموطأ عن أبى الحسن على بن هابيل الأنصارى عن أبى الوليد الباجى ، وحدث أيضاً عن غيره بما دل على أنه كان يخلط ولا يضبط ، وكذلك قال أبو الصبر : كان له فى الموطأ إسناد عال جداً ، فتصفحته فوجدته ينقص منه رجل واحد ، فاستربت[2] فى الرواية عنه بعد تحسين الظن به ، ولم يتنبه أبو الصبر لأن ابن هابيل وغيره من شيوخه مجهولون ، وأبو الصبر ممن روى عن المذكور ، وهو أبو الصبر السبتى ، والله تعالى أعلم بحقيقة حال الرجل .

أبو الروح عيسى بن عبد الله النفزى ، الحميرى ، التاكرنى

ومنهم أبو الروح عيسى بن عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد بن عبد الله ابن إبراهيم بن خليل ، النفزى[3] ، الحميرى ، التاكُرُنِّىُّ .

قال فى تاريخ إربِلَ : كان شاباً متأدباً فاضلا ، قدم مصر ، وله شعر حسن ، وقال الحافظ عبد العظيم المنذرى : أنشدنا المذكور لنفسه :

يا قلبُ مالك لا تفيق من الهوى ... أو ما يقَرُّ بك الزمانَ قرارُ ؟
ألِكُلِّ ذى وجه جميل صبوة ... ولكل عهد سالف تذكار ؟[4]

---

(١) فى ب « أبى الحزم بن درهم »
(٢) استربت : شككت
(٣) فى ب « النقرى » محرفا
(٤) فى ا « ألكل ذى وجه جميل جنة »

وله :

يارب أضحية سوداء حالكة ... لم ترع فى البيد إلا الشمس والقمرا
تخال باطنَهَا فى اللون ظاهرها ... فَهْىَ الغداةَ كزنجىٍّ إذا كفرا

ولد سنة ٥٩٠ بتاكُرُنَّا من بلاد الأندلس ، وهى من قطر[1] قرطبة ، وتوفى بأَرْزَن من ديار بكر سنة ٦٢٩ ، عائداً من آمد ، رحمه الله تعالى !.

ومن بديع شعره :

إن أودَعَ الطرسَ ما وَشّاه خاطره ... أبدى لعينيك أزهاراً وأشجاراً
و إن تهدَّد فيه أو يَعِدْ كرما ... بَثَّ البرية آجالا وأعمارا

وتاكرنا ـ بضم الكاف والراء وتخفيفها ، وشد النون ـ وورد المذكور إربِلَ سنة سبع وعشرين وستمائه ، وله أبيات أجاز فيها أبيات[2] شرف الدين عمر بن الفارض فى غلام اسمه بركات ، قال الأسدى الدمشقى ، ومن خطه نقلت : كنت حاضراً هذه الواقعة بالقاهرة بالجامع الأزهر ، إذ قال ابن الفارض :

بَرَكَاتُ يحكى البدرَ عند تمامه ... حاشاه ، بل شمسُ الضُّحَى تحكيه

فقال أبو الروح ، وأنشدنى ذلك :

هذا الكمال فَقُلْ لمن قد عابه ... حسداً وآية كل شىء فيه
لم تَذْوَ إحدى زهرتيه ، وإنما ... كملت بذاك ملاحة التشبيه
وكأنه رامٍ يُغَلِّق جَفْنَه ... ليصيب بالسهم الذى يرميه[3]

وقال ابن المستوفى فى تاريخ إربل : أنشدنى أبو الروح لنفسه :

أوصيت قلبى أن يفرَّ عن الصِّبَا ... ظنا بأنِّى قد دعوتُ سميعا
فأجابنى لا تخْشَ منى بعد ما ... أفلَتَّ من شَرَك الغرَام وقوعا

(١) فى ا « وهى من نظر قرطبة »

(٢) فى ا « أجاز فيها قول شرف الدين ـ إلخ »

(٣) فى ا « وكأنه قد رام يغلق جفنه » .

حتى إذا نادى الحبيب رأيتـه آوى إليه ملبياً ومطيعاً
كذُبَالة أخمدتها فإذا دنا منها الضرام تعلقته سريعاً

قال : وأنشدنى :

وزَائرٍ زارنى واللَّيْلُ معتكر والطِّيبُ يفضحه والحَلْىُ يشهره
أمسكتُ قلبىَ عنه وهو مُضْطَرب والشوق يبعثه والصَّوْنُ يزجره
فبتُّ أصْدَى إلى من لا يحللنى والورد صاف ولا شىء يكدّره[1]
تراه عينى وكَفِّى لا تلامسه حتى كأنىَ فى المرآة أنظره

قال : وأنشدنى [قال : أنشدنى][2] الإمام أبو عمرو بن غياث الشريشى لنفسه رحمه الله تعالى :

صبوت وهل عار على الحر إن صبا وقيد ثغر الأربعين إلى الصبا[3]
وقالوا مشيب قلت واعجبا لكم أينكر صبح قد تخلل غَيْهَبَا
وليس مشيباً ماترون ، وإنما كميت الصبا لما جرى عاد أشهبا

وتوفى أبو عمرو سنة ٦٢٠ ، عن تسعين سنة

قال ابن المستوفى : وأنشدنى أبو عمرو أيضا لنفسه :

أَوْدِعْ فؤادى حسرة أو دَعِ نَفْسَكَ تؤذى أنت فى أضلعى[4]
أمسك سهام اللحظ أو فارْمها أنت بما ترمى مصاب معى
موقعها القلب وأنت الذى مسكنه فى ذلك الموضع

قال : وأنشدنى قال : أنشدنى مطرف الغرناطى :

أنا صَبٌّ كما تشاء وتهوى شاعر ماجد كريم جواد
سُنَّة سَنَّهَا قديماً جميل وأتى المحدَثونَ مثلى فزادوا

---

(١) فى ا «أصدى إلى من لا يحليني» (٢) سقط مابين المعقوفين من أصل ا
(٣) فى ب «وهل عار على الحب إن صبا» (٤) فى ا « أودع فؤادى حرقا »

قال : وأنشدنى أيضاً المطرف :

وفى فروع الأيك وُرْقٌ إذا ... بَلَّ الندى أعطافَهَا تَسْجَعُ
أو هَزَّها نفحُ نسيمِ الصبا ... شاقَكَ منها غُرَّدٌ شُرَّعُ
كأنما رَيْطَتُهَا مِنْبَرٌ ... وَهْيَ خطيبٌ فوقه مِصْقَعُ [(١)]
إن شَبَّهَا فى طَرَفٍ لوعة ... جرى لها فى طرف مدمع

أخذه من قول عبد الوهاب بن على المالَقِىِّ الخطيب :

كأنَّ فؤادى وطَرْفى مَعاً ... هما طَرَفَا غُصُنٍ أخضرِ
إذا اشْتَعَلَ النار فى جانبٍ ... جرى الماء فى الجانب الآخرِ

نور الدين أبو الحسن علي بن أحمد (ابن حمدون) المالقى ، النحوى

[(٢)] ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الإمام النحوى اللغوى نور الدين أبو الحسن على بن أحمد بن محمد بن حمدون ، الحميرى ، الأندلسى ، المالَقِى [(٣)]

قال شرف الدين الصابونى : أنشدنا المذكور لنفسه سنة ٦٦٧ :

فؤادى بأيدى النائبات مُصَابُ ... وجَفْن لفيض الدمع فيه مَصَابُ
تناءت ديار قد ألفت وجيرة ... فهل لى إلى عهد الوصال إياب
وفارقتُ أوطانى ولم أبلغ المنى ... ودون مرادى أبْحُرٌ وهِضاب
مضى زمنى والشيبُ حل بمفرقى ... وأبعدُ شىء أن يُرَدَّ شباب
إذا مر عمر المرء ليس براجع ... وإن حل شيبٌ لم يُفِدْهُ خضاب
فحل حمام الشيب فى فَرْق لَمَّتِى ... وقد طار عنها للشباب غراب
وكم عِظَةٍ لى فى الزمان وأهله ... و بين فؤادى والقبول حجاب
فدع شَهَوات النفس عنك بمعزلٍ ... فعَذْب الليالى مقتضاه عَذَاب
وسَلِّ فؤادا عن رباب وزينب ... فما القصد منها زينب ورباب

(١) فى ا «وهي خطيب فوقها مصقع»

(٢) هنا يبدأ الجزء الثانى من مطبوعة مصر المرموز لها بالحرف ب

(٣) فى ا « المالـكى »

وأنوى متابا ثم أنقُضُ نيتى فرَبْعُ صلاحى بالفساد خَرَابُ
أقر بتقصيرى وأطمع فى الرضا وما القصد إلا مرجع ومتاب
ويَعْتِبُنى فى العجز خِلٌّ وصاحب وهل نافع فى الجامدات عتاب
أطهر أثوابى وقلبى مدنس وأزعم صدقا والمقال كِذابُ[1]
وفارقت من غَرْبِ البلاد مواطنا فيسقى رُبَا غربِ البلاد سحاب
فبالقلب من نار التشوق حُرْقَة وبالعين من فيض الدموع عُبَابُ
ومابلغ المملوك قصداً ولا مُنًى ولا حُطَّ عن وجه المراد نِقاب
وأخشى سهام الموت تفجأ غَفْلَةً وماسار بى نحو الرسول ركاب
وقلبىَ معمور بحب محمد فمالىَ فى غير الحجاز طِلاب
يحنُّ إلى أوطانه كل مسلم فقدس منها منزل وجناب
فأسعد أيامى إذا قيل هذه منازل من وادى الحمى وقباب
فجسمى بمصر وروحى بطيبة فللروح عن جسمى هناك مَنَابُ
على مثل هذا العجز والعمر منقضٍ تُشَقُّ قلوب لا تشق ثياب
وأرجو ثواباً بامتداحى محمدا وما كل مُثْنٍ فى الزمان يثاب
به أخمدت من قبلُ نيرانُ فارسٍ وحقق من ظبى الفلاة خطاب
وكم قد سقى من كفه الجيشَ فارتوَوْا وكم قد شفى منه العيونَ رُضَابُ
أجيب لما يختار فى حضرة العلا وما كل خلق حيث قال يجاب
فلم تلهه دنياه عن خوف ربه ولا شَغَلَتْهُ عن رضاه كعاب
محمد المختار أعلى الورى ندًى وأكرم مبعوث أتاه كتاب
أتحسب أن تحصى بِعَدٍّ صفاتُهُ وهيهات ما يُحْصِى علاه حساب

---

(١) فى ا « وطهر أثوابى وقلبى مدنس »

ثناء رسول الله خير ذخيرة ... وقد ذل جبار وخيف عقاب
وقد نُصِبَ الميزان والله حاكم ... وذلت لأحكام الإله رقاب
فكل ثناء واجبٌ لصفاته ... فما مدح مخلوق سواه صواب
إليك رسولَ الله أنهى مدائحى ... وإن رجائى راحة وثواب
إذا قيل مَنْ تعنى بمدحك كله ... فأنت إذا خبرت عنه جواب (١)
(فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب)
فأنت أجلُّ العالمين مكانة ... وأكرم مدفون حواه تراب

وله يرثى العز بن عبد السلام :

أمدُ الحياة كما علمت قصير ... وعليك نقَّاد بها و بصير
عجباً لمغتر بدار فنائه ... وله إلى دار البقاء مَصِيرُ
فسليمها للنائبات مُعَرَّض ... وعزيزها بيد الردى مقهور
أيظن أن العمر ممدودٌ له ... والعمر فيه على الردى مقصور

وهى طويلة ، ولم يحضرنى سوى ماذكرته

أبو محمد عبد البر بن فرسان الوادى آشى

ومنهم عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبدالرحمن ، الغسَّانى ، الوادى آشى ، أبو محمد

وله أخبار كثيرة فى الحماسة وعلوّ الهمة

ومن نظمه لما تعمم مخدومُه ابن غانية بعمامة بيضاء ولبس غفارة حمراء على على جبة خضراء :

فديتك بالنفس التى قد ملكتها ... بما أنت مُولِيهاَ من الكرم الغَضِّ
تردَّيْتَ للحسن الحقيقى بهجة ... فصار لها الكلىّ فى ذاك كالبعض

---

(١) فى ا « إذا قيل من يعنى بمدحك كله »

ولما تلألأ نور غُرّتك التى تقسم فى طول البلاد وفى عرض
تلفعتها خضراء أحسن ناظر نَبَتْ عنك إجلالا وذاك من الفرض [١]
وأسدلْتَ حمراء الملابس فوقها بمفرق تاج المجد والشرف المحض
فأصبحْتَ بدراً طالعاً فى غمامة على شَفَقٍ دانٍ إلى خضرة الأرض

وقال رحمه الله تعالى :

أجُبنا ورمحى ناصرى وحسامى وعجزاً وعزمى قائدى وإمامى [٢]
ولى منك بطّاش اليدين غَضَنْفر يحارب عن أشباله ويحامى

وقال رحمه الله تعالى لما أسنَّ يستأذن مخدومه فى الحج والزيارة :

اُمنن بتسريح علىَّ وفعله سبب الزيارة للحطيم ويثرب
ولئن تقوّل كاشح أن الهوى دَرَسَتْ معالمه وأنكر مذهبى
فمقالتى ما إن مللت وإنما عمرى أبى حَمْل النِّجاد ومنكبى [٣]
وعجزت عن أن أستثير كمينها وأشق بالصمصام صدر الموكب

وقال رحمه الله تعالى ، ولا خفاء ببراعته :

ندى مخضلا ذاك الجناح المنمنما وسَقياً وإن لم تشك ياساجعاً ظَمَا [٤]
أعدهن ألحانا على سمع معرب يطارح مرتاحا على القُضْب معجما
وطِرْ غير مقصوص الجناح مرفَّهاً مسوّغ أشتات الحبوب منعما
مُخَلًّى وأفراخاً بوَكْرِك نوّما ألا ليت أفراخى مَعِى كنَّ نوّما

وقال رحمه الله تغالى :

كفى حَزَناً أن الرماح صقيلة وأن الشَّبا رَهْنُ الصدى بدمائه
وان بيَادِقَ الجوانب فَرْزَنَتْ ولم يعد رخ الدست بيت بنائه [٥]

---

(١) فى ا « تلفقتها خضراء »

(٢) فى ا « وعجزى وعزمى قائدى وإمامى »

(٣) فى ا « فمقالتى ما إن ملكت » محرفا . (٤) فى ب « فدى مخضلا »

(٥) هذا من اصطلاح الشطرنج ، والبيدق ، والفرز ، والرخ : أسماء قطع فيه

وكان — رحمه الله تعالى ! — من جِلة الأدباء ، وفحول الشعراء ، وبَرَعَة الكتاب كتب عن ابن غانية الأمير أبى زكريا يحيى بن إسحاق بن محمد بن على المسوفى الميرقى الثائر على منصور بنى عبد المؤمن[١] ، ثم على مَنْ بعده من ذريته إلى أيام الرشيد منهم ، وكان منقطعاً إليه ، وممن صحبه فى حركاته ، وكان آيةً فى بُعد الهمة ، والذهاب بنفسه ، والغناء فى مواقف الحرب ، والجنسيةُ علة الضم ، إذ ابنُ غانية كان غاية فى ذلك أيضا ، ووجَّهه الميرقى المذكور عشية يوم من أيام حروبه إلى المأزق ، وقد طال العراك ، وكاد الناس ينفصلون عن الحرب [إلى أن يبا كروها من الغد ، فلما بلغ الصدر اشتدَّ على الناس][٢] وذَمَّر[٣] أربابَ الحفيظة ، وأنهى إليهم العزم من أميرهم فى الحملة[٤] ، فانهزم عدوُّهم شرَّ هزيمة ، ولم يعد أبو محمد إلا فى آخر الليل بالأسلاب والغنيمة ، فقال له الأمير : وما حملك على ما صنعت ؟ فقال : الذى عملت هو شأنى ، وإذا أردت مَنْ يصرف الناس عن الحرب ويُذْهب ريحهم فانظر غيرى .

وتشاجر له ولد صغير مع تِرْبٍ له من أولاد أميره أبى زكريا فنال منه ولدُ الأمير ، وقال : وما قَدْرُ أبيك ؟ فلما بلغ ذلك أباه خرج مُغْضَباً لحينه ، ولقى ولدَ الأمير المخاطِبَ لولده فقال : حفظك الله تعالى ! لستُ أشك فى أنى خديم أبيك ، ولكنى أحب أن أعرفك بنفسى ومقدارى ومقدار أبيك ، اعلم أن أباك وَجَّهنى رسولا إلى دار الخلافة ببغداد بكتاب عن نفسه ، فلما بلغتُ بغداد أُنزلت فى دار اكتريتْ لى بسبعة دراهم فى الشهر ، وأجرى على سبعة دراهم فى اليوم ، وطُولع بكتابى ، وقيل : مَنِ الميرقى الذى وجَّهه ؟ فقال بعض الحاضرين : هو رجل مغربى ثائر على أستاذه ، فأقمت شهراً ، ثم استدعيت ، فلما دخلت دار الخلافة وتكلمت

(١) فى ب « منصور بن عبد المؤمن » .

(٢) ما بين المعقوفين ثابت فى ب ونسخة عند ا

(٣) ذمر — بالذال معجمة — حض وحث ، ووقع في أصل ا « دمر »

(٤) فى ا « فى الجملة » محرفا .

مع مَنْ بها من الفضلاء وأرباب المعارف والآداب اعتذروا إلى ، وقالوا للخليفة : هذا رجل جُهل مقداره ، فأعِدْتُ إلى محل اكترى لى بسبعين درهما ، وأجرى على مثلها فى اليوم ، ثم استدعيت فودعت الخليفة ، واقتضيت ماتيسر من حوائجه وصدر لى شىء له حظ من صِلَته ، وانصرفت إلى أبيك ، فالمعاملة الأولى كانت على قدر أبيك عند مَنْ يعرف الأقدار ، والثانية كانت على قدرى ، وترجمته رحمه الله تعالى واسعة .

عبد المنعم ابن عمر الوادى آشى

ومنهم عبد المنعم بن عمر الغسانى ، الوادى آشى .

المؤلف ، الرحالة ، المتجول ببلاد المشرق سائحاً ، صاحب المؤلفات الكثيرة التى منها « جامع أنماط السائل ، فى العروض والخطب والرسائل » .

ومن نظمه [قولُه رحمه الله !] :

ألا إنما الدنيا بحار تلاطمت فما أكثر الغرقى على الجَنَبَات
وأكثر من لاقيت يُغْرِق إلفه وقَلَّ فتًى ينجى من الغمرات (1)

توفى سنة ٦٠٣ ، رحمه الله تعالى ! .

أبو العباس أحمد بن مسعود القرطبي الخزرجى

ومنهم أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد ، القرطبى ، الخزرجى .

كان إماماً فى التفسير والفقه والحساب والفرائض والنحو واللغة والعروض والطب ، وله تآليف حسان ، وشعر رائق ، فمنه قوله رحمه الله تعالى :

وفى الوَجَنَات مافى الروض لكن لرونَقِ زهرها معنًى عجيبُ (2)
وأعجب ماالتعجُّبُ عنه أنى أرى البستان يحمله قضيب

وتوفى رحمه الله تعالى سنة ٦٠١ .

أبو العباس أحمد بن عمر

ومنهم أبو العباس القرطبى ، صاحب « المفهم ، فى شرح مسلم » وهو أحمد

---

(١) الغمرات : جمع غمرة ، وهى الشدة ، وفى مثل « غمرات ثم ينجلين »
(٢) الوجنات : جمع وجنة ـ بالفتح ، ويثلث ـ وهى الخد

ابن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصارى ، المالكى ، الفقيه ، المحدث ، المدرس ، الشاهد بالإسكندرية .

ولد بقُرْطُبة سنة ٥٧٨ ، وسمع الكثير هنالك ، ثم انتقل إلى المشرق ، واشتهر وطارصيته ، وأخذ الناس عنه ، وانتفعوا بكتبه ، وقدم مصر ، وحدث بها ، واختصر الصحيحين ، وكان بارعاً فى الفقه والعربية ، عارفاً بالحديث ، وممن أخذ عنه القرطبى صاحب التذكرة ، ومن تصانيفه رحمه الله تعالى « المفهم ، فى شرح مسلم » وهو من أجلّ الكتب ، ويكفيه شرفاً اعتماد الإمام النووى رحمه الله تعالى [عليه] فى كثير من المواضع ، وفيه أشياء حسنة مفيدة ، ومنها اختصاره للصحيحين كامر ، وله غير ذلك وتوفى رحمه الله تعالى بالإسكندرية رابع ذى القعدة سنة ٦٥٦ ، وكان يعرف فى بلاده بابن المزين ، وله كتاب « كشف الإقناع ، عن الوَجْد والسماع » أجاد فيه وأحسن وكان يشتغل أولا بالمعقول ، وله اقتدار على توجيه المعانى بالاحتمال .

قال الشيخ شرف الدين الدمياطى : أخذت عنه ، وأجاز لى مصنفاته ، رحمه الله تعالى ! وحدث بالإسكندرية وغيرها ، وصنف غير ماذكرناه ، وكان إماما عالما جامعاً لمعرفة الحديث والفقه والعربية وغيرها .

أبو أحمد جعفر ابن عبد الله الخزاعى

ومنهم العارف الكبير ، الولى الصالح الشهير ، أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبُونَة ، الخزاعى ، الأندلسى .

أحد[1] الأعلام المنقطعين المقربين أولى الهداية ، كان ـ رضى الله تعالى عنه ونفعنا به ! ـ كثير الأتباع ، بعيد الصيت ، فَذًّا شهيراً[2] .

قال الحافظ ابن الزبير : هو أحد الأعلام المشاهير فضلا وصلاحاً ، قرأ ببَلَنْسِيَة وتفقه ، وحفظ نصف المُدوَّنة ، وأقرأها ، وكان يؤثر التفسير والحديث والفقه على

---

(١) فى ا « أخذ الأعلام » محرفا .

(٢) فذا : أراد منفردا بما فيه من الصفات ، لانظير له

غيرها ، أخذ عن أبوى الحسن بن النعمة وابن هذيل ، وحج ، ولقى فى رحلته من الأندلس جِلَّةً أكبرهم الولى الكبير سيدى أبو مدين شعيب ، أفاض الله تعالى علينا من أنواره ! وانتفع به ، ورجع عنه بعجائب ، فشهر بالعبادة ، وتبرك الناس به ، فظهرت عليه بركته ، توفى رحمه الله تعالى فى شوال سنة ٦٢٤ ، وعاش نيفاً وثمانين سنة .

وله ترجمة فى الإحاطة ملخصها ماذكرناه .

محمد ابن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي الفقيه

ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب ، الخزرجى ، الأنصارى ، الشاطبى ، الفقيه ، القاضى ، الصَّدْر ، المتفنن ، المحصل ، المجيد .

له علم محكم ، وعقد صحيح مُبْرم ، رحل إلى المشرق وحج ، وكانت رحلته بعد تحصيله ، فزاد فضلا إلى فضل ، ونُبلا إلى نبل ، وكان متثبتاً فى فقهه ، لايستحضر من النقل الكثير ، ولكنه يستحضر مايحتاج إليه ، وكان له علم بالعربية وأصول الفقه ، ومشاركة فى أصول الدين ، له شرح على الجُزُولية ، وكان أبوه قاضياً ، وبيتهم بيت قضاء وعلم وسؤدد متوارث ومجد مكسوب ومنسوب ، ثم ولى قضاء بجَايَة ، فكان فى قضائه على سَنَن الفضلاء وطريق الأولياء العقلاء بالحق مع الصدق ، معارضاً للولاة ، وكان يرى أن لا يقدم الشهود إلا عند الحاجة ، وأما إن حصل مَنْ تحصُل به الكفاية فلا يقدم غيره ، ويرى أن الكثرة مفسدة ، وقد طلب منه الملك أن يقدم رجلا من أهل بجاية ، فقال له مشافهة : إن شئتم قدمتموه وأخرتمونى[1] وكان إذا جرى الأمر فى مجرى الشهادة وما قاله القاضى بن العربى أبو بكر وغيره من أنها « قبول قول الغير على الغير بغير دليل » يرى أن هذا من الأمر العظيم الذى لايليق أن يمكن منه إلا الآحاد الذين تبيَّن فضلهم فى الوجود ، وكان يرى

(١) فى ب « قدمتموه وأخرتموه »

أن جنايات الشاهد إنما هى فى صحيفة مَنْ يقدمه من باب قوله عليه الصلاة والسلام «من سن سنة حسنة ، ومن سن سنة سيئة» وقد سئل: مَنْ أولياء الله ؟ فقال : شهود القاضى ، لأنهم لا يأتون كبيرة ، ولا يواظبون على صغيرة ، و إن كانت الشهادة على هذه الصفة فلا شيء أجل منها ، و إن كانت خطة لا صفة فلا شيء أخس[1] منها ، ولما كانت واقعة ابن مزين بطنجة عرض عليه أهلُها أن يتقدم وأن يبايعوه ، فقال : والله لا أفسد دينى ، ولما توفى عجز القاضى الذى تولى بعده عن سلوك مَنْحَاه ، واقتفاء سَنَنه الذى اقتفاه ، قال هذا كله بمعناه و بعضه بحروفه الغبرينىّ فى « عنوان الدراية فى علماء بجاية » .

محمد بن يحيى اللبسى، القاضى

ومنهم محمد بن يحيي الأندلسى ، اللبسى – بلام فموحدة فسين – قاضى القضاة ، أخذ عن الحافظ ابن حجر ، ونوَّه به عند الأشراف ، حتى ولاه قضاء المالكية بحماة ، وسار سيرة السلف الصالح ، ثم حنق[2] على نائبها فى بعض الأمور ، وسافر إلى حلب مظهراً إرادة السماع على حافظها البرهان .

ووصفه ابن حجر فى بعض مجاميعه بقوله : الشيخ ، الإمام ، العالم ، العلامة فى الفنون ، قاضى الجماعة . وقال : إنه إنسان حسن إمام فى علوم منها الفقه والنحو وأصول الدين ، يستحضر علوماً كأنها بين عينيه ، ووصفه أيضاً بعلامة دهره ، وخلاصة عصره ، وعين زمانه ، و إنسان أوانه ، جامع العلوم ، وفريد كل منثور ومنظوم ، قاضى القضاة ، لا زالت رايات الإسلام به منصورة ، وأعلام الإيمان به منشورة ، ووجوه الأحكام الشرعية بحسن نظره محبورة[3] ، ولد سنة ٨٠٦ ، وتوفى ببرُسًّا من بلاد الروم أواخر شعبان سنة ٨٨٤[4] ، قاله السخاوى «فى الضوء اللامع» .

أبو عبد الله ابن الحكيم الرندى ، الوزير

ومنهم الوزير الشهير أبو عبد الله بن الحكيم ، الرندى ، ذو الوزارتين .

---

(١) فى ا « وإن خطة لا صفة ولا شيء أحسن منها » محرفا تحريفا مفسداً

(٢) فى ب « ثم حمق على نائبها »

(٣) فى ا « مجبورة »

(٤) فى ا « سنة ٨٤٠ »

رحل إلى مصر والحجاز والشام ، وأخذ الحديث عن جماعة ، وقد ترجمناه فى باب مشيخة لسان الدين عند تعرضنا لذكر ابنه الشيخ أبى بكر بن الحكيم ، ولا بأس أن نزيد هنا ما ليس هنالك ، فنقول : إن من مشايخه برُنْدَة الشيخ الأستاذ النحوى أبا الحسن على بن يوسف العبدوى السفاح ، أخذ عنه العربية ، وقرأ عليه القرآن بالروايات السبع ، وأخذ عن الخطيب بها أبى القاسم بن الأيسر ، وأخذ ـ رحمه الله تعالى ! ـ عن جماعة[١] من أعلام الأندلس ، وأخذ فى رحلته عن الجِلّة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر[٢] ، فمن شيوخه الحافظ أبو اليمن بن عساكر ، لقيه بالحرم الشريف ، وانتفع به ، وأكثر من الرواية عنه ، والشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرّانى المعروف بابن هبة الله ، والشيخ الشرف أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطى بن الإمام الجزائرى جزائر العرب[٣] نزيل بغداد والشيخ أبو الصفاء خليل بن أبى بكر [المرادى] الحنبلى ، لقيه بالقاهرة ، والشيخ رضى الدين أبو بكر القسمطينى ، والشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن ابن خلف الدمياطى إمام الديار المصرية فى الحديث وحافظها ومؤرخها ، والشهاب ابن الخيمى ، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التى أولها :

يامطلباً ليس لى فى غيره أرَبُ إليكَ آلَ التقصّى وانتهى الطّلَبُ[٤]

وفيها البيت المشهور الذى وقع النزاع فيه :

يابارقاً بأعالى الرقْمَتَيْنِ بدا لقد حكَيْتَ ولكن فَاتَكَ الشَّنَبُ

والشيخ جمال الدين أبو صادق محمد بن يحيى القرشى ، ومن تخريجه «الأربعون المروية بالأسانيد المصرية» وسمع الحلبيات من ابن عماد الحرانى والشيخ أبى الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة[٥] ، ومولده سنة ٥٩٨ ، وزينب بنت الإمام أبى محمد عبد اللطيف

(١) فى ا «عن جملة من أعلام الأندلس»

(٢) فى ا «الذين تضيق عن أمثالهم العصور»

(٣) فى ا «جزائر المغرب»

(٤) فى ب «إليك آل التقصى»

(٥) فى ا ونسخة عند ب «خطيب الجيزة»

ابن يوسف البغدادى ، وتكنى أم الفضل ، وسمعت من أبيها ، ومن أشياخ ذى الوزارتين بن الحكيم المذكور الملك الأوحد يعقوب بن الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، والشيخ عبد الرحمن ابن سليمان بن طرخان وأخوه محمد بن سليمان ، فى طائفة كبيرة من مشايخ مصر والشام والعراق وغيرها من البلاد يطول تعدادهم ، وأخذ ببجاية عن خطيبها أبى عبد الله بن رحيمة الكنانى ، و بتونس عن قاضيها أبى العباس بن الغماز البَلَنْسى وأخذ العربية عن قدوة النحاة أبى الحسين عبيد الله[1] بن أحمد بن عبيد الله بن أبى الربيع القرشى .

ومن شعر ذى الوزارتين بن الحكيم المذكور قوله :

هل إلى رَدِّ عشيات الوصال	سببٌ أم ذاك من ضَرْب المحال
حالة يَسْرى بها الوهم إلى	أنها تثبت برأ باعتلال
وليال ماتبقى بعدها	غير أشواقى إلى تلك الليال
إذ مَجال الوصل فيها مسرحى	ونعيمى آمر فيها وَوَال
ولحالات التراضى جولة	مرحَتْ بين قبول واقتبال
فبوادى الْخَيْفِ خوفى مُسْعد	وبأكناف منًى أسنى موال
لست أنسى الأنس فيها أبدا	لا ولا بالعذل فى ذاك أبال
وغزال قد بدا لى وجهُه	فرأيت البدر فى حال الكمال
ما أمالَ التيهُ من أعطافه	لم يكن إلا على خصل اعتدال
خُصَّ بالحسن فما أنت ترى	بعده للناس حظا فى الجمال
مَنْ تسلَّى عن هواه فأنا	بسواه عن هواه غير سال
فلئن أتعبنى حبى له	فلكم نلت به أنعم حال

(١) فى ا « عبد الله »

إذ لآلى جيده من قبلى ووشاحاه يمينى وشمال

خلف النوم لى السهدَ به وترامى الشخصُ لاطيف الخيال

فتداوى بلَماه ظمئى مزجَك الصهباء بالماء الزلال (١)

أو إشادات بناء الملك الأوحد الأسمى الهمام المُتعَال

ملك إن قلت فيه مَلَكاً لم تكن إلا محقا فى المقال

أيد الإسلام بالعدل فما إن ترى رَسْماً لأصحاب الضلال

ذو أيادٍ شملت كل الورى ومعال يالها خير معال (٢)

همة هامت بأحوال التقى وصفات بالجلالات حوال

وقف النَّفْسَ على إجهادها بين صوم وصلاة ونوال

وهى طويلة ، ومنها :

أيها المولى الذى نعماؤه أعجزت عن شكرها كُنْهَ المقال (٣)

ها أنا أنشدكم مهنئاً من بديع النظم بالسحر الحلال

فأنا العبد الذى حُبُّكم لم يزل والله فى قلبى وبال

أورقَتْ روضة آمالى بكم مذ تولاَّها الرَّباب المتوال

[واقتنيت الجاه من خدمتكم فهى ماأذخره من كنزمال]

ومنها :

يا أمير المسلمين هذه خدمة تنبىء عن أصدق حال (٤)

هى بنت ساعة أوليلة سهلت بالحب فى ذاك الجلال

ماعليها إذ أجادت مَدْحَهَا من بعيد الفهم يُلْغيها وقال

فهى فى تأدية الشكر لكم أبداً بين احتفاء واحتفال

(١) اللمى : أصله سمرة فى الشفة ، وأراد هنا رضاب الفم ، و « مزجك » ينتصب على المفعولية المطلقة ، وهو المصدر التشبيهى : أى الذى يراد به التشبيه ، والصهباء : الخمر .

(٢) وقع فى ا « ومعان يالها غير معال » محرفا

(٣) فى ا « المولى الذى نعماكم »

(٤) فى ا « تنبىء عن صادق حال »

وكتب رحمه الله تعالى يخاطب أهله من مدينة تونس :

حى حَيِّ بالله ياريح نجد ... وتحمَّلْ عظيم شوقى ووجدى[1]
وإذا ما بَثَثْتَ حالى فبلِّغ ... من سلامى لهم على قدر وُدِّى
ماتناسيتهم وهل فى مغيبى ... هم نسونى على تطاول بعدى[2]
بىَ شوق إليهمُ ليس يُعْزَى ... لجميل ولا لسكان نجد[3]
يانسيم الصَّبا إذا جئت قوما ... ملئت أرضهم بشِيحٍ ورنْدِ
فتلطف عند المرور عليهم ... وحقوقاً لهم على فأدِّ
قل لهم قد غدوت من وجدهم فى ... حال شوق لكل رند وزند
وإن استفسروا حديثى فإنى ... باعتناء الإله بُلِّغْتُ قصدى
فله الحمد إذ حَبَانى بلطف ... عنده قلَّ كلُّ شكرٍ وحمد

وافتتح مخاطبته لأخيه الأكبر أبى إسحاق إبراهيم بقصيدة أولها :

ذكر اللِّوَى شوقاً إلى أقماره ... فقَضَى أسًى أو كاد من تذكاره
وعلا زفير حريق نار ضلوعه ... فرمى على وجناته بشَراره
لو كنت تُبْصر خطه فى خده ... لقرأت سر الوجد من أسطاره
ياعاذليه أقصِرُوا فلربما ... أفضى عتابكم إلى إضراره[4]
إن لم تعينوه على بُرَحائه ... لاتنكروا بالله خلع عذاره
ما كان أكتمه لأسرار الهوى ... لو أن جند الصبر من أنصاره
ماذنبُه والبَيْن قطَّع قلبه ... أسفاً وأذكى النار فى أعشاره
بخل اللوى بالساكنيه وطيفهم ... وحديثه ونسيمه ومزاره
يابرق خذ دمعى وعرج باللوى ... فاسفحه فى باناته وعَرَاره

---

(١) فى ا « حى حسبى بالله ياريح نجد »

(٢) فى ا « قد نسونى على تطاول بعدى »

(٣) جميل : أراد به جميل بن معمر العذرى صاحب بثينة

(٤) فى ا « ياعاذليه أقصروا فلشدما »

وإذا لقيت بها الذى بإخائه ... ألقى خطوب الدهر أو بجواره

فاقْرَ السلام عليه قَدْرَ محبتى ... فيه وترفيعى إلى مقداره

والْمُمْ بسائر إخوتى وقرابتى ... مَنْ لم أكن لجوارهم بالكاره

مامنهمُ إلا أخ أو سيد ... أبداً أرى دأبى على إكباره

فابْثُثْ لذاك الحى أنَّ أخاهم ... فى حفظ عهدهم على استبصاره

وقال رحمه الله تعالى فى غرض كلفه سلطانه القولَ فيه :

ألا واصِلْ مواصلة العقار ... ودَعْ عنك التخلق بالوقار

وقم واخلع عِذارك فى غزال ... يحق لمثله خلع العذار

قضيبٌ مائس من فوق دِعْصٍ ... تعمم بالدجى فوق النهار(١)

ولاح بخده ألف ولام ... فصار مُعَرَّفاً بين الدرارى

رمانى قاسم والسين صاد ... بأشفار تنوب عن الشِّفار(٢)

وقد قسمت محاسن وجنتيه ... على ضدين من ماء ونار

فذاك الماء من دَمْعى عليه ... وتلك النار من فرط استعارى

عجبت له أقام بربع قلبى ... على ماشَبَّ فيه من الأُوَار

ألفت الحب حتى صار طبعاً ... فما أحتاج فيه إلى ادكار

فمالى عن مذاهبه ذهاب ... وهذا فيه أشعارى شعاوى

وقال العلامة ابن رشيد فى «ملء العيبة» : لما قدمنا المدينة سنة ٦٨٤(٣) كان معى رفيقى الوزير أبو عبد الله بن أبى القاسم بن الحكيم ، وكان أرمد ، فلما دخلنا ذا الحُلَيفة أو نحوها نزلنا عن الأكوار ، وقوى الشوق لقرب المزار ، فنزل وبادر إلى المشى

---

(١) القضيب : الغصن ، شبه قده به ، والدعص ـ بالكسر ـ كثيب الرمل ، شبه به ردفه ، وأراد بتعممه بالدجى شعره ، وأراد بالنهار وجهه .

(٢) الأشفار : أهداب العين ، والشفار ـ بالكسر ـ جمع شفرة ، وهى نصل السكين ونحوها .

(٣) فى نسخة عند ب « سنة ٦٧٤ »

على قدميه احتساباً لتلك الآثار، وإعظاماً لمن حل تلك الديار، فأحس بالشفاء، فأنشد لنفسه فى وصف الحال قوله :

ولما رأينا من ربوع حبيبنا ... بيثرب أعلاما أثرن لنا الحُبّا
وبالترب منها إذ كحلنا جفوننا ... شفينا فلا بأساً نخاف ولا كربا
وحين تبدّى للعيون جمالُها ... ومن بعدها عنا أديلت لنا قربا
نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة ... لمن حَلّ فيها أن نُلم به ركبا
نسح سجال الدمع فى عَرَصَاتها ... ونلثم من حُبٍّ لواطئه التربا[1]
وإن بقائى دونه لخسارة ... ولو أن كفى تملأ الشرق والغربا
فيا عجباً ممن يحب بزعمه ... يقيم مع الدعوى ويستعمل الكتبا
وزلّات مثلى لاتعدد كثرة ... وبعدى عن المختار أعظَمُها ذنبا

وخط الوزير ابن الحكيم فى غاية الحسن، وقد رأيته مراراً، وملكت بعض كتبه، ونثره ــ رحمه الله تعالى! ــ أعلى من شعره كما نبه عليه لسان الدين فى الإحاطة ومن نثره فى رسالة طويلة كتبها عن سلطانه، ماصورته : وقد تقرر عند الخاص والعام، من أهل الإسلام. واشتهر فى آفاق الأقطار، اشتهار الصباح فى سواد الظلام. أنا لم نزل نبذل جهدنا فى أن تكون كلمة الله هى العليا، ونَسْمَح فى ذلك بالنفوس والأموال رجاء ثوابِ الله لا لعَرَض الدنيا. وأنا ما قصرنا فى الاستنفار والاستنصار، ولا أقصرنا عن الاعتضاد[2] بكل من أملنا معاملته والاستظهار. ولا اكتفينا بمُطَوّلات الرسائل وبنات الأرسال حتى اقتحمنا بنفسنا لُجَجَ البحار، فسمحنا بالطارف من أموالنا والتلاد، وأعطينا رجاء نصرة الإسلام موفورَ الأموال والبلاد، واشترينا بما أنعم الله به علينا ما فرض الله على كافة أهل الإسلام من

---

(١) فى ا « نسح سجال الدمع فى عرصاته » ونسح : نسيل، والسجال : جمع سجل، وهو الدلو، وأراد الدمع الغزير، وعرصات الدار : أفنيتها.

(٢) الاعتضاد : الاستعانة، ووقع فى ا « الاعتقاد ... من الاستظهار »

الجهاد ، فلم يكن بين تلبية المدعوّ وزهده ، ولا بين قبوله ورده ، إلا كما يحسو الطائر ماء الثماد ، ويأبى الله أن يَكِل نُصْرَة الإسلام بهذه الجزيرة إلى سواه ، ولا يجعل فيها شيئا[1] إلا لمن أخلص لوجهه الكريم عَلانيته ونَجْواه ، ولما أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغريبة إلى مُناويه ، وبقى المسلمون يتوقعون حادثاً ساءت ظنونُهم لمباديه ، ألقينا إلى الثقة بالله تعالى يدَ الاستسلام ، وشمرنا عن ساعد الجد فى جهاد عَبَدَة الأصنام ، وأخذنا بمقتضى قوله تعالى (وأنفقوا فى سبيل الله) أخذ الاعتزام ، فأمَدَّنا الله تعالى فى ذلك بتوالى البشائر ، ونصرنا بألطاف أغنى فيها خلوصُ الضمائر عن قود العساكر[2] ، ونفَّلنا على أيدى قوّادنا ورجالنا من السَّبَايا والغنائم ما غدا ذكره فى الآفاق كالمثل السائر ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، وكيف يُحْصيها المحصى أو يحصرها[3] الحاصر ، وحين أبدت لنا العناية الربانية وجوه الفتح سافرةَ المحيّاَ ، وانتشقنا نسائم النصر الممنوح عَبِقَة الرَّيَّا ، استخرنا الله تعالى فى الغزو بنفسنا ونعم المستخار ، وكتبنا بما قد علمتم إلى ما قرب من أعمالنا بالحضِّ على الجهاد والاستنفار ، وحين وافى مَنْ خفَّ للجهاد من الأجناد والمطوعين ، وغَدَوْا بحكم رغبتهم فى الثواب على طاعة الله مجتمعين ، خرجنا بهم ونصرُ الله تعالى أهدى دليل ، وعناية الله تعالى بهذه الفئة المفردة من المسلمين تقضى بتقريب البعيد من آمالنا وتكثير القليل ، ونحن نسأل الله تعالى أن يحملنا على جادّة الرضا والقَبُول ، وأن يرشدنا إلى طريق تُفْضِى إلى بلوغ الأمنية والمأمول .

وهذه رسالة طويلة سُقْنا بعضها كالعنوان لسائرها

ونال ابن الحكيم — رحمه الله تعالى ! — من الرياسة والتحكم فى الدولة ما صار كالمثل السائر ، وخدمَته العلماء الأكابر ، كابن خميس وغيره ، وأفاض عليهم سجال

---

(١) فى ا « ولا يجعل فيها سببا »

(٢) كذا فى ا وأصل ب ، وفى نسخة عند ب « عن وفود العساكر »

(٣) فى ا « ويحصرها الحاصر »

خيره ، ثم ردت الأيام منه ما وهبت ، وانقضت أيامه[١] كأن لم تكن وذهبت ، وقتل يوم خُلع سلطانه ، ومُثِّل به سنه ٧٥٨[٢] ، رحمه الله تعالى ! وانتهب من أمواله وكتبه وتحفه مالا يعلم قدره إلا الله تعالى ، أثابه الله تعالى بهذه الشهادة بجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم .

أبو محمد نجيب الدين عبد العزيز بن الحسن اللخمى

ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الحافظ نجيب الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الأمير القائد أبى على الحسن بن عبد العزيز بن هلال ، اللخمى ، الأندلسى

ولد سنة ٥٧٧ تقريباً ، ورحل فسمع بمكة من زاهر بن رستم ، و ببغداد من أبى بكر أحمد[٣] بن سكينة وابن طبرزد وطائفة ، و بواسط من أبى الفتح بن المندانى[٤] و بأصبهان من عين الشمس الثقفية وجماعة ، و بخراسان من المؤيد الطوسى وأبى روح وأصحاب الفراوى وهذه الطبقة ، وخطه مليح مغربى فى غاية الدقة . وكان كثير الأسفار ، دينا متصوّفا كبير القدر ، قال الضياء فى حقه : رفيقنا وصديقنا ، توفى بالبصرة عاشر رمضان سنة ٦١٧ ، ودفن إلى جانب قبر سَهْل التُّسْترى رضى الله تعالى عنه ! وما رأينا من أهل المغرب مثله ، وقال ابن نقطة : كان ثقة فاضلا ، صاحب حديث وسنة ، كريم الأخلاق ، وقال مفضل القرشى : كان كثير المروءة غزير الإنسانية ، وقال ابن الحاجب : كان كيس الأخلاق ، محبوب الصورة ، لين الكلام ، كريم النفس ، حلو الشمائل ، محسناً إلى أهل العلم بماله وجاهه ، وقيل : إنه أوصى بكتبه للشرف المُرْسِى ، رحمه الله تعالى !

محمد بن عبد الله (ابن العربى) حفيد القاضى أبى بكر

ومنهم محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد ، أبو بكر بن العربى الإشبيلى ، حفيد القاضى الحافظ الكبير أبى بكر بن العربى

قرأ لنافع على قاسم بن محمد الزقاق صاحب شريح ، وحج فسمع من السِّلَفى

---

(١) فى ب « وانتقضت أيامه » .

(٢) فى ا ونسخة عندب « سنة ٧٠٨ »

(٣) فى ا « من أبى أحمد بن سكينة »

(٤) فى ب « ابن الميدانى »

وغيره ، ثم رحل بعد نيف وعشرين سنة إلى الشام والعراق ، وأخذ عن عبدالوهاب ابن سكينة وطبقته ، ورجع فأخذوا عنه بقرطبة و إشبيلية ، ثم سافر سنة ٦١٢[1] ، وتصوف وتعبد ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٦١٧ . قاله الذهبى فى تاريخه الكبير .

يحيى ابن عبد العزيز (ابن الجزار)

ومن المرتحلين من الأندلس يحيى بن عبد العزيز ، المعروف بابن الجزّار[2] ، أبو زكريا ، القرطبى

سمع من العتبى وعبد الله بن خالد ونظرائهما من رجال الأندلس ، ورحل فسمع بمصر من المُزَنى والربيع بن سليمان المؤذن ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن ميمون وعبد الغنى بن أبى عقيل وغيرهم ، وسمع بمكة من على بن عبد العزيز ، وكانت رحلته ورحلة سعيد بن عثمان الأعناقى وسعيد بن حميد وابن أبى تمام واحدة ، وسمع الناس من يحيى المذكور مختصر المزنى ورسالة الشافعى وغير ذلك من علم محمد بن عبدالله بن عبد الحكم ، وكان يميل فى فقهه إلى مذهب الشافعى ، وكان مُشاوَرًا مع عبيد الله بن يحيى وأضرابه ، وحدث عنه من أهل الأندلس محمد بن قاسم وابن بشير[3] وابن عبادة وغير واحد ، ولم يسمع منه ابنه محمد لصغره ، وتوفى سنة ٢٩٥ ، رحمه الله تعالى ورضى عنه !

أبو بكر جمال الدين محمد ابن أحمد الشريشى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العامل [الكامل] الزاهد الورع ، العلامة جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله ، البكرى ، الشريشى ، المالكى

كان من أكابر الصالحين المتورعين ، ومولده سنة ٦٠١ بشَرِيش ، وتوفى برباط الملك الناصر بسفح قاسيون سنة ٦٨٥ فى ٢٤ رجب ، ودفن قُبالة الرباط ، وله المصنفات المفيدة ، تولى مشيخة الصخرة بحرم القدس الشريف ، وقدم دمشق ، وتولى مشيخة الرباط الناصرى ، فلما توفى قاضى القضاة

(١) كذا فى أصلي ا ، ب ، وفى نسخة عند ب « سنة ٦١٦ »

(٢) فى ب « المعروف بابن الخراز »

(٣) كذا في نسخة عند ب ، وفى أصل ا « وابن بشر » وفى أصل ب « محمد ابن قاسم بن بشير »

جمال الدين المالكى ولوه مشيخة المالكية بدمشق ، وعرضوا عليه القضاء فلم يقبل ، و بقى فى المشيخة إلى أن توفى ، رحمه الله تعالى ونفعنا به و بأمثاله ! آمين .

أبو بكر بن محمد بن على الجيانى المحدث

ومن الراحلين من الأندلس الفقيهُ الصالح أبو بكر بن محمد بن على بن ياسر ، الجيَّانى ، المحدث الشهير

ذكره ابن السمعانى وغيره ، سافر الكثير ، وورد العراق ، وطاف فى بلاد خراسان ، وسكن بَلْخَ ، وأكثر من الحديث ، وحصَّل الأصول ، ونسخ بخطه مالا يدخل تحت حَصْر ، قال ابن السمعانى : وله أنس ومعرفة بالحديث ، لقيته بسمرقند ، وكان قدمها سنة ٥٤٩ مع جماعة من أهل الحجاز لدَيْن له عليهم ، وسمعت منه جزأ خرَّجه[1] من حديث يزيد بن هرون مما وقع له عالياً ، وجزأ صغيراً من حديث أبى بكر بن أبى الدنيا ، وأحاديث أبى بكر الشافعى فى أحد عشر جزأ المعروف بالغَيْلاَنيات بروايته عن ابن الحصين[2] عن ابن غيلان [عنه][3] ، وكان مولده بجيَّان سنة ٤٩٣ [أو فى التى بعدها ، الشك منه ، ثم لقيته بنسَفَ فى أواخر سنة خمسين][3] ولم أسمع منه شيئا ، ثم قدم علينا فى بخارى فى أوائل سنة إحدى وخمسين وسمعت من لفظه جميع كتاب الزهد لهَنَّاد بن السَّرِى الكوفى بروايته عن أبى القاسم سهل بن إبراهيم المسجدى عن الحاكم أبى عبد الرحمن محمد بن أحمد الشاذياخى عن الحاكم أبى الفضل محمد بن الحسين الحدّادى عن حماد بن أحمد السلمى عن مصنفه ، وأخبرنا الجيَّانى بسمرقند أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن محمد ابن الحصين الكاتب ببغداد ، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد [بن إبراهيم بن غيلان البزار ، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعى ، أخبرنا محمد بن مسلمة][4] أنبأنا يزيد بن هرون ، أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صُهَيب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة

(١) فى ا « جزءاً أخرجه » (٢) فى ب « عن أبي الحصين »
(٣) مابين المعقوفين ساقط من ا
(٤) مابين هذين المعقوفين ساقط من ب ، وفيها «أبو طالب محمد بن محمد بن سلمة»

وأهل النار النار ناداهم منادٍ : ياأهل الجنة ، إن لـكم عند الله موعداً لم تروه ، قالوا : وماهو ؟ ألم يثقل موازيننا و يبيض وجوهنا و يدخلنا الجنة و يُنْجِنا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ماأعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه» ثم تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

وقال ابن السمعانى أيضا : وأخبرنا الجيَّانى المذكور بسمرقند ، أنبأنا هبة الله ابن محمد بن عبد الواحد ببغداد ، أنبأنا أبو طالب بن غيلان ، أنبأنا أبو بكر الشافعى، أنبأنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى ، أنبأ محمد بن حسان ، أنبأنا مبارك بن سعيد ، قال : أردت سفراً ، فقال لى الأعمش : سَلْ ربك أن يرزقك صحابة صالحين ، فإن مجاهداً حدثنى قال : خرجت من واسط فسألت ربى أن يرزقنى صحابة ، ولم أشترط فى دعائى ، فاستويت أنا وهم فى السفينة فإذا هم أصحاب طَنَابير .

وقال ابن السمعانى أيضاً : أخبرنا أبو بكر الجيانى المغربى بسمرقند ، سمعت الإمام أبا طالب إبراهيم بن هبة الله ببلخ يقول : قرأت على أبى يعلى محمد بن أحمد العبدى بالبصرة قال : قرأت على شيخنا أبى الحسين بن يحيى فى كتاب «العين» بإسناده إلى الخليل بن أحمد أنه أنشد قول الشاعر :

إن فى بيتنا ثلاثَ حَبَالَى ... فوددنا أن قد وَضَعْنَ جميعا

زوجتى ثم هرتى ثم شاتى ... فإذا ما وضعن كنّ ربيعا

زوجتى للخبيص ، والهر للفا ... ر ، وشاتى إذا اشتهينا مجيعاً[1]

قال أبو يعلى : قال شيخنا ابن يحيى : وذكر عن الخليل بن أحمد فى العين أن المجيع أكل التمر باللبن ، انتهى .

---

(١) الخبيص - بفتح الخاء - الحلواء المخبوصة : أى المخلوطة . والمجيع - بفتح الميم - تمر يعجن بلبن ، وقيل : لبن يشرب علي التمر .

أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب المرى

ومنهم أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد ابن حزم ، الأندلسى ، المرى

ذكره الحُمَيْدِى فى تاريخه وأثنى عليه ، وقال : كان من أهل العلم والأدب والذكاء والهمة العالية [فى طلب العلم][1] ، كتب بالأندلس فأكثر ، ورحل إلى المشرق فاحتفل فى العلم والرواية والجمع .

وذكره الحافظ الخطيب أبو بكر [أحمد بن على][1] بن ثابت البغدادى ، وقال : هو من بيت جَلَالَة وعلم ورياسة، وأخرج عنه فى غير موضع من مصنفاته ، وقدم بغداد ودمشق وحدّث فيهما ، ثم عاد إلى المغرب فتوفى ببلده المَرِيَّة سنة ٤٥٤ ، وحدّث عن أبى القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهرى ، ويعرف بابن الإفليلى ، الأندلسى النحوى وغيره ، وكان صدوقاً ثقة ، رحمه الله تعالى ! .

أبو حفص عمر ابن الحسن الهوزنى

[2][ومنهم العالم الحسيب أبو حفص عمر بن الحسن الهَوْزَنِى

ذكره ابن بَسَّام فى « الذخيرة » والحجارى فى « المسهب » ولما تولى المعتضد ابن عباد والد المعتمد خاف منه فاستأذنه فى الحج سنة ٤٤٤ ، ورحل إلى مصر وإلى مكه ، وسمع فى طريقه كتاب صحيح البخارى ، وعنه أخذه أهل الأندلس ، ورجع فسكن إشبيلية ، وخدم المعتضد ، فقتله ، ومن خاف من شىء سلط عليه ، وكان قتله يوم الجمعة لليلة خلت من ربيع الأوّل سنة ٤٦٠ ، رحمه الله تعالى !

ومن شعره يحرضه على الجهاد قوله :

أعَبَّادُ جَلَّ الرزء والقوم هُجَّعُ ... على حالة من مثلها يتوقع
فَلَقِّ كتابى من فراغك ساعة ... وإن طال فالموصوف للطول موضع
إذا لم أبثَّ الداءَ رب شكاية ... أضعتُ وأهلٌ للملام المضيِّعُ

(١) مابين المعقوفين ساقط من ب
(٢) هذ الترجمة إلى آخر السطر ١٥ من ص ٣٨٦ لا توجد فى ا

ووصله بنثر ، وهو : وماأخطأ السبيلَ من أتى البيوت من أبوابها ، ولا أرجأ الدليلَ من نَاطَ الأمورَ بأربابها ، ولَرُبَّ أمَلٍ بين أثناء المحاذير مدبج ، ومحبوب فى طى المكاره مُدْرَج ، فانتهِزْ فرصتها فقد بان من غيرك العَجْز ، وطَبِّق مفاصلها فكأن قد أمكنك الحز ، ولا غرو أن يستمطر الغمام فى الجدب ، ويستصحب الحسام فى الحرب .

وله :

صرّح الشر فلا يستقل إن نهلتم جاءكم بعدُ عَلُّ

بدء صَعْق الأرض رَشٌّ وطَلٌّ ورياح ثم غيم أبل

خفضوا فالداء رزء أجَلُّ واغمدوا سيفاً عليكم يسل

وبسبب قتل بنى عباد لأبى حفص الهَوْزَنى المذكور تسبب ابنه أبو القاسم فى فساد دولة المعتمد بن[1] عباد ، وحرض عليه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب حتى أزال مُلْكه ، ونثر سِلْكه ، وسبب هُلْكه ، كما ذكرناه فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب غير مرة ، فليراجعه من أراده فى محاله ، وبيت بنى الهَوْزَنى المذكور بالأندلس بيت كبير مشهور ، ومنهم عدة علماء وكبراء ، رحم الله تعالى الجميع !]

أبو زكريا يحيى بن قاسم القرطبى

ومنهم أبو زكريا يحيى بن قاسم بن هلال[2] ، القرطبى ، الفقيه المالكى أحد الأئمة الزهاد ، كان يصوم حتى يعجز[3] ، توفى سنة ٢٧٢ ، وقيل : سنة ٢٧٨ ، ورحل إلى المشرق ، وسمع من عبد الله بن نافع صاحب مالك بن أنس ، ومن سحنون بن سعيد ، وغيرهما ، وكان فاضلا فقيها عابدا عالما بالمسائل ، وروى عنه أحمد بن خالد ، وكان يفضله و يصفه بالفضل والعلم ، وهو صاحب الشجرة ، قال

---

(١) كذا ، والذى قتله المعتضد بن المعتمد ، وليس هو المعتمد

(٢) فى ب « بن هال » (٣) فى ا « حتى يختضر » وفى نسخة « حتى يخضر »

عباس بن أصبغ : كانت فى داره شجرة تسجد لسجوده إذا سجد ، قاله ابن الفرضى رحمه الله تعالى ، ورضى عنه ، ونفعنا به !.

أبو بكر يحى بن مجاهد الإلبيرى الزاهد

ومنهم أبو بكر يحيى بن مجاهد بن عَوانة ، الفزارى ، الإلبيرى ، الزاهد سكن قرطبة ، قال ابن الفرضى : كان منقطع القرين فى العبادة ، بعيد الاسم فى الزهد ، حج ، وعُنى بعلم القرآن والقراآت والتفسير ، وسمع بمصر من الأسيوطى وابن الورد وابن شعبان وغيرهم ، وكان له حظ من الفقه والرواية إلا أن العبادة غلبت عليه ، وكان العمل أملك به ، ولا أعلمه حدّث ، توفى رحمه الله تعالى سنة ست وستين وثلثمائة ، ودفن فى مقبرة الرَّبَضِ ، وصلى عليه القاضى محمد بن إسحاق ابن السليم ، ثم صلى عليه حيَّان[1] مرة ثانية ، رحمه الله تعالى! وأفاض علينا من أنوار عنايته ! آمين .

أبو بكر محمد بن أحمد الصدفى ، الإشبيلى الأديب

ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن إبراهيم ، الصدفى ، الإشبيلى ، الأديب البارع له نظم حسن ، وموشحات رائقة ، قرأ على الأستاذ الشلوبين وغيره ، ومدح الملوك ، ورحل من الأندلس فقدم ديار مصر ، ومدح بها بعض من كان يوصف بالكرم ، فوصله بنَزْر يسير ، فكر راجعاً إلى المغرب ، فتوفى ببَرْقة ، رحمه الله تعالى ! وكان من النجباء فى النحو وغيره .

ومن نظمه من قصيدة :

ما بى مَوَارِدُ أمر بل مَصَادره ... اللحظ أوّله واللحد آخره[2]

أرسلت طرفى مرتادا فطَلَّ دمى ... روض من الحسن مطلول أزاهره

رَعَيْتُ فى خصبه لحظى فأعقبنى ... جدبا بجسمىَ ما يرويه هامره

وبى وإن لم أكن بالذكر أشهره ... فالوصف فيه لفقد المثل شاهره

---

(١) فى ب « ثم صلي عليه حيان بن مرة ثانية »

(٢) فى ا « مابى موارد أمس بل مصادره »

وهى طويلة ، وأثنى عليه أثير الدين أبو حَيَّان ، وأورد جملة من محاسن كلامه وبدائع نظامه ، رحم الله تعالى الجميع !

أبو يحيي زكريا ابن خطاب الكلبي ، التطيلي

ومنهم أبو يحيي زكريا بن خطاب ، الكلبى ، التُّطِيلى

رحل سنة ٢٩٣ ، فسمع بمكة كتاب «النسب» للزبير بن بكار من الجرجانى الذى حدث به عن على بن عبد العزيز بن الجمحى عن الزبير ، وروى موطأ مالك ابن أنس رواية أبى مصعب أحمد بن عبد الملك الزهرى عن إبراهيم بن سعيد الحذاء ، وسمع بها من إبراهيم بن عيسى الشيبانى والقزاز فى آخرين ، وقدم الأندلس وكان الناس[1] يرحلون إليه إلى تُطِيلَةَ للسماع منه ، واستقدمه المستنصر الحكم وهو ولى عهد فسمع منه أكثر مروياته ، وسمع منه جماعة من أهل قرطبة ، وكان ثقة مأمونا ، ولى قضاء بلدة تُطِيلة إحدى مدائن الأندلس بعد عمر بن يوسف ابن الإمام .

أبو الحسن سعد الخير بن محمد، الأنصارى البلنسى ، المحدث

ومنهم سعد الخير بن محمد بن سعد، أبو الحسن ، الأنصارى ، البَلَنسى ، المحدّث رحل إلى أن دخل الصين ، ولذا كان يكتب البَلَنسى الصينى ، وركب البحار ، وقاسى المشاق ، وتفقه ببغداد على أبى حامد الغزالى ، وسمع [بها] أبا عبد الله النعال[2] وطرادا وغيرهما ، و بأصبهان أبا سعد المطرز ، وسكنها وتزوّج بها وولدت له فاطمة بها ، ثم سكن بغداد ، وروى عنه ابن عساكر وابن السمعانى وأبو موسى المدينى وأبو اليمن الكندى وأبو الفرج بن الجوزى وابنته فاطمة بنت سعد الخير فى آخرين ، وتأدب على أبى زكريا التبريزى ، وتوفى فى المحرم سنة ٥٤١ ، رحمه الله تعالى ! ببغداد ، وصلى عليه الغزنوى والشيخ الواعظ بجامع القصر ، وكان وصيه ، وحضر جنازته قاضى القضاة الزينبى والأعيان ، ودفن إلى جانب عبد الله بن الإمام

---

(١) فى ا « فكان الناس »

(٢) فى ا « النعالى »

أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهم أجمعين بوصية منه .

أبو عثمان سعيد بن نصر (ابن خلفون) الإستجى

ومنهم أبو عثمان سعيد بن نصر بن عمر بن خلفون ، الإستجى

سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وابن أبى دليم وغيرهما ، ورحل فسمع بمكة من ابن الأعرابى ، و ببغداد من أبى على الصفار وجماعة ، و بها مات .

أبو عثمان سعيد الأعناقى

ومنهم أبو عثمان سعيد الأعناقى ، و يقال : العناقى ، القرطبى

كان ورعاً زاهداً عالماً بالحديث بصيراً بعلله ، سمع من محمد بن وضاح وصحبه ومن يحيى بن إبراهيم بن مزين ومحمد بن عبد السلام الخشنى وغيرهم ، ورحل فلقى جماعة من أصحاب الحديث منهم نصر بن مرزوق كتب عنه مسند أسد بن موسى وغير ذلك من كتبه ، و يونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم والحارث ابن مسكين فى آخرين ، وحدث عنه أحمد بن خالد وابن أيمن ومحمد بن قاسم وابن أبى زيد فى عدد كثير ، ومولده سنة ٢٣٣ ، وتوفى سنة ٣٠٥ بصفر .

والأعناقى : نسبة إلى موضع يقال له أعناق وعناق .

أبو المطرف عبد الرحمن ابن خلف التجيبي ، الإقليشى

ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف ، التجيبى ، الإقليشى .

روى عن أبى عثمان سعيد بن سالم المجريطى وأبى ميمونة دارس [1] بن إسماعيل فقيه فاس ، ورحل حاجا سنة ٣٤٩ ، فسمع بمكة من أبى بكر الآجرى وأبى حفص الجمحى ، و بمصر من أبى إسحاق ابن شعبان ، وروى عنه كتاب «الزاهى» جميعه وقد قرئ عليه [جميعه] ، وحمل عنه ، ومولده سنة ٣١٣ [2] رحمه الله تعالى !

أبو الأصبغ عبد العزيز ابن على (ابن الطحان)

ومنهم أبو الأصبغ عبد العزيز بن على ، المعروف بابن الطحان ، الإشبيلى ، المقرى .

ولد بإشبيلية سنة ٤٩٨ ، ورحل فدخل مصر والشام وحلبا ، وتوفى بحلب

---

(١) فى ا « دراس بن إسماعيل »

(٢) فى ا « سنة ٣٠٣ »

بعد سنة ٥٥٩ ، وله كتاب « نظام الأداء ، فى الوقف والابتداء » ومقدمة فى مخارج الحروف ، ومقدمة فى أصول القراءات ، وكتاب « الدعاء » وكان من القراء المجوّدين الموصوفين بالإتقان ومعرفة وجوه القراءات ، وسمع الحديث على شريح بن محمد بن أحمد بن شريح الرعينى خطيب إشبيلية وأبى بكر يحيى ابن سعادة القرطبى .

وله شعر حسن منه قوله :

دع الدنيا لعاشقها سيصبح من رشائقها

وعادِ النفسَ مصطبرا ونَكِّبْ عن خلائقها[١]

هلاك المرء أن يضحى مجدًّا فى علائقها[٢]

وذو التقوى يذللها فيسلم من بوائقها[٣]

وأخذ القراءات ببلده عن أبى العباس بن عَيْشُون وشريح بن محمد ، وروى عنهما وعن أبى عبد الله بن عبد الرزاق الكلبى ، وروى مصنف النسائى عن أبى مروان ابن مسرة ، وتصدى للإقراء ، ثم انتقل إلى فاس ، وحج ودخل العراق ، وقرأ بواسط القراءآت وأقرأها أيضاً ، ودخل الشام واشتهر ذكره ، وجل قدره ، وروى عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلى الحافظ ، وعلى بن يونس ، قال بعضهم : سمعت غير واحد يقول : ليس بالغرب أعلم بالقراءآت من ابن الطحان ، قرأ عليه الأثير أبو الحسن محمد بن أبى العلاء وأبو طالب بن عبد السميع وغيرهما ، رحم الله تعالى الجميع ! .

أبو الأصبغ عبد العزيز بن خلف المعافرى

ومنهم أبو الأصبغ عبد العزيز بن خلف ، المَعافرى .

قدم مصر سنة ٥٠٢[٤] ، وولد سنة ٤٤٨ ، وحدث بالموطأ عن سليمان

---

(١) نكب : مل فى طريق غير طريقها .

(٢) علائقها : جمع علاقة ، وأراد بها كل ماله ارتباط بملاذ الدنيا وشهواتها

(٣) بوائقها : مهلكاتها (٤) فى نسخة عند ب « سنة ٥٠٦ »

ابن أبى القاسم ، أنبانا أبو عمر بن عبد البر ، أنبأنا سعيد بن نصر ، عن قاسم ابن أصبغ عن محمد بن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، رضى الله تعالى عنه !

أبو محمد عبد العزيز بن عبد الله الشاطبى

ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة ، السعدى ، الشاطبى .

قدم مصر ودمشق طالب علم ، وسمع أبا الحسن بن أبى الحديد وأبا منصور العكبرى وغيرهما ، وصنف غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام على حروف المعجم ، وسمعه عليه أبو محمد الأكفانى ، وتوفى بأرض حوران من أعمال دمشق فى رمضان سنة ٤٦٥ ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ! .

أبو الفضل محمد ابن عبد المنعم الغسانى الحكيم

ومنهم الحكيم الطبيب أبو الفضل محمد بن[1] عبد المنعم ، الغسانى ، الجليانى .

وهو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن أحمد بن خضر بن مالك بن حسان ، ولد بقرية جليانة من أعمال غَرْنَاطة سابع المحرم سنة ٥٣١ ، وقدم إلى القاهرة ، وسار إلى دمشق فسكنها مدّة ، ثم سافر إلى بغداد فدخلها سنة ٦٠١ ، ونزل بالمدرسة النظامية ، وكتب الناسُ عنه كثيراً من نظمه ، وكان أديباً فاضلا ، له شعر مليح المعانى أكثره فى الحكم والإلٰهيات وآداب النفوس والرياضات ، وكان طبيباً حاذقا ، وله رياضات ومعرفة بعلم الباطن ، وله كلام مليح على طريق القوم ، وكان مليح السَّمْت ، حسن الأخلاق ، لطيفاً ، حاضر الجواب ، ومات بدمشق سنة ٦٠٢ ، وكان يقال له : حكيم الزمان ، وأراد القاضى الفاضل أن يَغُضَّ منه[2] فقال له بحضرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب : كم بين جليانة وغَرْنَاطة ؟ فقال : مثل ما بين بيسان و بيت المقدس .

ومن شعره قوله :

---

(١) كلمة « بن » ساقطة من ا

(٢) يغض منه : ينتقص قدره

خَبَرْتُ بنى عصرى على البسط والقبض وكاشَفْتُهم كشف الطبائع بالنبض
فأنتج لى فيهم قياسى تخلِّيًا عن الكل إذ هم آفة الوقت والعِرْضِ
ألازم كسر البيت خلوًا ، و إن يكن خروج ففرداً ملصق الطَّرْف بالأرض
أرى الشخص من بُعْدٍ فأغضى تغافلا كمشدوه بال فى مهمته يَمْضِى
ويحسبنى فى غفلة وفراستى على الفور من لحى بما قد نوى تقضى
أجانبهم سلما ليسلم جانبى وليس لحِقْدٍ فى النفوس ولا بُغْضِ
تخليت عن قومى ولو كان ممكنى تخليت عن بعضى ليسلم لى بعضى

وقال :

قالوا نراك عن الأكابر تعرض وسواك زَوَّار لهم مُتَعَرِّض
قلت الزيارة للزمان إضاعة و إذا مضى زمن فما يتعوض
إن كان لى يوما إليهم حاجة فبقدر ما ضمن القضاء نُقَيَّضُ

وقال :

حاول مَفَازَكَ قبل أن يتحولا فالحال آخرها كحالك أولا
إن المنى من المنية لفظه لتدل فى أصل البناء على البلا

وسماه بعضهم عبد المنعم ، وذكره العماد فى « الخريدة » وقال : هو صاحب البديع البعيد ، والتوشيح والترشيح، والترصيع والتصريع[(١)]، والتجنيس والتطبيق، والتوفيق والتلفيق ، والتقريب والتقرير ، والتعريف والتعريب ، وهو مقيم بدمشق ، وقد أتى العسكر المنصور الناصرى سنة ٥٨٦ بظاهر ثغر عكا ، وكتب إلى السلطان صلاح الدين وقد جرح فرسه :

أيا ملكا أفنى العُداة حُسامه ومُنْتَجَعاً أقنى العفاة ابتسامه[(٢)]

---

(١) فى ا « والتضريع » محرفا

(٢) منتجعا : مقصوداً ، وأقنى : أغنى ، والعفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف

لقاؤك يوماً فى الزمان سـعادة ... فكيف بثـاوٍ فى حماك حمامه

وعبدك شاك دينه وهو شاكر ... نداك الذى يغنى الغمام غمامه (١)

ولى فرسٌ أصماه سهم فردّه ... أثافىَّ ربعٍ بالثلاث قيامُهُ

تعمر فيه بالجراحة ساحة ... وعطل منه سرجه ولجامه (٢)

أتينا لِمَا عودتنا من مكارم ... يلوذ بها الراجى فيشفى غرامه

فرحماك غوث لايغيب نصيره ... ونعماك غيث لايُغِبُّ انسجامه

وله رحمه الله تعالى غير هذا ، وترجمته واسعة .

أبو القاسم عبدالوهاب بن محمد القرطبى

ومنهم الأستاذ أبوالقاسم عبدالوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القدوس القرطبى ، مؤلف « المفتاح » فى القراآت ، ومقرئ أهل قرطبة .

رحل وقرأ القراآت على أبى على الأهوازى ، وبحرّانَ على أبى القاسم الزّيْدِى ، وبمصر على أبى العباس بن نفيس ، وبمكة على أبى العباس الكازرينى ، وسمع بدمشق من أبى الحسن بن السمسار ، وكان عجباً فى تحرير القراآت ومعرفة فنونها ، وكانت الرحلة إليه فى وقته ، ولد سنة ٤٠٣ ، ومات فى ذى القعدة سنة ٤٦١ ، قرأ عليه أبو القاسم خلف بن النحاس وجماعة ، رحمه الله تعالى !

أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلى

ومنهم عبيد الله ، وقيل: عبد الله ، بغير تصغير ، ابن المظفر بن عبد الله بن محمد ، أبوالحكم ، الباهلى ، الأندلسى .

ولد بالْمَرِية سنة ٤٨٦ (٣) ، وحج سنة ٥١٦ وحج أيضاً سنة ٥١٨ ، ودخل دمشق وقرأ بصعيد مصر وبالإسكندرية ، ثم مضى إلى العراق ، وأقام ببغداد يعلم الصبيان وخدم السلطان محمود بن ملك شاه سنة ٥٢١ ، وأنشأ له فى معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملا ، فكان طبيبه ، ثم عاد إلى دمشق ومات بها سنة ٥٤٩ ، ودفن

---

(١) فى ا « نداك الذى يفنى الغموم غمامه »

(٢) فى ا « تعمر فيه بالجراحة ساجه »

(٣) فى نسخة عند ب « سنة ٤٩٩ »

بباب الفراديس ، وكان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة ، وله ديوان شعر سماه « نهج الوضاعة ، لأولى الخلاعة » ذكر فيه جملة شعراء كانوا بمدينة دمشق كطالب الصورى ونصر الهيتى[١] وغيرهما كعرقلة ، وفيه نزهات أدبية ، ومفاكهات غريبة ، ممزوج جدها بسخفها ، وهزلها بظرفها ، ورثى فيه أنواعا من الدواب وأنواعا من الأثاث وخلقاً من المغنين والأطراف ، وشرح هذا الديوان ابنه الحكيم الفاضل أبو المجد محمد بن أبى الحكم الملقب بأفضل الدولة ، وكان كثير الهزل والمداعبة ، دائم اللهو والمطايبة ، وكان إذا أتاه الغلام وما به شىء فيجس نبضه ثم يقول له : تصلح لك الهريسة ، وكان أعور فقال فيه عرقلة :

لنا طبيب شاعر أعور ... أراحنا من طبه الله
ما عاد فى صبحة يوم فتى ... إلا وفى باقيه رثَّاه

وله [أيضا] يرثيه :

ياعين سُحِّى بدمع ساكب ودم ... على الحكيم الذى يكنى أبا الحكم
قد كان لا رَحِمَ الرحمن شيبته ... ولا سقى قبره من صيِّب الدِّيَمِ
شيخاً يرى الصلوات الخمس نافلة ... ويستحلُّ دم الحجاج فى الحرم

ومن كنايات أبى الحكم المستحسنة قوله :

ألم ترنى أكابد فيك وَجْدِى ... وأحمل منك مالا يستطاع
إذا ما أنجم الجوّ استقلت ... ومال الدلو وارتفع الذراع[٢]

ومن شعره قوله :

محاسن العالم قد جمعت ... فى حسنه المستكمل البارع
(وليس لله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى الجامع)[٣]

---

(١) فى ب « الهيثى » (٢) كذا فى كل الأصول ، ولعله « إذا ما أنجم »
(٣) هذا البيت ماعدا قافيته لأبي نواس الحسن بن هانى

أبو الربيع سليمان بن إبراهيم الغرناطى ، القيسانى

ومنهم أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن صافى ، الغَرْنَاطى ، القيسانى . وقيسانة من عمل غَرْنَاطة .

الفقيه المالكى ولد سنة ٥٦٤ ، وقدم القاهرة[١] وناب فى الحِسْبَة ، وله شعر حسن توفى بالقاهرة سنة ٦٣٤ ، رحمه الله تعالى ! .

طالوت بن عبد الجبار المعافرى

ومنهم طالوت بن عبد الجبار ، المَعافرى ، الأندلسى .

دخل مصر ، وحج ولقى إمامنا مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه ، وعاد إلى قُرْطُبة ، وكان ممن خرج على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن من أهل رَبَضِ شَقَنْدَة يريد خلعه و إقامة أخيه المنذر ، وزحفوا إلى قصره بقرطبة ، فخار بهم ، وقتلهم ، وفر مَنْ بقى منهم ، فاستتر الفقيه طالوت عاما عند يهودى ، ثم ترامى على صديقه أبى البسَّام الكاتب ليأخذ له أماناً من الحكم ، فوشى به إلى الحكم ، وأحضره إليه فعنفه ووبخه ، فقال له : كيف يحل لى أن أخرج إليك[٢] وقد سمعت مالك بن أنس يقول : سلطان جائر مدة خير من فتنة ساعة ؟ فقال : آللهِ تعالى لقد سمعتَ هذا من مالك ؟ فقال طالوت : اللهم إنى قد سمعته ، فقال : انصرف إلى منزلك وأنت آمن ، ثم سأله : أين استتر ؟ فقال : عند يهودى مدة عام ، ثم إنى قصدت هذا الوزير فغدر بى ، فغضب الحكم على أبى البسَّام وعزله عن وزارته ، وكتب عهداً أن لا يخدمه أبداً ، فرؤى أبو البسام بعد ذلك فى فاقة وذل ، فقيل : استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت ، رحمه الله تعالى !

أبو الحسن على بن محمد (ابن خروف) القيسى

ومنهم أبو الحسن على بن محمد بن على بن محمد، ضياء الدين ونظامه ، ابن خروف الأديب ، القيسى ، القرطبى ، القيذافى ، الشاعر .

قدم إلى مصر ، ثم سار إلى حلب ومات بها متردياً فى جب حنطة سنة ٦٠٣[٣]

(١) فى ا « وقدم إلى القاهرة »

(٢) الأفضل « أخرج عليك »

(٣) فى ا « سنة ٦٠٢ »

وقيل : فى التى بعدها ، وقيل : سنة خمس وستمائة ، وله شرح كتاب سيبويه ، وحمله إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار ، وله شرح جمل الزجاجى ، وكتب فى الفرائض وردٌّ على أبى زيد السهيلى ، وغير ذلك ، ومدح الأفضل ابن السلطان صلاح الدين ومدح الظاهر بن الناصر أيضاً .

وشعره جيد ، فمنه قوله فى كاس :

أنا جسم للحُمَيَّا والحميا لى روح[1]
بين أهل الظرف أغدو كل يوم وأروح

وقال فى صبى حبس :

أقاضى المسلمين حكَمْتَ حكما غدا وجه الزمان به عَبُوسَا
حبست على الدراهم ذا جمالٍ ولم تسجنه إذ سلب النفوسا

وقال :

ما أعجب النيل ما أحلى شمائله فى ضَفَّتيه من الأشجار أدواحُ
من جنة الخلد فياض على ترع تهب فيها هبوب الريح أرواح[2]
ليست زيادته ماء كما زعموا وإنما هى أرزاق وأرباح

والقيذافى : بقاف ، ثم ياء آخر الحروف ، بعدها ذال معجمة ، ثم ألف ، وفاء .

وله رسالة كتب بها إلى بهاء الدين بن شداد بحلب يطلب منه فروة ، وهى :

بهاء الدين والدنيا ونور المجد والحسب
طلبت مخافة الأنوا ء من جَدْوَاكَ جِلْدَ أبى[3]
وفضلك عالم أنى خَرُوفٌ بارع الأدب
حلبت الدهر أشْطُرَهُ وفى حلب صفا حَلَبِى

(١) الحميا : أراد الخمر ، ووقع فى ا « أنا جسم للمحيا » محرفا
(٢) فى ا « من جنة الخلد فياض على نزع » محرفا
(٣) فى ا « من حسناك جلد أبى »

ذوالحسب الباهر، والنسب الزاهر ، يسحب ذيول سيرالسيراء ، ويحبُّ النحاة[1] من أجل الفرّاء ، ويمن على الحروف النبيه ، بجلد أبيه ، قَانِىَ الصباغ ، قريب عهد بالدباغ ، ماضل طالب قَرَظِهِ ولاضاع ، بل ذاع ثناء صانعه وضَاعَ[2] ، إذا طهر إهابه، يخافه البرد ويهابه ، أثيث خمائل الصوف ، يهزأ بكل هَوْجَاء عصوف ، مافى اللباس له ضريب ، إذا نزل الجليد والضريب[3] ، ولا فى الثياب له نظير، إذا عرى من ورقه الغصنُ النَّضير ، والمولى يبعثه فرجى النوع ، أرجى الضوع ، يكون تارة لحافاً وتارة بُرْدَا ، وهو فى الحالين يحيى حَرًّا و يميت بَرْدا ، لا كطَيْلَسان ابن حرب، ولا كجلد عمرو الممزق بالضرب ، إن عزاه السواد إلى حام نخام ، أو نماه البياض إلى سام فسام ، كأنه من جلد جمل الحرباء ، الذى يرعى القمر والنجم ، لامن جلد السَّخْلة الجرباء ، التى ترعى الشجر والنجم ، لازال مهديه سعيداً ، ينجز للأخيار وعداً وللأشرار وعيداً ، بالمنة والطول ، والقوة والحول .

مالك بن مالك الجيانى

ومنهم مالك بن مالك ، من أهل جيان ، رحل حاجا فأدى الفريضة ، وسكن حلباً ، ولقى عبد الكريم بن عمران ، وأنشد له قوله :

يارب خذ بيدى مما دفعت له	فلست منه على وِرْدٍ ولا صَدَرِ
الأمر ماأنتَ رائيه وعالمه	وقد عتبت ولا عَتْبٌ على القدر
من يكشف السوء إلاأنت بارئنا	ومن يزيل بصَفْوٍ حالَةَ الكدر

أبو على منصور ابن خميس اللخمى، المرى

ومنهم أبوعلى بن خميس ، وهو منصور بن خميس بن محمد بن إبراهيم، اللخمى من أهل المرية .

سمع من أبى عبد الله البونى وابن صالح ، وأخذ عنهما القراآت ، وروى أيضاً عن الحافظ القاضى أبى بكر بن العربى ، وأبوى القاسم ابن رضا وابن ورد وأبى محمد

(١) فى ا «ويحب النجاة من أجل القراء»
(٢) ضاع : انتشر
(٣) الضريب : الثلج

الرشاطى وأبى الحجاج القضاعى وأبى محمد عبد الحق بن عطية وأبى عمرو الخضر ابن عبد الرحمن وأبى القاسم عبد الحق[1] بن محمد الخزرجى وغيرهم ، ورحل حاجا فنزل الإسكندرية ، وسمع منه أبو عبد الله بن عطية الدانى سنة ٥٩٦ ، وحدث عنه بالإجازة أبو العباس العزفى وغيره .

أبو على منصور ابن لب الأنصارى

ومنهم منصور بن لُبٍّ بن عيسى ، الأنصارى .

من أهل المرية ، يكنى أبا على ، أخذ القراآت ببلده عن ابن خميس المذكور قبله ، ورحل بعده ، فنزل الإسكندرية ، وأجازه أبو الطاهر السِّلَفى فى صغره ، وقد أخذ عنه فيما ذكر بعضهم ، ومولده سنة ٥٧١ رحمه الله تعالى !

مفرج بن حماد المعافرى

ومنهم مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج ، المَعافرى .

من أهل قرطبة ، وهو جد ابن مفرج صاحب كتاب « الاحتفال ، بعلم الرجال » صحب المذكور محمد بن وضاح فى رحلته الثانية ، وشاركه فى كثير من رجاله ، وصَدَرَ عن المشرق معه ، فاجتهد فى العبادة ، وانتبذ عن الناس ، ثم كر راجعاً إلى مكة عند موت ابن وضاح ، فنزلها واستوطنها إلى أن مات ، فقبره هنالك

وقال فى حقه أبو عمر عفيف : إنه كان من الصالحين ، رحل فحج وجاور بمكة نحو عشرين سنه إلى أن مات بها ، رحمه الله تعالى !

محب بن الحسين

ومنهم محب بن الحسين ، من أهل الثغر الشرقى ، كانت له رحلة حج فيها ، وسمع بالقيروان من أبى عبد الله بن سفيان الكنانى[2] « الهادى فى القراآت » من تأليفه وكان رجلا صالحا ، حدث عنه أبو عبد الله محمد بن عبد الملك التجيبى من شيوخ أبى مروان بن الصيقل .

مساعد بن أحمد الأصبحى

ومنهم مساعد بن أحمد بن مساعد ، الأصبحى .

---

(١) فى ا « وأبى القاسم عبد الرحمن بن محمد الخزرجي »

(٢) فى ا « أبى عبد الله بن سفيان الكتاب الهادي »

من أهل أوريولة ، يكنى أبا عبد الرحمن ، ويعرف بابن زعوقة ، روى عن ابن أبى تليد وابن جَحْدر ، والحافظين أبى على الصدفى وأبى بكر بن العربى ، وكتب إليه أبو بكر بن غالب بن عطية ، ورحل حاجا فى سنة أربع وتسعين وأربعمائة ، فأدى الفريضة سنة خمس بعدها ، ولقى بمكة أبا عبد الله الطبرى ، فسمع منه صحيح مسلم ، مشتركا فى السماع مع أبى محمد بن جعفر[1] الفقيه ، ولقى أبا محمد بن العرجاء وأبا بكر بن الوليد الطرطوشى وأصحاب الإمام أبى حامد الغزالى وأبا عبد الله المازرى وجماعة سواهم ساوى بلقائهم مشيختهم ، وانصرف إلى بلده فسمع منه الناسُ ، وأخذوا عنه لعلو روايته ، وكان من أهل المعرفة والصلاح والورع ، وممن حدث عنه من الجلة أبو القاسم بن بَشْكُوَال وأبو الحجاج الثغرى الغرناطى ، وأبو محمد عبد المنعم ابن الفرس وغيرهم ، وأغفله ابن بَشْكُوَال فلم يذكره فى الصلة مع كونه روى عنه ، وقال تلميذه أبو الحجاج الثغرى الغرناطى : أخبرنى أبو سليمان بن حَوْط الله وغيره عنه ، قال : أخبرنى الحاج أبو عبد الرحمن بن مساعد رضى الله تعالى عنه : أنه لقى بالمشرق امرأة تعرف بصباح عند باب الصفا ، وكان يقرأ عليها بعض التفاسير ، فجاء بيت شعر شاهد ، فسألت : هل له صاحب ، فسألوا الشيخ أبا محمد بن العرجاء ، فقال الشيخ : لا أذكر له صاحباً ، فأنشدَتْ :

طلعت شمس من أحبَّكَ ليلا واستضاءت فمالها من مغيب

إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب دون غروب

ولد فى صفر سنة ٤٦٨ ، وتوفى بأوريولة سنة ٥٤٥ ، قاله ابن شعبان[2] .

أبو حبيب نصر ابن القاسم

ومنهم أبو حبيب نصر بن القاسم .

قال ابن الأبار : أظنه من أهل غَرْنَاطة ، له رحلة حج فيها ، وسمع من أبى الطاهر

---

(١) في ا « أبى محمد بن أبى جعفر »

(٢) فى ا « قاله ابن سفيان »

السِّلَفى ، وحدث عنه عن ابن فتح بمسند الجوهرى ، انتهى .

النعمان بن النعمان المعافرى

ومنهم النعمان بن النعمان ، المعافرى .

من أهل مَيُورْقَةَ منسوب إلى جده ، رحل حاجا فأدى الفريضة وجاور بمكة ثم قفل إلى بلده ، واعتزل الناس ، وكان يُشَار إليه بإجابة الدعوة ، وتوفى سنة ٦١٦ رحمه الله تعالى ! ونفعنا به ! .

نعم الخلف ابن عبد الله الحضرمى

ومنهم نعم الخلف بن عبد الله بن أبى ثور ، الحضرمى .

من أهل طُرْطوشة أو ناحيتها ، رحل إلى المشرق ، وأدى الفريضة ، ولقى بمكة أبا عبد الله الأصبهانى ، فسمع منه سنة ٤٢٢ ، حدث عنه ابنه القاسم بن نعم الخلف يسير .

نابت بن المفرج الخثعمى

ومنهم نابت ـ بالنون ـ ابن المفرج بن يوسف ، الخثعمى .

أصله من بَلَنْسِيَةَ ، وسكن مصر ، يكنى أبا الزهر ، قال السِّلَفى : قدم مصر بعد خروجى منها ، وتفقه على مذهب الشافعى ، وتأدب ، وقال الشعر الفائق ، وكتب إلى بشىء من شعره[1] ، ومات فى رجب سنة ٥٤٥ بمصر .

ضمام بن عبد الله

ومنهم ضمام بن عبد الله ، الأندلسى .

رحل إلى المشرق ، ودخل بغداد ، وهو ممن يروى[2] عن عبد السلام بن مسلم الأندلسى ، وممن روى عن ضمام أبو الفرج أحمد بن القاسم الخشاب البغدادى من شيوخ الدارقطنى ، قال ابن الأبار : هكذا وقع فى نسخة عتيقة من تأليف الدارقطنى فى الرواة عن مالك فى باب مَسْلَمة منه ضمام ـ بالضاد المعجمة ـ وهكذا ثبت فى رواية أبى زكريا بن مالك بن عائذ[3] عن الدارقطنى ، وقال فيه غيره : هَمَّام بن عبد الله ـ بالهاء وتشديد الميم ـ وفى حرف الهاء أثبته أبو الوليد بن الفرضى من تاريخه ،

(١) فى ا « بشىء مما شعره » محرفا

(٢) فى ا « وهو ممن روى »

(٣) فى ا « عائد » بالدال المهملة

والأول عندى أصح ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

ضرغام بن عروة

ومنهم ضرغام بن عروة بن حجاج بن أبى فُرَيْعة ، واسمه زيد ، مولى عبد الرحمن ابن معاوية والداخل معه إلى الأندلس ، من أهل لَبْلَة ، له رحلة إلى المشرق ، وكان فقيهاً ، ذكره الرازى .

أبو حفص عبدالله بن محمد المعافرى

ومنهم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر ، المَعافرى .

من أهل قرطبة ، وأصله من الجزيرة الخضراء ، وهو والد المنصور بن أبى عامر ويكنى أبا حفص ، سمع الحديث ، وكتبه عن محمد بن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ومحمد بن فطيس وغيرهم ، ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، وكان من أهل الخير والدين والصلاح والزهد والقعود عن السلطان ، أثنى عليه الراوية أبو محمد الباجى وقال : كان لى خير صديق أنتفع به وينتفع بى ، وأقابل معه كتبه وكتبى ، ومات مُنْصَرَفَه من حجه ، ودفن بمدينة طرابلس المغرب ، وقيل : بموضع يقال له رَقَّادة ، وكان رجلا عالما صالحا ، وقال بعضهم : إنه توفى فى آخر خلافة عبد الرحمن الناصر .

أبو محمد عبد الله بن حمود ، الزبيدى الإشبيلى

ومنهم أبو محمد عبد الله بن حمود ، الزبيدى ، الإشبيلى ، ابن عم أبى بكر محمد ابن الحسن ، الزبيدى ، اللغوى .

كان من مشاهير أصحاب أبى على البغدادى ، ورحل إلى المشرق فلم يعد إلى الأندلس ، ولازم السيرافى فى بغداد إلى أن توفى ، فلازم بعده صاحبه أبا على الفارسى ببغداد والعراق ، وحيثما جال ، واتبعه إلى فارس ، وحكى أبو الفتوح الجرجانى أن أبا على البغدادى غَلَّس لصلاة[1] الصبح فى المسجد ، فقام إليه أبو محمد الزبيدى من مِذْود[2] كان لدابته خارج الدار قد بات فيه أو ادلج[3] إليه ليكون أول وارد عليه ، فارتاع منه ،

---

(١) غلس لصلاة الصبح : خرج إليها فى وقت الغلس ، وهو قبل الإسفار وظهور الضوء

(٢) فى ب « مدود » بالدال المهملة (٣) فى ا « أو دلج إليه »

وقال : ويحك ! من تكون ؟ قال : أنا عبد الله الأندلسى ، فقال له : إلى كم تتبعنى ؟ والله إنه ليس على وجه[١] الأرض أنحى منك ، وكان من كبار النحاة وأهل المعرفة التامة والشعر ، وجمع شرحا لكتاب سيبويه ، ويقال : إنه توفى ببغداد سنة ٣٧٣[٢] .

عبد الله بن رشيق القرطبى

ومنهم عبد الله بن رشيق ، القرطبى .

رحل من الأندلس ، فأوطن القيروان ، واختص بأبى عمران الفاسى ، وتفقه به ، وكان أديباً شاعراً عفيفاً خيراً ، وفى شيخه أبى عمران أ كْثَرُ شعره ، ورحل حاجا فأدى الفريضة ، وتوفى فى انصرافه بمصر سنة ٤١٩ ، وأنشد له ابن رشيق فى « الأنموذج » قوله رحمه الله تعالى :

خـير أعمالك الرضا ... بالمقادير والقضـا
بينما المـرء ناضر ... قيل : قد مات وانقضى

وقوله :

سأقطع حبلى من حبالك جاهداً ... وأهجر هجراً لا يجر لنا عرضا
وقد يعرض الإنسان عمن يوده ... ويلقى بِبِشْرٍ من يُسِرُّ له البغضا

قال فى « الأنموذج » : وأراد الحج فناله وجع[٣] فمات بمصر بعد اشتهاره فيها بالعلم والجلالة ، وقد بلغ عمره نحو الأربعين سنة ، رحمه الله تعالى ! وهو مخالف لما قدمناه من أنه أدى الفريضة ، وقد ذكر ابن الأبار العبارتين ، والله تعالى أعلم .

أبو بكر عبد الله بن طلحة، اليابرى

ومنهم أبو بكر اليابرى ، ويكنى أيضاً أبا محمد ، وهو عبد الله بن طلحة بن محمد بن عبد الله .

أصله من يابرة ، ونزل هو إشبيلية ، وروى عن أبى الوليد الباجى وعن جماعة

---

(١) فى ا « إن على وجه الأرض أنحى منك » محرفا

(٢) فى ا « سنة ٣٧٢ »

(٣) فى ا « فناله ورجع فمات بمصر »

بغرب الأندلس منهم أبو بكر بن أيوب وأبو الحزم بن عليم وأبو عبد الله بن مزاحم البَطَلْيَوسِيُّون[١] وغيرهم ، وكان ذا معرفة بالنحو والأصول والفقه وحفظ التفسير والقيام عليه ، وعلق به[٢] مدّة بإشبيلية وغيرها ، و[هو] كان الغالب عليه مع القصص فيسرد منه جملا على العامّة ، وكان متكلما ، وله رد على أبى محمد بن حَزْم ، وكان أحد الأئمة بجامع العديس[٣] ، ورحل إلى المشرق ، فروى عن أبى بكر محمد بن زيدون ابن على كتابه المؤلف فى الحديث المعروف بالزيدونى ، وألف كتابا فى شرح صدر رسالة ابن أبى زيد[٤] ، و بين مافيهامن العقائد ، وله مجموعة فى الأصول والفقه منها كتاب سماه «المدخل» إلى كتاب آخر سماه «سيف الإسلام ، على مذهب مالك الإمام» ألفه للأمير على بن تميم بن المعز الصِّنهاجى صاحب المهدية ، وذكر فى فصل الحج منه أنه رحل إلى المهدية سنة ٥١٥[٥] ، واستوطن مصر مدة ، ثم رحل إلى مكة ، وبها توفى رحمه الله تعالى ! وروى عنه أبو المظفر الشيبانى وأبو محمد العثمانى وأبو الحجاج يوسف[٦] بن محمد القَيْرَوانى وأبو عمرو عثمان بن فرج العبدوى وأبو محمد بن صدقة المنكبى وأبو عبد بن يعيش البَلَنْسى وغيرهم ، وكان سماع أبى الحجاج منه موطأ مالك سنة ٥١٦ ، رحم الله تعالى الجميع !

أبو محمد عبد الله بن محمد اليحصبي

ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن مرزوق ، اليَحْصَبى ، الأندلسى رحل حاجاً فسمع منه بالإسكندرية أبو الطاهر السِّلَفى كتاب « طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد بن أحمد الطيطلى ، وحدّث به عنه عن ابن بُرْأل عن صاعد

أبو محمد عبد الله ابن محمد الصريحى المرسى

ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد ، الصريحى ، المرسى ، ويعرف بابن مطحنة روى عن أبى بكر بن الفَرَضى النحوى ، وتأدب به ، ورحل إلى المشرق ،

---

(١) فى ا « والبطليوسيون » بزيادة واو العطف التى تفسد المعنى

(٢) فى ا « وحلق به مدة » (٣) فى ا « بجامع العريس »

(٤) فى ا « رسالة ابن زيدون » مكان « رسالة ابن أبى زيد »

(٥) فى ا « سنة ٥١٤ » (٦) فى ا « وأبو الحجاج بن يوسف »

ولقى أبا محمد العثمانى وغيره ، وحج ، وقعد لتعليم الآداب ، وممن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد السلام وأبو عبد الله المكناسى [1] وغيرهما ، وأنشد رحمه الله تعالى قال : أنشدنى أبو محمد عبد الله بن البَيَّاسى بالإسكندرية لنفسه :

يمدّ الدهر من أجلى وعُمْرِى ... كما أنى أمد من المـــداد

لنا خطان مختلفان جـدا ... كما اختلف المُوَالى والمُعَادى

فأكتب بالسواد على بياض ... ويكتب بالبياض على السواد

وهذا نظير قول الآخر :

ولى خــط وللأيام خط ... وبينهما مخالَفَةُ المـــداد

فأكتبه سواداً فى بياض ... وتـكتبه بياضاً فى سواد

وبعضهم ينسب الأبيات الثلاثة السابقة للسِّلَفى الحافظ ، فالله تعالى أعلم .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى ، الشِّلْبى

أبو محمد عبد الله بن عيسى الشلبى

سمع من الصدفى وغيره ، وكان من أهل الحفظ للحديث ورجاله والعلم بالأصول والفروع ومسائل الخلاف وعلم العربية والهيئة مع الخير والدين والزهد ، وامتحن بالأمراء فى قضاء بلده بعد أن تقلده نحو تسعة أعوام لإقامته الحق وإظهاره العدل حتى أدى ذلك إلى اعتقاله بقصر إشبيلية ، ثم سرح فرحل حاجاً إلى المشرق ، ودخل المهدية فلقى بها المازِرى ، وأقام فى صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم انتقل إلى مصر ، وحج سنة ٥٢٧ ، وأقام بمكة مجاوراً ، وحج ثانية سنة ٥٢٨ ، ولقى بمكة أبا بكر عتيق بن عبد الرحمن الأوريولى فى هذه السنة ، فحمل عنه ، ودخل العراق وخُرَاسان ، وأقام بها أعواماً ، وطار ذكره فى هذه البلاد ، وعظم شأنه فى العلم والدين ، وكان من بيت شرف وجاه فى بلده عريض مع سعة الحال والمال ، وتوفى بهَرَاة سنة ٥٥١ ، وقيل : إن وفاته سنة ٥٤٨ ، وذكره العماد فى « الخريدة » والسمعانى فى الذيل ، وأنشد له :

---

(١) فى ا « السكناسى »

تلوّنت الأيام لى بصرُوفها ... فكنت على لَوْنٍ من الصبر واحد
فإن أقبلت أدبرتُ عنها وإن نأت ... فأهْوِنْ بمفقود لأكرم فاقد

وولد سنة ٤٨٤ بشِلْبٍ ، رحمه الله تعالى !

أبو محمد عبد الله بن موسى (ابن برطلة) الأزدى المرسى

ومنهم أبو محمد عبد الله بن موسى ، الأزدى ، المُرْسى ، ويعرف بابن بَرْطَلَة سمع من صهره القاضى الشهيد أبى على الصدفى ، ورحل حاجا سنة ٥١٠ ، فأدى الفريضة وسمع من الطرطوشى والأنماطى والسِّلفى وغيرهم ، وانصرف إلى مُرْسِية بلده ، وكان حسن السَّمْت خاشعاً مُخْبِتاً خيراً متواضعاً نبيهاً نزهاً سالم الباطن ، وحكى عن شيخه أبى عبد الله الرازى عن أبيه أنه أخبره أن قاضى البرلس ، وكان رجلا صالحاً ، خرج ذات ليلة إلى النِّيل فتوضأ وأسبغ وضوءه ، ثم قام فقرن قدميه وصلى ماشاء الله تعالى أن يصلى ، فسمع قائلا يقول :

لولا أناس لهم سَرْدٌ يصومونا ... وآخرون لهم وِرْدٌ يقومونا
لزلزلَتْ أرضُكم من تحتكم سحرا ... لأنكم قوم سوء لا تبالونا

قال : فتجوَّزت فى صلاتى ، وأدرت طرفى فما رأيت شخصاً ولا سمعت حساً ، فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى !

وقال ابن بَرْطَلَة رحمه الله تعالى : أنشدنى أبو عامر قال : دخلت بعض مَرَاسى الثغر ، فوجدت فى حَجَر منقوش هذه الأبيات :

نزلت ولى أمل عودة ... ولكننى لست أدرى متى
ودافعنى قَدَر لم أطِقْ ... دفاعا لمكروهه إذ أتى[1]
ومَنْ أمرُه فى يدَىْ غيره ... سَيُغْلب إن لان أو إن عَتا
فيا نازلا بعدنا ههنا ... نحييك إن كنت نعم الفتى

(١) فى ا « ودافعنى قدم » محرفا

فسألت عن منشدها ، فقيل لى : هو أبو بكر بن أبى درهم الوَشْقِى ، وكان قد حج وأراد العَوْدة ، فقال هذه الأبيات ، ورواها بعضهم « رحلت » مكان نزلت ، وهو أصوب ، وأبدل قوله « يا نازلا » بيا ساكنا ، والخَطْب سَهْل فيه ، و بعض يقول : إن الأبيات وجدت بجامع مصر ، والله تعالى أعلم .

أبو محمد عبدالله ابن محمد ، الدانى ، الأصبحى

ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن خلف بن سعادة ، الدانى ، الأصبحى

لازم ابن سعد الخير ، واحتذى أول أمره مثالَ خطه فقار به ، وسمع منه ، ثم رحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من أبى الطاهر بن عوف والسِّلفى وغير واحد قال التجيبى : كان معنا بالإسكندرية بالعادلية منها ، و بقراءته سمعنا صحيح البخارى على السلفى سنة ٥٦٣ (١) ، قال : وأنشدنا لشيخه الأستاذ أبى الحسن على بن إبراهيم ابن سعد الخير البَلَنْسى :

يا لاحظا تمثالَ نَعْلِ نبيه قبل مثال النعل لا متكبراً
والثم له فلطالما عكفت به قَدَمُ النبى مروّحا ومبكراً
أولا ترى أن المحب مقبل طَلَلاً و إن لم يُلْفِ فيه مُخْبِرا

وقد سبق ابن سعادة أبو عبد الله وهو غير هذا ، والله تعالى أعلم !

أبو محمد عبد الله ابن يوسف القضاعى ، المرى

ومنهم أبو محمد عبد الله بن يوسف ، القُضَاعى ، المرى

سمع من أبى جعفر بن غزلون صاحب الباجى وغير واحد ، ورحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من السِّلفى والرازى ، وتجول هنالك ، وأخذ عنه أبو الحسن بن المفضل المقدسى وغير واحد ، وقال ابن المفضل : أنشدنى المذكور ، قال : أنشدنى أبو محمد بن صارة :

وكوكب أبصر العفريت مُسْتَرقا للسمع فانقضَّ يدنى خَلْفَه لهبه

(١) فى أصل ا ونسخة عند ب « سنة ٥٧٣ »

كفارس حَلَّ إعصارٌ عمامته ... فجرها كلها من خلفه عَذَبَه(١)

شهاب الدين أحمد بن عبدالله الوادى آشى

ومنهم شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن مهاجر ، الوادى آشى ، الحنفى سكن طرابلس الشام ، ثم انتقل إلى حلب ، وأقام بها ، وصار من العدول المبرزين فى العدالة بحلب ، يعرف النحو والعروض، ويشتغل فيهما ، وله انتماء إلى قاضى القضاة الناصر بن العديم ، قال الصفدى : رأيته بحلب أيام مقامى بها سنة ٧٢٣ فرأيته حسن التودد ، وأنشدنى لنفسه من لفظه :

مالاح فى دِرْعٍ يَصُولُ بِسَيْفِهِ ... والوَجْهُ منه يضىء تحت المِغْفَرِ

إلا حَسِبْتُ البحرَ مدَّ بجدول ... والشمس تُحت سحائب من عَنْبَرِ

قال الصفدى : جمع هذا المقطوع بين قول ابن عباد :

ولما اقتحمت الوغى دارعا ... وقَنَّعْتَ وجهك بالمغفر

حسبنا مُحيَّاك شمس الضحى ... عليها سحاب من العنبر

و بين قول أبى بكر الرصافى :

لو كنت شاهِدَهُ وقد غشى الوغى ... يختال فى دِرْعِ الحديد المسبل

لرأيت منه والقضيبُ بكفه ... بحراً يُريق دم الكُمَاة بجدول

وقال يمدح الشيخ كمال الدين محمد بن الزملكانى وقد توجه إلى حلب قاضى القضاة

يمن تَرَنَّمَ فوق الأيك طائره ... وطائر عمت الدنيا بشائره(٢)

وسُودَدٌ أصبح الإقبال ممتثلا ... فى أمره ما أخوه العِز آمره

ومنها :

مَنْ مُخبر عنىَ الشهباءَ أن كما ... ل الدين قد شُيِّدَتْ فيه مفاصره

وأن تقليده الزاهى وخلعته التى ... تطرِّزُ عطفيها مآثره

---

(١) في ا « فجرها كلها من خلفها عذبه » وليس بشىء

(٢) فى ا « يمن يرنم فوق الأيك طائره »

بالنفس أفديك من تقليد مجتهد   سواه يوجد في الدنيا مناظره
أنشدت حين أدار البشر كأس طَلًى   حكت أوائلُه صفوا أواخِرُه
وقد بدت في بياض الطِّرس أسطره   سودا لتبدي ما أهدت محابره
ساق تكوَّنَ من صبح ومن غسق   فابيض خداه واسودت غدائره
وخلعة قلت إذ لاحت لتزرينا   بالروض تَطْفُو على نهر أزاهره
وقد رآها عدو كان يُضْمِرُ لي   من قبلُ سوأ فخانته ضمائره
ورام صبرا فأعيته مطالبه   وغَيَّضَ الدمع فانهلَّت بوادره
بعودة الدولة الغراء ثالثة   أمنت منك ونام الليلَ ساهرُهُ

وقال أيضاً :

تسعر في الوغى نيران حرب   بأيديهم مُهَنَّدَة ذكور
ومن عجب لظى قد سعرتها   جداولُ قد أقلتها بدور

وقال ملغزاً في قالب لبن :

ما آكل في فمين   يغوط من مخرجين
مُغْرًى بقبض و بسط   وماله من يدين
و يقطع الأرض سعياً   من غير ما قدمين

وخمس لامية العجم مدحاً في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الصفدي : ولما كنت في حلب كتب إلي أبياتاً ، انتهى .

أبو جعفر أحمد بن صابر القيسي

ومنهم أبو جعفر أحمد بن صابر ، القيسي .

قال أبو حيان : كان المذكور رفيقاً للأستاذ أبي جعفر بن الزبير شيخنا ، وكان كاتباً مترسلا شاعراً ، حسن الخط ، على مذهب أهل الظاهر ، وكان كاتباً للأمير[1] أبي سعيد فرج بن السلطان الغالب بالله بن الأحمر ملك الأندلس ، وسبب خروجه

---

(١) في ا «وكان كاتب أبي سعيد فرج»

من الأندلس أنه كان يرفع يديه فى الصلاة على ماصح فى الحديث ، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله ، فتوعده بقطع يديه ، فضج من ذلك وقال : إن إقليما تمات فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتوعد بقطع اليد من يقيمها لجدير أن يرحل منه ، فخرج وقدم ديار مصر ، وسمع بها الحديث ، وكان فاضلا نبيلا ، ومن شعره :

أتنكر أن يبيضَّ رأسى لحادث ... من الدهر لا يَقْوَى له الجبلُ الراسى

وكان شعارا فى الهوى قد لبسته ... فرأسىَ أموىٌّ وقلبىَ عباسى

قلت : لو قال « شيبى » لكان الغاية

وأنشد له بعضهم :

فلا تعجباً ممن عوى خلف ذى علا ... لكل علىٍّ فى الأنام مُعَاويه

قلت : لايخفى مافيه من عدم سلوك الأدب مع الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين ويرحم الله بعض الأندلسيين حيث قال فى رجز كبير :

ومن يكن يقدح فى معاويه ... فذاك كلب من كلاب عاويه

وأنشد أبو حيان(١) للمذكور :

أرى الدهر ساد به الأرذلو ... ن كالسَّيْل يطفو عليه الغُثَا(٢)

ومات الكرام وفات المديح ... فلم يبق للقول إلا الرثا(٣)

وأنشد له أيضاً :

لولا ثلاث هن والله من ... أكبر آمالىَ فى الدنيا

حج لبيت الله أرجو به ... أن يقبل النية والسعيا

والعلم تحصيلا ونشرا إذا ... رويت أوسَعْتُ الورى ريا

(١) فى نسخة عند ا « وأنشد أثير الدين »

(٢) الغثاء ـ بضم الغين ـ مايطفو فوق وجه الماء من طحلب ونحوه ، وقد قصره وأصله المد ، وفى الكتاب العزيز (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)

(٣) الرثا ـ بكسر الراء ـ ذكر صفات الميت ، وأصله المد فقصره أيضا

وأهـل ود أسأل الله أن يُمْتِعَ بالبُقْيا إلى اللقيا[١]
ما كنت أخشى الموت أنّى أتى بل لم أكن ألتـذ بالمحيا

وقال أبو حيان فى هذه المادة :

أما إنه لولا ثـلاث أحبها تمنيتُ أنى لا أعَـدُّ من الأحيا
فمنها رجائى أن أفوز بتـوبة تـكفر لى ذنباً وتُنْجِـح لى سعيا
ومنهن صونى النفسَ عن كل جاهل لئيم فلا أمشى إلى بابه مشـيا
ومنهن أخذى بالحديث إذا الورى نَسُوا سـنة المختار واتبعوا الرأيا
أتترك نصا للرسـول وتقتدى بشخص ؟ لقد بُدِّلْتَ بالرشَد الغيا

أبو القاسم الباجى بن أبى الوليد

ومنهم الأستاذ أبو القاسم ابن الإمام القاضى أبى الوليد الباجى .

سكن سَرَقُسْطَة وغيرها ، وروى عن أبيه معظم علمه ، وخَلَفه بعد وفاته فى حلقته وغلب عليـه علم الأصول والنظر ، وله تآليف تدل على حذقه : منها « العقيدة ، فى المذاهب السديدة » ورسالة « الاستعداد ، للخلاص من المعاد » وكان غاية فى الورع ، توفى بجدة بعد منصرفه من الحج سنة ٤٩٣ ، رحمه الله تعالى ! .

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلى

ومنهم الإمام الفاضل الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلى ، الغَرْناطى .

قال العز بن جماعة : قدم علينا من المغرب سـنة ٧٢٤ ، ثم رجع إلى المغرب فى هذه السنة ، و بلغنا أنه توفى بمراكش سـنة نيف وأر بعين وسبعمائة ، وأنشد والدى قصيدةً من نظمه امتدحه بها ، وأنا أسمع ، ومن خطه نقلت ، وهى :

قِفا مورداً عيناً جرت بعدكم دما أناضى أسـفار طوين على ظما[٢]
غدون أهِـلاّتٍ تناقل أنجما ورُحْنَ حنيات تفوق أسهـما
يجشمها الحادى الأمرين حُسَّرًا ويوطئها الحادى الأحرَّين هُيَّمًا
على مَنْسِمَيْها للشقائق مَنْبِت وفى فمويها للشـقاشق مرتمى

---

(١) فى ا « يمتع بالبقيا لى اللقيا » وسقطت ألف « إلى »
(٢) كذا ، ولم يتضح لى على ما أحب

إلى أن قال :

وتعسا لآمال جهـام سحابها	تُزَجّى رُكامًا ما استهلّ ولا همى
تجاذبها نفس تجيش نفيسـة	ومن لم يجد إلا صعيداً تيمما (١)
فهل ذمم يرعاه ليـل طويته	طـوانى سرا بين جنبيه منهما
أقبـل منه للبروق مَبَاسما	وأرشف من بهماء ظلمائه لمى
إلى أن تجلّى من كنانة بَدْرُهَا	فعـرس ركبى فى حماه وخيما
ثِمَالُ اليتامى حيث ليس مظلل	وكهف الأيامى أيما عَزَّ مرتمى

ومنها :

فيا كفه آأنت أم غيث ديمة	أسالت عُبَاباً فى ثرى الجود عَيْلما (٢)
ويا سـعْيه يهنيك أجرتنى به	على معطَفٍ عليـاه برداً مُسَهَّما
قضى بمِـنًى أوطارَ نفسٍ كريمة	ورَوَّى صداها حين حل بزمزما
وناداه داعى الحق حَىَّ على الهدى	فأسرج طوعا فى رضاه وألجما
فلله ما أهدى وأرشـد واهتدى	ولله ما أعطى وأوفى وأنعما

ومنها :

أمتَّ بآداب وعـلم كليهما	أقاما لديـك الدعى فرضاً وألزما

وهى طويلة .

ومن الراحلين من الأندلس الوليـد بن هشام ، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل فيما حكى بعض المؤرخين .

الوليد بن هشام (أبو ركوة)

خرج من الأندلس على طريقة الفقر والتجرد ، ووصل بَرْقَة بَرَكْوَة لا يملك سواها فعرف بأبى ركوة ، وأظهر الزهد والعبادة ، واشتغل بتعليم الصبيان وتلقينهم القرآن ،

---

(١) الصعيد : التراب ، وهذا كقول الشاعر :

تيممتكم لما فقدت أولى النهى   ومن لم يجد ماء تيمم بالترب

(٢) فى فى ا « فيا كفه هل أنت أم غيث ديمة »

وتغيير المنكر ، حتى خدع البربر بقوله وفعله ، وزعم أن مَسْلَمَة بن عبد الملك بشر بخلافته بما كان عنده من علم الحدثان ، وكان يقال عن مسلمة : إنه أخذ علم الحدثان عن خالد بن يزيد بن معاوية ، وأخرج لهم أرجوزة أسندها إلى مسلمة ، ومنها فى وصفه :

وابن هشام قائم فى بَرْقه ... به ينال عبد شمس حقه
يكون فى بربرها قِيَامُه ... وقرة العربُ لها إكرامه

واتفق أن قرة انحرفوا عن الحاكم فمالوا إليه ، وحصروا معه مدينة برقة حتى فتحوها ، وخطبوا له فيها بالخلافة ، وكان قيامه فى رجب سنة ٣٩٧ ، فهزم عسكر باديس الصِّنْهاجى صاحب إفريقية وعسكر الحاكم بمصر ، وأحيا أمره ، وخاطبه بطانة الحاكم لكثرة خوفهم من سفك الحاكم الدماء ، ورغبوه فى الوصول إلى أوسيم [1] ، وهو مكان بالجيزة قبالة القاهرة ، فلما وصل إليها قام بمحاربته الفضل ابن صالح القيام المشهور إلى أن هزم أبا ركوة ، ثم جاء به إلى القاهرة ، فأمر الحاكم أن يطاف به على جمل ، ثم قُتل صبرا فى ١٣ رجب سنة ٣٩٩ ، ولما حصل فى يد الحاكم كتب إليه :

فررت ولم يُغْنِ الفرارُ ، ومن يكن ... مع الله لم يعجزه فى الأرض هارب
ووالله ما كان الفرار لحاجة ... سوى فزعى الموت الذى أنا شارب
وقد قادنى جُرْمى إليك برمتى ... كما اجتر ميثاقى رحى الحرب سالب
وأجمع كل الناس أنك قاتلى ... فيارُبَّ ظَنٍّ رَبُّه فيه كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهى ... وأخذك منه واجبا وهو واجب

ولأبى ركوة المذكور أشعار كثيرة ، منها قوله :

---

(١) كذا فى ب ، وفى ا « وسيم »

بالسيف يقرب كل أمر ينزح　　فاطلب به إن كنت ممن يفلح[١]

وله :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه　　وليس عليه أن يساعده الدهر

وقوله :

إن لم أُجِلْهَا فى ديار العدا　　تملأ وعر الأرض والسهلا

فلا سمعتُ الحمدَ من قاصد　　يوما ولا قلت له أهلا

وله غير ذلك مما يطول ، وخبره مشهور .

أبو زكريا يحيى بن سليمان الطليطلى

ومنهم أبو زكريا الطليطلى ، يحيى بن سليمان .

قدم إلى الإسكندرية ، ثم رحل إلى الشام واستوطن حلب ، وله ديوان شعر أكثر فيه من المديح والهجاء ، قال بعض مَنْ طالعه : مارأيته مدح أحداً إلا وهجاه ، وله مصنفات فى الأدب ، ومن نظمه قوله :

أرضٌ سَقَتْ غيطانها أعطانها　　وزهت على كثبانها قضبانها

ومنها :

فتكت بألباب الكُماة فسيفُها　　من طرفها وسِنَانُها وَسْنَانُها[٢]

لم يبق شخص بالبسيطة سالما　　إلا سبى إنسانَه إنسانُهَا

ومنها :

وتصاحَبَتْ وتجاوبت أطيارها　　وتداولَتْ وتناولت ألحانُهَا

وتنسمت وتبسمت أيامها　　وتهللت وتكللت أزمانها

بمُديرها ومُنيرها ونَميرها　　ومُعيرها حسنا جلاه عيانها[٣]

---

(١) ينزح : يبعد ، يريد أن القوة والغلبة تقرب البعيد

(٢) السنان – بكسر السين – نصل الرمح ومضربه ، والوسنان – بزنة الجوعان والعطشان – وصف من الوسن وهو النوم أو أوله

(٣) فى ا « بمديرها ومنيرها وضميرها »

أبو بكر يحيي بن عبد الله (المعروف بالمغيلي) القرطبي

ومنهم أبو بكر يحيي بن عبد الله بن محمد ، القرطبي ، المعروف بالمغيلي

سمع من محمد بن عبد الملك بن أيمن وقاسم بن أصبغ وغيرهما ، ورحل فسمع من أبي سعيد بن الأعرابي ، وكان بصيراً بالعربية والشعر ، ومؤلفا جيد النظر حسن الاستنباط ، حدث ، وتوفي فجأة في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٢ ، قاله ابن الفرضي .

أبو عبد الله محمد بن علي الأنصاري الغرناطي المحدث

ومنهم الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن يحيي بن سلمة ، الأنصاري ، الغرْناطي .

قدم المشرق وتوفي بمصر سنة ٧٠٣ عن نحو خمسين سنة ، بالبيمارستان المنصوري ، قال قاضي القضاة عبد العزيز بن جماعة الكناني في كتابه « نزهة الألباب » : أنشدنا المذكور لنفسه بالقاهرة ، بعد قدومه من مكة والمدينة ، وقد رام أن يعود إليهما فلم يتيسر له :

لئن بَعُدَتْ عني ديار الذي أهوى	فقلبي على طول التباعد لا يَقْوَى
فحدث رعاك الله عن عُرب رَامَةٍ	فإني لهم عبد على السِّر والنجوى
فإن مت شوقا في الهوى وصبابة	فيا شَرَفي إن مت في حب من أهوى
فيا أيها العُذّال كفوا ملامكم	فما عندكم بعض الذي بي من الشكوى
ويا جيرَة الحي الذي وَلَهي بهم	أما ترحموا صبا يحن إلى حُزْوَى (١)
ويا أهل ذَيَّاكَ الحمى وحياتكم	يمين وَفِيٍّ صادقِ القولِ والدَّعْوَى
ملكتم قيادي فارحموا وترفقُّوا	فأنتم مرادي لا سعاد ولا علوى
فمالي سواكم سادتي لاعدمتكم	فجودوا بوصل أنتم الغاية القصوى

انتهى .

(١) من حق العربية أن يقول « أما ترحمون صبا »

أبو عبد الله محمد بن على الغرناطي

ومنهم الفاضل الأديب أبو عبد الله محمد بن على بن يحيي بن على ، الغرْناطى قال ابن جماعة فى الكتاب المسمى قريبا : أنشدنى المذكور لنفسه ، على قبر سيدنا حمزة رضى الله تعالى عنه :

ياسيدَ الشهداء بعد محمدٍ ورضيع ذى المجد المرفع أحمد
يا ابن الأعزة من خلاصة هاشم سُرُج المعالى والكرام المجد[1]
يا أيها البطل الشجاع المحتمِى دينُ الإله ببأسه المستأسد
يانَبْعَة الشرف الأصيل المعتلى ياذروة الحسب الأثيل الأتلَدِ
يا نَجْدَةَ الملهوف فى قُحَم الوغى عند التهاب جحيمها المتوقد
ياغيثَ ذى الأمل البعيدِ مرامُه يا غيث موتور الزمان الأنكد
يامن لعُظْم مصابه خص الأسى قلب الرسول وعَمَّ كلَّ موحِّدِ
ياحمزةَ الخير المؤمَّل نفعُه يوم الهياج وعند فقد المنجد
وافاك يا أسدَ الإله وسيفه وفدٌ أمُّوا من حِماكَ بمعهد[2]
جئناك يا عمَّ الرسول وصِنْوَه قصد الزيارة فاحتفل بالقُصَّدِ
واسأل إلهك فى اغتفار ذنوبنا شِيَمُ المزور قيامُه بالعُوَّد
لُذْنَا بجانبك الكريم توسلا وكذا العبيدُ مَلاذهم بالسيد
فاشفع لضيفك فالكريم مُشَفَّع عند الكريم ومن يشفَّعْ يُقْصَدِ
يا ابن الكرام المكرِمينَ نزيلَهم أهل المكارم والعلا والسودد
نزل الضيوف جناب ساحتك التى منها يؤمَّلُ كل عطف مسعد
فاجعل أبا يعلى قِرَانا عطفةً وارغب لربك فى هُدَانا واقصِدِ
فعسى يمنُّ على الجميع بتوبة يهدى بها نهج الطريق الأرشد

(١) فى ا « سرح المعالى » بالحاء المهملة .

(٢) فى ا « وفد الموالى من حماك بمعهد » وليس بذاك

فقد اعتمدنا منك خير وسيلةٍ نرجو بها حسن التجاوز فى غد
لم لا تُؤَم وأنت عم محمد ولدينه قد صُلْتَ صولة أيِّدِ
وصحبته ونصرته وعضدته وَذَببْتَ عنه باللسان وباليد
وبذلت نفسك فى رضاه بصولة فقُتِلت فى ذات الإله الأوحد(١)
فَجَزاك عنا الله خيرَ جزائه وسقا ثراك حيا الغمام المُرْعِدِ
وعلى رسول الله منه سلامة وعليك مُتَّصِلُ الرضا المتجدد

ولد ببعض أعمال غَرْنَاطة قبل التسعين وستمائة ، وتوفى بالمدينة الشريفة طابة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧١٥ ، ودفن بالبقيع ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

أبو الحسن نور الدين المايرقى

ومنهم الشيخ نور الدين أبو الحسن ، المايرقى من أقارب بعض ملوك المغرب ، وكان من الفضلاء العلماء الأدباء ، وله مشاركة جيدة فى العلوم ونظم حسن ، ومنه قوله :

القُضْبُ راقصة، والطير صادحة والنشر مرتفع ، والماء منحدر
وقد تجلَّتْ من اللذات أوجهها لكنها بظلال الدوح تستتر
فكل وادٍ به موسى يُفَجِّره وكل رَوْضٍ على حافاته الخضِرُ

وقوله

وذى هَيَفٍ راق العيونَ انثناؤه بقدّ كريَّانٍ من البانِ مُورِقِ
كتبتُ إليه هل تجود بزورة فوقع «لا» خوف الرقيب المصدق
فأيقنت من «لا» بالعناق تفاؤلا كما اعْتَنَقَتْ « لا » ثم لم تتفرق

وهذا أحسن من قول ذى القرنين بن حمدان(٢) :

---

(١) فى ا « وبذلت نفسك فى رضاه بجنة فقبلت »
(٢) فى ا « ذى القرنين بن حمران » محرفا

إنى لأحسد «لا» فى أحرف الصحف ... إذا رأيتُ اعتناقَ اللام والألف[١]

وما أظنهما طـال اعتناقُهما ... إلا لما لَقِيَا من لوعة الأسف[٢]

وأحسن من هذا قول القَيْسَرَانى :

أَشْعِرُ اليأس من «لا» ثم يطمعنى ... إشارة فى اعتناق اللام والألف[١]

وكانت وفاة أبى الحسن المذكور فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ ، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى ! والأبيات التى أولها « القُضْب راقصة » نسبها له اليونينى وغير واحد ، والصواب أنها ليست له ، وإنما هى لنور الدين سعيد بن صاحب المغرب ، وقد تقدم ذكره ، ولعل السهو سَرَى من تشارك الاسم واللقب والقطر ، ومثل هذا كثيراً مايقع[٣] ، والله تعالى أعلم .

ابن عتبة الإشبيلى

ومن الراحلين من [أهل] الأندلس إلى المشرق ابن عتبة الإشبيلى ، وكان فارق إشبيلية حين تولاها ابن هود ، واضطرمت بفتنته الأندلس ناراً ، ولما قدم مصر هاربا من تلك الأهوال تغيرت عليه البلاد ، وتبدّدت[٤] به الأحوال ، فلما سئل عن حاله ، بعد بعده عن أرضه وتَرْحَاله ، بادر وأنشد :

أصبحت فى مصر مُسْتَضَاما ... أرقص فى دولة القـرود

واضَيْعَةَ العمر فى أخير ... مع النصارى أو اليهود[٥]

بالجَدّ رزقُ الأنام فيهـم ... لا بذوات ولا جـدود

لا تبصر الدهر مَنْ يُرَاعى ... معنى قصيد ولا قصود

أودُّ من لؤمهـم رجوعا ... للغـرب فى دولة ابن هود

وتذكرت بقوله « أرقص فى دولة القرود » ما وقع لأبى القاسم بن القطان ، وهو مما يستطرف ويستظرف ، وذلك أنه لما ولى الوزارةَ الزينبىُّ دخل عليه أبو القاسم

---

(١) فى ا « اعتناق اللام للألف » وما أثبتناه موافقا لما فى ب أصح

(٢) فى ا « وما أظنهما طال اجتماعهما » (٣) فى ا « كثيراً ماوقع »

(٤) فى ا « وتعدلت به الأحوال » (٥) فى ا « مع النصارى مع اليهود »

المذكور والمجلس حافلٌ بالرؤساء والأعيان ، فوقف بين يديه ودعا له ، وأظهر الفرح والسرور ، ورقص ، فقال الوزير لبعض من يُفْضى إليه بسره : قبح الله هذا الشيخ ! فإنه يشير برقصه إلى قول الشاعر :

* وأرقص للقرد فى دولته *

أبو عبد الله محمد بن أحمد (ابن جابر) الهروى

ومن المرتحلين[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على ، الهراوى من أهل المَرِية ، ويعرف بشمس الدين بن جابر الضرير[2] ، وله ترجمة فى الإحاطة ذكرناها مع زيادة عليها عند تعرضنا لأولاد لسان الدين بن الخطيب ، رحمه الله تعالى ! ورحل إلى المشرق ودخل مصر والشام واستوطن حلبا ، وهو صاحب البديعية المعروفة ببديعية العميان ، وسكن حلبا ، وله أمداح نبوية كثيرة وتآليف : منها « شرح ألفية ابن مالك » وغير ذلك ، وله ديوان شعر وأمداح نبوية فى غاية الإجادة ، ومن نظمه رحمه الله تعالى مُوَرِّيا بأسماء الكتب :

عرائسُ مدحى كم أبين لغيره فلما رأته قلن هذا من الأَكْفَا[3]

نوادر آدابى ذخيرة ماجد شمائل كم فيهن من نُكَت تُلْفَى

مطالعها هن المشارق للعلا قلائد قد راقت جواهرها رَصْفَا

رسالة مدحى فيك واضحة ، ولى مسالك تهذيب لتنبيه مَنْ أغفى

فيا منتهى سؤلى ومحصول غايتى لأنتَ امرؤ من حاصل المجد مُسْتَصْفَى

وقد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتابا ، وهى : العرائس

---

(١) وقع هنا فى ا ترجمتان لم يذكرا فى ب فى هذا الموضع ، وهما ترجمة للحافظ نجيب الدين أبى محمد عبد العزيز بن الأمير القائد أبى على الحسن بن عبد العزيز بن هلال اللخمي ، وترجمة لمحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد حفيد القاضى الحافظ أبى بكر بن العربي ، وقد سبق ذكر هاتين الترجمتين متعاقبتين في ص ٣٨١ من هذا الجزء ، وذكرهما فى الموضع المتقدم موافق لما فى ا ، ب جميعا ، فيكون ذكرهما فى ا هنا تكريراً لما سبق .

(٢) فى ا « من المرتحلين أبو عبد الله بن جابر محمد بن جابر ، الضرير »

(٣) فى ا « كم أتين لغيره » محرفا

للثعالبى ، والنوادر للقالى وغيره ، والذخيرة لابن بسام وغيره ، والشمائل للترمذى ، والنكت لعبد الحق الصقلى وغيره ، والمطالع لابن قرقول وغيره ، والمشارق للقاضى عياض وغيره ، والقلائد لابن خاقان وغيره ، و« رصف المبانى ، فى حروف المعانى » للأستاذ ابن عبد النور ، وهو كتاب لم يصنف فى فنه مثله ، والرسالة لابن أبى زيد وغيره ، والواضحة لابن حبيب ، والمسالك للبكرى وغيره ، والجواهر لابن شاس[1] وغيره ، و « التهذيب فى اختصار المدونة » وغيره ، و « التنبيه » لأبى إسحاق وغيره ، و « منتهى السؤل » لابن الحاجب ، و « المحصول » للامام الرازى ، و « الغاية » للنووى وغيره ، و « الحاصل » مختصر المحصول و « المستصفى » للغزالي ،
وما أحسن قول الحكيم موفق الدين :

لله أيامنا والشَّمْلُ منتظـم ... نظما به خَاطِرُ التفريق ما شَعَرَا
والَهْفَ نفسى على عيش ظفرت به ... قطعْتُ مجموعَهُ المختار مختصرا

وهذه ثلاث كتب مشهورة : المختار ، والمجموع ، والمختصر ، وأحسن منه قول الآخر :

عن حالتى يا نور عينى لا تَسَلْ ... ترك الجواب جوابُ تلك المسألة
حالى إذا حدَّثت لا لمعا ولا ... جملا لإيضاحى بها من تكمله
عندى جوًى يذَرُ الفصيحَ مبلدا ... فاترك مفصَّله ودونك مجمله
القلب ليس من الصحاح فيرتجى ... إصلاحه ، والعين سُحْبٌ مثقله

وقد أوردنا فى ترجمة أبى عبد الله بن جُزَى الكاتب الأندلسى جملة مستكثرة فى التورية بأسماء الكتب فلتراجع ثمة .

رجع إلى الشمس بن جابر - فنقول : ومن نظمه رحمه الله تعالى تثمينه للأبيات المشهورة :

لم يبق فىَّ اصْطِبَارُ
مذ خَلَّفُونى وساروا
وللحبيب أشارُوا
جار الكرام فجاروا

(١) فى ا « لابن شاش »

لله ذاكَ الأوارُ

بَانُوا فما الدار دَارُ

يا بدر أهلك جارُوا وعلموكَ التَّجَرِّى

كانوا من الود أهلى

ما عاملونى بعَدْلِ

أصْمَوْا فؤادى بنَبْلِ

يا بين بينت ثُكلى

ياروح قلبىَ قل لى

أهم دَعَوْكَ لقتلى

وحرموا لك وصلى وحللوا لك هَجْرِى

حسبى وماذا عناد

هُمُ المنى والمراد

وإن عن الحق حَادُوا

أو جاملونى وجادوا

يامن به الكلُّ سادوا

والكل عندى سدَادُ

فليفعلوا ما أرادوا فإنهم أهلُ بَدْرِ (١)

وتذكرت بهذا قول أبى البركات أيمن بن محمد السعدى رحمه الله تعالى :

للعاشقين انكسار وذلّةٌ وافتقار

وللملاح افتخار وعزة واقتدار

---

(١) أخذ هذا من قوله صلى الله عليه وسلم « لعل ربك قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » أو كما قال صلى الله عليه وسلم

وأهلُ بدرى أثاروا   وودعونى وساروا

يا بَدْرُ ـ إلخ

كتبت والوجد يُمْلِي   جدّ الهوى بعد هَزْلِ (١)

وحار ذهنى وعقلى   ما بين بدرى وأهلى

يا بَدْرُ فاحكم بعدل   إذا أتوك بعذل

وحَرَّموا ـ إلخ

لولا هواك المرادُ   ما كنت ممن يُصَادُ

ولا شجانى البعاد   يا بدر أهلُكَ جادوا

غَلِطْتُ جاروا وزادوا   لكنهم بك سادوا

فليفعلوا ـ إلخ   انتهى

رجع إلى ابن جابر ، فنقول :

توفى رحمه الله تعالى فى ألبيرة فى جمادى الآخرة سنة ٧٨٠ ، ومن نظمه قوله :

يا أهل طيبة فى مغنا كُمُ قمر   يهدى إلى كل محمود من الطُّرُقِ

كالغيث فى كرم ، والليث فى حرم   والبدر فى أفق ، والزهر فى خلق

وقوله (٢) :

أما معانى المعانى فهى قد جُمِعَتْ   فى ذاته فبدت ناراً على عَلَمِ

كالبدر فى شَيَمٍ ، والبحر فى دِيَمٍ   والزهر فى نعم ، والدهر فى نقم

وقال :

ولما وقفنا كى نودِّعَ من نأى   ولم يبق إلا أن تُحَثَّ الركائب

بكينا وحَقٌّ للمُحِبِّ إذا بكى   عشية سارت عن حماه الحبائب

---

(١) في ا « كتبت والوصل يملي » وليس بشىء

(٢) فى ا ذكر هذين البيتين بعد البيتين المذكورين هنا بعدهما وفاقا لما فى ب

وقال :

ضَحِكَتْ فقلت كأن جيدك قد غدا يهدى لثغرك من جواهر عقده

وكأن ورد الخد منك بمائه قد شاب عَذْبَ لَماك حالة ورده

وقال :

منعتنا قرى الْجَمال وقالت : ليس فى غير زادنا من مَجَال

فأقمنا على الرحال وقلنا مالنا حاجة بحط الرحال

وقال :

عَذّبَ قَلْبى رَشَأ ناعمٌ أسهر طرفى طرفُه الناعس[1]

يحرس باللحظ جَنَى خدّه ياليته لو غفل الحارس

وقال :

وافيت رَبْعَهُمُ وقد بعد المدى ونأى الفريق من الديار وسارا

ما كدت أعرف بعد طول تأمل دارا بها طاف السرور ودارا

وله :

ولست أرى الرجال سوى أناس همومهمُ موافاة الرجال

أطالوا فى النَّدَى إهلاك مال فعاشوا فى الأنام ذوى كمال

وقال :

أيها الْمُتْهِمُون نفسى فداكم أنْجِدُونى على الوصول لنجد[2]

وقفوا بى على منازل ليلى فوجودى هناك يُذْهِبُ وجدى

تقريظ لكتاب «نسيم الصبا» لابن جابر

وما كتبه على كتاب « نسيم الصَّبَا » لابن حبيب ، وصورته : لما وقفت على الفصول الموسومة بنسيم الصبا ، المرسومة فى صفحات الحسن فإذا أبصرها اللبيب

---

(١) فى ا «أسهر جفنى طرفه الناعس»

(٢) المتهمون : السائرون إلى تهامة ، ووقع فى ا « المهتمون » محرفا

صباً ، انتعش بها الخاطر انتعاش النبت بالغمام ، وهَمَلَتْ سحائب بيانها فأثمرت حدائق الكلام ، وأخرجت أرضُ القرائح ما فيها من النبات ، وسمعت الآذان ضمخة الأذهان(١) بهذه الأبيات :

هذى فصول الربيع فى الزمن ... كم حَسَنٍ أسندت إلى حَسَنِ
رَقَّتْ وراقت فمن شمائلها ... بمثل صَرْف الشمول تُتْحِفُنِي
كم مُلَحٍ قد حوت وكم لمحٍ ... يعجبنى لفظها ويعجزنى
كم فيه من نُفَثٍ ومن نكت ... أشهدنى حسنُها فأدهشنى
جمع عدمنا له النظير فلا ... يصرف عن خاطر ولا أُذُن
يا حَبْرَ أهلِ العلا وبَحْرَهُمُ ... أىّ بديعِ الكلام لم تُرِنِي(٢)
بَدْرُكَ فى مطلع الفضائل لا ... يكون مثلٌ له ولم يَكُنِ
هذى الفصول التى أتيت بها ... قد أفحمت كل ناطق لَسِنِ
كم فن معنى بها يذكرنى ... شَجْوِى لشَدْو الحمام فى فَنَن
فمن نسيب مع النسيم جرى ... لطفا فأزرى بالجوهر الثمن
وحسن سجع كالزهر فى أفق ... والزهر فى ناعم من الغُصُنِ
له معان أعيت مداركها ... كل معان بنيلهن عُنِى(٣)
لا زال راق للمجد راقها ... ذا سنن حاز أحسن السنن

فصول ، هى للحسن أصول ، وشمول ، لها على كل القلوب شمول ، ليس لقُدامة على التقدم إليها حُصول ، ولا لسَحْبان لأن يسحب ذيلها وُصول ، ولا انتهى قسّ الإيادى ، إلى هذه الأيادى ، ولا ظفر بديعُ الزمان ، بهذه البدائع الحِسان ، لقد قصر فيها حبيب(٤) عن ابنه ، وحار بين لطافة فضله وفضل ذهنه ، نزهت فى طرف

(١) فى ا « ضخمة الأذهان »
(٢) فى ا « ياخير أهل العلا » (٣) فى ا « كل معان بنيلهن غنى »
(٤) حبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، و « ابنه » الذى عناه هنا هو ابن حبيب الحلبي صاحب « نسيم الصبا » الذى يقرظه

خمائلها ، ونبهت بلطف شمائلها ، تالله إنها لسحر حَلال ، وخلال ما مثلها خلال ، كلام كله كمال ، ومجال لا يرى فيه إلا جمال ، راقم بردها ، وناظم عقدها ، فى كل فصل ، جاء بكمال فضل[١] ، وفى كل معنى ، عَمَرَ بالبراعة مَغْـنى ، أُعرب فأغرب[٢] ، وأوجز فأعجز ، وأطال فأطاب ، وأجاد حين أجاب ، فما أنفس فرائده ، وأنفع فوائده ، وأفصح مَقَاله ، وأفسَحَ مجاله ، وأطوع للنظم طباعه ، وأطول فى النثر باعه ، أزاهر نبتت فى كتاب ، وجواهر تكوَّنت من ألفاظٍ عِذاب ، ومواهب لا تدرك بيد اكتساب ، فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب ، فصول أحلى فى الأفواه من الشَّهْد ، وأشهى إلى النواظر من النوم بعد السُّهد[٣] ، سبك أدبها[٤] فى قالب النكت الحسان ، وذهب بمحامد عبد الحميد ومحاسن حَسَّان ، فما أحقها أن تسمى فصول الربيع ، وأصول البديع ، لا زال حسنها يملأ الأوراق بما راق ، ويزين الآفاق بما فاق ، ولا برحت حدائق براعته نزهة للأحداق ، وحقائق بلاغته فى جيد الإجادة بمنزلة الأطواق ، بمن الله تعالى وكرمه ، انتهى

وحيث جرى ذكر كتاب « نسيم الصبا » فلا بأس أن نذكر تقاريظ العلماء له ، فمن ذلك قول القاضى شرف الدين بن ريان : وقفت على هذا الكتاب الذى أبدع فيه مؤلفه ، ونظم فيه الجواهر النفيسة مُصَنفه ، وأينعت حدائق أدبه فدنا ثمرها لمن يَقْطفه ، وعرفت مقدار ما فيه من الإنشاء وأين مَنْ يعرفه ، فوجدته ألطف من اسمِهِ ، وأحسن من الدرر فى نظمه ، وأطيب من الوَرْد عند شمه ، هبَّتْ على رياض فصوله نسيمُ صباها ، فَفاقت الأزهار فى رُباها ، وتشوفت[٥] قلوب الأدباء إلى انتشاق شَذَاها وطيب رَيَّاها ، وفاضت عليه أنوار البدر فأغنى سَنَاها[٦] ، عن الشمس وضُحَاها ، وتحلّت نحور البلغاء من كلامه بالدر اليتيم ، ومن معانيه

لابن ريان فى تقريظ نسيم الصبا

---

(١) فى ب « جاء بكمال فصل »

(٢) فى ب « أعرب فأعرب »

(٣) السهد ــ بالضم ــ الأرق

(٤) فى ا « سكب أدبها »

(٥) فى ا « وتشوقت » من الشوق

(٦) سناها ــ بالفتح مقصوراً ــ نورها

بالعقد النظيم ، وترنَّحتْ أفنان فنون الفصاحة لما هب عليها ذلك النسيم ، كل فصل له فى الفضل أسلوب على بابه ، وطريق انفرد به مُنْشِئه محاسن لا توجد إلا فى كتابه ، صَدَرَ هذا الكتاب عن علم سابق ، وفكر ثاقب وذهن رائق ونفس صادق ، وروية ملأت تصانيفها المغارب والمشارق ، وقريحة إذا ذقت جنَاها ، وشمت[1] سنَاها ، تذكرت ما بين العُذَيْب وبارق ، فالله تعالى يبقى مصنفه قبلة لأهل الأدب ويديمه ، ويبلغه من سعادة الدنيا والآخرة ما يرومه ، بمنه وكرمه ، انتهى .

لسليمان بن داود المصرى فى تقريظ نسيم الصبا

وقرظ عليه بعضهم بقوله : وقف المملوك سليمان بن داود المصرى على فصول الحكم[2] من هذه الفصول ، ووَجَد من نسيم الصبا أمارات القبول ، ونزه طَرَفه فى رياض هذا الكتاب ، وخاطب فكره العقيم فى وصفه فعجز عن رد الجواب :

ماذا أقول وكلٌّ وصف دونه أين الحضيض من السِّماك الأعزل

يالها كلمات نقصت قدر الأفاضل ، وفضحت فصحاء الأوائل ، وسحبت ذيل الفصاحة على سَحْبان وائل ، وزادت فى البلاغة على فريد ، وغيرت حال القدماء فما عبد الرحيم الفاضل وما عبد الحميد[3] ، وذلت لها تشبيهات ابن المعتز طوعا ، وملكت زمام البيَان فما تركت للبديع منه نوعا :

قطف الرجالُ القول حين نبَاته وقطفت أنت القول لما نوَّرا

وخطاب أعجز الخطباء وَصْفُه ، وجواب ألغى البلغاء رَصْفُه ، وغرائب تعرَّفت ببديها ، وشوارد تألفت ببديهها ، وجنان بلاغة لم يَطْمِثْ أبكارَهَا إنس قبلك ولا جان ، ولم يقطف أزهارها عين ناظر ولا يدُ جَانٍ ، معان تطرب السمع لها حكم وأحكام ، وألفاظ هى الأرواح لا أرواح أجسام[4] ، فلما ألقى فهمه عروة المتماسك ، وضاقت عليه فى وصفه المسالك ، وعجز عن وصف بلوغ بلاغته ، عطف على حسن

(١) شمت : نظرت ، ووقع فى ا « وشممت سناها » (٢) فى ا « فصوص الحكم »
(٣) فى ا « ولا عبد الحميد » وعبد الرحيم : هو عبد الرحيم البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل ، وعبد الحميد : أراد به عبد الحميد بن يحيى الكاتب
(٤) فى ا « هى الأرواح للأرواح أجسام »

كتابته ، فرأى خطا يسبى الطرف ، و يستغرق الظرف ، نَسَجَ قلمه[١] الكريم من وشى البلاغة ديباجا ، واتخذ من محاسن الحسان طريقا ومنهاجا ، فألفى ألفاتٍ كاعتدال القدود ، ونوناتٍ كأهلّةِ السعود ، وسينات كالطرر ، ونقطا كالدرر ، جعل للأقلام حجة قاطعة على السيوف ، وحَلّى الأسماع بحلية زائدة على الشنوف[٢] ، فعطف ساعة يُطْنب[٣] فى دعائه وشكره ، وآونة يميل من طرَبه بألفاظه وسكره ، فلله درّ ألفاظك ودرر فضلك ، وأحسن بوابلك الهاطل بالبيان وطَلِّك :

لسانك غواص ، ولفظك جوهر وصدرك بحر بالفضائل زاخر

والله المسئول أن يرفع قدر مقالك ومقام قدرك ، و يوضح منهاج الأدب بنور بدرك بمنه وكرمه ، إنه على كل شئ قدير .

لتاج الدين السبكى فى تقريظ نسيم الصبا

وكتب قاضى القضاة تاج الدين السبكى ، رحمه الله تعالى ! فى تقريظ الكتاب المذكور ما نصه : الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، حدقت نحو الحدائق ، وفوّقْت سَهْمى تلقاء الغَرَض الشائق ، وطرقت إلى ما يضىء أخا الحجا أسهل الطرائق ، فما عَلّ صَدَاى كنسيم الصبا ، ولا كمثله سهما صائبا صبابه من لاصبا[٤] ، ولا نظرت نظيره حديقة تنبت فضة وذهبا :

وتجىء من ملح الكلا م بطارف أو تالده
كلم نوابغ نحو آ فاق المَطَالع صاعده
لو رامها قسٌّ لما ألفى أباه ساعده
أبدى نتائج عِيِّهِ فى ذى المعانى الشارده

فعين الله تعالى عليها كلمات عليها منه رقيب ، ومحاسن تسلى عندها بالحسن حبيب ،

---

(١) في ا « نسخ قلمه الكريم » ولا يتناسب مع الوشى والديباج
(٢) الشنوف : جمع شنف ، وهي حلية تلبس فى أعلى الأذن
(٣) فى ا « يطيب فى دعائه » (٤) فى ا « صابه من لاصبا »

وفوائد حسان يذكرنا بها حسان البعيد حسن القريب ، كتبه عبد الوهاب [بن] السبكى ، انتهى .

لناصر الدين محمد بن يعقوب صاحب ديوان الإنشاء

وكتب ناصر الدين صاحب دواوين الإنشاء ما صورته : وقفت على هذا الكتاب الذى أشبه الدر فى انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقَطْرَ الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البُكَر إذا غنت على غصونه مُطْربات حَمَامه ، فوجدت بين اسمه ومسماه مناسبة اقتضاها طبع مؤلفه السليم ، واتصالا قريباً كاتصال الصديق الحميم ، فتحققت أن مؤلفه ـ أبقاه الله تعالى وحرسه ! ـ أبدع فى تأليفه ، وأصاب فى تمييزه بهذا الاسم وتعريفه ، فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتقى جوهره وأجيد فى انتقائه ، قد أينعت ثمراتُ فضائله فأصبحت دانية القطوف ، وتجلت عرائس بلاغته فظهر بدرها بلا كسوف ، وانجابت ظلماتُ الهموم بسماع موصول مقاطعه التى هى فى الحقيقة لآذان الجوزاء(1) شنوف ، فأكرم به من كتاب ما الروضُ بأبهى من وَسيمه ، ولا الرَّيْحان بأعطر من شَميمه(2) ، ولا المدامة بأرق من هبوب نسيمه ، ولا الدر بأسنى زهراً بل زهوا من رُسُومه ، إذا تدبره الأديب أغنته تلك الأفانين ، عن نغمات القوانين ، وإذا تأمله الأريب نزه طرفه فى رياض البساتين ، قد سُوِّر على كل نوع من البديع باب ، لا يدخله إلا من خص من البلاغة باللُّبَاب(3) ، والله تعالى يؤتيه الحكمة وفصل الخطاب ، ويمتع بفضائله التى شهدها أهل العلم وذوو الألباب ، بمنه وكرمه ، وكتبه محمد بن يعقوب الشافعى .

للصفدى

وكتب الصفدى شارح لامية العجم بما نصه : وقفت على هذا المصنف الموسوم بنسيم الصبا ، والتأليف الذى لو مرَّ بالمجنون لما ألف ليلاه ولا مال إليها ولا صبا ،

---

(1) فى ا « لأذن الجوزاء »

(2) الشميم ـ بفتح الشين ـ الريح

(3) اللباب ـ بضم أوله ـ خالص كل شىء ، وفى ا « خص بالبلاغة باللباب » وليس بشىء

والإنشاء الذى إن شاء قائلُه جعل الكلام غيره فى هَبَّات الهواء هَبا ، والنثر الذى أغار قائله على سبائك الذهب الإبريز وسَبَا ، والكلام الذى نبا عنه الجاحظ جاحداً وماله ذكر ولانبا[1] ، فسبَّحَتْ جواهر حروفه لمن أوجده فى هذا العصر ، وعلمت أن ألفاظه ترمى قلوبَ حساده بِشَرَرٍ كالقصر ، وتحققت أن قعقعة طروسه أصوات أعلامه التى تَخْفِقُ له بالنصر ، وتيقنت أن سطوره غصون لا تصل إليها كف جناية بجَنًى ولا هَصْر :

وقلت لأهل النظم والنثر قابلوا (ترائبها مصقولة كالسجنجل)[2]

وميلوا بأعطاف التعجب إنها (نسيم الصباجاءت بريَّا القرَنْفُلِ)

ولما ملت بعد ما ثملت ، وغزلت بعد ماهزلت ، جردت من نفسى شخصاً أخاطبه وأجاريه ، فى أوصاف محاسنها التى أناهبُه منها وأناهيه ، فقال لى : هذا الفن الفذ ، والنثر الذى قهر أقران هذه الصناعة و بذ ، والأدب الذى سد الطرق على أوابده فما فاته شىء ولا شذ ، وهذا الإنشاء الذى ماله عديل فى هذا العديد ولاضريب ، وهذا الكلام الذى فاق فى الآفاق فما لحبيب بن أوس حسن حسن بن حبيب ، فعين الله تعالى على هذه الكلم الساحرة ، والفوائد التى أيقظت جفن الأدب بعد ما كان بالساهرة ، ومتع الله تعالى الزمان وأهله بهذا النوع الغض ، والنقد النض ، والبز البض ، والبديع الذى رَمَّ ماتشعَّث من ربع هذا الفن ورض ، واقتض المعانى أبكاره وافتض ، وأرسل جارح بلاغته على الجوارح فصادها وانقص وانقض ، وأنْبَطَ ماء الفصاحة لما تحدر وارفَضَّ ، واستمال القلب الفظ لما فك ختم ذهوله وفض ، إنه على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير ، بمنه وكرمه ، وكتبه خليل الصفدى ، انتهى .

---

(١) نبا ، هنا : أى خبر ، وأصله نبأ ، بالهمزة ، فقلبها ألفا لانفتاح ماقبلها

(٢) عجز هذا البيت والذى بعده من معلقة امرىء القيس . وللصفدى صاحب هذا الكلام قصيدة طويلة جعل أعجاز أبياتها من كلام امرىء القيس فى المعلقة . ولابن نباتة المصرى عصريه وصديقه قصيدة أخرى صنع فيها ذلك

أبو جعفر الإلبيرى الأديب

ومنهم الأديب أبو جعفر الإلبيرى[1].

رفيق ابن جابر السابق الذكر، وهو البصير وابن جابر الأعمى، وله نظم بديع منه قوله :

أبدت لى الصدغ على خدها فأطلع الليـــل لنا صبحه
فخـــدها مع قدها قائل (هذا شقيق عارض رمحه)[2]

وقوله وقد دخل حمص :

حمص لمن أضحى بها جنة يدنو لديها الآمـــل القاصى
حل بها العاصى ألا فاعجبوا من جنـــة حل بها العاصى

وقوله :

إن بَيْنَ الحبيب عندىَ موت وبه قد حييت منـــذ زمان[3]
ليت شعرى متى تشاهده العيـــن وتقضى من اللقاء الأمانى

قال : وفيه استخدام، لأن البين يطلق على البعد والقرب، انتهى.

ومن نظمه أيضاً رحمه الله تعالى :

ومورد الوجنات دَبَّ عِذاره فكأنه خط على قرطاس
لما رأيت عِذاره مستعجلا قد رام يخفى الورد منه بآس
ناديته قف لى أودع ورده (مافى وقوفك ساعة من باس)

وهذا المعنى قد تبارى فيه الشعراء وتسابقوا فى مضماره، فمنهم من جلى وبرز، وحاز خصل السبق وأحرز، ومنهم من كان مُصَلياً، ومنهم من غدا لجيد الإحسان مُحلياً، ومنهم من عاد قبل الغاية موليا.

رجع - ومن تأليفه رحمه الله تعالى شرحه لبديعية رفيقه ابن جابر المذكور،

---

(١) فى ا «الإلبرى» (٢) عجز هذا البيت مأخوذ من صدر بيت، وهو بتمامه :

جاء شقيق عارضا رمحـــه إن بنى عمك فيهم ســـلاح

(٣) بين الحبيب : فراقه (٤) عجز هذا البيت من كلام أبى تمام

وقال فى خطبته : ولما كانت القصيدة المنظومة فى علم البديع المسماة « بالحلة السيرا فى مدح خير الورى » التى أنشأها صاحبنا العلامة شمس الدين أبو عبد الله بن جابر الأندلسى ، نادرةً فى فنها ، فريدة فى حسنها ، تجنى ثمر البلاغة من غصنها ، وتنهل سواكب الإجادة من مُزْنِهَا ، لم ينسج على منوالهـا ، ولا سمحت قريحة بمثالها ، رأيت أن أضع لها شرحا يجلو عرائس معانيها لمعانيها ، و يبدى غرائب مافيها لموافيها ، لاأمِلُّ الناظر فيـه بالتطويل ، ولا أعوقه بكثرة الاختصار عن مدارك التحصيل ، فخير الأمور أوسطها ، والغرض مايقرب المقاصد و يضبطها ، فأعرب من ألفاظها كل خفى ، وأسكت من لغاتها عن كل جلى ، والله أسأل أن يبلغنا ماقصدناه ، و يوردنا أحسن الموارد فيما أردناه ، انتهى ، وسمى الشرح المذكور « طراز الحلة ، وشفاء الغلة »
ومما أورده رحمه الله تعالى فى ذلك الشرح من نظم نفسه قوله :

طيبة ما أطيبها مـنزلا ... سـقى ثراها المطر الصيب
طابت بمن حـل بأرجائها ... فالترب منها عنـبر طيب
ياطيب عيشى عند ذكرى لها ... والعيش فى ذاك الحمى أطيب

وقال رحمه الله تعالى فى هذا الشرح بعـد كلام مانصه : و إذا أردت أن تنظر إلى تفاوت درجات الكلام فى هذا المقام فانظر إلى إسحاق الموصـلى : كيف جاء إلى قصر مشيد ، ومحل سرور جديد ، فخاطبه بما يخاطب به الطلول البالية ، والمنازل الدارسة الخالية ، فقال :

* يا دار غيرك البلى ومحاك * [1]

فأحزن فى موضـع السرور ، وأجرى كلامه على عكس الأمور ، وانظر إلى قول القَطَامى :

---

(١) عجز هذا البيت هو قوله :

* ياليت شعرى ما الذى أبلاك *

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطِّيَلُ

فانظر كيف جاء إلى طَلَل بال ، ورسم خال ، فأحسن حين حياه ، ودعا له بالسلامة كالمبتهج برؤية مُحيَّاه ، فلم يذكر دروس الطلل وبلاه ، حتى آنس المسامع بأوفى التحية وأزكى السلامة ، والذى فتح هذا الباب ، وأطنب فيه غاية الإطناب ، صاحب اللواء ، ومقدم الشعراء (١) ، حيث قال :

ألاعِمْ صباحا أيها الطلل البالى وهل يَعِمَنْ مَنْ كان فى العُصُرِ الخالى

وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل هموم مايبيت بأوجال

قيل : وهذا البيت الأخير يحسن أن يكون من أوصاف الجنة ، لأن السعادة والخلود وقلة الهموم والأوجال لاتوجد إلا فى الجنة ، انتهى .

وقال رحمه الله تعالى عند رحيله من غَرْنَاطة وأعلام نجد تلوح ، وحمائمه تشدو على الأيك وتنوح :

ولما وقفنا للوداع وقد بدت قبابٌ بنجد قد عَلَتْ ذلك الوادى

نظرت فألفيت السبيكة فضة لحسن بياض الزهر فى ذلك النادى

فلما كَسَتْهَا الشمس عاد لُجَيْنُهَا لها ذهباً فاعجب لإكسيرها البادى

والسبيكة : موضع خارج غَرْنَاطة .

وقال رحمه الله :

هذه عشرة تَقَضَّتْ وعندى من أليم البعاد شوقٌ شديدُ

وإذا مارأيت إطفاء شوقى بالتلاقى فذاك رأى سديد

وقال رحمه الله تعالى وقد أهدى طاقية :

خذها إليك هدية ممن يعز على أناسك

اختَرتُهَا لك عند ما أضحت هدية كل نَاسِكْ

---

(١) أراد امرأ القيس ، وسماه صاحب اللواء أخذا مما ينسب إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حق امرىء القيس « يجىء يوم القيامة حامل لواء الشعراء إلى النار »

أرسلتها طاقيـــــة لتنوب فى تقبيل راسك [١]

وله من رسالة : وافى كتابك فوجدناه أزهى من الأزهار ، وأبهى من حسن الْحَبَاب على الأنهار ، يشرق إشراق نجوم السماء ، ويسمو إلى الأسماع سموحَبَاب الماء .

وقال رحمه الله تعالى فى العروض على مذهب الخليل :

خَلِّ الأنام ولا تخالط منهم أحداً ولو أصفى إليك ضمائره [٢]
إن الموفَّقَ من يكون كأنه متقارب فهو الوحيد بدائره

وقال على مذهب الأخفش :

إن الخلاص من الأنام لراحة لـكنه ما نال ذلك سَالِكُ
أضحى بدائرة له متقارب يرجو الخلاص فعاقَهُ متدارك

وله :

دائرة الحب قد تناهت فما لها فى الهوى مزيد
فبحر شوقى بها طويلٌ وبحر دَمْعى بهـــا مديد
وإنَّ وَجْدى بها بسيط فليفعل الحســن ما يريد

وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيراً ، ومنهم الشيخ شهاب الدين بن صارو البعلى [٣] .

قال أبو جعفر المترجم به : أنشدنا شهاب الدين المذكور لنفسه بحماة :

وبى عروضىٌّ سريع الجفا يغـار غصنُ البان من عطفه
الورد من وجنته وافـــر لـكنه يمنـــع من قطفه

قال : وأنشدنا أيضاً لنفسه :

وبى عروضى سريع الجفـا وجدى به مِثْلُ جفاه طويل
قلت له قَطَّعْتَ قلبى أسًى فقال لى التقطيع دأبُ الخليل [٤]

---

(١) فى ا « لتنوب عن تقبيل راسك »

(٢) فى ا « ولو أصغى إليك ضمائره » وأصغى : أمال

(٣) فى ا « اليعلى »

(٤) ورى هنا بالخليل الذى هو الصديق عن الخليل ابن أحمد الفراهيدى مخترع علم العروض وشيخ النحاة أجمعين

وأنشد رحمه الله تعالى لرفيقه ابن جابر الضرير السابق الترجمة فى ذلك :

إن صدَّ عنى فإنى لا أعاتبه ... فما التنافر فى الغزلان تنقيص

شوقى مديد وحبى كامل أبدا ... لأجل ذلك قلبى فيه مَوْقُوصُ

وأنشدنا فى ذلك أيضا :

عالم بالعَروض يَخْبِنُ قلبى ... فى مديد الهوى بلحظٍ سريع

عنده وافر من الرِّدْفِ يبدو ... وخفيف من خصره المقطوع

وله[1] :

سبب خفيف خصرها ، ووراءه ... من ردفها سبب ثقيل ظاهر

لم يجمع النوعان فى تركيبها ... إلا لأن الحسن فيها وافر[2]

وله :

صدوده لى مديد ... وأمر حبى طويل

وفيه أسباب حسن ... وتلك عندى الأصول[3]

فخصره لى خفيف ... وردفه لى ثقيل

وقد ذكر أبو جعفر ـ رحمه الله تعالى! ـ لرفيقه ابن جابر السابق الذكر مقطوعات كثيرة ، منها قوله :

يا أيها الحادى اسقنى كأس السُّرَى ... نحو الحبيب ومهجتى للساقى

حى العراق على النوى واحمل إلى ... أهل الحجاز رسائل العشاق

يا حسن ألحان الُحدَاة إذا جرت ... نغماتها بمسامع المشتاق

وأورد له أيضا :

ياحسن ليلتنا التى قد زارنى ... فيها فأنجز مامضى مِنْ وعْدِهِ

---

(١) وقع هذان البيتان فى ا بعد ثلاثة الأبيات المذكورة هنا بعدهما وفاقا لما فى ب

(٢) فى ا « إلا كأن الحسن فيها وافر » محرفا (٣) فى ا « وتلك فهى الأصول »

قوّمت شمس جماله فوجدتها ... فى عَقْرَبِ الصُّدْغ الذى فى خدّه

رجع إلى أبى جعفر — رحمه الله تعالى ! — ومن فوائده أنه لما ذكر فَذْلَكة الحساب فقال : هى التى يضعها[1] أهل الحساب آخر جملهم المتقدمة فيقولون : فذلك كذا كذا ، انتهى

ولما أنشد رحمه الله تعالى قول بعضهم :

غزال قد غزا قلبى ... بألحاظٍ وأحداق

له الثلثان من قلبى ... وثلثا ثلثه الباقى

وثلثا ثلث ما يبقى ... وباقى الثلث للساقى

وتبقى أسهم ست ... تقسم بين عشاق

قال مانصه : هذا الشاعر قسم قلبه إلى ٨١ سهماً ، فجعل لمحبوبه منها الثلثين ٥٤ ، وبقى الثلث ٢٧ ، فزاده ثلثيه ١٨ ، فصار له ٧٢ ، يبقى ثلث الثلث وهو ٩ ، زاده منها ثلثى ثلثها ، وهو اثنان ، وبقى من الثلث واحد أعطاه للساقى ، فبقى من التسعة ستة ، قسمها بين العشاق ، فاجتمع لمحبوبه ٧٤ ، وللساقى سهم واحد ، وللعشاق ستة ، والجملة ٨١ ، انتهى .

وأنشد رحمه الله تعالى فى علم الحساب لرفيقه ابن جابر السابق الذكر :

قسم القلب فى الغرام بلحظ ... يضرب القلب حين يرسل سهمه

هذه فى هواه يا قوم حالى ... ضاع قلبى ما بين ضَرْبٍ وقِسْمَه

وأنشد له فى الهندسة :

مُحيطٌ بأشكال المَلَاحة وجهه ... كأنّ به إقليدسا يتحدّث

فعارضه خط استواء ، وخاله ... به نقطة ، والشكل شكل مثلث

وأنشد له فى خط الرمل :

فوق خديه للعِذَارِ طريق ... قد بدا تحته بياضٌ وحُمْرَة

---

(١) فى ا « هى التى يصنعها »

قيل ماذا فقلت أشكال حسن تقتضى أن أبيع قلبى بنظره

وأنشد له فى علم الخط :

قد حقق الحسنُ نور حاجبه وخَطَّ فى الصُّدْغ واو ريحان
ومَدَّ من حسن قدِّه ألفاً أوقفَ عينى وقُوفَ حيرانِ

وأنشد له أيضا :

ألفُ ابنِ مقلة فى الكتاب كقَدِّه والنونُ مثل الصدغ فى التحسين
والعين مثل العين لكن هذه شكلت بحسن وقاحة ومجون
وعلى الجبين لشعره سين بدت حار ابن مقلة عند تلك السين
قل للذى قد خط تحت الصدغ من خِيلاَنِهِ نُقَطًا لَجلْبِ فنون
ياللرجال و يالها من فتنة فى وضع ذاك النقط تحت النون

وأورد له فى ذكر الأقلام السبعة وغيرها :

تعليق رِدْفِكَ بالخصر الخفيف له ثلث الجمال وقد وَفَّتْهُ أجفان
خد عليه رقاع الروض قد جُعلت وفى حواشيه للصدغين ريحان
خَطَّ الشباب بطُومار العذار به سطرا ففضَّاحُه للناس فتان
محقق نسخ صبرى عن هواه ومن توقيع مدمعىَ المنثورِ برهانُ
ياحسن ما قَلَمُ الأشعار خَطَّ على ذاك الجبين فلا يسلوه إنسان
أقسمت بالمصحف الشامى وأحرفه ما مر بالبال يوماً عنك سُلْوَانُ
ولا غبار على حى فعندك لى حساب شوق له فى القلب ديوان

وأنشد له :

يا صاحب المال ألم تستمع لقوله ما عندكم ينفد[1]
فاعمل به خيرا فوالله ما يبقى ولا أنت به مخلد

---

(١) فى ا « ياصاحب المال لم تستمع » ولا يتم عليه وزن البيت .

وله :

إن شئت أن تجد العدوّ وقد غدا ... لك صاحبا يُولِى الجميلَ ويُحْسن
فاعمل كما قال الخبير بخلقه ... فى قوله (ادفع بالتى هى أحسن)

وله :

إذا شئت رزقا بلا حِسْبَةٍ ... فَلُذْ بالتقى واتبع سُبْلَهُ
وتصديق ذلك فى قوله ... (ومن يتق الله يجعل له)

وأورد له أيضا[1] :

عمل إن لم يوافق نيةً ... فهْوَ غرْسٌ لا يرى منه ثمر
«إنما الأعمال بالنيات» قد ... نَصَّه عن سيد الخلق عمر

وقوله :

الخير فى أشياء عن خير الورى ... وردت فأبدت كل نَهج بَيِّنِ
دع ما يريبك ، واعملنّ بنية ، ... وازهد ولا تغضب، وخلقكَ حَسِّنِ

وقوله :

حياء المرء يزجره فيخشى ... فَخَفْ من لا يكون له حياء
فقد قال الرسول بأن مما ... به نطق الكرامُ الأنبياء
إذا ما أنت لم تَستَحْيِ فاصنع ... كما تختار وافعل ما تشاء

وقوله :

قال الرسول «الحياء خير» ... فاصحب من الناس ذا حياء
وعن قليل الحياء فابعد ... فخيره ليس ذا رجاء

وقوله :

---

(١) الأبيات الآتية تشتمل على الاقتباس من الحديث النبوى، والأحاديث المقتبسة معروفة مشهورة .

من سلم المسلمون كلهم وآمنوا من لسانه ويده[1]
فذلك المسلم الحقيق ، بذا جاء حديث لاشك فى سَنَدِهْ

ولابن جابر مما كتب به إلى الصلاح الصَّفَدى :

إن البراعة لفظ أنت معناه وكل شىء بديع أنت مَغْنَاه
إنشاد نظمك أشهى عند سامعه من نظم غيرك لو إسْحَاقُ غنَّاه[2]

وهى طويلة ، فأجابه الصفدى بقوله :

يا فاضلا كرمت فينا سَجَاياه وخَصَّنا باللآلى فى هداياه
خَصَصْتَنِى بقريض شَفَّ جوهره لما تألق منه نور معناه
من كل بيت مَبَانيه مشيدة كم من خبايا معانٍ فى زواياه[3]

وهى طويلة

رجع إلى نظم أبى جعفر ــ فمن ذلك قوله :

تريك قداً على رِدْفٍ تجاذبه كخُوطَة فى كثيب الرمل قد نبتت
رَيَّا القرنفل فى ريح الصبا سحرا يَضُوعُ منها إذا نحوى قد التفتت

عقد بهما ألفاظ قول امرئ القيس :

إذا التفتت نحوى تضوع ريحها نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وأورد له قوله :

ولولا نَجَاءُ العِيسِ حول ديارها غداة مِنًى لم يبق فى الركب مُحْرِمُ
فقوق ذُرَى المتنين بردٌ مهلل وتحت رداء الخز وجه معلم

عقد فى الأول قول قيس بن الخطيم[4] :

ديار التى كنا ونحن على مِنًى تحوط بنا لولا نَجَاء الركائب

(١) فى ا « وأمنعوا من لسانه ويده » محرفا
(٢) يريد إسحاق الموصلى ، شيخ صنعة الغناء فى عهد الرشيد العباسى .
(٣) أخذه من قولهم « كم فى الزوايا من خبايا »
(٤) فى ا « قيس بن الحطيم » بحاء مهملة ، والصواب بالخاء المعجمة

وعقد فى الثانى قول ابن أخى ربيعة

أماطت رداء الخز عن حُرِّ وجهها ... وأرخت على المتنين بردًا مهللا

وأورد له قوله :

إن ادعى لك مروان الجلال فقل ... لا يجهل المرء بين الناس رتبته

إن الجلالة حقا للمقول له ... «هذا الذى تعرف البطحاء وطأته»(١)

وقوله :

مَنْ مُنْصِفِى يا قوم من ظبية ... تسرف فى هجرى وتأبى الوصال

وكلما أسأل عن عذرها ... تقول لى : ما كل عذر يقال

وقوله :

هم حسدوا الرسولَ فلم يجيبوا ... وكم حسدوا فصار لهم فرار

وهاجَرَ عند ما هجروا فأضحى ... لخيمة أم معبدٍ الفخار(٢)

وقوله .

بحَسْبِك أن تبيت على رجاء ... ولو حَطّتْكَ لليأس الخطوبُ

ومهما أقربتك صروفُ دهرٍ ... فقل ما قاله الرجل الأريب

(عسى الكرب الذى أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب)

وقوله :

خليلىّ هذا قبر أشرف مرسل ... (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)

رويدكما نبكى الذنوب التى خلت ... (بسقط اللوى بين الدخول فحومل)

منازل كانت للتصابى فأقفرت ... (لما نسجتها من جنوب وشمأل)

قال : ثم جرى على هذا النمط ، واستخرج الدرر النفيسة من ذلك السَّفَط ، وقال

---

(١) عجز هذا البيت صدر بيت ينسب للفرزدق يقوله فى زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبي طالب ، وعجزه من قول الفرزدق «والبيت يعرفه والحل والحرم» .

(٢) أم معبد : امرأة قال النبى صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر فى خيمتها عند هجرتهما إلى المدينة ، وفيها قيل :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتى أم معبد

قبله : إنه أخذ أعجاز هذه القصيدة من أولها إلى آخرها على التوالى، وصنع لها صدورا، وصرفها إلى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاء فى ذلك بما لم يسبق إليه ، ولم يقف أحد فى تلك المعانى على ما وقف عليه ، انتهى .

وقوله :

كم ليالٍ خَلَتْ بكم كاللآلى ... نَظَمَتْهَا لنا يدُ الأزمان
أيها النازحون عن رأى عينى ... وهُمُ فى جوانحى وجَنانى
ما ألَذَّ الوصال بعد التنائى ... وأمر الفراق بعد التدانى
قد وكانا كُمُ لرب كريم ... غير وان عن عبده فى أوان
ما رحلنا عن اختيارٍ ولكن ... رحلتنا تلوّنات الزمان

وقوله :

تشتكى الصفر من يديه وترضى السـمر عن راحتيه عند الحروب (١)
أحمر السيف أخضر السيب حيث الأرض غبراء من سواد الخطوب (٢)

وقوله مما التزم فى أوله الدال :

دفاع لمكروه ، أمان لخائف ... سحاب لمستَجْدٍ ، هلاك لمستعدى
دروب على الحسنى ، عفوّ لمن جنى ... مثيب لمن أثنى ، مجيب لِذِى قصد
دع الغيث إن أعطى ، دع الليث إن سطا ... دع الروض إذا أهدى، دع البدر إذ يَهْدِى

وقوله :

غزال ما توسَّدَ ظلَّ بانٍ ... بهاجرة ولا عَرَفَ الظلالا
تبسم لؤلؤا ، واهتز غصنا ... وأعرض شادنا ، وبدا هلالا

وقوله :

رفع الخصر فوق منصوب رِدْفٍ ... ولجزم القلوب فَرْعَيْهِ جرَّا

(١) أراد بالصفر الدنانير ، وشكواها منه أنه ينفقها ، وأراد بالسمر الرماح ، ورضاها عنه أنه يحسن الضرب بها فى الأعداء .

(٢) السيب – بفتح السين وسكون الياء – العطاء .

مال غصنا ، دَنَا رَشًا ، فاح مسكا تاه درا ، أرخى دُجًى ، لاح بدرا

وقوله حين زار قبر قسّ بن ساعدة بجبل سِمْعَان :

هذى منازل ذى العلا قسّ بن ساعدة الإيادى
كم عاش فى الدنيا وكم أسدى إلينا من أيادى
قد زانها بحُلَى البلاَ غة مفصحا فى كل نادى
قد قرّ فى بطن الثرى متفرّدا بين العباد[1]

قال أبو جعفر : زرنا قبره فرأينا موضعا ترتاح إليه النفس ، ويلوح عليه الأنس ، وعند قبره عين ماء يقال : إنه ليس بجبل سمعان عين تجرى غيرها هنالك ، وأورد له قوله :

كِرَام فِخَام من ذُؤَابة هاشم يقولون للأضياف أهلا ومرحبا
فيفعل فى فقر المقلِّينَ جودُهم كفعل علىّ يوم حارب مَرْحَبَا[2]

رجع إلى أبى جعفر رحمه الله تعالى – فنقول : إنه كان بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم سنة ٧٥٥ ، ولما ذكر الروضة قال : قيل : ولا تكون الروضة إلا بما سقتها ، أزال جنبها[3] ، ولا يقال فى موضع الشجر روضة ، انتهى ، وقال :

لقوامه الألف التى جاءت بحسنٍ ما أُلِفْ
عانقته فكأننى لام معانقة الألف

وقال رحمه الله تعالى معتذرا عمن لم يسلم :

لا تعتبن على تركِ السلام فقد جاءتك أحرفه كَتْباً بلا قلم
فالسين من طرّتى واللام مع ألف من عارضىّ وهذا الميم ميم فمى

وقال رحمه الله تعالى :

(١) فى ا « قر منه فى كل بطن الثرى » ولا يستقيم .
(٢) مرحب : رجل يهودى حاربه على بن أبى طالب رضى الله عنه .
(٣) كتب فى هامش ب على هذه العبارة « كذا فى نسخة المؤلف رحمه الله تعالى ، ا هـ من هامش »

لا يُقْنِطَنَّكَ ذنب قد كان منك عظيم (١)
فالله قد قال قولا وهو الجواد الكريم
(نَبِّىءْ عبادىَ أنى أنا الغفور الرحيم)

وقال :

إذا ظلم المرء فاصبر له فبالقرب يقطع منه الوَتِينْ
فقد قال ربك وهو القوى (وأملى لهم إن كيدى متين)

وصف قصيدة كعب بن زهير لابن جابر

ومن نثره لما ذكر قصيدة كعب بن زهير رضى الله تعالى عنه ما نصه : وهذه القصيدة لها الشرف الراسخ ، والحُكْمُ الذى لم يوجد له ناسخ ، أنشدها كعبٌ فى مسجد المصطفى بحضرته وحضرة أصحابه ، وتوسَّل بها فوصل إلى العفو عن عقابه ، فسدَّ صلى الله عليه وسلم خَلَّته (٢) ، وخلع عليه حُلَّته ، وكف عنه كَفَّ من أراده ، وأبلغه فى نفسه وأهله مُرَاده ، وذلك بعد إهدار دمه ، وما سبق من هَذَرِ كَلِمِهِ ، فمحت حسناتُها تلك الذنوب ، وسترت محاسنها وجهَ تلك العيوب ، ولولاها لمنع المدح (٣) والغَزَل ، وقَطَعَ مَنْ أخذ الجوائز على الشعر الأمل ، فهى حجة الشعراء فيما سلكوه ، ومِلاكُ أمرهم فيما ملكوه ، حدثنى بعضُ شيوخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة كعب ، فقيل له فى ذلك ، فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، قصيدة كعب أنشدها بين يديك ؟ فقال : نعم ، وأنا أحبها وأحب مَنْ يحبها (٤) ، قال : فعاهدت الله أن (٥) لا أخلو من قراءتها كل يوم .

قلت : ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن يَنْسِجُون على مِنْوَالها ، ويقتدون بأقوالها ، تبركا بمن أنشدت بين يديه ، ونُسب مدحها إليه ، ولما صنع

(١) فى ا « لايعظنك ذنب » ولعله محرف عن « لايعظمنك ذنب »
(٢) خلته ــ بفتح الخاء وتشديد اللام ــ حاجته ، وأراد حاجته إلى عفوه عنه .
(٣) فى ا « ولولا منع المدح والغزل » وليس بشىء .
(٤) فى ا « وأحب من أحبها » (٥) فى ا « أنى لا أخلو »

القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر قصيدة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم على وزن « بانت سعاد » قال :

لقد قال كعب فى النبىِّ قصيدةً   وقلنا عسى فى مدحه نتشارك
فان شملتنا بالجوائز رحمة   كرحمة كعب فهو كعب مبارك

انتهى .

وقال رحمه الله تعالى :

لقد كر العذار بوجنتيه   كما كر الظلام على النهار
فغابت شمس وجنته وجاءت   على مهل عَشِيَّاتُ العذار
فقلت لناظرى لما رآها   وقد خاط السواد بالاحمرار
(تمتع من شميم عَرَار نجد   فما بعد العشية من عَرَار)

وقال :

قالوا عشقت وقد أضرَّ بك الهوى   فأجبتُهم يا ليتنى لم أعْشَقِ
قالوا سبقت إلى محبة حسنه   فأجبتهم ما فاز من لم يسبق

ولما أنشدنا[1] رحمه الله تعالى قولَ ابن الخشاب فى المستضىء بالله :

وَرَدَا الورى سَلْسَالَ جودِك فارْتَوَوْا   ووقفتُ دون الوِرْدِ وَقْفَةَ حائمِ
ظمآن أطلب خفة من زحمة   والورد لا يزداد غير تزاحم

قال مانصه : فانظر حسن هذين البيتين كيف جريا كالماء فى سَلاَسته ، ووقعا من القلوب كالشهد فى حلاوته ، مع أن ناظمهما ماخرج عن وصف الماء كلامُه ، ولا تعدى ذلك المعنى نظامه ، حتى قيل : إن فيهما عشرة مواضع من مراعاة النظير ، فهما فى الحسن مالهما من نظير ، لكنه ماسلم مليحٌ من عيب ، ولا خلا من وقوع ريب ، فمع هذه المحاسن الوافية ، ما سلما من عيب القافية ، انتهى .

---

(١) فى ا « ولما أنشد رحمه الله » بدون « نا »

ولنختم ترجمته بقوله عند شرح بيت رفيقه :

خير الليالى ليالى الخير فى إضَمٍ والقوم قد بلغوا أقصى مُرَادهم

ما نصه : يقول : إن خير الليالى التى تنشرح لها الصدور ، ويحمد فيها الورود والصدور ، ليالى الخير فى إضَم ، حيث النزيل لم يُضَم ، والقوم قد وردوا موارد الكرم ، و بلغوا أقصى مرادهم فى ذلك الحرم .

أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسى

ومن الراحلين الولىُّ الصالحُ أبو مروان عبدُ الملك بن إبراهيم بن بشر ، القيسى .

وهو ابن أخت ابن صاحب الصلاة البجانسى ، نسبة إلى بجانس[1] قرية من قرى وادى آش ، وكان ــ رحمه الله تعالى ! ــ فى أواسط المائة السابعة ، وقد ذكره الفقيه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدى القَشْتَالى فى تأليفه الذى سماه « تحفة المغرب ، ببلاد المغرب » وقال فيه : راضوا نفوسهم لتَنْقَادَ للمولى سرا وعلنا ، وزهدوا فى الدنيا فلم يقولوا معنا ولا لنا ، وانتدبوا لقول الله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنَا)

وقال صاحب التأليف المذكور : سألت الشيخ أبا مروان يوما فى مسيرى معه من وادى آش إلى بلده بجانس سنة تسع وأربعين وستمائة ، فقلت له : أنت ياسيدى لم تكن قرأت ولا لازمت المشايخ قبل سفرك للمشرق ، ولا سافرت مع عالم تقتدى ببركته فى هذا الطريق ، فقال لى : أقام الله تعالى[2] من باطنى شيخا ، قلت له : كيف ؟ قال : كنت إذا عرض لى أمر نظرت فى خاطرى فيخطر لى خاطران فى ذلك ، أحدهما محمود والآخر مذموم ، فكنت أجتنب المذموم وأرتكب المحمود ، فإذا وصلت إلى أقرب بلد سألت عمن فيه من المشايخ والعلماء ، فأسأله عن ذلك ، فكان يذكر لى المحمود محمودا

(١) بجانس : ليست فى المعجم ولا فى الروض

(٢) فى ا « أقام الله لى من باطنى شيخاً »

والمذموم مذموما ، فأحمد الله تعالى أن وفقنى ، ومع تتابع ذلك واتصاله دون مخالفة لم أعتمد[١] على ما يقع بخاطرى من الأمور الشرعية إلى الآن حتى أسأل عنه من حضر من العلماء ، انتهى .

ومن كلام صاحب التأليف المذكور قوله فى حق الصوفية ، نفعنا الله تعالى بهم : حَمُوا طريقَ الحق فحاماهم ، ونوّر بصائرهم فأصمهم عن الباطل وأعماهم ، وأهانوا فى رضاه نفوسهم ، ورفضوا نعماهم ، فأعلى قدرهم عنده وعند الناس وأسماهم ، انتهى .

وما أحسن قوله فى التأليف المذكور : ياهذا ، من حافظ حوفظ عليه ، ومن طلب الخير بصدق وصل إليه ، ومن أخلص العبودية لربه قام الأحرار خَدَمة بين يديه ، انتهى .

ضياء الدين أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن البيطار ، المالقى

ومنهم الطبيب الماهر الشهير ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار ، المالقِى ، نزيل القاهرة .

وهو الذى عناه ابن سعيد فى كتابه « المغرب » بقوله : وقد جمع أبو محمد المالقى الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً فى هذا الشان حَشَر فيه[٢] ماسمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقى وكتاب الزهراوى وكتاب الشريف الإدريسى الصقلى وغيرها ، وضبطه على حروف المعجم ، وهو النهاية فى مقصده .

وقد ذكرت كلام ابن سعيد هذا بجملته فى غير هذا الموضع ، فليراجع .

وكان ابن البيطار أوحد زمانه فى معرفة النباتات[٣] ، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم والمغرب ، واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هـذا الفن ، وعاين مَنَابته وتحققها ، وعاد بعد أسفاره ، وخدم الكامل بن العادل ، وكان يعتمد

---

(١) فى ا « لم أعتهد » محرفا .

(٢) فى ا « حشر إليه » (٣) فى ا « فى معرفة النبات »

عليه فى الأدوية والحشائش ، وجعله فى الديار المصرية رئيساً على سائر العَشَّابين وأصحاب البسطات ، ومن بعده خدم ولَدَه الصالح[١] ، وكان حظيا عنده ، إلى أن توفى بشعبان سنة ٦٤٦ التى توفى بها ابن الحاجب ، وله من المصنفات كتاب « الجامع فى الأدوية المفردة » وكتاب « المغنى » أيضا فى الأدوية ، وكتاب « الإبانة والإعلام، بما فى المنهاج من الخلل والأوهام » وكتاب « الأفعال العجيبة ، والخواص الغريبة » وشرح كتاب ديسقوريدوس ، قال الذهبى : انتهت إليه معرفة [تحقيق] النبات وصفاته ، وأماكنه ومنافعه ، وتوفى بدمشق ، انتهى .

أبو الحسن على بن محمد القرشى البسطى (القلصادى)

ومنهم الشيخ أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن على ، القرشى ، البسطى ، الشهير بالقَلَصَادى ـ بفتحات ـ كما قال السخاوى .

الصالح ، الرحلة ، المؤلف ، الفرضى ، آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس ، وأكثر تصانيفه فى الحساب والفرائض ، كشرحيه العجيبين على تلخيص ابن البناء[٢] والحوفى ، وكفاه فخراً أن الإمام السنوسى صاحب العقائد أخذ عنه جملة من الفرائض والحساب ، وأجازه جميع مروياته ، وأصله من بسطة ، ثم انتقل إلى غَرْناطة ، فاستوطنها ، وأخذ بها عن جماعة كابن فتوح والسرقسطى وغيرهما ، ثم ارتحل إلى المشرق ومر بتلمسان فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا ابن مرزوق والقاضى أبى الفضل قاسم العقبانى وأبى العباس بن زاغ وغيرهم ، ثم ارتحل فلقى بتونس تلامذة ابن عرفة كابن عقاب والقلشانى وحلولو[٣] وغيرهم ، ثم حج ولقى أعلاما ، وعاد فاستوطن غَرْناطة إلى أن حل بوطنه ماحل ، فتحيل فى خَلَاصِهِ من الشرك وارتحل ، ومر بتلمسان فنزل بها على الكفيف ابن مرزوق ابن شيخه ، ثم جدت به الرحلة إلى أن وافته منيته بباجة إفريقية منتصف ذى الحجة سنة ٨٩١ ، وكان كثير المواظبة على الدرس

(١) فى ا « خدم والده الصالح » محرفا

(٢) فى ا « ابن النباء » (٣) فى ا « وطولو »

والكتابة والتأليف ، ومن تآليفه « أشرف المسالك ، إلى مذهب مالك » وشرح مختصر خليل ، وشرح الرسالة ، وشرح التلقين و « هداية الأنام ، فى شرح مختصر قواعد الإسلام » وهو شرح مفيد ، وشرح رجز القرطبى ، و « تنبيه الإنسان ، إلى علم الميزان » و « المدخل الضرورى » وشرح إيساغوجى فى المنطق ، وله شرح الأنوار السنية لابن جُزَى ، وشرح رجز الشراز فى الفرائض الذى أوله :

بحمد خير الوارثين أبتدى وبالسراج النبوىّ أهتدى

وشرح حِكَم ابن عَطَاء الله ، ورجز أبى عمرو بن منظور فى أسماء النبى صلى الله عليه وسلم ، وشرح البردة ، ورجز ابن برى ، ورجز شيخه أبى إسحاق بن فتوح فى النجوم الذى أوله :

سبحان رافع السماء سَقْفَا ناصبها دَلَالَة لا تَخْفَى

وشرح رجز ابن[1] مقرعة ، وله « النصيحة ، فى السياسة العامة والخاصة » و « هداية النظَّار ، فى تحفة الأحكام والأسرار » و « كشف الجلباب ، عن علم الحساب » و « كشف الأسرار ، عن علم الغبار » و « التبصرة » و « قانون الحساب » فى قدر التلخيص ، وشرحه ، وشرحان على التلخيص كبير وصغير ، وشرح ابن الياسمين فى الجبر والمقابلة ، ومختصره ، وكليات الفرائض ، وشرحها ، وشرحان للتلمسانية كبير وصغير ، وشرح فرائض صالح بن شريف وابن الشاط وفرائض مختصر خليل والتلقين وابن الحاجب ، وله كتاب « الغنية ، فى الفرائض » و « غنية النحاة »[2] وشرحاها الكبير والصغير ، و « تقريب المواريث » و « منتهى العقول البواحث » وشرح مختصر العقبانى ، ولم يتم ، و « مدخل الطالبين » ومختصر مفيد فى النحو ، وشرح رجز ابن مالك ، والجرومية ، وجمل الزجاجى ، ومُلْحة الحريرى ، والخزرجية ،

---

(١) فى ا « رجز أبى مقرعة »

(٢) فى أصل ا « عنية النجاة » بالجيم

ومختصر فى العروض ، وغير ذلك ، وأخذ بمصر عن الحافظ ابن حجر والزين طاهر النويرى وأبى القاسم النويرى والعلامة الجلال المحلِّى والتقى الشمنى وأبى الفتح المراغى وغيرهم ، حسبما ذكر ذلك فى رحلته الشهيرة ، وهى حاوية لشيوخه بالمغرب والمشرق وجملة من أحوالهم ، رحم الله تعالى الجميع ! .

شمس الدين أبو عبدالله محمد ابن إسماعيل الغرناطي الراعى

ومنهم أبو عبد الله الراعى ، وهو شمس الدين محمد بن إسماعيل ، الأندلسى ، الغَرْناطى .

ولد بهاسنة ٧٨٢ تقريباً ، ونشأ بها ، وأخذ الفقه والأصول والعربية عن جماعة منهم أبو جعفر أحمد بن إدريس بن سعيد الأندلسى ، وسمع على أبى بكر عبد الله ابن محمد بن محمد المَعافرى بن الدب ، ويعرف بابن أبى عامر ، والخطيب أبى عبدالله محمد بن على بن الخفار ومحمد بن عبدالملك بن على القيسى المنتورى (١) صاحب الفهرسة الكبيرة الشهيرة ، ومما أخذ عنه الجرومية بأخذه لها عن الخطيب أبى جعفر أحمد ابن محمد بن سالم الجذامى عن القاضى أبى عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمى عن مؤلفها أبى عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجى عرف بابن آجروم ، وجميع «خلاصة الباحثين ، فى حصر حال الوارثين» للقاضى أبى بكر عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصارى بأخذه لها عن مؤلفها ، وأجاز (٢) له أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن الجذامى ، والقاضى أبو الفضل قاسم بن سعيد العقبانى ، والعلامة أبو الفضل محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن الإمام ، وعالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمسانى ، وغيرهم من المغاربة ، ومن أشياخه من أهل المشرق الكمال بن خير السكندرى ، والزين أبو بكر المراغى ، والزين محمد الطبرى ، وأبو إسحاق إبراهيم ابن العفيف النابلسى ، فى آخرين ، ودخل القاهرة سنة ٨٢٥ فحج واستوطنها ،

(١) فى ا « المنثورى » بالمثلثة ، والذى فى ب بالمثناة الفوقية

(٢) فى ا « وأجازه أبو الحسن - إلخ» .

وسمع بها من الشهاب المتبولى وابن الجزرى والحافظ ابن حجر وطائفة ، وأمَّ بالمؤيدية وقتاً ، وتصدى للاشتغال، فانتفع به الناس طبقة بعد أخرى ، لاسيما فى العربية[١]، بل هى كانت فنه الذى اشتهر به و بجودة الإرشاد لها ، وشرح كلا من الجرومية والألفية والقواعد وغيرها مما حمله عنه الفضلاء ، وله نظم وسط ، قال السخاوى : كتبت عنه منه الكثير ، ومما لم أسمعه منه ماأودعه فى مقدمة كتاب صنفه فى نصرة مذهبه وأثبته دفعاً لشىء نسب إليه ، فقال :

عليك بتقوى الله ماشئت واتَّبِعْ أئمة دين الحق تهدى وتسعد
فمالكهم والشافعى وأحمد ونُعْمانهم كل إلى الخير يرشد
فتابع لمن أحببت منهم ولا تَمِلْ لذى الجهل والتعصيب إن شئت تحمد
فكل سواء فى وجيبة الاقتدا مُتَابعهم جناتِ عدنٍ يخلد
وحبهمُ دينٌ يزين و بغضهم خروج عن الإسلام والحق يبعد
فلعنة رب العرش والخلق كلهم على مَنْ قَلَاهم والتعصبَ يقصدُ

وكان حادَّ اللسان والخلق ، شديد النفرة من الشيخ يحيى العجيسى ، أضر بآخرة ، ومات بسكنه بالصالحية يوم الثلاثاء ٢٧ ذى الحجة[٢] سنة ٨٥٣ ، بعد أن أنشد قبيل موته بشهر فى حال صحته الشيخَ جمال الدين بن الأمانة من نظمه قولَه :

أفكر فى موتى و بعد فضيحتى فيحزن قلبى من عظيم خطيئتى
وتبكى دما عينى وحُقَّ لها البكى على سوء أفعالى وقلة حيلتى
وقد ذابتَ أكبادى عناءً وحسرة على بعد أوطانى وفقد أحبتى
فما لىَ إلا الله أرجوه دائما ولا سيما عند اقتراب منيَّتى
فنسأل ربى فى وفاتىَ مؤمنا بجاه رسول الله خير البرية

---

(١) فى ا « لاسيما العربية »
(٢) فى نسخة عند ا « ٢٢ ذى الحجة »

قال السخاوى : ومما كتبته عنه :

ألفيته حول المعـــلم باكيا ودموعه قد صاغها من كَوْثرِ (١)

نَثَرَ الدموع على الخدود فخلتها درا تنـــاثر فى عقيق أحمر

وقوله :

عليك بنعمة رب العلا وراع الملوك لرَعْيِ الذمم

وذو العلم فارْعَ له حقَّه وإلا تفارق وتلق الندم

فهـذا مقالىَ فلتسمعوا نصيحة حبرٍ مِنَ اُهل الحِكَم

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم

وقال :

للغرب فَضْلٌ شائع لا يُجْهَلُ ولأهـله شرف ودين يكمل

ظهرت به أعلام حَقٍّ حَقّقَتْ ما قاله خير الأنام المرسل

مِنْ أنهم حتى القيامة لن يزا لواظاهرينَ على الهدى لن يُخْذَلُوا (٢)

وممن حدث عن الراعى (٣) الحافظ ابن فهد والبرهان البقاعى، ومن تأليفه «شرح القواعد» وكتاب « انتصار الفقير السالك ، لمذهب الإمام الكبير مالك » فى كراريس أربعة حسن فى موضوعه ، وله « النوازل النحوية » فى عشرة كراريس أو أكثر وفيها فوائد حسنة وأبحاث رائقة ، تكلم معه فى بعضها أبو عبد الله بن العباس التلمسانى .

وذكر بعضهم أنه اختصر شرح شيخه ابن مرزوق على مختصر الشيخ خليل من باب القضاء إلى آخر الكتاب ، انتهى .

وجرت له فى صغره حكاية دلت على نُبْله ، وهى أنه دخل على الطلبة رجل

---

(١) وقع هذا البيت فى ا هكذا :

حول المعلم باكيا ودموعه ألفيته قد صاغها من كوثر

وما أثبتناه عن ب أظرف وأرق

(٢) فى ا « من أن أهله للقيامة ــ إلخ » ولا يستقيم به الوزن .

(٣) فى ب « وممن حدث عنه الراعى الحافظ ابن فهد » .

وهم بجامع غَرْناطة فسألهم عمن كان وراء إمام ، فحدث للإمام عذر ذهب لأجله ، مثل الرعاف مثلا ، فصلوا بعض الصلاة لأنفسهم ، ثم اقتدوا بإمام منهم قدموه فيما بقى ، فهل تصح صلاتهم أم لا ؟ فلم يكن عند أحد من الحاضرين فيها علم ، فقال هو: إن الصلاة باطلة ، لأن النحاة يقولون : الإتباعُ بعدالقَطْع لايجوز .

وقد حكى ذلك فى شرحه للجرومّية الذى سماه بعنوان الإفادة فى باب النعت إذ قال مانصه : كنت جالساً بمسجد قيسارية غَرْناطة أنتظر سيدنا وشيخنا أباالحسن على بن سمعة رحمه الله تعالى مع جماعة من كبار طلبته ، وكنت إذ ذاك أصغرهم سنا وأقلهم علما ، فدخل سائل سأل عن مسألة فقهية نصها: إن إماما صلى بجماعة جزأ من صلاة ، ثم غلب عليه الحدث ، فخرج ولم يستخلف عليهم[1] ، فقام كل واحد من الجماعة وصلى وحده جزأ من الصلاة ، ثم بعد[2] ذلك استخلفوا مَنْ أتمَّ بهم الصلاة ، فهل تصح تلك الصلاة أم لا ؟ فلم يكن فيها عند الحاضرين جواب، فقلت : أنا أجاوب فيها بجواب نحوى ، فقال : هات الجواب ، فقلت : هذا إتباع بعد القطع ، وهو ممتنع عند النحويين ، فصلاة هؤلاء باطلة ، فاستظرفها منى مَنْ حضر لصغر سنى ، ثم طلبنا النص فيها فلم نلقه فى ذلك التاريخ ، ولو لقيناه لكان حسنا ، انتهى .

ومن ألغازه قوله :

حاجَيْتُكم نحاتنا المصريه أولى الذكا والعلم والطعميه
ما كلمات أربع نحويه جمعن فى حرفين للأحجيه

يعنى فعل الأمر للواحد من « وأى يئى » إذا أضمر ، فإنك تقول فيه : إ يازيد على حرف واحد ، وهوالهمزة المقطوعة ، فإذاقلت « قُلْ إ » ونقلت حركته على لغة

(١) فى ا « فخرج ولم يستخلف لهم »

(٢) فى ا « ثم من بعد ذلك استخلفوا »

النقل إلى الساكن صار هكذا « قُلِ » فذهب فعل الأمر وفاعله ، فهى كلمات أربع فعلا أمر وفاعلاهما جمعن فى حرفين القاف واللام ، فافهم .

وأحسن من هذا قوله ملغزا فى ذلك أيضاً :

فى أى لفظ يانحاة المـلة ‌‌ ‌ حَرَكَة قامت مقام الْجُمْلة

وبالجملة فمحاسنه كثيرة ، رحمه الله تعالى ورضى عنه !

ومن فوائده قوله : حكى لى بعض علماء المالكية قال : كنا نقرأ المدوّنة على الشيخ سراج الدين البلقينى الشافعى ، فوقعت مسألة خلافية بين مالك والشافعى فقال الشيخ فى مسألة «مذهبنا كذا» فى مسألة لم يقل فيها الشافعى بماقال ، وإنما نسبها البلقينى لنفسه ، ثم فطن وخاف أن ينتقد عليه المالكية ويقولون له : أنت شافعى وهذاليس مذهب الشافعى ، فقال : فإن قلتم يامالكية لسنابمالكية ، وإنما أنتم شافعية ، قلنا : كذلك أنتم قاسمية ، وقد اجتمعنا الكل فى مالك ، قال : وهذا الكلام حلو حسن فى غاية الإنصاف من الشيخ .

قال : ولما قرىء عليه كتاب « الشفاء » مدحه وأثنى عليه إلى الغاية ، وكان يحضره جماعة من المالكية فقال القاضى جمال الدين ابنه : مالكم يا مالكية لاتكونون مثل القاضى عياض ؟ فقال له أبوه الشيخ سراج الدين المذكور : ومالك لاتقول للشافعية مالكم ياشافعية لاتكونون مثل القاضى عياض ؟

ومن فوائد الراعى فى باب العَلَم من شرحه على الألفية : فى الكلب عشر خصال محمودة ينبغى أن تكون فى كل فقير ، لايزال جائعاً ، وهو من دأب الصالحين ، ولا يكون له موضع يعرف به ، وذلك من علامة المتوكلين ، ولا ينام من الليل إلا القليل ، وذلك من صفات المحبين ، وإذا مات لا يكون له ميراث ، وذلك من أخلاق الزاهدين ، ولا يهجر صاحبه وإن جَفَاه وطرده ، وذلك من شيم المريدين ، ويرضى من الدنيا بأدنى يسير ، وذلك من إشارة القانعين ، وإذا غلب عن مكانه تركه وانصرف إلى غيره ، وذلك من علامة المتواضعين ، وإذا

ضُرب وطُرد ثم دعى أجاب ، وذلك من أخلاق الخاشعين ، وإذا حضر شىء من الأكل وقف ينظر من بعد ، وذلك من أخلاق المساكين ، وإذا رحل لم يرحل[١] معه بشىء ، وذلك من علامة[٢] المتجردين ، انتهى بمعناه .

وقد نسبه للحسن البصرى رحمه الله تعالى ورضى عنه بمنه .

ومن تصانيفه رحمه الله تعالى كتاب « الفتح المنير ، فى بعض ما يحتاج إليه الفقير » فى غاية الإفادة ، مَلَكته [بالمغرب] ولم أره بهذه البلاد المشرقية ، وحفظت منه فوائد ممتعة .

أبو عبد الله محمد ابن على بن الأزرق

ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق[٣] بعد أخذ جميع بلاد الأندلس - أعادها الله تعالى ! - قاضى الجماعة بغَرْناطة أبو عبد الله [محمد][٤] بن على بن محمد بن الأزرق

قال السخاوى : إنه لازم الأستاذ إبراهيم بن أحمد بن فتوح مفتى غَرْناطة فى النحو والأصلين والمنطق ، بحيث كان جل انتفاعه به ، وحضر مجالس أبى عبد الله محمد بن محمد السَّرَقُسْطى العالم الزاهد مفتيها أيضاً فى الفقه ، ومجالس الخطيب أبى الفرج عبد الله بن أحمد البقنى[٥] ، والشهاب قاضى الجماعة بغَرْناطة أبى العباس أحمد بن أبى يحيى بن شرف[٦] التلمسانى ، انتهى .

وله رحمه الله تعالى تآليف : منها « بدائع السلك ، فى طبائع الملك » كتاب حسن مفيد فى موضوعه ، لخص فيه كلام ابن خلدون فى مقدمة تاريخه وغيره مع زوائد كثيرة ، ومنها « روضة الأعلام ، بمنزلة العربية من علوم الإسلام » مجلد

---

(١) فى ا « وإذا رحل لا يرحل معه بشىء »

(٢) فى ا « وذلك علامة المتجردين »

(٣) فى ا « ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس »

(٤) سقط هذا الاسم من ا

(٥) وضع علامة استفهام فى ا بجانب هذه الكلمة ، وفى نسخة عندها « النفقى »

(٦) فى ا « بن الشريف التلمسانى »

ضخم فيه فوائد وحكايات لم يؤلف فى فنه مثله ، وقفت عليه بتلمسان وحفظت منه ما أنشده لبعض أهل عصره مما يكتب فى سيف :

إن عمت الأفقَ من نقْع الوغى سُحُبٌ   فَشِمْ بها بارقًا من لمع إيماضى
و إن نوَتْ حركات النصر أرض عِدًى   فليس للفتح إلا فعــلىَ الماضى

ومن إنشائه فى التأليف المذكور ما صورته : قلت : ولقد كان شيخنا العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن فتوح قدّس الله تعالى روحه يُفْسِـح (١) لصاحب البحث مجالا رحباً ، ويوسع المُرَاجع له قبولا ورحبا ، بل يطالب بذلك و يقتضيه ، ويختار طريق التعليم به و يرتضيه ، توقيفاً على ما خلص له تحقيقه ، ووضح (٢) له فى معيار الاختيار تدقيقه ، و إلا فقد كان ما يلقيه غاية ما يتحصل ، و يتمهد به مختار ما يحفظ ويتأصّل ، انتهى .

وهو يدل على ملكته فى الإنشاء ، ويحقق ما يحصله ، إلا أن ذلك إذا طال حتى وقع الملل والضجر أو كاد فينبغى الإمساك عن البحث ، لئلا يفضى الحال إلى ما ينهى عنه .

قال : ومخالفة التلميذ الشيخَ فى بعض المسائل إذا كان لها وجه وعليها دليل قائم يقبله غير الشيخ من العلماء ليس من سوء أدب التلميذ مع الشيخ ، ولـكن مع ملازمة التوقير الدائم ، والإجلال الملائم ، فقد خالف ابن عباس عمر وعليا وزيد ابن ثابت رضى الله تعالى عنهم ، وكان قد أخذ عنهم ، وخالف كثير من التابعين بعضَ الصحابة ، و إنما أخذوا العلم عنهم ، وخالف مالك كثيراً من أشياخه ، وخالف الشافعى وابن القاسم وأشهب مالـكا فى كثير من المسائل ، وكان مالك أكبر أساتيذ الشافعى ، وقال : لا أحدٌ أمنُّ على من مالك ، وكاد كل من أخذ العلم أن يخالفه

---

(١) كلمة « يفسح » ساقطة من ا

(٢) فى ا « ووضح به فى معيار — إلخ »

بعضُ تلامذته فى عدة مسائل ، ولم يزل ذلك دأبَ التلاميذ مع الأساتيذ إلى زماننا هذا ، وقال(١) : وشاهدنا ذلك فى أشياخنا مع أشياخهم رحمهم الله تعالى ! قال : ولا ينبغى للشيخ أن يَتَبرَّمَ من هذه المخالفة إذا كانت على الوجه الذى وصفناه ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

ولما أنشد ابنُ الأزرق المذكور فى كتابه « روضة الأعلام » قولَ القائل فى مدح ابن عصفور :

نَقَلَ النحوَ إلينا الدُّؤَلِى عن أمير المؤمنين البَطَلِ
بدأ النحو علىٌّ وكذا خَتَمَ النحوابنُ عصفورٍ على

قال بعده مانصه : على أن صاحبنا الكاتب الأديب الأبرع أباعبدالله محمد بن الأزرق الوادى آشى رحمه الله تعالى قد قال فيما يدافع ابن عصفور عما اقتضاه هذا المدح له بتفضيل الأستاذ المحقق أبى الحسن بن الضائع عليه ، ولقد أبدع فى ذلك ماشاء لما تضمن من التورية :

بضائعُكَ ابنَ الضائِع النَّدْبَ قدأتت بحظ من التحقيق والعلم موفور
فَطِرْتَ عقابا كاسرا أو ما ترى مَطارَكَ قد أعيا جناح ابن عصفور(٢)

انتهى .

وقد نقل عن ابن الأزرق صاحب المعيار فى جامعه ، وأثنى عليه غير واحد ، ومن أعظم تآليفه شرحه الحافل على مختصر خليل المسمى « بشفاء الغليل ، فى شرح مختصر خليل» وقد توارد معه الشيخ ابن غازى على هذه التسمية ، وكان مولانا العم الإمام شيخ الإسلام سيدى سعيد بن أحمد المقرَّى رضى الله تعالى عنه قال لى حين سألته عن هذا التوارد : لعل تسمية ابن الأزرق « شفاء العليل » بالعين ،

(١) فى ا « وقد شاهدنا ذلك فى أشياخنا »
(٢) فى ا « نظرت عقابا كاسراً » محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ب

قلت : يبعد ذلك أن جماعة من تلامذته الأكابر كالوادى آشى وغيره كتبوه بخطوطهم بالغين المعجمة ، فبان أنه من توارد الخواطر ، وأن كلا منهما لم يقف على تسمية الآخر ، والله تعالى أعلم ، وقد رأيت جملة من هذا الشرح بتلمسان وذلك نحو ثلاث مجلدات ، ولا أدرى هل أكمله أم لا ، لأن تقديره بحسب ما رأيت يكون عشرين مجلدا ، إذ المجلد إذ الأول ما أتم مسائل الصلاة ، ورأيت الخطبة وحدها فى أكثر من كراسة أبان فيها عن علوم[1] ، ولم أر فى شروح خليل مع كثرتها مثله ، ودخل تلمسان لما استولى العدو على بلاد الأندلس ، ثم ارتحل إلى المشرق ، فدخل مصر ، واستنهض عزائم السلطان قايتباى لاسترجاع الأندلس ، فكان كمن يطلب بَيْضَ الأنُوق ، أو الأبيض العَقُوق[2] ، ثم حج ورجع إلى مصر فجدّد الكلام فى غرضه ، فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة فى بيت المقدس ، فتولاه بنزاهة وصيانة وطهارة ، ولم تطل مدته هنالك حتى توفى به بعد سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، حسبما ذكره صاحب « الأنس الجليل ، فى تاريخ القدس والخليل » فليراجع فإنه طال عهدى به .

ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله فى المجَبَّنَات :

ورب محبوبة تبدت ... كأنها الشمس فى حُلاَها

فاعجب لحال الأنام مَنْ قد ... أحبها منهم قَلاَها[3]

ومنه قوله رحمه الله تعالى :

عذرى فى هذا الدخان الذى ... جاور دارى واضحٌ فى البيان[4]

قد قلتم إن بها زخرفا ... ولا يلى الزخرف إلا الدخان[5]

---

(١) فى ا « أبان فيها من علوم » وليس بشىء

(٢) أخذ هذا من قول بعض الشعراء :

طلب الأبيض العقوق فلما ... لم يجده أراد بيض الأنوق

(٣) قلاها : أراد وضعها فى الزيت ونحوه ، وليس من القلى الذى هو البغض ، والمجبنات : ضرب من الحلوى

(٤) فى ا « عذرى عن هذا الدخان » .

(٥) الزخرف والدخان : سورتان من سور القرآن الكريم تتلو ثانيتهما الأولى

وقوله :

تأملت من حسن الربيع نضارة   وقد غرَّدَتْ فوق الغصون البلابلُ
حَكَتْ في غصون الدَّوْحِ قسًّا فصاحةً   لتعلم أن النبت في الروض باقلُ(١)

وقوله :

وقائلة صف للربيع محاسنا   فقلت وعندي للكلام بذار
همى بِبِطَاحِ الأرض صَوْبٌ من الحيا   فللنبت في وجه الزمان عذار

وقوله :

تَعَجَّبْتُ من يانع الورد في   سَنَى وجنةٍ نبتُها بارِضُ
ولِمْ لا يرى وردها يانعا   وقد سال من فوقها العارض

وقوله رحمه الله تعالى عند وفاة والدته :

تقول لي ودموع العين واكفة   ماأفظع البين والتَّرحالَ يا ولدي(٢)
فقلت أين السُّرَى قالت لرحمة مَنْ   قد عَزَّ في الملك لم يُولَدْ ولم يَلِدِ

قال تلميذه الحافظ ابن داود : مما ألفيته بخط قاضي الجماعة أبي عبد الله بن الأزرق عن علي رضي الله تعالى عنه : من أراد أن يطوّل الله عمره ، ويظفر بعدوّه ، ويُصَان من فتن الدنيا ، ويوسّع عليه بابُ رزقه ، فليقل هذا التسبيح إذا أصبح ثلاثا ، وإذا أمسى ثلاثاً : سبحان الله ملء الميزان ، ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضا ، وعدد النعم ، وزِنَةَ العرش ، والحمد لله ملء الميزان ، ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضا ، وعدد النعم ، وزنة العرش ، ولا إله إلا الله ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا وعدد النعم وزنة العرش ، والله أكبر ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا وعدد النعم وزنة العرش ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم مثل ذلك ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله مثل ذلك .

---

(١) باقل : اسم فاعل من بقل النبت إذا نبت ، وباقل : علم على رجل مشهور بالعي والفهاهة يذكر في مقابلة قس الإيادي مضرب المثل في الفصاحة .

(٢) في ا « ما أقطع البين والترحال ياولدي » .

قال : و بخطه أيضا لنيل الرزق وما يراد : يا باسط ، يا جوَاد ، يا على فى عرشك ، بحق حقك على جميع خلقك ، أُبسط [لى] رزقك ، وسخر لى خلقك .

و بخطه أيضا : بسم الله الرحمن الرحيم الدافع المانع الحافظ الحى القيوم القوى القادر الولى الناصر الغالب الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

و بخطه أيضا : يا فتاح ، يا عليم ، يانور ، يا هادى ، ياحق ، يامبين ، افتح لى فتحاً تنوّر به قلبى ، وتشرح به صدرى ، واهدنى إلى طريق ترضاه ، و بين لى أمرى ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً ، انتهى .

وقال رحمه الله تعالى مُورِّيا :

من تـكن صنعته الإنشاء لا ينـكر الرزق لأقصى العُمُرِ

ولو استعلى على السبع الدرا رى بمـا فى فمه من دُرَرِ

فأنا الـكاتب لـكن لو يُبا ع لى العتق لـكنت المشْتَرِى (١)

هكذا رأيت نسبتها إليه .

ولنختم ترجمته ـ بل والباب جميعاً ـ بقوله رحمه الله تعالى ! ـ عند نزول طاغية النصارى بمَرْج غَرْناطة أعادها الله تعالى للإسلام بجاه النبى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

مَشُوق بخَيمات الأحبـة مُولَعُ تذكِّره نَجْد وتُغْريه لَعْلَع (٢)

مَوَاضِعَكم يا لائمين على الهَوى فلم يَبْقَ للسُّلوان فى القلب مَوْضِع (٣)

---

(١) المعنى القريب فى كلة « المشترى » أن يكون اسم فاعل من الاشتراء بقرينة ذكر البيع فى أول البيت ، والمعنى البعيد أن يكون اسم كوكب من كواكب السماء

(٢) نجد : اسم لما ارتفع من أرض جزيرة العرب . ولعلع : اسم مكان بعينه

(٣) مواضعكم : ينتصب بفعل مقدر ، أى الزموا مواضعكم لا تتجاوزها

ومَنْ لى بقلبٍ تَلْتَظِى فيه زَفْرَة ومَنْ لى بجَفْنٍ تنهَمِى منه أدْمُعُ (١)

رُوَيدك فارقب لِلطَّائِفِ مَوْضعاً وخَلِّ الذى من شره يُتَوَقَّعُ

وصبراً فإن الصبر خيرُ غنيمةٍ ويا فَوْزَ من قد كان للصبر يرجع

وبِتْ واثقاً باللطف من خير راحم فألطافهُ من لَمحة العين أسرعُ

وإن جاء خَطْبٌ فانتظر فرجًا له فسوف تراه فى غدٍ عنك يُرْفَعُ

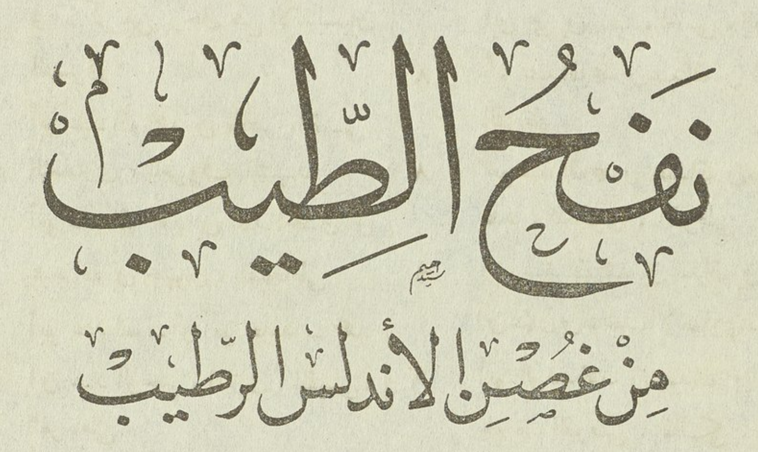
وكن راجعاً لله فى كل حالة فليس لنا ، إلا إلى الله ، مَرْجِعُ

---

(١) فى ا « بجفنى تنهمى فيه أدمع »

قد تم ــ بتيسير مدبر الأمور كلها ومعونته ــ مراجعة الجزء الثالث من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، والتعريف بوزيرها لسان الدين ابن الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد المَقَّرِيِّ المغربى ، وترقيمه ، وضبط ما يحتاج إلى الضبط منه ، والتعريف بما رأينا التعريف به من أعلام رجالاته و بلدانه . و يليه ــ إن شاء الله تعالى ــ الجزء الرابع مفتتحاً « بالباب السادس من القسم الأول من الكتاب ، فى ذكر من ارتحل إلى الأندلس من أهل المشرق » نسأل الذى يصرِّف الملكوت أن يعين إكماله ، و يوفق إلى ما نرغب فيه من تجويده و إتقانه ؛ إنه ولى ذلك ، و إليه الوَجْهُ والعمل .

فهرس الجزء الثالث من كتاب



والتعريف بوزيرها لسان الدين بن الخطيب

للأديب المؤرخ الشيخ أحمد بن محمد المقرى ، المغربى ، المالكى

فهرس الموضوعات

الواردة فى الجزء الثالث من كتاب «نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب» للمقرى

ص الموضوع

ص الموضوع

تمت فهرس الجزء الثالث من كتاب « نفح الطيب » للمقرى

والحمد لله أولا وآخراً ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه



